المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

قدمه وعلق عليه

دكتور أحمد الحوفي و دكتور بدوي طبانه

القسم الثاني

ملتزم الطبع والنشر
دار نهضة مصر للطبع والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

المقالة الثانية

فى الصناعة المعنوية

وهى تنقسم قسمين :

الأول منهما : فى الكلام على المعانى مُجْمَلاً :

والثانى : فى الكلام عليها مفصَّلا .

وقبلَ الكلامِ على ذلك لا بُدَّ مِنْ تَوطئةٍ تكون شاملةً لما نحن بصدَدِ ذكرِه هاهُنا ، فأقول :

اعلم أنّ المعانِي الخطابيَّة قد حُصِرَتْ أُصولها ، وأوّلُ من تكلَّم فى ذلك حكماء اليُونانِ ، غيرَ أنَّ ذلك الحَصْرَ كُلِّيٌّ لا جزْئيٌّ . ومُحالٌ أن تُحْصَرَ جُزئيَّاتُ المعانِي ، وما يتفرَّع عليها من التفريعاتِ التى لا نهايةَ لها ، لا جَرَمَ أنَّ ذلك الحصرَ لا يستفيد بمعرفتهِ صاحبُ هذا العِلم ، ولا يَفْتَقِر إليه ، فإنَّ البدويَّ البادىَ راعىَ الإبِل ما كان يمرُّ شىءٌ من ذلك بفَهْمِه ، ولا يخطر ببالِهِ ، ومع هذا فإنَّه كانَ يأتِي بالسِّحْر الحلالِ ، إن قالَ شعراً أو تكلَّم نثراً .

فإنْ قِيلَ : إنَّ ذلك البدويَّ كان له ذلك طبعاً وخَليقة ، واللهُ فطرهُ عليه ، كما فَطر ضُرُوبَ نوعِ الآدميِّ على فِطَرٍ مختلفة ، هى لهم فى أصل الخلقةِ .

فإنَّهُ فَطَرَ التُّرْكَ على الإحسانِ فى الرَّمْى ، والإصابة فيه من غيرِ تعليمٍ .

وكذلكَ فَطَرَ أهلَ الصِّين على الإحسانِ في صَنْعةِ اليدِ ، فيما يباشِرُونه من مَصُوغٍ ، أو خَشَبٍ ، أو فَخَّار ، أو غير ذلك .

وكذلِكَ فَطَر أهلَ المغرِب على الشَّجاعةِ ، وهذا لا نزاعَ فيه ، فإنَّه مُشاهَد .

فالجوابُ عن ذلك أني أقولُ : إن سلَّمْتُ إليكَ أن الشِّعرَ والخَطابةَ كانَا للعربِ بالطبْع والفِطرة ، فماذا تقولُ فيمَنْ جاءَ بعدَهُم من شاعرٍ وخطيبٍ تحضَّروا وسكنُوا البلادَ ، ولم يَرَوا البادِيةَ ، ولا خُلِقُوا بها ، وقد أجادُوا في تأليفِ النظمِ والشعر ، وجاءوا بمعانٍ كثيرةٍ ما جاءتْ في شعرِ العرب ، ولا نطقُوا بها ؟

فإن قُلت : إنَّ هؤلاءِ وقفُوا على ما ذكرهُ علماءُ اليونانِ وتعلَّموا مِنْه .

قلتُ لك في الجوابِ : هذَا شيء لم يكنْ ، ولا عَلِمَ أبو نُواس شيئاً منه ، ولا مُسْلِمُ بْنُ الوليدِ ، ولا أبو تمَّامٍ ، ولا البحتريُّ ، ولا أبو الطيِّب المتنبي ، ولا غيرُهم ! .

وكذلِكَ جَرَى الحكمُ في أهل الكتابة ، كعبدِ الحميد[1] ، وابن العميد[2] والصَّابي ، وغيرهم .

---

(١) هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، نشأ بالأنبار بليغا حصيفا ، وصاحب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أيام ولايته وخلافته ، حتى قتلا سنة ١٣٢ هـ ، ويعد عبد الحميد من أساتذة البلاغة العربية ، وشيخ كتاب الرسائل عامة .

(٢) هو الأستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد أكبر كتاب المشرق ، وصاحب الطريقة الإنشائية الشعرية ، ووزير ركن الدولة بن بويه ، ثم عضد الدولة ، توفي سنة ٣٦٠ هـ . ومن الأحكام الأدبية الشائعة « بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

فإن ادَّعيتَ أنَّ هؤلاءِ تعلَّموا ذلكَ من كُتبِ عُلَماءِ الْيُونانِ ، قلتُ لك في الجواب : هذا باطلٌ بي أنَا ، فإنِّي لم أُعَلَّمْ شيئاً مما ذكرهُ حكماءُ اليونان ولا عرفتُه ، ومع هذا فانظرْ إلى كلامِي فقد أوردْتُ لك نبذةً منه في هذا الكتاب ، وإذا وقفْتَ على رسائلي ومكاتباتي — وهي عدَّة مجلدات — وعَرَفْتَ أني لم أتعرَّض لشيء مما ذكَرَه حكماءُ اليونانِ في حصرِ المعاني ، علمتَ حينئذٍ أنَّ صاحبَ هذا العلمِ من النَّظْم والنَّثْرِ بنَجْوةٍ من ذلك كله ، وأنَّه لا يحتاجُ إليه أبداً . وفي كتابي هذا ما يُغنِيك ، وهو كاف .

ولقد فاوضَني بعض المتفلسِفِين في هذا ، وانساقَ الكلامُ إلى شيء ذكر لأبي عليٍّ ابن سِينا[١] في الخطابةِ والشعرِ ، وذكر ضرباً من ضُروب الشعرِ اليوناني يسمَّى « اللاغوذيا »[٢] وقام فأحضر كتابَ « الشِّفاء » لأبي عليٍّ ،

---

(١) هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن علي الحكيم المشهور ، ولد بقرية من قرى بخارى وانتقل في البلاد ، واشتغل بالعلوم ، وحصل الفنون . ولما بلغ عشر سنين من عمره كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب ، وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة ، ولما توجه نحوهم الحكيم أبو عبد الله النـاتلي أنزله أبو الرئيس أبي على عنده ؛ فابتدأ أبو على يقرأ عليه كتاب « إيساغوجي وأحكم عليه علم المنطق وإقيلدس والمجسطي ، وفاقه أضعافا كثيرة . حتى أوضح له منها رموزا ، وفهمه إشكالات لم يكن الناتلي يدريها كما أتقن الفقه والبحث والمناظرة ، كما نبغ في الطب ومات بهمذان سنة ٤٢٨ هـ وهو في الثامنة والخمسين من عمره .

(٢) هكذا في الأصل ، ولم يذكر ضرب من ضروب الشعر بهذا الاسم ، وإنما المذكور نوع من الشعر يسمى « طراغوذيا » ، قال ابن سينا : فمن ذلك نوع من الشعر « يسمى طراغوزيا » ، له وزن لذيذ ظريف يتضمن ذكر الخير والأخيار والمناقب الإنسانية ، ثم يضاف جميع ذلك إلى رئيس =

وَوَقفَنى على ما ذكرَه ، فلمّا وقفت عليه استجهلتهُ ، فإنَّه طوّلَ فيه وعرّض ، كأنّه يخاطب بعضَ اليُونانيين ، وكلُّ الذى ذكرهُ لَغوٌ لا يستفيد به صاحبُ الـكلام العربّى شيئاً .

ثمّ مع هذا جميعه فإنَّ مُعَوّل القوم فيما يذكر من الـكلام الخطابّى أنَّه يُورَدُ على مُقدِّمتين ونتيجة ، وهذا ممَّا لم يخطرْ لأبِى علىٍّ بن سينا ببالٍ فيما صاغَهُ من شعر أو كلامٍ مسجوع ؛ فإنَّ له شيئاً من ذلكَ فى كلامِه ، وعندَ إفاضته فى صَوْغِ ماصاغَه لم تخطر المقدمتان والنتيجةُ له ببال .

ولو أنِّى أفـكرَ أولاً فى المقدِّمتين والنتيجة ، ثم أتى بنظمٍ أو نثرٍ بعْدَ ذلك لما أتَى بشىءٍ يُنْتَفَعُ به ، وَلطال الخَطْبُ عليه ! .

بل أقولُ شيئاً آخر ، وَهو أنَّ اليونانَ أنفسَهم لماَّ نَظَمُوا ما نظمُوه من أشعارِهِمْ لم ينظمُوه فى وَقتِ نظمِه وَعِنْدَهم فكرةٌ فى مقدّمتين وَلا نتيجة ، وإنَّما هذه أوضاعٌ توضَعُ ، وَتُطوّلُ بها مصنّفاتُ كُتبِهم فى الخطابةِ

= يراد مدحه ، وكانت الملوك فيهم يغنى بين أيديهم بهذا الوزن ، وربما زادوا فيه نغمات عند موت الملوك للنياحة والمرثية (أنظر الفن التاسع من الجملة الأولى من كتاب الشفاء — فن الشعر ١٦٦) وقال فى موضع آخر : إن « طراغوذيا » هو المديح الذى يقصد به إنسان حى أو ميت وكان يغنون به غناء فحلا ، وكانوا يبتدئون فيذكرون فيه الفضائل والمحاسن ، ثم ينسبونها إلى واحد ، فإن كان ميتا زادوا فى طول البيت أو فى لحنه نغمات تدل على أنها مرثية ونياحة (المصدر السابق ١٦٩) وكلمة « طراغوذيا » تحريف لكلمة « تراجيديا » Tragedy وترجمتها المأساة أو الرواية المحزنة .

وَالشِّعر ، وَهى كما يُقال : « فقاقع ليسَ لها طائلٍ » كأنَّها شعر الأبِيوَرْدِى [1] .

***

وَحيثُ أوْرَدْتُ هذه المقدّمة من قبلِ الخَوْضِ فى تقسيمِ المعانى فإنِّى راجعٌ إلى شرْحِ ما أجْمَلْتُه ، فأقُول :

أمَّا القسم الأول [2] : فإنَّ المعانِى فيه على ضَرْبين :

أحدُهما يبتدعهُ مؤلِّفُ الكلامِ من غير أنْ يقتدِىَ فيه بمن سَبَقَهُ :

وهذا الضَّرْبُ ربَّما يُعثَرُ عليه عند الحوادثِ المتجدِّدَة ، ويُتَنَبَّهُ له عند الأمُور الطارئة [3] ، وَلْنُشِرْ فى هذا الموضع إلى نَبْذَةٍ لتكونَ مثالاً للمتوشِّح لهذه الصناعةِ .

---

(١) هو أبو المظفر محمد بن أبى العباس أحمد الأبيوردى ، يتصل نسبه بأبى سفيان من بنى أمية ، كان من الأدباء المشهورين راوية نسابة شاعرا ظريفا ، قسم أشعاره الى أقسام ، سماها العراقيات والنجديات والوجديات وغيرها ، والعراقيات أكثرها فى مدح المقتدر والمستظهر ووزرائهما . توفى سنة ٥٥٧ ﻫ ، و « أبيورد » المنسوب اليها بليدة بخراسان .

(٢) ذكر ابن الأثير فى أول كلامه فى الصناعة المعنوية أنها تنقسم قسمين :

الأول منهما فى الكلام على المعانى مجملا .

والثانى فى الكلام عليها مفصلا

(أنظر صفحة ٣ من القسم الثانى)

(٣) سبق أبو هلال العسكرى ابن الأثير إلى هذا التقسيم ، قال أبو هلال :

والمعانى على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن =

فمِنْ ذلك ما وَرَد فى شعر أبِى تمَّام فى وَصْـفِ مُصَلَّبِين [1] :

بكَرُوا وَأسرَوْا فِى مُتُونِ ضَوامرٍ قِيدَتْ لَهُمْ [2] مِنْ مَرْبِطِ النَّجَّارِ
لاَ يبْرحُونَ ، وَمَنْ رآهُمْ خالَهُمْ أبداً على سَفرٍ مِنَ الأسْفَارِ

وَهذا المعَنى مِمَّا يُعثَرُ عليه عند الحوادثِ المتجدِّدةَ ، وَالخاطرُ فى مثلِ هذا المقامِ ينساقُ إلى المعَنى الْمُخْتَرَعَ من غيرِ كبيرِ كلْفة، لشاهِد الحالِ الحاضرةِ .

وَكذلك قال فى هذهِ القصيدةِ فى صفةِ مَنْ أحْرِقَ بالنَّار .

ما زالَ سِرُّ الـكُفْرِ بين ضُلوعِهِ حتى اصطلى سِرَّ الزنادِ الوَارِى
نَاراً يُسَاوِرُ جسْمَهُ مِنْ حَرِّهَا لَهَبٌ كما عَصْفَرْتَ شِقَّ إزَارِ [3]
طَارَتْ لها شُعَلٌ يهَدِّمُ لَفْحُهَا أَركانَهُ هَدْماً بغيْرِ غُبَارِ
فَصَّلْنَ مِنْهُ كُلَّ مَجْمَعِ مفْصلٍ وَفعَلْن فاقِرةً بكُلِّ فقَارِ [4]
مَشْبُوبةً رُفِعتْ لِأعْظَمِ مُشْرِكٍ ما كانَ يَرْفعُ ضَوْءهَا للسَّارِى [5]

= يكون له إمام يقتدى به فيه أو رسوم قائمة فى أمثلة مماثلة يعمل عليهما . وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة . والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط . . (أنظر كتاب الصناعتين ٦٩) .

(١) ديوان أبى تمام ١٥٤ من قصيدة له فى مدح المعتصم وذكر إحراق الأفشين ، ومطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

(٢) قيدت : سيقت .

(٣) عصفرته صبغته بالعصفر

(٤) الفاقرة : الداهية والفقار : خرزات الظهر .

(٥) مشبوبة : مشتعلة ، وهى وصف للنار المذكورة فى بيت قبل هذا أغفله ابن الأثير ، وهو :

لله من نار رأيت ضياءها ضاق الفضاء به على النظار

صلّى لها حيًّا وَكان وقُودَهَا مَيْتاَ وَيَدْخُلُهـا مَعَ الْفُحَّـا

وَهذا ممَّـا يُعِينُ على استخراج المعانى فيهِ شاَهِدُ الحال .

* * *

وقدْ ذَيَّـل البحتريُّ على ما ذكرَهُ أبو تمَّام فى وَصْفِ المصلَّبين ، فقال :

كَمْ عَـزِيزٍ أبادَهُ فَغَـدا يرْ كبُ عُـوداً مُركَّباً فى عـودِ
أسْلَمَـتْهُ إلى الرُّقَادِ رِجَالٌ لم يكونوا عَنْ وِترِهِمْ برُقـودِ
تَحْسُدُ الطيْرُ فيهِ ضَبعَ البَوَادى وَهُوَ فى غـير حالةِ المحسُودِ
غَاب عَنْ صحْبه فَلا هُو مَوجُو دٌ لديْهِمْ وَليس بالمَفْـقُود
وَكأنَّ امْتِدَاد كفيْهِ فوق الـ ـجذع فى مَحْفِـل الرَّدى المَشْهود
طائرٌ مدَّ مُسْـتَريحًا جَناَحيْـ ـهِ اسْتراحاتِ مُتْعَبٍ مَـكْدُودِ
أَخْطَبُ النَّـاس رَاكبًا فإذا أرْ جَـل خاطبْت مِـنْهُ عين الْـبَليد

وَهذه أبياتٌ حسـنةٌ قد استوعبَت أقسام هذا المعنى المقصُود ، إلاَّ أَنَّ فيها معنى مأخوذاً من شِعرْ مُسْلِمِ بْن الوليد الأنصارى[1] ، وَهو قولُه :

نصَبْـتَهحيْثُ ترْتَابُ الرياحُ بهِ وَتحسُدُ الطيرُ فيهِ أَضْبُعَ البِيدِ

لـكنَّ البحتريَّ زاد فى ذلك زيادةً حسَـنةً ، وَهى قوله « وَهُوَ فى غير حالةِ المحسُود » .

* * *

---

(١) ديوانه ١٢١ من قصيدة فى مدح داود بن يزيد بن حاتم ابن خالد بن المهلب ، ومطلعها :—

لاتدع بى الشوق إنى غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد

وَمن هذا الضَّربِ ما جاءَ فى شعر أبى الطيِّب المتنبى فى وَصْفِهِ الحُمَّى ، وَهو قوْلُه[1] :

وَزائِرَتى كأنَّ بهَا حياءً فليسَ تزُورُ إلّا فى الظلام
بَذلْتُ لهَا الْمطَارفَ وَالحشَايا فعَافَتْهَا وَباتتْ فى عظَامى
كأنَّ الصُّبْحَ يطْرُدُهَا فتجرى مَدامِعُهَا بأَرْبَعَةٍ سِجَامِ[2]
أُرَاقبُ وَقْتَهَا مِنْ غير شوْقٍ مُراقبة الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ

وقد شرحَ أبو الطيِّب بهذه الأبياتِ حالهُ مع الحُمَّى .

***

وَمِن بديع ما أتى به فى هذا الموْضع أنَّ سيفَ الدوَلة بن حمدان[3] كان

---

(١) ديوانه ٤/١٤٢ من قصيدته فى ذكر الحمى التى كانت تغشاه بمصر ، ومطلعها :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

(٢) بأربعة سجام : أى ذات سجام ؛ وأراد بالأربعة اللحاظين والموقين للعينين ، فإن الدمع يجرى من الموقين ، فإذا غلب وكثر جرى من اللحاظ أيضا . والمعنى أن الحمى تفارقه عند الصبح ، فكأن الصبح يطردها ، وأنها إذا فارقته تجرى مدامعها عن أربعة سجام يريد كثيرة الرحضاء وهو عرق الحمى — فكأنها يبكى عند فراقه محبة له .

(٣) هو سيف الدولة أبو الحسن على ، صاحب حلب ، ممدوح المتنبى ، وكان سيف الدولة أديبا شاعراً نقاداً للشعر ، يحب جيده ، ويطرب اسماعه ، وكان يقرب الشعراء وأهل الأدب ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، وكان يجالس الشعراء ، وينقد أشعارهم نقد يدل على شاعرية وعلم ، ويبذل لهم الجوائز السنية ، توفى سنة ٣٥٦ هـ .

مُخَيِّمًا بأَرْض دِيَار بكْر[١] على مَدينةِ « مَيَّا فَارقين »[٢] فعصفت الريحُ بخيْمتِهِ ، فتطـيَّر الناسُ لذلك ، وَقالوا فيه أقوالاً ، فمدحه أبو الطيِّب بقصيدةٍ يعْتذرُ فيها عن سُـقُـوط الْخَيْمَةِ ، أولها :

* أينفـعُ فِي الْخَيْمَةِ العُـذَّلُ[٣] *

فمنْه ما أحْسَن فيهِ كلَّ الأحسان ، وهو قولُه :

تَضِيقُ بِشَـخْصِكَ أَرْجَاؤهَا ... وَيركُـضُ فى الْوَاحدِ الْجَحْفلُ[٤]

وَتقصُرُ ما كنْتَ فى جوْفِهَا ... وَتُركَزُ فِيهَا الْقَنَا الذّبلُ

وَكَيْفَ تَقوم عَلَى راحَـةٍ ... كأَنَّ الْبِحَار لهَـا أنْملُ

---

(١) ديار بكر بلاد كثيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل ، وحدها ما عرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ومنه حصن كيفا وآمد وميا فارقين .

(٢) ميا فارقين أشهر مدينة بديار بكر ، قيل ما بنى فيها بالحجارة فهو بناء أنو شروان ، وما بنى بالآجر فهو بناء أبرويز ، والذى يعتمد عليه أنها من بناء الروم ، لأنها فى بلادهم .

(٣) ديوان المتنبي ٣ / ٦٦ ، وعجز المطلع :

* ويشمل من دهرها يشمل *

ومعنى البيت : أينفع فى سقوطها عذل العذل ، فحذف المضاف ، وروى الخوارزمى « أيقدح » وهى رواية جيدة ، فلا يقدر فيها محذوف ، يقول : لا ينفع فى هذه الخيمة أن تعذل على سقوطها ، فعذرها بين ، والموجب لفعلها ظاهر ، وكيف لها أن تشمل من يشمل الدهر بسلطانه ، ويجير عليه بإحسانه .

(٤) الأرجاء النواحى جمع رجا ، والتثنية رجوان ، والجحفل الجيش العظيم . يقول : كل قطر منها يسع جحفلا ، ولكنها تضيق جميعا بشخصك ، إجلالا لك ، وإعظاما لك أن تعلوك .

فَلَيْتَ وَقَارَكَ فَرَّقْتَهُ وحَمَّلْتَ أرْضَكَ ما تَحْمِلُ
فَصَارَ الأنامُ بِهِ سَادَةً وسُدْتَهُمُ بالَّذِى يَفْضُلُ
رأَتْ لوْنَ نورِكَ فى لَوْنِها كلونِ الْغَزالةِ لا يُغْسَلُ[1]
وأنَّ لها شَرَفاً باذِخاً وأنَّ الخِيامَ بها تَخْجَلُ
فلَا تُنكِرَنَّ لها صَرْعةً فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ ما يَقْتُلُ
ولوْ بُلِّغَ النَّاسُ ما بُلِّغَتْ لخانَتْهُمُ حَوْلَكَ الأرْجُلُ
ولَمّا أمَرْتَ بتَطْنيبِها أُشِيعَ بأَنَّكَ لا تَرْحَلُ[2]
فما اعتَمَدَ اللهُ تقْويضَها ولكِنْ أشارَ بما تَفْعَلُ
وعَرَّفَ أنكَ من هَمِّه وأنَّكَ فى نَصْرِهِ تَرْفُلُ
فَمَا الْعَانِدُونَ وما أثَّلُوا[3] ومَا الحاسِدُونَ وما قَوَّلُوا[4]
همُ يطلُبونَ ، فَمَنْ أدْرَكُوا ؟ وَهُمْ يكذِبُونَ ، فَمَنْ يَقْبَلُ ؟
وهمْ يَتَمَنَّوْنَ ما يَشْتَهُونَ ومِنْ دُونِهِ جَدُّكَ المُقْبِلُ

هذه الأبياتُ قد اشتملتْ على معانٍ بديعةٍ ، وكفَى المتنبيِّ فضلاً أنْ يأتِيَ بمثلها . وهذا مقامٌ يظهَرُ فى مثلِه براعةُ الناظمِ والناثر .

***

(١) أصل الغزالة ارتفاع الشمس ، وهو وقت سميت الشمس به ، يقول : لون الممدوح ونوره لا يلحقه تغيير ، كلون الشمس الذى لا يزول عنها بالغسل .

(٢) الأطناب حبال البناء ، والتطنيب مد الأطناب.

(٣) أثلوا — بالثاء المثلثة — جمعوا . ورواية الديوان « وما أملوا » بالميم .

(٤) ما قولوا أى كرروا القول وخاضوا فيه ، وقولتنى ما لم أقل : أى نسبته إلى ، والتقويل والادعاء .

وقرأتُ فى كتاب (الرَّوضة) لأبى العباس المبرِّد[1] ، وهو كتابٌ جمعَه ، واختار فيه أشعار شعراء ، بدأ فيه بأَبى نُوَاسٍ ، ثمَّ بمنْ كان فى زمانِه ، وانسحب على ذيله ، فقال فيما أورده من شعره : ولهُ معنىً لم يُسْبق إليه بإجماع ، وهو قولُه[2] :

تُدارُ علينا الرَّاحُ فى عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بأَنْواعِ التَّصاويرِ فارِسُ[3]

قَرَارَتُها كِسرَى وفى جنباتِها مَهًا تُوَرِّيها بالْقَسِيِّ الْفوارِسُ[4]

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى المعروف بالمبرد ، كان شيخ أهل النحو والعربية ، وإليه انتهى علمها بعد طبقة أبى عمر الجرمى وأبى عثمان المازنى ، وكان من أهل البصرة ، حسن المحاضرة ، مليح الأخبار ، كثيرة النوادر قال أبو سعيد السيرافى : سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول : ما رأيت أحسن جوابا من المبرد فى معانى القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم . وصنف كتبا كثيرة ، ومن أكبرها كتاب « المقتضب » وكتاب « الكامل » . وكان مولد المبرد سنة عشر ومائتين ، ومات سنة خمس وثمانين ومائتين .

(٢) ديوان أبى نواس ٢٩٥ من أبيات أولها :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس

(٣) الراح الخمر ، والعسجدية نسبة إلى العسجد وهو الذهب ، ويريد بها كأساً مذهبة لا من ذهب ، وحباه بكذا يحبوه أعطاه ومنحه ، وفارس هى الأمة المعروفة .

(٤) قرارتها أسفلها ، وهى هنا ظرف مكان ، والمها جمع مهاة . وهى البقرة الوحشية يضرب بها المثل فى حسن العيون ورواية الديوان « مها تدريها . » وادرى الصيد ختله ، القسى جمع قوس ، يقول : إن الكأس محلاة من أسفلها بصورة كسرى ، أما جوانبها فمحلاة بصورة فرسان يتحينون غفلة المها ، ليرموها بسهام أقواسهم .

فلِلرّاح ما زُرّتْ عَلَيْه جُيُوبُها ... وللماء ما دَارَتْ عليْه الْقَلانسُ[1]

وقد أكثر العلماء من وصفِ هذا المعنَى وقولهمْ فيه إنه معنًى مُبْتَدع .

ويحكى عنِ الجاحظ[2] أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديماً وحديثًا إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواسٍ انفرد بإبداعِه ! .

ولا أعلمُ أنا ما أقول لهما[3] ، ولا بى سوَى أنْ أقول : قد تجاوزَ بهم حدّ الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدُون هذا يُباعُ الحمار ! .

وفصاحةُ هذا الشعر عندى هى الموصوفةُ . لا هذا المعنى ، فإنّه لا كبير كلفةٍ فيه ، لأنّ أبا نواس رأى كأسًا من الذّهبِ ذاتَ تصاوير ، فحكاها فى شعره .

والذى عندى فى هذا أنّه من المعانى المشاهَدة ، فإنّ هذه الخمر لم تحمِلْ إلا ماءً يسيراً ، وكانتْ تستغرقُ صُوَرَهذا الكأس إلى مكانِ جيُوبها ، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلانِس التى على رءوسها . وهذا حكايةُ حالٍ مشاهدةٍ بالبَصر .

---

(١) الجيب طوق الثوب ، والقلانس جمع قلنسوة لباس للرأس ، يقول : إنهم كانوا يصبون الخمر فى تلك الكأس ، حتى تحاذى أطواق صور الفوارس ، ثم يمزجونها بالماء حتى تحاذى رءوسهم .

(٢) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى ، ولد بالبصرة وتربى فيها ، ودرس هناك كل ما كان ذائعا من العلوم والفنون فى أيامه ، ولازم إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى ، وأخذ عنه ، حتى صار زعيم فرقة تنسب إليه ، وعرف كثيرا من كبار الكتاب والمترجمين والفرس وغيرهم ، وقرأ كل ما ترجم فى زمانه ووقع علية نظره ، فكان من كبار العلماء والكتاب ، ومات بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ .

(٣) فى الأصل « لها » فى عبارة غير مفهومة . ولعل الصواب ما ذكرناه . والإشارة هنا إلى المبرد والجاحظ اللذين عدا هذا المعنى معنى مبتدعاً ، وأكبرا به من شأن أبى نواس ، فيما نرى .

وكذلك وَرد قوله فى الخمر أيضًا [1] :

يا شقِيق النفْس من حَـكَم ... نمتْ عَنْ ليلى ولم تُنِم
فاسقْنى الْخمْر التىاخْتمَرتْ ... بخمارِ الشّيبِ فى الرّحِمِ

وهذا معنى مخترع ، لم يُسْبَقْ إليه ، وهو دقيقٌ يكادُ لدقته أن يلتحِق بالمعانى التى تُسْتخرج من غير شاهد حال متصورٍ .

وبلغنى أنّه اختلف فى هذا المعنى بحضرة الرّشيد هَارُون — رحمه الله — فقيل : إنّه يريد بخمار الشّيب فى الرّحم أنّ الخمر تكونُ فى جوَانبها ذات زَبدٍ أبْيض على وجهها . فقال الأصمعىُّ [2] : « إنّ أبا نواس ألطفُ خاطراً من هذا وأسدُّ غرضًا ، فاسألوه ، فأُحْضر وسئل ، فقال : إنّ الكَرْمَ أولَ ما يَجْرى فيه الماء يخْرج شبيهاً بالقصنة ، وهى أصلُ العَنقود ، فقال الأصمعىُّ : ألم أقل لكم إن الرجل ألطف خاطراً ، وأسدُّ غرضًا ! ؟ .

وقد جاءَ لابن حمدِيس الصّقلِّى [3] فى الهلال لآخر الشهر مالم يَأْت به غيرُه ، وهو مِن الحسْن واللطافةِ فى الغاية القصْوى ، وذلك قوله :

كأنما أدْهم الظلماء حين نَجا ... مِنْأشهبِ الصُّبْح ألقَى نعلحافِرهِ

---

(١) ديوان أبى نواس ٣٢٤ .

(٢) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب عن عبد الملك ، كان صاحب لغة ونحو ، وإماماً فى الأخبار والملح والغرائب ، توفى سنة ٢١٧ هـ بالبصرة ، وقيل بمرو .

(٣) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمد يس الأزدى الصقلى ، نشأ بجريرة صقلية ، وانتقل إلى الأندلس ، ومدح المعتمد بن عباد ، فأحسن إليه ، وأجزل عطاياه ، مات سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميرقة ، وقيل ببلدة بجاية .

وهذه حكايةُ حالِ مُشاهدةٍ بالبَصر ، إلّا أنه أبدعَ فى التشبيه .

وأمثالُ هذا كثيرةٌ فى أقوال المجيدين من الشعراء .

وجملةُ الأمر فى ذلك أن الشاعرَ أو الكاتب ينظرُ إلى الحالِ الحاضرةِ ، ثم يستنبطُ لها ما يُناسبها من المعانى ، كما فعل النّابغة [1] فى مدح النعمان وقد أتاهُ وفدٌ من الوفود ، فمات رجلٌ منهم قبل أن يرْفِدهُم ، فلما رفدهم جعل عطاءَ ذلك الميِّت على قبرهِ ، حتى جاء أهله وأخذُوه ، فقال النابغة فى ذلك :

حِباء شقيقٍ فوق أحجارِ قبرهِ … وما كان يُحيى قَبْلهُ قبرُ وافِدِ

وهذا بيتٌ من جملة أبياتٍ ، فانظرْ كيفَ فعل النابغةُ فى هذا المعنى ! .

***

وكذلِكَ وردَ قولُ أُخْتِ جسَّاس ، زوجةِ كُليْب ، فإنّهُ لما قتلَ جَساسٌ كُلَيْباً اجتمع النساء إليها ، وَنَدَبْنهُ ، فتحدَّث بعضُهنَّ إلى بعضٍ ، وقُلْنَ : هذه ليستْ ثاكِلة ، وإنما هِيَ شامتة ، فإنّ أخاها هُوَ القاتلُ ، فنَمَّ ذلك إليها ، فقالتْ :

---

(١) هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، أحد أشراف قبيلة ذبيان من القبائل المصرية ، وأحد فحول شعراء الجاهلية ، لقب النابغة لنبوغه فى الشعر فجاءة ، وهو كبير ، وهو ممن تكسب بالشعر فى الجاهلية ، ولكنه آثر مدح الملوك ، ملوك المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام ، وكان ممن مدحهم من الأولين النعمان بن المنذر فقربه إليه . ثم وشى به عنده ، وهم بقتله ، ففر إلى ملوك الشام فمدحهم ، ولم يطب مقامه بالشام ، فعاد يستعطف النعمان بقصائد رائعة كانت سببا فى عفوه عنه ، وطال عمر النابغة ، حتى مات قبيل الإسلام .

يا ابنَة الأقوام إنْ شئتِ فلاَ تَعْجَلى باللَّوْم حتى تَسأَلى

فإذَا أنْتِ تبيَّنْتِ الَّذى يُوجِبُ اللَّوْمَ فَلُومِى واعذُلى

إنّ أُختاً لا مْرِئ لِيمَتْ على[1] شَفَقٍ منْهَا عَلَيْهِ فافْعَلى

جَلّ عِنْدِى فِعْلُ جسّاسٍ فَوا حَسْرتَا عمّ انْجَلَتْ أَوْ تَنجَلى

فِعلُ جسّاسٍ على وجْدى بِهِ قَاطِعٌ ظَهْرِى ومُدْنٍ أَجَلِى

لَوْ بِعَيْنٍ فُقِئَتْ عَيْنٌ سِوَى أُخْتِهَا فانفقأَتْ لَمْ أَحفِلِ

يا قَتيلاً قَوّضَ الدَّهْرُ بِهِ سَقْفَ بَيْتَىَّ جَمِيعاً مِنْ عَلِ

هَدَمَ الْبيْتَ الّذى استَحْدَثْتُهُ وَانْثَنَى فى هَدْمِ بَيْتِى الْأَوّلِ

يَشْتَفِى الْمُدْرِكُ بِالثّأْرِ وَفِى دَرَكِى ثَارِىَ ثُكْلٌ مُثْكِلِى

إنّنِى قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَلَعلّ اللهَ أَنْ يَرْتَاحَ لى

وهذه الأبياتُ لو نَطَق بها الفحولُ المعدودُونَ من الشعراء لاستُعْظِمَتْ ، فكيفَ امرأة وَهى حزينة فى شرح تلك الحالِ المشارِ إليها .

* * *

واعلمْ أنّه قد يُستَخرَجُ من المعنى الذى ليسَ بِمُبْتَدعٍ معنًى مبتدَع .

فمن ذلك قولُ الشاعر المعروف بابن السراج فى الفهد :

تنافَسَ الليلُ فيهِ والنهارُ معاً فقَمّصَاهُ بجلْبابٍ مِنَ المقَلِ

وليسَ هذا من المعانى الغريبة ، ولكنه تشبيه حسنٌ واقعٌ فى موقعه :

---

(١) هكذا روى صدر البيت فى الأصل ، والمشهور فى روايته :
* إن تكن أخت امرىء ليمت على *

وقد جاء بعده شاعرٌ من أهل الموْصِل ، يقال له ابن مسهر فاستخرجَ من هذا البيت معنًى غريباً ، فقال :

وَنقَّطَتْهُ حِبَاء كَىْ يُسَالِمَها عَلَى المَنَايا نِعاجُ الرَّمْل بالحَدَقَ

وهذا معنًى غريب ، لم أسمعْ بمثلِهِ فى مقصدِه الذى قُصِد من أجله .

وقليلا ما يقعُ هذا فى الكلامِ المنظوم والمنثور ، وهو موضع ينبغى أنْ توضَع اليدُ عليه ، ويُتَنَبَّهَ له .

وكذلك فلتكنْ سياقةُ ماجرى هذا المجرىٰ .

* * *

وقد جاءنى شىءٌ من ذلك فى الكلام المنثُور .

فمن ذلك ما ذكرته فى وصف نساء حسان ، وهو :

« أقبلَتْ ربائِبُ الكِناس ، فى مُخْضَرِّ اللِّباس ، فقِيل : إنّما يَخْتَرْنَ الخُضْرة من الألوانِ ، ليصِحَّ تَشْبِيهُهُنَّ بالأغصان » .

وهذا معنى غريبٌ ، وربّما يكونُ قد سُبقتُ إليه ، إلا أنَّهُ لَمْ يَبْلُغْنِي ، بل ابتدعتهُ ابتداعا .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن منازلة بلد ، فذكرت القتال بالمنجنيق (١) ، وهو :

« فنزلْنا بمرأى منه وَمَسْمَع ، واستدرْنا بِه استدارة الخاتم بالأصبع ،

---

(١) هو اسم أعجمى ، فإن الجيم والقاف لايجتمعان فى كلمة عربية ، ويجمع على مجانيق ومناجيق ، قال ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » وأبو هلال العسكرى فى « الأوائل » : وهو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة =

وَنُصِبَتْ المنجنيقاتُ فأنشأت سُحُبًا صَعْبَةَ القِياد ، مختصّة بالرُّبا دونَ الوِهَاد ، فلمْ تَزلْ تقذِف السُّور بِوَبْـلٍ من جُـلْمُودِهَا ، وتفجؤُها بِرُعُودِها قبلَ بُروقها ، وبروق السحبِ قبل رعُودها ، حتى غادرت الحَزْنَ منه سَهْلاً ، والعامِرَ بَلْقعًا مُخلى » .

وفى هذا معنيانِ غريبانِ .

أحدُهما : أنَّ هذه السحبَ تخصُّ الرُّبا دون الوِهاد .

والآخرُ : أنّ رُعُودها قبلَ بُرُوقها . وكلُّ ذلك يُفطَنُ له بالمُشاهدة .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب ، فقلت :

« إذا تخَلَّق المرءُ بخُلُق البأس والنَّدى لم يَخفْ عِرْضُه دنسًا ، كما أنّ الماء إذا بلغ قُلّتَيْنِ لم يَحملْ نَجسًا » .

وهذا المعنى مبتدعٌ لى ، وهو مســـتخرجٌ من الحديث النبوىِّ فى قوله صلّى الله عليه وسلّم « إذا بلغ الماءُ قُلّتَيْنِ لم يَحْمِـلْ خبثًا » .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف مفازة ، فقلت

« مفازةٌ لا تُوطأُ بأَجفانِ ساهرٍ ، ولا تُقْتَلُ باقْتِحام خَابر ، ولولا مسيرُ الهِلالِ من فَوْقها لما عَرفَتْ تِمْثالَ حافِر » .

* * *

= المنجنيق التى يجعل فيها الحجر . ويجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الـكفة ، فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه .

ومن ذلك ما ذكرته فى كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه :

وكان ذلك فى زمن الشّتاء ، فسقطَ عَلَى العدُوِّ ثلجٌ كثيرٌ صار به محصُوراً ، فقلت :

« وقدْ عاجَلَه قِتالُ البُروق قبل البَوارِق ، وأحاط به الثلجُ فصار خنادق تَحُولُ بينَه وبينَ الخنادق ، والشّتاءُ قد لِقيَ عسْكرَهُ من البَرْدِ بعسْكره ، والسماءُ قد قابلتْهُ بأغبرِ وجهِها لا بأخْضَره ، والأرضُ كأنها قُرْصةُ النَّقىِّ ، وعسى أن تكونَ أرض مَحْشَرِهِ » .

والمعنى المختر عُ من هذا الكلامِ قولى : « والأرضُ كأنها قُرْصةُ النَّقىِّ وَعَسى أن تكون أرضَ مَحْشَرِه » وهو مُسْتَخْرَجٌ من الحديثِ النبوىِّ فى قَوْلِه صلى الله عليه وسلم : « إنكم تُحْشَرُون عَلَى أرضٍ بيضاء كقُرصَةِ النَّقىِّ » يُرِيد الْخُبْزَةُ الْبيْضاء — ولما كان الثلجُ عَلَى الأرضِ مماثِلاً لذلك ومشابِهاً له استنبطت أنا له هذا المعنى المخترع ، فجاء كما تراهُ ، وهو من المعانِى التى يدلُّ عليها شاهدُ الحال .

* * *

وأحسن من هذا كله ما كتبته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة ببغداد ، فقلت :

« وَدَوْلَتُه هى الضاحكة ، وإنْ كانَ نسبُها إلى العبَّاس ، وهى خيرُ دولةٍ أُخْرِجَت للزمنِ ، كما أنَّ رعاياها خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَت للنَّاس ، ولم يُجْعَلْ شعارَها من لونِ الشّباب إلّا تَفاؤلًا بأنّها لا تَهْرَم ، وأنّها لاتَزَالُ مَحْبُوَّةً من أبكار السّعادةِ بالحبِّ الذى لايُسْلَى والوصلِ الذى لا يُصْرَم ، وهذا معنًى استنبطهُ الخادمُ للدولةِ وشعارِها ، وهو مما لم تخطّ به الأقلامُ فى خَطّها ، ولا أجالتهْ الخواطرُ فى أفكارِها » .

وغرابةُ هذا المعنى ظاهرةٌ ، ولمْ يأت بها أحـــدٌ قبلى .

* * *

وبلغنى من المعانى المخترعةِ أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مَرْوَان بنى بابًا من أبوابِ المسجدِ الأقصَى بالبيت المقدّس ، وبنَى الحجَّاجُ بابًا إلى جانبِه ، فجاءتْ صاعقةٌ فأحْرقت البابَ الذى بناهُ عبدُ الملك ، فتطيَّر لذلك : وشقَّ عليه ، فبلغَ ذلكَ الحجّـاجَ ، فـكتب إليه كتابًا : « بلغنى كذا وكذا ، فليهْنِ أميرَ المؤمنين أنَّ الله تقبَّل منه ، وما مَثَلِى ومَثَلُه إلا كابْـنَىْ آدمَ إذْ قرَّبا قُرْبانًا فتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهما ، ولمْ يُتَقَبَّلْ مِن الآخر » فلمَّا وقَف عبـدُ الملك عَلَى كتابِه سُرِّى عنه .

وهذا معنًى غريب استخرجَهُ الحجَّاجُ من القرآن الـكريم ، وهو من المعانى المناسِبَةِ لما ذكِرْتُ فيه ، ويكفى الحجاجَ من فَطانةِ الفِـكْرَةِ أن يكونَ عندَهُ استعدادٌ لاسْتخراج مثل ذلك .

* * *

وأمَّا المعانى التى تُسْتَخْرجُ من غيرِ شاهِد حالٍ متصوّرة فإنّها أصعبُ مَنَالا مما يُسْتخرجُ بشاهِد الحالِ ، ولأمرٍ ما كانَ لأبكارِها سِرٌّ لا يهجُمُ على مكامِنه ، إلّا جنَانُ الشّهم ، ولا يفُوزُ بمحاسِنِه إلا من دقَّ فهْمُهُ حتى جلَّ عن دقة الفهم ، ولَلْهُجُومُ على عذارى المغانى المحميَّة بحُجُب البواتر أيسرُ من الهجوم على عذارى المعانى المحميَّة بحُجُبِ الخواطر ، وما ذلك ممّا يُلقيه إليك الأستاذُ وليس يَقومُ به إلّا الفذُّ ، ولا أقولُ الأفذاذ ، وأينَ الّذى ينشىءُ فيحسنُ فيها الآنشاء ، ويُبرِزُفيها صُوَراً يركّبها كيف يشاء ؟

ومَنْ نظرَ إلى هذا الموضع حقَّ النظر ، وأخذَ فيهِ بالعينِ دونَ الأثر علِمَ

أنه مقامٌ يزلق بِمعارِف الأفهام ، فكيفَ بمواقف الأقدامِ ، وليست المعانى فيه إلّا كالأرواحِ ، ولا الألفاظ إلاّ كالأجسام ، فمَنْ شاء أنْ يخلق خلقاً من الكلامِ ، فليأتِ به عَلَى صورةِ الأناسيِّ لا عَلَى صُورةِ الأنعامِ ، فإنّ من القول الغَانيةُ التى هى أحسنُ من الغَانية ، ومنه البهيمةِ الَّتى لا تُشَبَّهُ إلّا بالسَّانية (١) .

فمَّا جاء فى هذا الباب قولُ أبى نُواس :

شَرَابُكَ فى السَّرَابِ إذا عَطِشْنا ... وخُبْزُكَ عِنْدَ مُنْقَطعِ التّرَابِ
وَمَا رَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عَنّا ... ولـكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبابِ (٢)

فالبيت الثانى من هذين البَيْتَيْن هو المشارُ إليه بأنّه معنًى مبتدع .

ويُحكى عن الرّشيد هارونَ — رحمهُ الله — أنّه قال : لمْ يُهْجَ بادٍ ولا حاضرٌ بِمثْل هذا الهجاء ! .

ومنْ هذا البابِ قولُ مُسْلِم بن الوليد(٣) :

---

(١) من معانى السانية الناقة يسقى عليها ، وسنت تسنو سقت الأرض؛ وسنت النار علا ضؤوها .

(٢) حكى الجاحظ أن الرشيد قال : لا أعرف لمحدث أهجى من قول أبى نواس :

وما روحتنا لتذب عنا ... ولكن خفت مرزئة الذباب
شرابك فى السحاب إذا عطشنا ... وخبزك عند منقطع التراب
وكيف تنال مكرمة ومجداً ... وخبزك محرز عند الغياب
وإبطك قابض الأرواح يرمى ... بسهم الموت من تحت الثياب

وانظر ديوان أبى نواس ١٤ .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيبانى ، ومطلعها :

أجررت حبل خليع فى الهوى غزل ... وشمرت همم العذال فى العذل

تَنالُ بالرِّفْقِ ما تَعيا الرِّجالُ به   كالمَوْتِ مُسْتعجِلًا يأْتى عَلَى مَهَلِ

ومِنْ هذا الباب قولُ علىٍّ بْنِ جَبَلة :

تَكَفلَ سَاكِنَ الدُّنيا حُمَيْدٌ   فقَدْ أضْحَتْ لهُ الدُّنْيا عِيَالَا

كَأَنَّ أباهُ آدمَ كَانَ أَوْصَى   إليــهِ أنْ يَعُولَهُمْ فَعالَا

وهذا معنًى دندَنَ (١) حوْله الشعراء ، وفاز علىُّ بن جبلة بالإفصاح عنه .

* * *

وقد قيل : إنّ أبا تمّام أكثرُ الشعراء المتأخِّرين ابتداعاً للمعانى ، وقد عُدَّت معانيه المبتدَعة، فوُجِدَتْ ما يزيدُ على عشرينَ معنًى .

وأهلُ هذه الصناعةِ يُكبِرُون ذلك ، وما هذا من مثلِ أبى تمَّام بكبير ، فإنِّى أنا عددْتُ معانىَّ المبتدَعةَ التى وردتْ فى مكاتباتى ، فوجدتُها أكثرَ من هذه العِدّة ، وهى مما لا أُنازعُ فيه ، ولا أُدافعُ عنْه ! .

فأمّا ماورد لأبى تمّام فمِنْ ذلك قوله(٢) :

يأيُّها الملِكُ النــائى برُؤْيَتِهِ   وجودُه لمُرَاعِى جُودهِ كَثَبُ

لَيسَ الحجابُ بِمُقصٍ عَنْكَ لى أَمَلاَ   إنّ السّماء تُرَجَّى حين تحتجبُ

---

(١) أصل الدندنة صوت الذباب والزنابير ، ودندن صوت وطن ، ودندن فلان نغم ولا يفهم منه كلام .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٢ من أبيات أربعة يعاتب بها أبادلف ، وقيل عبد الله بن طاهر ، والبيتان اللذان قبلهما :

صبراً على المطل مالم يتله الكذب   فللخطوب إذا سامحتها عقب

على المقادير لوم إن منيت به   من عاذل وعلى السعى والطلب

وكذلك قوله :

رأينا الجُودَ فيكَ وما عَرضْنا ... لِسَجْلٍ منهُ بَعدُ ولا ذَنُوبِ
ولكنْ دَارَةُ القمرِ اسْتَتَمَّت ... فَدَلَّتْنَا على مطرٍ قريبِ

وكذلك قوله في الهجاء(1) :

وأنْتَ تُديرُ قُطْبَ رحًا مَلِيًّا ... ولَمْ نَرَ للرّحا العَلْياء قُطْبَا
تَرى ظَفْراً بكلِّ صِراعِ قِرْنٍ ... إذَا ما كُنْتَ أسفلَ مِنْه كَعْبَا(2)

وكذلك قوله(3) :

وإذا أراد اللهُ نشْرَ فضيلةٍ ... طُوِيتْ أتاحَ لها لِسانَ حَسُودِ
لولَا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وكذلك قوله(4) :

لا تنكرُوا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَه ... مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدى والبأسِ

---

(1) ديوان أبي تمام ٤٨٦ من قصيدة يهجو بها عتبة بن أبي عاصم ، ومطلعها :

أعتبة أجبن الثقلين عتبا ... بجهلك صرت للمكروه نصبا

(2) في الأصل :

ترى قطر بكل صراع قرن ... إذا ما كنت أسفل منه جنبا

والصواب عن الديوان .

(3) ديوان أبي تمام ٨٥ من قصيدة يمدح فيها أبا عبد الله أحمد ابن أبي دواد ، ويعتذر إليه ، ويستشفع بخالد بن يزيد ، ومطلعها :

أرأيت أي سوالف وخدود ... عنت لنا بين اللوى وبرود

(4) ديوانه ١٧٢ من قصيدة في مدح أحمد بن المعتصم ، ومطلعها :

ما في وقوفك ساعة من باس ... تقضي ذمام الأربع الأدراس

فاللهُ قد ضرَبَ الأقلَّ لِنُورِه مثلاً من المِشكاةِ والنِّبْراسِ[1]

وكذلك قوله[2] :

لا تُنكِري مَطَلَ الكَريمِ مِنَ الْغِنَى
فالسَّيْلُ حرْبٌ للمكانِ العالى

وكذلك قوله فى الشَّيْب[3] :

شُعْلَةٌ فى المَفارِقِ استَوْدعتْنِي فى صَميمِ الفُؤادِ ثَكلا صَميمَا
تَسْتَثِيرُ الهُمومُ ما اكْتَنَّ مِنْها صُعُداً وهْىَ تَسْتَثِيرُ الْهُمُوما

فالبيتُ الثانى من المعانى المخترعة ، وقد تفقَّه فيهِ فجعلهُ مَسْأَلَةً من مسائلِ الدَّوْرِ ، وهذا من إغرابِ أبى تمامٍ المعروف .

وَهذا القَدْرُ كافٍ من جملةِ معانيه ، فإنَّا لم نَسْتَقْصِها هاهُنا .

* * *

وَمن هذا البابِ قولُ ابْنِ الرُّومىّ[4] :

---

(١) يشير بذلك إلى قول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » سورة النور . آية ٣٥ ، والمشكاة هى الكوة فى الجدار غير النافذة .

(٢) الديوان ٢٤٦ من قصيدة فى مدح الحسن بن رجاء ، مطلعها :

يكفى وغاك فإننى لك قالِ ليست هوادى عزمتى بتوالِ

والوغى الحرب ، والقالى المبغض ، والهوادى الأوائل ، والتوالى الأواخر .

(٣) الديوان ٢٩١ من قصيدة فى مدح أبى سعيد ، مطلعها :

إن عهداً لو تعلمان ذميما أن تناما عن ليلتى أو تنيما

(٤) ولد أبو الحسن على بن العباس الرومى ببغداد ، وعاش فيها متأثرا بمزاجه اليونانى وبالثقافة العربية كذلك ، فكان شعره صورة طريفة =

كُلُّ امرئٍ مدح امْرأً لِنَوالهِ   وأطالَ فيه فقدْ أساء هجاءه
لَوْ لمْ يُقَدِّرْ فيه بُعْدَ الْمُسْتقى   عِنْد الْوُرُود لمـا أطالَ رشاءَهُ

وكذلك قولُه[1] :

عدُوُّكَ منْ صديقك مُسْتفادٌ   فلا تَسْتـكْثِرنَّ من الصِّحابِ
فإنّ الدّاء أكثرُ ما تراهُ   يكُونُ من الطَّعام أو الشّرابِ

وكذلك قولُه[2] :

لِما تُؤْذنُ الدُّنيا به منْ صُرُوفِها   يكونُ بُكاءُ الطِّفْل ساعة يُولدُ
وإلّا فما يُبْكيهِ منْها وَإنّها   لأوْسعُ[3] ممّا كانَ فيهِ وَأرْغدُ
إذا أبصرَ الدُّنْيا استهلّ كأنّهُ   بما هُو لاقٍ[4] منْ أذاها يُهدَّدُ

وكذلك قولُه[5] :

رَدَدْتَ عليّ مدْحِي بعد مَطْلٍ   وقد دنّسْتَ مَلْبَسَـهُ الْجَديدا

= فى الأدب العربى من حيث الابتكار والتنسيق المنطقى والاستقصاء ، فى أسلوب جزل متين ، وقد أجاد فنون الشعر وخاصة الوصف . مات ابن الرومى سنة ٢٨٣ هـ ، والبيتان من أبيات أربعة ، وبعدهما :

غير فإنى لا أطيل مدائحى   إلا لأوفى من مدحت ثناءه
وأعد ظلما أن أقل مديحه   حمداً وأسخط أن أقل عطاءه

(١) ديوان ابن الرومى ١٣٩ ورواية الديوان « يحول » موضع «يكون» فى عجز البيت الثانى .

(٢) الديوان ٣٩٣ من قصيدة فى مدح صاعد بن مخلد ، ومطلعها :

أبين ضلوعى حمرة تتوقد   على ما مضى أم حسرة تتجدد

(٣) رواية الديوان « لأفسح »

(٤) رواية الديوان « مما سوف يلقى »

(٥) ديوان ابن الرومى ٣٧٠ من أبيات أربعة .

وقلتَ : امدحْ بِهِ من شئتَ غَيْرِى وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ المدْحَ الرَّدِيدَا [1]
وَهَلْ للحىِّ فِي أَكْفَانِ مَيْتٍ لَبُوسٌ بَعْدَ مَا امْتلأتْ صَدِيدَا [2]

***

وقد ورد لأبى الطَّيِّبِ المُتَنَبِّى مِنْ ذَلِكَ كقوله [3] :

أَجْزِنِي إِذَا أُنْشِدْتَ مَدْحًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِى أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ بَعْدَ [4] صَوْتِى فإننى أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى

فالبيتُ الأولُ قد تواردَ على معناهُ الشعراء قديماً وحديثاً ، لكنَّ البيتَ الثانى — فى التَّمْثِيلِ الذى مثَّله — ليسَ لِأَحَدٍ إلاَّ له .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ [5] :

بِهَجْرِ سُيُوفِكَ أَغْمَادَهَا تَمَنَّى الطُّلَى [6] أَنْ تَكُونَ الْغُمُودَا
إِلَى الهام تَصْدُرُ عَنْ مِثْلِهِ [7] تَرَى صَدَراً عن وُرُودٍ وُرُودَا

---

(١) بعد هذا البيت بيت أغفله ابن الأثير ، وهو :
ولا سيما وقد أعبقت فيه مخازيك اللواتى لن تبيدا
(٢) رواية الديوان « وما للحى » موضع « وهل للحى » .
(٣) ديوان المتنبى ١ / ٢٩١ من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، ويهنيه بعيد الأضحى ، ومطلعها :
لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا
(٤) رواية الديوان « غير صوتى » .
(٥) ديوان المتنبى ١ / ٢٦٩ من قصيدة فى مدح بدر بن عمار الأسدى ، ومطلعها :
أحلما نرى أم زمانا جديدا أم الخلق فى شخص حى أعيدا
(٦) الطلى الأعناق ، والغمود جمع غمد وهو جفن السيف .
(٧) الهام الرءوس . يقول : أبداً سيوفك تصدر عن هام إلى هام أخرى .

وكذلك قولُه فى بدر بنِ عَمّار، يُهَنِّيه بِبُرْئه مِن مَرَض[1]:

قصدْتَ مِنْ شَرْقِها وَمَغْرِبِها حتّى اشتكتْكَ الرِّكابُ والسُّبُلُ
لَمْ تُبْقِ إلاّ قَليلَ عافيةٍ قَدْ وَفَدَتْ تجتديكَها العِلَلُ

وقد وقفتُ على ماشاء الله مِنْ أشعارِ الفحولِ من الشُّعَراءِ قديمًا وحديثًا، فلمْ أجِدْ لأحدٍ منهم فى ذكر الْمَرَضِ ما يُعَدُّ معنًى مخترعًا، لا، بَلْ لم أجِد مِنْ أقوالهمْ شيئًا مَرْضِيًّا، ما عَدا الْمُتَنَبِّى، فإنّهُ ذكر المرضَ فى عدّةِ مواضع مِنْ شعره، فأجاد، وهذا البيتُ الثّانِى من هذينِ البَيتَيْنِ معنًى مخترعٌ له، وَقدْ أحْسَنَ فيه كلَّ الإحْسَان.

ومما ابتدعَه بإجماعٍ قولُه فى مدْحِ عَضدِ الدولة فى قصيدتِهِ النُّونِيَّةِ الّتى مَطْلعُها:

* مغَانِى الشِّعْبِ طِيبًا فِى المغانِى[2] *

فقال عندَ ذِكْرِه:

(١) الديوان ٣/٢١٧ من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار وقد فصده لعاة، ومطلعها:

أبعدَ نأى المليحة البخل فى البعد ما لا تكلف الإبل

(٢) ديوان المتنبى ٢٥١/٤، وعجز البيت: * بمنزلة الربيع من الزمان *.

وهو مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف، ويذكر طريقة بشعب بوان، والمغانى: جمع مغنى، وهو المكان الذى فيه أهله. والشعب: هو شعب بوان، وهو موضع كثير الشجر والمياه، يعد من جنان الدنيا، كنهر الإيلة، وسغد سمرقند، وغوطه دمشق. وشعب بوان بأرض فارس بين أرجان والنوبندجان.

فعاشا عِيشَةَ القَمرينِ يُحْيَا ... بِضَوْئِهِمَا وَلاَ يَتحَاسَدَانِ(١)

وَلاَ مَلَكاَ سِوَى مُلْكِ الأَعَادِى ... وَلاَ وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلاَنِ(٢)

وَكَانَ ابنَا عَدُوٍّ كاثَرَاهُ ... لَهُ يَاءَىْ حُروفٍ أُنَيْسِيَانِ(٣)

أى : جعلَ اللهُ ابنىْ عَدوٍّ كاثَراه — يعنى ابنى عضدِ الدّولة — كياءَى حروفِ تَصْغِير « إنْسان » ، فإنّ ذلك زيادةٌ ، وهو نَقْصٌ فى المقدار .

إلاّ أن سَبْكَ هذا البيتِ قَدْ شَوَّههُ ، وأذهب طلاوَةَ المعنَى المُنْدرجِ تحْتَه .

ومن معانيهِ المبتَدعة قولُه(٤) :

فإنْ تفُقِ الأنامَ وَأنتَ مِنْهُمْ ... فإنَّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزالِ

وأحسنُ من ذلك قولُه(٥) :

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أنتَ غُرَّتُهُ ... وَسَمْهَرِيَّتُهُ فِى وَجْهِهِ غَمَمُ(٦)

---

(١) يدعو لهما بالبقاء الدائم بقاء الشمس والقمر ، ينتفع الناس بضوئهما ، ولا يكون بينهما تحاسد ولا اختلاف .

(٢) هذا دعاء لأبيهما بطول الحياة ، يقول : لا ملكا ملكك ، بل ملك الأعادى ، ولا ورثاك ، إنما يرثان من يقتلانه من الأعادى .

(٣) يقول . عدوك الذى له ولدان وكاثر بهما ، كياءين زائدتين فى « أنيسيان » لأنه إذا كان مكبرا كان خمسة أحرف ، فإذا صغر زيد فيه ياءان فى عدده ، ونقص فى معناه وفخره ، فهما زائدتان فى نقصه .

(٤) الديوان ٣/٢٠ من قصيدة فى رثاء والدة سيف الدولة ، ومطلعها :

نعد المشرفية والعوالى ... وتقتلنا المنون بلا قتال

(٥) الديوان ٤/٢٣ من قصيدة فى مدح سيف الدولة ، ومطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ... ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

(٦) الخميس : الجيش ، والغرة : الوجه ، والسمهرية : الرماح ، والغمم : كثرة الشعر وإسباله على الوجه .

فكان أثبتَ ما فِيهِمْ جُسُومُهُمْ   يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ والأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

وهذَا مِنْ أعاجيبِ أبى الطيِّب التى بَرَزَ فِيها عَلَى الشُّعَراء .

* * *

ومن الإِحْسَانِ فى هذا الباب قولُ بعضهمْ :

وَقَدْ أشُقُّ الحجَابَ الصَّعْبَ مَأْرَبُهُ   دُونِى وَآبَى وُلُوجاً فِيهِ إِنْ طُرِقَا

كالطَّيْفِ يأبَى دُخُولَ الجَفْنِ مُنْفَتِحاً   وَليسَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ إِذَا انْطَبَقَا

ورأيتُ ابن حَمْدُون البَغْدَادِى[1] صاحبَ كتاب « التذكِرة » قد أوْرَدَ هذين البيتين فى كتابه ، وقال : قد أغْربَ هذا الشاعر ، وَلكنه خلطَ، وَجرى عَلَى عَادةِ الشُّعَراءِ ، لأنَّ الطَّيْفَ لا يَدْخُلُ الجَفْنِ ، وَإِنَّما يَتَخَيَّلُ إِلَى النَّفْس .

وهذا كلامُ مَنْ لم يَطْعَم مِنْ شجرةِ الفَصَاحةِ والبلاغَة . وليسَ مثله عندى إلا كما يُحْكَى عنْ ملِكِ الرومِ إذْ أُنْشِدَ عِنْدهُ بيتُ المُتَنَبِّى الذى هو :

كأنَّ العِيسَ كانتْ فوْقَ جَفْنِى   مُنَاخَاتٍ ، فَلَمَّا ثُرْنَ سَالا[2]

---

(١) هو محمد بن الحسن محمد بن على بن حمدون ، من بيت فضل ورياسة ، وكان ذا معرفة بالأدب والكتابة ، سمع وروى ، وصنف كتاب « التذكرة » فى الأدب والنوادر والتواريخ ، وهو كتاب كبير يدخل فى اثنى عشر مجلدا ، اختص بالمستنجد ، يجتمع به وينادمه ، وولاه ديوان الزمام ، توفى محبوساً سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

(٢) ديوان المتنبى ٣ / ٢٢٢ من قصيدة له فى مدح بدر بن عمار ومطلعها :

بقائى شاء ليس هم ارتحالا   وحسن الصبر زموا لا الجمالا

ومعنى البيت : كنت لا أبكى قبل فراقهم ، فكأن إبلهم ببروكها كانت تمسك بكائى ودمعى عن السيل ، فلما أثاروها الرحيل سالت دموعى ، فكأنها كانت مناخة فوق جفنى .

فسأل عن المعنى ، فَفُسِّر له ، فقالَ : ما سمعتُ بأكذبَ من هذا الشاعر ، أرأيتَ مَنْ أناخَ الجمل عَلَى عَيْنِه لاَ يهلكُه ؟ !

* * *

وَمِنْ محاسِنِ هذا القِسْمِ قولُ بعضهمْ :

تخَـــيَّره اللهُ مِنْ آدَمٍ   فمَا زَالَ مُنْحَدِراً يَرْتَقِي

وكذلكَ قَوْلُ الآخر :

بأبِي غزَالٌ غَازَلَتْـــهُ مُقْلَتِي   بيْنَ الْغُـوَيرِ وَبَيْنَ شَطَّيْ بَارِق (١)
عَاطَيْتُهُ وَالليـلُ يَسْحَبُ ذَيْـلَهُ   صَهْبَاءَ كالمسْكِ الْفَتِيقِ لِنَاشِقِ (٢)
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الـكَمِيِّ لِسَـيْفِهِ   وَذُؤَابَتَاهُ حَمَـائِلٌ فِي عَاتِقِي
حتَّى إذَا مَالَتْ بِهِ سنة الْـكَرَى   زَحْزَحْتُهُ شَـيْئاً وكَانَ مُعَانِقِي
أبْعَـدْتُهُ عَنْ أَضْلُعٍ تَشْـتَاقُهُ   كَيْ لاَ يَنَامَ عَلَى وِسَادٍ خَافِقِ

وهذا من الُحسْنِ واللاحةِ بالمـكانِ الأقصى ، ولقد خفَّت معانيـه على القلوبِ ، حتى كادتْ ترقُص رقصاً .

والبيت الأخيرُ منهُ هو الموصوفُ بالإبداعِ ، وبِهِ وبأمثاله أقَرَّت الأبصارُ بفضلِ الأسْماع !

* * *

---

(١) الغوير مواضع ، منها ماء لكلب بالسماوة بين العراق والشام ، وماء بين العقبة والقاع فى طريق مكة ، وموضع على الفرات . وبارق ماء بالعراق ، وهو الحد من القادسية إلى البصرة ، وهى من أعمال الكوفة .

(٢) فتق المسك بغيره استخراج رائحته بشيء تدخله فيه .

وَمِنْ هذا الضربِ قولُ بَعْضِ المصريِّين — يهجُو إنسـانًا يقال له «ابن طُلَيْل» احترقَتْ دارُه :

انظرْ إلى الأيام كَيْفَ تَسُوقُنَا طَوْعاً إلى الإقرارِ بالْأَقْدار
ما أوقَدَ ابْنُ طُلَيْل قَطُّ بِدَارِهِ نَاراً ، وَكَانَ هَلاَكُهَا بالنَّـار

وكذلك ورَد قولُ ابن قلاقس[1] ، من شعراء مصر :

زِدْ رِفْعَـــةً إنْ قِيلَ أَنْغَـــضَ[2] وانخفِضْ إنْ قِيلَ أَثْرَى
كالغُصْـــنِ يَدْنُو مَا اكْتَسَى ثَمَراً ، وَيَنْأَى مَا تَعَـــرَّى

وَهذا من المعانى الدَّقيقة .

* * *

وَمن هذا الأسلوبِ قَولُ الشاعر المعروفِ بالحافظِ فى تشبيهِ الْبَهَـار[3] وهُو :

عُيُونُ تِـبْرٍ كأنَّمَـا سَرَقَتْ سَـوَادَ أحْدَاقِهَا مِنَ الْغَسَقِ
فَإنْ دَجَا لَيْلُهَـــا بِظُلْمَتِهِ ضُمِمْنَ مِنْ خَوْفِهَا عَلَى السَّرَقِ

وَهذا تشبيهٌ بديعٌ لم يُسْمَع بِمِثْـلِهِ ، وَهو منَ اللَّطافةِ عَلَى مَالاَ خفَاءَ بِهِ .

---

(١) ابن قلاقس : هو أبو الفتوح نصر بن عبد الله بن قلاقس الإسكندرى ، رحل إلى اليمن . ومدح بعض رجالها ، وعاد بثروة ، فانكسر المركب ، فغرق ما كان معه بالقرب من دهلك ، فعاد إلى اليمن . ثم انتقل إلى صقلية ، ثم توفى بعيذاب على شاطىء البحر الأحمر من بلاد مصر سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) أنغض إذا تحرك واضطرب ، وأنغض رأسه حركة كالمتعجب من شىء .

(٣) البهار بالفتح العرار الذى يقال له عين البقر ، وهو بهار البر ، وهو نبت جعد له فقاحة صفراء تنبت أيام الربيع ، يقال لها العرارة ،

وَمن هذا القسم قَولُ بعضِ المتأَخِّرين من أهل زَمَاننا :

لا تَضَعْ مِنْ عظيمٍ قَدْرٍ وَإِنْ كُنْـ ـتَ مُشَاراً إليه بِالتَّعظِيمِ
فالشَّريفُ العَظِيمُ ينقصُ قَدْراً بِالتَّعَدِّى عَلَى الشَّرِيفِ الْعَظِيمِ
وَلَعُ الْخَمْرِ بالْعُقُولِ رَمَى الْخَمْـ ـرَ بِتَنْجِيسِهَا وَبالتَّحْرِيمِ

وَمن غريب ما سَمِعته فى هذا الباب قَولُ بَعْضِ الشُّعراء الْمَغَارِبة يَرْثِى قَتِيلاً :

غَدَرَتْ به زُرْقُ الأَسِنّةِ بَعْدَ مَا قَدْ كُنَّ طُوْعَ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
فَلْيَحْذَرِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ نُجُومَهُ إِذْ بَانَ غَدْرُ مِثَالِهَا بِمِثَالِهِ

* * *

وَكذلكَ جَاءَ وَصْفُ بعضِ المغاوِيةِ فى الخمر وَكاساتِهَا :

ثَقُلَتْ زُجَاجَاتٌ أَتَتْنَا فُرَّغاً حَتَّى إِذَا مُلِئَتْ بِصِرْفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فكادَتأن تطيرَ بِمَا حَوَتْ وكذا الجسومُ تَخِفُّ بالأَرْوَاحِ

وهذا معنًى مُبْتَدَعٌ ، أشهَدُ أنَّه يفعلُ بالعقولِ فِعْلَ الخمر سكراً ، وَيَرِقُّ كما رَقت لُطفاً ، ويفُوحُ كما فاحت نَشْرًا .

* * *

وكذلكِ وَرَدَ قَوْل ابنِ حَمْدِيس الصَّقلِّى :

يَا سَالِبًا قمرَ السماءِ جَمَالَهُ أَلْبَسْتَنِى للحُزْنِ ثَوْبَ سَمَائِهِ
أَضْرَمْتَ قَلْبِى فَارْتَمِىَ بِشَرَارَةٍ وَقَعَتْ بِخَدِّكَ فَانْطَفَتْ مِنْ مَائِهِ

وهذا المعنى دَقِيقٌ جداً .

وقَدْ سمِعت فى الخالِ ما شاءَ اللهُ أنْ أسمعَ فلمْ أجِدْ مثلَ هذا ! !

وقدْ جَاءَنى فِي الـكلامِ الْمَنْثُورِ من هذا الضربِ شيء ، وَسَأَذْكُرُ ها هنا منه نبذةً .

فمن ذلك ما ذكرته فى وصف صورة مليحة فقلت :

« أَلْبسَ مِنَ الحسنِ أَنْضَرَ لباس ، وَخُلِقَ من طينةٍ غير طينة النَّاس ، وكما زَاد حُسْناً فـكذلك ازْدَاد طِيباً ، واتفقت فيه الأهواء حتى صارَ إلى كلِّ قلبٍ حبيباً ، فلو صافح الوردَ لتعطَّرتْ أوراقُه ، أو مر علَى الـنَّيْـلوفر[1] لَيْلاً لَتَفَتَّحَتْ أحداقُه » .

والمعنى الغريبْ ها هُنا أن الشمسَ إذا طلعت عَلَى النَّيْـلُوفر تفتّح أوراقه ، وإذا غربت عنه انضمّ .

ثمّ إنى سمعت هذا فى شِعر الفرسِ لبعضِ شعرائِهم ، فحصلَ عِندى منه تعجُّب .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم الشيب فقلت :

« الشيبُ إعْدامٌ للإِيسَـار ، وظلامٌ للأَنْوَار ، وهو الموتُ الأولُ الذى يُصْلِي ناراً من الهمّ أشدَّ وَقُوداً من النارِ ، وَلئِنْ قَـالَ قَومٌ إنه جَـلالَة فإنَّهُمْ دَقُّوا بِهِ وَمَا جَـلُّوا ، وَأَفْتَوْا فى وصفِه بغيْرِ علمٍ فضلُّوا وَأضلُّوا ، وما أَرَاهُ إلاَّ محراثاً لِلعُمْر ، وَلَمْ تدخُلْ آلةُ الحرثِ دَار قومٍ إلاّ ذَلُّوا . وَمِنْ عجيب شأْنِهِ أنّه المملول الذى يُشْـفَقُ من بعْـدِهِ ،وَالخلْقُ الذى يَـكْرَهُ نزْعَ بُرْدِه ، وَلمَّا فُقِد الشبابُ كان عنه عِوَضاً ، وَلا عِوَضَ عنه فى فَقْدِه » .

---

(١) النيلوفر ، ويقال النينوفر ، ضرب من الرياحين ، ينبت فى المياه الراكدة (انظر القاموس ٢ / ١٤٧)

والمعنى المخترعُ ها هنا فى قولِى : « وَمَا أرَاهُ إلا محراثًا للعمر ، ولم تدخل آلةُ الحرثِ دارَ قَومٍ إلا ذلُّوا » .

وهو مُسْتَنْبَطٌ من الحديثِ النبوىّ ، وذاكَ أنّ النبىَّ صلى الله عليه وسلّم رأى آلةَ حَرثٍ ، فقال : « ما دخَلَتْ هذهِ دارَ قَوْمٍ إلاّ ذَلُّوا » فأخذتُ أنا هذا ونقلتُه إلى الشَّيْبِ ، فجاءَ كما تراهُ فى أعلى درجاتِ الحُسْنِ ، وذلِكَ لما بينه وبين الشَّيْبِ من المناسَبَةِ الشبيهةِ ، لأنّ الشيْبَ يَفْعَلُ فى البدنِ ما يَفْعَلَهُ الحراثُ فى الأرض ، وَإذا نَزَلَ بالإنسانِ أحدثَ عندَه ذُلاً .

* * *

ومن هذا الباب ما ذكرته فى فصل من كتاب الى بعض الناس أعبث به ، فقلت :

« وَإذا كَتَبْتُ مَثَالِبَــهُ(١) فى كِتاب اجْتَمعَ عليْهِ بَنَاتُ وَرْدَان(٢) وَحرُمَ علىَّ أنْ أبْدَأ فيهِ بِالْبَسْمَلَةِ ، لأنّها من القرآن » .

وهذا معنى لطيفٌ فى غايةِ اللّطافةِ ، وهو مُخْتَرَعٌ لى .

* * *

وكذلك كتبت الى بعض الناس كتابا من هذا الجنس أهزل معه فقلت فى فصل منه ما أذكره ، وهو :

« يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَشْكُرَنِى عَلَى وَسْمِهِ بِهِجَائى دون امتداحِى ، فإنى لم أسِمْهُ إلا لِتَحْرُمَ بِهِ الأضحيَةُ فى يومِ الأضَاحِى ، ولا شَكَّ أن سَيِّدنَا معدودٌ فى جُملةِ الأنْعَام ، غَيْرَ أنَّه من ذوات القُرُونِ ، والقرنُ عَدُوُّه عند الخِصام » .

وهذَا معنَى ابتدعْتُهُ ابتداعاً ، ولم أسمعْه لأحد من قبْلى .

---

(١) جمع مثلبة وهى العيب والمنقصة ، جمعها مثالب . يقال : ثلبه يثلبه لامه وعابه .

(٢) بنات وردان دويبات تلزم الكنف كالجعل والصراصير .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب يتضمن هزيمة الكفار ، وذلك فصل منه ، فقلت :

« وكانت الوَقْعَةُ يومَ الأحدِ مُنْتَصَفَ شهر كذَا وكذَا ، وهذا هُوَ اليومُ الذى تخيَّرهُ الكفارُ من أيامِ الأسبوع ، ونَصَبُوهُ موسِمًا لِشَرْعِ كُفْرِهم المشْرُوع ، فحصلَ ارْتِيَابُهم بِهِ إذْ تضمَّنَ للإسْلام مزيداً ، وقالوا : هذا يومٌ قدْ أسلمَ ، فلا نجعلَه لنا عيداً ، وقد أفْصَحَ لهمْ لِسَانُه لَوْ كانوا يعلمونَ ، بِأَنَّ الدِّين عند اللهِ هو الإسلامُ وأنَّ أوْلِياءَهُ هُمُ المسلمون » .

وهذا معنَى انفردْتُ بابتداعِه ، ولم يأتِ به أحدٌ مِمَّنْ تقدَّمنى .

* * *

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب ، الى ديوان الخلافة ببغداد ، وهو فى وصف القلم : فقلت :

« وقلمُ الدِّيوانِ العَزِيزِ هو الذى يَخْفِضُ ويرفَع ، ويُعطِى وَيمنَع ، وهو المُطَاعُ ، لِجَـدْع أنفِه وسَوَادِ لِبَاسِه ، وقد وَرَدَ الأمرُ بطاعةِ الحَبَشِىِّ الأَجْدَع ، ومنْ أحسنِ صِفَاتِه أنَّ شِعَارهُ مِنْ شعارِ مَوْلاه ، فهو يخلعُ عَلَى عبيدِه مِنَ الكرامةِ ما يخلَع » .

فى هذه الأوصاف مَعانٍ حسنةٌ لطيفة ، ومِنْها معنًى غريبٌ لم أُسْبَق إليْه ، وهو قولِى « إنَّه المطاع لِجَدْعِ أنفِهِ وسوادِ لباسِه ، وقد وردَ الأمرُ بطاعةِ الحَبَشِىِّ الأجدع » فإنَّ هذا مِمَّا ابتكرتُه .

وهو مستخرجٌ من الحديثِ النبوىِّ فى ذكرِ الطاعةِ والجماعةِ ، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : «أطِعْ ولَوْ عَبْداً حبشيًّا مُجَدَّعًا ما أقامَ عَلَيْكَ كِتَابَ الله» فاستخرجتُ أنَا للقلمِ معنًى مِنْ ذلك ، وهو أنَّ القلمَ يجدَّعَ ويُقمَّص لِبَاسَ السَّوادِ فصارَ حَبَشِيًّا أجدع .

وهذا كما فعل أبُو تمَّامٍ حبيبُ بنُ أوسٍ الطائيُّ فى قصيدتِه السِّينيَّة[1] ، فإنَّه استخرجَ المعنى المخترَعَ مِنَ القرآنِ الكريمِ ، وأنَا استخرجْتُ المَعْنى مِنَ الخبر النبويِّ كما أريتُك .

وهذا المعنى المشارُ إليهِ فِى وَصْفِ القلمِ أوْرَدْتُه بعبارةٍ أُخْرى عَلَى وجهٍ آخر ، ونبهتُ عليه فى كتابِ « الوَشْى المرقُوم فى حلِّ المنظوم » وهذا كتابٌ أَلَّفْتُه فِى صناعةِ حَلِّ الشِّعر وغيرِه .

* * *

وبعدَ هذا فسأقولُ لك فى هذا الموضع قولاً لم يقُلْه أحَدٌ غيرى ، وهو أن المعانِىَ المبتدعةَ شبيهةٌ بمسائلِ الحسابِ المَجْهُولِ من الجبرِ والمُقَابلَة ، فكما أنَّك إذا وردتْ عليكَ مسألةٌ من المجهولاتِ تأخُذها ، وتقلِّبها ظهراً لبطنٍ ، وتَنْظُرُ إلى أوائلها وأواخِرها ، وتعتبرُ أطرافها وأوساطها ، وعند ذلِكَ تخرُجُ بِكَ الفكرةُ إلى معلومٍ ، فكذلِكَ إذا وَرَدَ عليكَ معنًى من المعانى ينبغى لكَ أن تنظرَ فيهِ كنظرك فى المجهولاتِ الحسابيَّة ! .

إلاّ أنَّ هذا لا يقعُ فى كلِّ معنى ، فإنَّ أكثرَ المعانى قد طُرِقَ وسُبِقَ إليه ، والإبداعُ إنما يَقعُ فى معنًى غريبٍ لم يطْرَق ، ولا يكونُ ذلِكَ إلاّ فى أمرٍ غريبٍ لم يأتِ مثلُه ، وحينئذٍ إذا كُتِب فِيه كتابٌ ، أونظمَ فيهِ شِعْرٌ فإنَّ الكاتبَ والشَّاعِرَ يَعْثُران عَلَى مَظِنَّةِ الإبداعِ فِيه .

---

(١) يشير إلى قوله :

لا تنكروا ضربي له من دونه ‏ مثلا شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب المقل لنوره ‏ مثلا من المشكاة والنبراس

وقد سبق الاستشهاد به فى معرض الكلام عن معانيه المبتدعة .

وقد لَابَسْتُ ذلكَ فى مَواضِعَ كثيرة . وسأوردُ ها هُنا ما يُحْذَى حَذْوُه لمن استطاعَ إليه سبيلا .

ومن ذلك ما كتبته عن نفسى الى بعض ملوك الشام وأهديت اليه رطبا ، وهو :

« خلد اللهُ دولة مولانا ، وَعَمر لها مَجْدًا وجنَابا ، وخوَّلها السعادةَ عَطاءً حِسَابا ، وأنشَأَ اللَّيالى لِخدمتِها عُرُبًا أترابًا[1] ، وأبقى شَبيبَتَها بقاءً لا يَستَحْدِثُ معه خِضَابا ، ولا جعلَ لها فى محاسنِ الدِّول السابقةِ أشباهًا ولا أضرابًا ، وألقى اليأسَ بين أعدائِها وحُسَّادِها ، حتّى يَبْعَثَ لهمْ فِي الأَرْضِ غُرَابا .

« إذا أرادَ العبيد أن يُهدوا لمواليهم قصَّرتْ بهم يَدُ وُجْدِهِم ،وعلِمُوا أنَّ كلَّ ما عندَهم من عِنْدِهِم، لكن فِي الأشياء المستطْرفَةِ ما يُهْدى وإنْ كان قدرُه خَفيفًا ، ولولا اختلاف البلاد فيما يوجدُ بها لما كانَ شيءٌ من الأشياءِ طريفا .

« وقدْ أَهْدَى الملوكُ من الرُّطَب ما يتجَلّى فى صِفة الْوَارِس ، ويُزْهَى بحسنهِ حتى كأنَّه لم يُدَنَّسْ بيدِ لامس ، وما سُمِّىَ رُطَبًا إلا لاشتقاقِه من الرُّطْب الّذِى هو ضدِّ اليابِس .

« وقد أثنى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم عليه ثناءً جَمًّا ، وفَضَّلَ شجرتَه على الشجرِ بأنْ سَمَّاها أمًّا ، ولئنْ عَدِمَ عَرْفًا لذيذاً فإنه لم يَعْدَمْ منظراً لذيذاً

---

(١) العرب جمع العروب من النساء بوزن العروس وهى المتحببة إلى زوجها ، والأتراب جمع ترب بكسر التاء اللدة والسن ومن ولد معك ، اقتباس من قول الله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكاراً * عربا أترابا * لأصحاب اليمين »
سورة الواقعة : الآيات ٣٥ – ٣٨ .

وَلاَ طَعْماً ، وله أوصافٌ أُخْرَى هي لفضلِهِ بمنزلةِ الشُّهودِ ، فمنْها أنَّه أولُ غذاء يُفْطِر عليه الصائم ، وأول غِذَاء يدخل بطنَ المولُود .

« وأحسنُ من ذلكَ أنَّه معدُودٌ مِن الحَلْوَاءِ ، وإنْ كانَ من ذَوَات الفِراس ، ولا فرقَ بينهما سِوَى أنَّه من خَلْقِ الله وتِلكَ من خَلْقِ النَّاس .

« وإذا أنصَفَ واصِـــفُه قالَ : ما من ثمرَةٍ إلاَّ وهي عنهُ قَاصرة ، ولو تفاخَرَت البلادُ بمحاسِنِ ثمارِها لقامَتْ أرضُ العِرَاقِ بِهِ فَاخِرَة .

« وها قَدْ سارَ إلى بابِ مولانَا وَهُوَ مَجْنى المنابت سَار إلى مَجْنى الـكَرَم ، ومَلِكُ الفاكهة وَفَدَ على مَلِكِ الشِّيم .

« ولما استقلَّتْ به الطريقُ أنشأَ الحسد لغيرِهِ من الفواكِهِ أربَا ، وما مِنْها إلا مَنْ قالَ : يا لَيْتَنِي كنتُ رُطَبا .

« والئِن كانَ من الثَّمراتِ التي تختلفُ في الصُّورِ والأسماءِ ، ويُفَضَّل بعضُها على بعضٍ ويُسْقَى بشرابٍ واحِدٍ من الماء ، فكذلكَ تلك الشِّيَمُ العريقَة تتَّحِدُ في عُنْصُرِها وهي مختلفةُ الوَتِيرَة ، ومن أفضَلِها شِيمةُ السَّماح التي تقبَلُ القليلَ مِنْ عَبيدِها ، وتسمحُ لهمْ بالعطايَا الـكثيرةِ ، وقد ضَرَبَ لها الملوكُ مِثالاً ، فقال : هِيَ كَجَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ[1] ، بل ضَرَبَ لها ما ضرب المثلِ النَّبويِّ ، وهي نَخْلَةٌ بكَرْوَةٍ[2] .

« ولا يَخْتِمُ كتابَهُ بأَحسنَ من هذا القول الذي طابَ سمعاً ، وزَكَا أصلاً وفرْعا ، وتصرّفَ في أساليبِ البلاغَةِ ، فجاء به وتْرًا وشَفْعا ، والسَّلام » .

---

(١) مأخوذ من تشبيه القرآن « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة » سورة البقرة : الآية ٢٦٥ .

(٢) سيأتي هذا المثل النبوي في الصفحة التالية عند إيراد نص الحديث .

وهذا كتابٌ غريبٌ فى معناه ، وقد اشتمل عَلَى معانٍ كثيرةٍ :

فمنْ جُمْلَتِها أنّ الرُّطَبَ مشتقٌّ من « الرَّطْب » الذى هو ضِدُّ « اليابس » .

ومِنْ جُملتهـا أنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وسـلَّم سَمَّى النخلَة أُمًّا ، فقال : « أُمَّـكُمُ النخلةُ » .

ومِنْ جُملتها أنَّهُ كانَ صلى اللهُ عليه وسلَّم يُفطر عَلَى رُطَبات ، فإن لم يجِد فتَمرات .

ومن جُملتها أنَّه كانَ يَلُوكُ التَّمْرَةَ ، وَيُحَنِّكُ بها المولود عند مِيلاده ، ولمَّا وُلِدَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبير جاءَتْ أُمُّه أسْماء بنتُ أبى بكرٍ رضِيَ الله تعالى عَنْه وَوَضَعَتْهُ فى حِجْرِ رسُول الله صلى الله عليه وسلَّم ، فَلاكَ تَمْرَةً ، وَوَضَعَها فى فِيهِ .

ومن جملتها أنه والحلواء شيء واحد ، إلاّ أنه مِنْ خَلْق الله ، وتلْكَ من خَلْق النَّاس .

ومن جملتها أنَّ العَبَّاسَ رضِيَ الله عَنْه قالَ : « يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ قريشاً تذاكرتْ أحْسابَها ، فَضَرَبُوا لَكَ مِثَالاً بِنَخْلَةٍ بِكَبْوَةٍ[1] » .

---

(١) ذكر صاحب اللسان أن ناساً من الأنصار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نسمع من قومك : إنما مثل محمد كمثل نخلة تنبت فى كبا ، قال : هى بالكسر والقصر الكناسة ، وجمعها أكباء . . . وفى الحديث عن عباس أنه قال : قلت : يارسول الله إن قريشاً جلسوا ، فتذاكروا أحسابهم ، فجعلوا مثلك مثل نخلة فى كبوة من الأرض .

قال شمر : قوله « فى كبوة » لم نسمع فيها عن علمائنا شيئاً ، ولكنا سمعنا الكبا والكبة ، وهو الكناسة والتراب الذى يكنس من البيت . انظر لسان العرب ٢٠ / ٧٧

وكلُّ هذهِ المعانى حسنةٌ واردة فى موضعها . ومن كَتَبَ فى معنًى من المعانى فليَكتُبْهُ هكذا ، وإلاَّ فَليَدَعْ .

* * *

ومن ذلك رقعة كتبتها الى بعض حجاب السلطان فى حاجة عرضت لى ، وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم ، وهى :

ما مِنْ صديقٍ وإنْ صحَّتْ صداقتهُ يَوْماً بِأَنْجَحَ فِي الحاجاتِ مِنْ طَبَقِ
إِذَا تَلثَّمَ بالمِنْــديلِ مُنْطَلِقاً لَمْ يَخْشَ نَبْـوَةَ بَوَّابٍ وَلاَ غَلَقِ

« الهديَّةُ مُشْتَقَّةٌ من الهُدَى ، غيرَ أنها تَزِفُّ إلى القَلبِ لاَ إلى النَّدى ، وَصَهارتها أنفعُ من الصَّهارة ، وكلَّما تردَّدتْ كانت بكراً ، فهىَ لاتنفكُّ عن البَكارة ، ومنْ خصائصِها أنها تُمْسكُ بمعروفٍ أمِنَ من السَّرَاح ، وإذا رامَتْ فَتْحَ بابٍ لا تفتقرُ فى علاجِه إلى مِفْتاح ، وقد قيل : إنها الحسناءُ المتأنِّقَةُ فى عِمارةِ بَيْتِها الَّتى توصَفُ بأنَّ القنديلَ يُضىء بزيتِها .

« وقَدْ أَرسلتُها إلى المولى وهى تتَهادى فى إعْجابها ، وتُدِلُّ بكثرةِ دَراهمِها وثيابِها ، وتقولُ : أنا الكريمةُ فى قومها ، الشريفةُ فى أنسابها .

« وأحسنُ ما فيها أنها جاءتْ سِرًّا ، لم تعلمْ بها اليَدُ اليُمنى من اليُسرى .

« نُخذْها يامولاىَ ، وا كشفْ نقَابها ، وأمِطْ عنْها جلْبابها ، وقدْ كانت منكَ حُرَّة ، وهى الآنَ فى حيِّز المُمَلَّكة ، ومن السُّنة فى مثْلها أن تؤْخَذَ بالنَّاصية وَيُدْعى بالْبَرَكة ، والسائرُ بها فلانٌ ، وهو فى الجهلِ بها حامل أسفار ، وناقلٌ لها من دارٍ إلى دار . ولرُبَّما نطقَ لسانُ حالها الذى هو أفصحُ من نُطْقِ اللسان ، وأذْكرتْ بحاجةِ مُرْسلها ، وحاشى فطانةُ الكريم من النِّسْيان ، وليس المطلوبُ إلا فضيلةً من الجاهِ تُسْفرُ بين السَّائل والمسْئُول ،

وتنقُـل البَعيدَ إلى درجة القريبِ ، والممنوعَ إلى درجة المبذُول « فإذا فعل المولى ذلكَ كانَ له منّةُ السِّفارةُ ومنّةُ الإنْعام ، وإنْ سُمع بأنّ سعيًا واحداً فازَ بشُكرَيْن اثنين ففِى مثْل هذا المقام . ومن الناس مَنْ يقولُ : ليس على جانب السُّلطان ثقلٌ فى صُنْعه ، وهل هاهُنا إلا كلماتٌ تُقال ، والكلام ماعُونٌ لا رُخْصة فى منْعه ، ولم يدْر أنّ ملاطفةَ الخطاب ضربٌ من الاحتيال، وأن نقْل الخطوات فيه أثقلُ من نقْلِ الجبال ، وأنّ صاحبَ الحاجةِ يَحْظَى بحلاوةِ النّجاح ، والحاجبُ يلقى مرارة السؤال .

« وهذا يقولُه الخادمُ إيجاباً لإحْسانِ المَوْلى الذى هُو إحسانٌ شامل، ولا يعلمَهُ إلا عالمٌ بفَضْله ، ولا يجهلُه إلا جاهِل ، والله تعالى يجعلُ الحاجات معْذُوقة ببَابه ، حتى لاتنفكَّ فى الدُّنيا من إمداد شكره ، وفى الآخرة من إمداد ثوابه ، والسّـلام » .

فتأمّل أيُّها الناظرُ فى كتابى هذا إلى ما اشتملتْ عليه هذه الرُّقْعةُ من المعانى حتى تعلم كيفَ تَصْنَعُ يدكَ فيما تكتُبه ! .

* * *

ومن ذلك رقعة أخرى كتبتها فى هذا المعنى المتقدم ذكره ، وأرسلت معها هدية من المسك ، وهى :

« الهديّةُ رسولٌ يخاطِبُ عَنْ مُرْسلِهِ بغيْر لسان ، ويدخلُ على القلوب من غير استئذان ، وقد قِيلَ : أُختُ السِّحْر فى ملاطَفَة قَصْدها ، غير أنّها لا تحتاجُ إلى نَفْثـها ولا إلى عُقَدِها[1] ، ومامنْ قلبِ إلا وصورَتها تُجْلَى عليه

(١) إشارة إلى قوله تعالى « ومن شر النفاثات فى العقد » سورة الفلق : الآية ٤ والنفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها ويرقين ، والنفث النفخ مع ريق .

فى سَرَقة[1] ، ولولا شرفُ مكانِها لما حُلِّتْ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصَّدقة ، ولها صفاتٌ غيرُ هذه كريمةُ الأخطار ، حسنةٌ لدى الأسماعِ والأبصار ، ومن أَحْسَنِها أنها تستجدُّ وُدًّا ، وتجعل قُرْبًا ما كان بعْداً ، وتقول لنارِ الإحْنةِ : « يانار كُونى بَرْداً » ولهذا قيلَ تَهادَوْا تحابُّوا ، ولا شكَّ أنها وُصْلة بين المودَّات ، فإذا تواصَل الناسُ تقارَبُوا .

« وقدْ أرسلَ الخادمُ منْها شيئاً إذا كَتَمه ذاع ، وإذا خزَنهُ ضاع ، وقد شُبِه به الجليسُ الصَّالح بعدد أسباب الانْتفاع ، ومِمَّا زاد مزيَّةً على مزيَّتِهِ أنهوَشِيَم المولْى توْأمان ، غير أنَّ شيمتَهُ تنتمى إلى كرم مَحْتِدها ، وهو ينتمى إلى سُرَرِ الغِزْلان ، فإذا وَرد على مجلسِهِ قيلَ : هذا عطرٌ وَرَد عَلَى جوُنَةَ[2] عطَّار وعُرِف له حقُّ المشاركةِ فإنَّ أدْنى الشرك فى الشِّيم جِوار . وقد نطَق الخبرُ النبويُّ بأنه أحدُ الثلاثة التى لاتُرَدُّ على من أهْداها ، وإذا نُظر إلى محصول بقائها وفائدتها ، وُجِد أطولَهَا عُمْراً وأجْداها ، وهذا يحكُمُ عل المولى بقَبُول ما اسْتَرْسل الخادمُ فى إرساله ، وإذا سأَل غيرُه فى قبول هديَّته كفاه نصُّ الخبر مئُونةَ سُؤاله ، والسلام » .

وهذه الرُّقعةُ أحســـنُ من التى قبلها .

فما اشتملت عليه من المعانى قولى : « وما منْ قابِ إلا وصورتها تُجْلَى عليه فى سَرَقة ، ولولا شَرَفُ مكانِها لمـا حُلِّتْ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصّدقة » .

وهذان المعْنيَان مستخرجان من خبَرَيْن نبويَّيْن :

---

(١) السرقة واحـــدة السرق بفتحتين شقق الحرير الأبيـــض أو الحرير عامة .

(٢) الجونة سليلة مستديرة مغشاة أدماً تكون مع العطارين .

أحدهما : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « جاءني جبريلُ عليه السَّلامُ ومعه سَرَقةٌ من حرير — يعنى حَرِيرةً بيضاء — وفيها صورةُ عائشةَ ، رضى الله تعالى عنها ، وقال : هذه زوجتُك فى الدُّنيا والآخرة » .

والخبرُ الآخر : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : «حُرِّمَتْ علىّ الصَّدقةُ وأُحلّتْ لى الهديّة » .

ومّما اشتملتْ عليه أيضاً قولى : « وقدْ أرسلَ الخادمُ منها شيئاً إذا كتمهُ ذاع ، وإذا خزَنه ضاعَ » . وهذه مغالطةٌ حسنة ، لأنَّ المسكَ إذا كُتمَ ذاعتْ رائحتُه ، وإذا خُزِنَ ضاع : أى فاح ، ويقال « ضاع الشيء » إذا ذهب ، فالمغالطةُ هاهنا فى الجمع بيْن الضِّدّين .

وكذلك قولى : « وقد شبِّهَ به الجليسُ الصَّالح » وهذا مستخرجٌ من الخبرِ النبوىِّ أيضاً ، وذاك أنه قال صلى الله عليه وسلم : « مثَلُ الجليسِ الصالح مثَل حامل المسك إما أنْ يَحْذِيَك[1] ، وإمّا أنْ تبتَاع منه ،و إمّا أنْ تجِدمنه عَرْفاً طيِّباً. ومَثلُ جلِيس السُّوء مَثل نافخِ الْكيرِ ، إمّا أن يُحرِق ثوْبكَ وإمّا أنْ تجدَ منه رائحةً كريهةَ » .

ومما اشتملتْ عليه من المعانى أيضاً قولى : « إنه أحدُ الثلاثةِ التى لا تُردُّ على منْ أهْداها » .

وهذا مُستْخرجٌ من الخبر النبوىِّ أيْضاً ، وهو قولُه صلى الله عليه وسلم : « ثلاثةٌ لا تُردُّ : الطيب والرَّيْحانُ ، والدُّهْن » .

* * *

---

(١) الحذوة - بالكسر — العطية .

ومن ذلك رقعة كلفني بعض أصدقائي املاءها عليه ، وهي رقعة من عاشق الى معشوق ، وهي :

وإذا قيلَ : مَنْ تُحبُّ ؟ تخطَّا ... كَ لساني ، وأنتَ في القلبِ ذاكا

« يامَنْ لا أسمِّيه ولا أُكنِّيه ، وأذكرُ غيرَه وهو الذي أُعْنِيه ، لا تكنْ ممَّنْ أُوتي مُلْكاً فلم ينظرْ في زواله ، وعَرفَ مكانَه منَ القلوبِ فجارَ في إدْلاله ، ولا تغْتَرَّ بقول من رأى الُحسْنَ للإساءة ماَحِياً ، واعلمْ أنَّ اللاَّحيَ يقولُ : كَفى بالتَّذلل لاحِياً ، وكثيراً مايزُولُ العِشْقُ بجِنايات الصُّدود ، والزيادةُ في الحدِّ نُقْصانٌ في المحْدُود .

« وقد قِيلَ : إنَّ الحسنَ عليه زكاةٌ كزكاة المال ، وليست زكاتُه عند علماءُ المحبَّة إلا عِبارةً عن الوِصال ، وهذه صدقةٌ تقسَّم على أربابها ، ولا يُنْتَظَرُ أنْ يحُولَ الحوْلُ في إيجابها ، فهي مستمرَّةٌ على تجدد الأيام ، والمستحقُّونَ لها قِسْمٌ واحدٌ ، ولا يُقالُ : إنهم ثمانيةُ أقْسام ، وهؤلاء همُ المخصوصونَ بفكِّ الرِّقاب ، ورقبةُ العِشْق أشدُّ أسْراً منْ رقبةٍ تتحرَّرُ بالكتاب . فأخرجْ ياموْلايَ من هذا الحقِّ الواجبِ ، وإلا فتأتَّ لطالبِ مُنًى ومطالب ، ولا تقل هذا غريمٌ أكثر عدَّ الليالي في مَطله ، وأعِدُهُ والمواعيدُ زادٌ لِمثْله ، فهذه سِلْعَةٌ قدْ عاملتْه بها مرَّةً ساخراً ! ومرة ساحراً ، ومنَ الأقوالِ السَّائرة أنَّ الغرَّ تجعلُه التَّجربةُ ماهراً ، ولَعَمْري إنَّ مُمارسةَ الحبِّ تجدِّد لصاحبه عِلْماً ، وتبصِّرُه وإنْ كانَ كما يُقال أعْمى ، وقد كذَبَ القائل :

عَرِّضَنْ للذي تُحبُّ بحُبٍّ ... ثمَّ دعْهُ يَرُوضُه إبْليسُ

« فإنْ كانت الرِّياضةُ كما قيل لإبليسَ فما أراه صَنعاً في الذي صَنع ،

وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح[1] وأنت جذع[2]. ولا شك أنك تهدم ما يشيده من البناء؛ أو أنك مستثنى في جملة من دخل في حكم الاستثناء، وأنا الآن له عائب، وعليه عاتب، فأين نفثاته التي هي أخدع من الحبائل؟ وأين قوله لآتينهم عن الأيمان والشمائل؟ وأين جنوده المسترقة ما في السماء التي تجري من بني آدم مجرى الدماء؟ وكل هذا قد بطل عندي خبره؛ كما بطل عندي أثره؛ فإن أدركته النخوة بأني أستهزئ بتصديق أفعاله، فليحلل معقول حاجتي هذه، حتى أعلم أنه قادر على حل عقاله، وإلا فليخفف رأسه، وليبخ وسواسه؛ وإن كان له عرش على البحر فليقوض من عرشه، وليعلم أن السحر ليس في عقده ونفثه، ولكنه في الأصفر ونقشه.

« وها أنا قد بعثت منه ما يجعل العزم محلولا، والود مبذولا؛ وما أقول إلا أني بعثت معشوقاً إلى معشوق، وكلاهما محله القلب؛ بل القلب من حبهما مخلوق، وما أكرمه وهو وسيلة إلى مثله، وحسنه من حسنه، وإن لم يكن شكله من شكله، وما وصفه واصف إلا كان ماراه منه فوق ماروَاه، ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم ير ذو وجهين وجهاه سواه، لاجرم أنه إذا أسفر في أمر تلطف في فتح أبوابه، وتناول وعره فبدله بسهله، وبعده فبدله باقترابه، ولو بعثت غيره لخفت أن لا يكون في سفارته صادقاً، أو أنه كان يمضي سفيراً ويعود عاشقاً، فليس على الحسن

---

(١) القارح المسن. وقرح الحافر انتهت أسنانه، وإنما ينتهي في خمس سنين. لأنه في السنة الأولى حولي، ثم جذع، ثم ثني، ثم رباع، ثم قارح. والمراد هنا الكبير صاحب التجربة.

(٢) الجذع الشاب الحدث.

امانة ، وفى مثله تُعْذر الخيانة ، ولا لومَ عَلَى العقول إذا نسيتْ هناك عزيمةَ رشْدها ، ورأَتْ مالا يحتمله كاهلُ جهْدِها ، ومن الذى يقوَى دِرعُه عَلَى تلك السّهام ، أو يرومُ النجاةَ منها ، وقد حِيلَ بينه وبين المَرام ؟ وهذا الذى منعنى ان أُرسل إلا كيساً وكتاباً ، فأحدُهما يكون فى السِّفارة والآخر على السِّرِّ حجابا ، والسلام إن شاء الله تعالى » !

وفى هذه الرُّقعة من المعـــانى الغريبة ما أذكُره :

فالأوّل : ما ذكرتُه فى قسْم الصّدقات ، وفكِّ الرِّقاب .

والثانى : ماذكرتُه فى وصفِ الدِّينار ، وهو أنَّه توجِيه ذو وجْهَيْن . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ذو الوجْهَـيْن لا يكون وجيهاً .

وهذا معنًى لم يسبقْنى أحدٌ إليْه .

وقدْ وَصَفَ الحرِيرىُّ الدِّينَارَ فى مقامةٍ من مقَاماتِه[1] ، ولم يَظْفرْ بهذا المعنى ، ولا جاءَ من الأوصافِ التى ذكَرها بِمثْله .

والثالث : أنى بعثتُ معشوقاً إلى معشوق !

* * *

(كتاب فى التعزية بوفاة زوجة بعض الملوك وولدها) :

ومنْ ذلك ما كتبتهُ ، وكانَ تُوفِّيتْ زوجةُ بعضِ الملوكِ ، وتوفِّى معها ولدٌ لها ، وهو طفلٌ صغير ، وكان بينهما يوْمان ، وتلك المرأةُ بنْتُ ملكٍ من المُلوكِ أيضاً ، فكتب إليْه مَنْ [فى] الأطرافِ المجاورة يعزُّونه ، وحضَر عندى بعضُ الأدباء ممَّن يحبُّ أنْ يكون كاتباً ، وعرض عَلَيَّ نُسْخَة ما كُوتِبَ به ذلك

(١) يشير إلى المقامة الثالثة ، وهى « المقامة الديناريه » — مقامات الحريرى ٢٥ — و هى تتضمن مدح الدينار وذمه .

الملكُ فى التَّعزيةِ بزوْجته وولدِها ، فوَجدتُها كتباً باردةً غثَّة ، لاتُعرِبُ عن الحادثة ، بل بَينْها وبينها بعدُ المشْرقين . ومن شَرْط الكتابة أن يكونَ الكتابُ مضمَّناً فَضَّ المعنى المقصود .

والتعازى مختلفةُ الأنحاء ، فتعازِى النساء غيرُ تعازى الرِّجال ، وهى من مُستَصْعبات فنِّ الكتابة والشِّعر ، وتعازى الرِّجال أيضاً تختلف ، فلا يعزَّى بالميِّت على فراشِه ، كما يعزَّى بالميِّت قتيلاً ، ولا يعزَّى بالقَتيلِ كما يعزَّى بالغريق .

وهكذا يجرى الحكمُ فى المعانى جميعها ، وهذا شىءٌ لا يتَنبَّه له إلا الراسخُون فى هذا الفنّ من أربابِ النثرِ والنَّظم .

وسألَنى ذلك الرجُل عنْ هذه التعزية المشار إليها فى المرأة وَولدها الصَّغير ، وقال : « أحِبُّ أن أعلَم كيف تكونُ » ؛ فأمليتُ عليه ثلاثة كتبٍ ، كلُّ كتاب يتضمَّن معنى لا يتضمَّنه الكتابُ الآخر .

فمما جاء منها كتاب أنا ذاكره ها هنا ، وهو :

«أشجى التعازى ما أُتبِعَ فيه المفقودُ بمفقود ، لاسيَّما إذا جمع بين سعْد الإخْبِيَة[1] وسعْدِ السُّعود[2] ، وكلٌّ منهما يعظُمُ حُزْنا كما يعْظُمُ مكاناً ؛

(١) من نجوم منازل القمر التى يتنقل فيها ؛ والناس مختلفون فيه . فمنهم من يقول إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل بطة . والكوكب هو السعد . والثلاثة الخباء . ومنهم من يجعل الكوكب الذى فى وسط الثلاثة عمود الخباء . وسمى « سعد الأخبية » لخروج المخبئات فيه من الثمار والحشرات . وكانت العرب تتبرك به لاخضرار العود فيه .

(٢) سعد السعود كذلك من نجوم منازل القمر . وعدته كوكبان . وقيل هو ثلاثة كواكب : أحدها نير ؛ والآخران دونه فى النور .

وهذا يَحْسِرُ عن الوجُوه خُمُراً ، وهذا يُلْقى عن الرُّءوس تيجانًا ؛ ولمْ يوفِّهمَا حقَّهُمَا مَنْ بكى ولا مَنْ ندب ، ولا من شَعر ولا من كَتب ، وليتَ فُدِى أَحدُهما بصاحِبه ، فعاش دِرْهما المفدَّى بالذَّهب :

وَلَوْ كَانَ خَطْبًا واحداً خَفَّ كَلْمُـه
وَلـٰكِنَّه خَطْبٌ أُعِيـد عَلَى خَطْبِ

« وَقدْ أصْدَرَ الخادمُ كتابه هذا ، ومن حقِّه أنْ يَخْرُج فى ثوبٍ من الِحْداد ، وأنْ يتعثرَ فى أذيالِ كَلِمِهِ ، والـكتابُ عنوانُ الفُؤَاد ، وغايةُ مايقُولُ : أَحْسَنَ الله عَزَاء المجلسِ السَّامِى الملكِ الأجلِّ السَّيِّد ، على أنَّ هذَا الدُّعاء قد شَهدت الحالُ بِلَحْنِهِ ، وكيفَ يملكُ قلبَه عَزَاءً ، وقد أوثقَه الهمُّ فى سِجْنه ، وصارَ له ولداً دُون وَلَدِه ، وخِدْناً دونَ خِدْنه ، لـكنْ يُدْعَى لهُ بامتداد البقاء ، وأنْ تعامِلَه الحوادثُ بعد هذهِ معاملةَ الإبْقَاء .

« ثمَّ نتبِع ذلك بطلبِ الجنَّة لمن نقلتْه المنايا عن أرائِكِ الُخدُور ، وجعلتْه فى بطونِ القُبور ، ولمنْ فاجأتِ الأيامُ غُصْنَه فَقَصَفَتْهُ ، ولَمْ يَعِشْ حتى عرفَ الدُّنيا ولا عرفتْه ، فواهاً لهما وقدْ نزلَا بمنزلٍ عديمِ الإيناس ، وإنْ كانَ مأهولاً بأكثرِ الناس ، فهو القريبُ داراً ، البعيدُ مزاراً ، الذى حُجِبَ مِنَ اليأس بأمْنَعِ حجاب ، وذهبَ عن الوجُوه المُنعَّمَة ذلَّ التُّراب ، فمن كانَ مُسْعداً للمجاسِ فليأخذْ بوَلَهِ الجزَعِ لا بعَزِيمةِ الاصْطبارَ ، وليقلْ : هذا حادثٌ بانَ فيه تحاملُ الأقْدار ، وجرتْ هُمُومُه مجرَى الخواطِرِ من القلوبِ والرُّقادِ مِنَ الأبصار ، فالأُسْوةُ — إلَّا فيه — معدودة من الإحْسان ، والسُّلْوَةُ — إلَّا عنهْ — داخلةٌ فى حَيِّز الإمكان .

« والخادمُ أوْلى مَنْ لَقِىَ المجلسَ فيه بالإسْعاد ، وقام بما يَجِبُ مِنْ قَضَاء حقِّ الوِداد ، وفعَل ما يَفْعَلُه القريبُ الحاضرُ ، وإنْ كانَ على شُقَّةٍ من البِعاد ،

وقد أرسلَ من ينُوبُ عنه فى التَّعزية ، وإنْ لم يكفِ فيها المَنَاب ، وكَمَا رُخِّصَ العُذْرُ فى قَصْرِ الصَّلاة ، فكذلكَ رُخِّصَ فى الاقتصارِ على الرَّسولِ والكتاب ، وقد ودَّ لو حضَر بنفسِه فاسْتَسْقَى لذلكَ الضريحِ سَحَاباً ، وعَقَر عنده رِكاباً ، وسأل الله مغفرةً وثواباً ، والسلام » .

فى هذا الكتابِ معنًى غريبٌ ، وهو قولِى « سَعْد الأَخْبِية » كناية عن المرأةَ ، « وسعد السُّعود » كنايةَ عن ولدِها ، لأن « سعد الأخْبِية » اسمُ مَنْزلةٍ من مَنازِل القمرَ ، و « الأخْبِيةُ » جمعُ « خِبَاء » ومن شأنِ المرأةِ أن تحتجبَ فى الأخْبِية ، فهى سَعْدُها ، وهذا من المعانِى الغَريبةِ فى مثل هذا المقصدِ ، وقد اتَّفق « سعد الأخبية » و « سعْدُ السُّعود » معًا ، وهذا أيضا غريبٌ .

* * *

كتاب عن الملك الأفضل الى أخيه الملك الظاهر غازى :

ومنْ ذلك أنى كتبتُ كتابا عن الملكِ الأفْضَل « علىِّ بن يوُسف » إلى أخِيه المَلِكِ الظَّاهِر « غَازى بن يُوسف » صاحبِ حَلب فى أمرِ شخصٍ كانَ أبُوه صاحبَ مَدِينة « تكْرِيت »[1] وهذه تكريتُ كان يتولّاها قديماً الأميرُ أيُّوب[2] جدُّ الملك الأفْضل والملك الظّاهر ، وأوْلد بها ولدُه صلاح

(١) تكريت بفتح التاء . والعامة بكسرها . بلد مشهور بين بغداد والموصل . وبينها وبين بغداد ثلاثون فرسخا فى غربى دجلة ولها قلعة حصينة أحد جوانبها إلى دجلة

(٢) هو نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان الملقب « الملك الأفضل » : وهو والد الملوك صلاح الدين وسيف الدين وشمس الدولة وسيف الإسلام وشاه شاه وتاج الملوك يورى وست الشام وربيعة خاتون ، وأخو الملك أسد الدين ، شب به فرسه عند باب النصر — أحد أبواب =

الدِّين يُوسف أبَاهما ، وعلى عقبِ ولادَتِهِ انتقلَ والدهُ عن « تـكريت » هو وعَشيرته ، لأمرٍ طرأَ لهمْ[1] ، وجاء إلى الموصِل ، ثم إلى الشَّام ، وهناكَ سَعِدُوا ، وكانَت السعادةُ على يَدِ صلاح الدين يُوسف .

فلمَّا أردْتُ أن أكتبَ هذا الكتابَ علمتُ أنَّه مظنَّة المعانى المبْتَدعة ، لأنّ الأمرَ المكتوبَ فيه غريبٌ لم يَقع مثْله ، فحينئذٍ كتبْتُ هذا الكتابَ . وهـــو :

« رفَعَ اللهُ شأنَ موْلانَا الملكَ الظّاهر ، ولا زالَ الدّهْرُ فاخراً بمآثِرِ سلطانِه ، ناظِماً مَنَاقِبَه فى جِيدِه ، ومحامدَه فى لسانه ، ناسخا بمساعِى دوْلتِهِ ما تقدّم من مساعِى آل بُوَيْه[2]

= القاهرة — فألقاه فى وسط المحجة فحمل إلى داره وكانت وفاته سنة ٥٦٨ هـ

(١) ذلك الأمر أن أخاه أسد الدين كان قد قتل رجلا ، فأمسكه أخوه نجم الدين أيوب ، واعتقله ، وكتب إلى بهروز وعرفه صورة الحال ليفعل به مايراه ، فوصل إليه جوابه : لأبيكما على حق ، وبيني وبينه مودة متأكدة ، فما يمكنني أن أكافئكما بحالة سيئة تصدر مني فى حقكما ، ولكن اشتهى منكما أن تتركا خدمتي وتخرجا من بلدى وتطلبا الرزق حيث شئتما . فلما وصل إليهما الجواب ما أمكنهما المقام بتكريت . فخرجا منها ، ووصلا إلى الموصل ، فأحسن إليهما الأتابك عماد الدين زنكى .

(٢) آل بويه من الفرس ، وجدهم الأقرب الذى أسس دولتهم أسمه بويه » ولقبه أبوشجاع ، وكان له ثلاثة أولاد : على ، ويلقب عماد الدولة ، وحسن ، ويلقب ركن الدولة ، واحمد ، ويلقب معز الدولة ، جاءوا إلى بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرحب بها المستكفى ، وخلع عليهم ولقبهم بتلك الألقاب ، =

وآلِ حَمْدَانه[1] ، كتابُ الخادم هذَا واردٌ من يدِ الأميرِ شَمْسِ الدِّين بن صاحبِ تَكْرِيت ، وهيَ أوَّلُ أرضٍ مسَّ جلد الوَالِد تُرابَها ، ررقَمت بها السَّعادةُ على جَبينِه كِتابَها ، ومِنْها ظَهَر نُورُ الْمَيْتِ الآيُّوبِي مُشْرِقاً ، وأشْامَ إذْ خَرَج مُعْرِقا ، وكفاهُ بذلك وسيلةً يكتَنِفُها الإحسانُ والإرْعاء ، ويكفِي صاحبَها أن يقولَ : لاَ أسقِي حتَّى يُصْدِر الرِّعاء . وقد قَرَنها بوسيلةِ قَصْدِ الخِدْمة الَّتى تُوجبُ لقاصِدها ذِماما ، ونقولُ له سلاما إذا قال سلاما ، ثم ثلث هاتيْنِ الوسيلتين بكتابِ الخادم أخْذاً بالسُّنة

= وجعل معز الدولة أمير الأمراء ، فاستبدوا فى المملكة ، واستولوا على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولوهم ، فرفعوا منار الشيعة ، وأحيوا معالمهـا ، وأضعفوا نفوذ الأتراك ، وامتدت سلطة البويهيين على العراق وفارس والخراسان إلى سنة ٤٤٧ ه وكانوا يحبون العلم والأدب ، ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا العلماء والشعراء والكتاب ، فكان أشهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمالهم أو قضاتهم أو كتابهم كابن العميد ، والصاحب بن عباد وسابور بن أردشير المهلبى ، فضلا عن الأدباء من العمال والقضاة وكتاب الدولة ، على أن ملوك بنى بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد فى الأدب والشعر .

(١) الدولة الحمدانية دولة عربية من قبيلة تغلب بجوار الموصل ، جدها حمدان كان له شأن فى تلك الديار ، واستولى ابنه محمد بن حمدان على ماردين ، فأخرجه منها الخليفة المعتضد ، وتولى أخوه أبو الهيجاء ابن حمدان أميرا على الموصل وما يليها سنة ٢٩٢ ه واشتد ساعده ، وزادت قوة الحمدانيين فى ذلك الحين » وصاروا دولة حكم منها أربعة أمراء فى الموصل ، وخمسة فى حلب ، حتى خرجت الموصل منهم إلى البويهيين سنة ٣٨٠ ه ، واستولى الفاطميون على حلب سنة ٣٩٤ ه ، وأشهر بنى حمـدان فى نصرة العلم والأدب سيف الدولة ــ أبو الحسن على ــ صاحب حلب من سنة ٣٣٣ إلى سنة ٣٥٦ ه .

النَّبوية في الدعاء وعَدده ، وتفاؤُلًا بتثليث النُّجوم فيما يقصدُه المرء من سعادة مَقصده ، ولا قَدْح في كرم الكريم إذا استكثر طالبُه من الأسباب ، فإنَّ الله على كرمه قد استُكْثِر إليه من أعمال الثّواب .

« وكتابُ الخادم على انفراده كافٍ لحامله ، ومُكْثِرٌ من حقوق وَسائله وقد صَدر مخاطبًا عن فَحْوَى ضميره ، فانّما تحقّ السِّفارةُ إذا قَعدَ بكلِّ طالبٍ سَعْىُ سَفِيره ، وهو مع ذلكَ خفيفةٌ صَفْحَتُه ، وجيزة لَمْحَتُه ، وإذا وجد لدى مولانا مُعَوَّلًا ، فليس عليْه أن يرُدّ مطوّلا ، إذ التعويلُ على نُجْحِ مصْدرِه ، لا على كثرة أسطُره » .

فانظرْ أيُّها المتأَمِّلُ إلى هذا الكتابِ ، وأعطِه حقّه من التأمُّل ، حتى تَرى ما اشتمل عليهِ من المعَانى ، وانظرْ كيف ذكرتُ الأوّل ، ثم الثانىَ ، ثم الثالثَ .

أمّا المعنى الأوّلُ : فإنّه يختصُّ بذكرِ سعادَة البيت الأيُّوبىِّ ، ومَنْشئها ، وأنّها وُلِدَتْ بتكريت ، وهذا الرجلُ ينبغى أَن يُرْعى بِسببها ؛ إذ كانَ أبوهُ صاحبها .

وأمَّا المعنى الثانى : فإنّه قَصَد الخِدْمة الظّاهِرية ، وهذا وسيلةٌ ثانية ، توجِبُ له ذِماماً :

وأمَّا المعنى الثَّالثُ فإنه حُرْمَةُ الكتابِ الصَّادر على يَدِه .

ثمَّ إنِّى مثَّلتُ ذلك بالدعاء النبوىِّ ، وبتثليثِ النُّجوم ، فإنَّ النبىَّ — صلّى الله عليه وسلم — كانَ إذا دَعا دَعَا ثلاثاً .

وإنما مثّلتُ ذَلك بالدُّعاءِ لأمرين :

أحدهما : أنّه موضعُ سُؤالٍ وضَراعةٍ .

والآخر : أنَّ الكتابَ وسيلةٌ ثالثة ، والدُّعاء ثلاثُ مِرار .

وأمَّا تثليثُ النجومِ ، فإنَّ التثليثَ سَعْد ، والتربيعَ نَحْس .

وأحسنُ المعانى الثَّلاثةِ التى تضمَّنها هذا الكتابُ هو الأوّل والثالثُ ، وأما الثانى فإنَّه متداوَل .

فتأمَّلْ ما أشرتُ إليْه ، وإذَا شِئْتَ أن تكتبَ كتاباً فافعَلْ كما فعلْتُ فى هذَا الكتاب ، إنْ كانَ الأمرُ الذى تكتُب فيه غريبَ الوُقوعِ .

* * *

واعلمْ أنَّه قد يقعُ المعْنى المبتَدعُ فى غيرِ أمرٍ غريبِ الوقوعِ ، وذلك يكونُ قليلًا بالنِّسبةَ إلى الوقائعِ الغريبة التى هى مَظِنَّةُ المعانى المبتدَعَة .

* * *

ومن هذا الباب ما أوردته فى جملة رسالة طردية فى وصف قسى البندق وحامليها ، وهو :

« فإذا تناولُوها فى أيْديهمْ قيل أهلّةٌ طالعَة من أكُفٍّ أقمار ، وإذا مُثل غَنَاؤُها وغَنَاؤُهم قيل : منايا مَسُوقَةٌ بأيدى أقدَار ، وتلك قِسِيٌّ وُضِعَتْ لِلعب لا للنِّضال ، ولِرَدَى الأطيار لا لِرَدَى الرِّجال .

« وإذا نعَتَها ناعتٌ قال : إنَّها جمعتْ بيْنَ وصْفَى اللِّينِ والصَّلابة ، وصُنِعَتْ منْ نوعيْنِ غريبَيْن ، فحازَتْ معنى الغَرابة ، فهى مُرَكَّبَةٌ من حيوانٍ ونباتٍ ، مؤلفةٌ منهما على بُعْدِ الشَّتَّات ، فهذا من سكَّانِ البحرِ وسواحِله ، وهذا من سكَّان البَرِّ ومجاهله .

« ومنْ صِفاتها أنها لا تتمكّنُ من البطشِ إلا حين تُشَدُّ ، ولا تَنْطَاقُ فى شأنِها إلا حِينَ تُعْطَف وتُرَدُّ ، ولها نِثارٌ أحكمَ تَصْويرها ، وصحح تَدْويرها ، فهىَ فى لونِها صَنْدَلِيَّة (١) الإهاب ، وكأنَّما صِيغَتْ لِقُوَّتها من حجر لا من

(١) منسوبة إلى الصندل . خشب أجوده الأحمر أو الأبيض .

تُراب ، فإذا قذفتها إلى الأطيارِ قيل : ويصعدُ من الأرضِ من جبالٍ فيها من بَرَد ، ولا يُرَى حينئذٍ إلا قتيلٌ ، ولكنْ بالمثقلِ الّذى لا يَجبُ في مثْلِه قَوَدٌ (١) فهى كافلةٌ من تلك الأطيارِ بقبْضِ نفُوسها ، مُنْزلَةٌ لها من جوِّ السَّماء عَلَى أمِّ رُءُوسِها » .

هذا الفصلُ يشتملُ على معانٍ غريبة :

منها قولى : « إنها لاتتمكّنُ من البطشِ إلا حين تُشَدُّ ، ولا تنطلقُ فى شأنها إلا حين تُعْطَفُ وتُرَدّ » .

ومنها قَوْلى : « ويَصْعَدُ من الأرضِ من جبالٍ فيها من بَرَد » .

وكلٌّ هذا من المعانى الّتى تُبْتَدَعُ بالنظرِ إلى المَقْصد المكْتوب فيه ، فإنّ الكاتب إذا فكّر فيما لديْه وتأمّله ، وكان قادراً على استخراج المعْنى والمناسبة بيْنهُ وبيْن مقْصدِه جاءَ هكذا كما تراهُ ، إلا أنّ القادر على ذلك من أَقْدرَهُ اللهُ عليه ، فما كلٌّ خاطر بحكيمٍ ، ولا كلٌّ من أُوحِى إليه بِكَليم ، وفى الأقلام هاشمُ لمنْ ناوأهُ ، ومنها هَشِيم ! .

* * *

وسأُنبِّه فى هذا الموضعِ على طريقٍ يُسْلَكُ إلى شىءٍ من المعانِى المختَرَعة ، وهو ما استخرجْتُه ، وانفردْتُ باستخراجِه دُونَ غيْرى ، فإنَّ المعانى المخترعةَ لم يتكلّم فيها أحدٌ بالإشارة إلى طريقٍ يُسْلَكُ فيها ، لأنَّ ذلك ممَّا لا يمكنُ . ومن هاهُنا أَضْرَبَ علماءُ البيانِ عَنْه ، ولمْ يتكلموا فيه كما تكلَّمُوا فى غيرِه ! .

وكيف تتقيَّدُ المعانى المختَرعةُ بقَيْد ، أوْ يُفْتح إليها طريقٌ تُسْلك ، وهى تأتى من فيْضٍ إلٰهىٍّ بغيرِ تعْليم ؟

---

(١) القود بفتحتين القصاص .

ولهذا اختصَّ بها بعضُ الناثرين والناظمين دُونَ بعْض ، والذى يختصُّ بها يكونُ فَذًّا واحداً يوجدُ فى الزّمن المتَطاول .

* * *

ولمّامارسْتُ أنا هذا الفَنَّ — أعْنى فنَّ الكتابة — وقلبتُه ظَهْراً لبطنٍ ، وفتَّشْتُ عنْ دفائِنه وخباياه ، وأكثرتُ من تحصيلِ موادّه والأسبابِ الموصِّلة إلى الغايَةِ منْه ، سَنح لى فى شىءٍ من المعانى المختَرعة طريقٌ سلكتُه ، وهو يستخرَجُ من كتابِ الله تعالَى ، وأحاديثِ نبيِّه صلواتُ الله عليه وسلامُه ، وقَدْ تقدّم لى منْه أمثلةٌ فى هذا الكتاب .

وذلِكَ أنّه تَردُ الآيةُ من كتاب الله أو الحديث النبوىِّ ، والمرادُ بِهما معنًى من المعانى ، فآخُذُ أنا ذلك ، وأنْقلُه إلى معنًى آخر ؛ فيصير مخترعاً لى .

وسأوردُ هاهُنا منهُ نبذةً يسيرةً ، يُعْلَمُ منْها كيف فعلْتُ ، حتى يُسْلكَ إليها فى الطَّريقِ الذى سلكتُه .

فمن ذلكَ قصَّة أصحاب الكهْف والرقيم[1] ، فإنى أخذتُ ذلك ، ونقلتُه إلى الإحسانِ والشُّكر .

ألا تَرى أنَّ الإحسانَ يُستعارلهُ كَهْفٌ وكَنَفٌ وظِلٌّ ، وأشباهُ ذلك .

والشُّكر كلماتٌ تُقَال فى التنويه بذكر المحسنِ وإحْسانه .

والرَّقيمُ هو الكتابُ المكتوبُ ، فهُو والشُّكرُ متماثِلاَن .

والَّذى أتيتُ به قد أوْرَدْتُه وهو :

---

(١) الرقيم قرية أصحاب الكهف ، أو جبلهم ، أو كلبهم ، أو الوادى ، أو الصخرة أو لوح رصاص نقش فيه نسبهم وأسماؤهم ودينهم وممّ هربوا ، أو الدواة أو اللوح — أو القاموس ٤ — ١٢٢ .

فصل من كتاب الى بعض المنعمين :

« الخادمُ يشكر إحسانَ المَوْلى الّذِى ظلّ عنده مُقيماً ، وغداً بمطالبه زَعيماً ، وأصبحَ بتَواليه إليه مُغرماً ؛ كما أصبَح له غَريماً ؛ ولما تمـثّـل فى الاشتمالِ عليه كهفاً صار شكره فيه رقيماً » .

فانظرْ كيف فعلتُ فى هذا الموضع ، لتعلمَ أنِّى قد فتحتُ لكَ فيه طريقاً تَسْلُــكه ! .

* * *

وأمّا الحديثُ النبويُّ فإنِّى أخذْتُ قصّة قَتْلَى بدر ، كأبى جَهْل ، وعُتْبَة ، وَشَيْبة ، وغيرهم ، ونقلتُها إلى الْقلم .

وذاك أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم وقف على الْقَليب الّذى ألقاهُم فيه ، وناداهم بأسمائهمْ فقال : ياعتبة . ياشيْبة ، ياأبا جهْل ، يافلان ، يافلان ، والحديث مشهورٌ فلا حاجةَ إلى استقصائه .

والذى أتيت به فى وصف القلم هو انى قلت :

« ولقد مَرَح القلمُ فى يدى ، وحقّ لهُ أنْ يمْرح ، وأبْدَع فيما أتى به ، وكلُّ إناءٍ بالّذى فيه ينضح ، ومن شأنه أن يَسْتقلّ عَلَى أعْوَاد المنْبر ، فلا ينْتَهى منْ خُطْبَتها إلى فصْلِها ، ويقف على جانبِ القَليب إلّا أنّهُ لا ينادى من المعانى أبا جَهْلها » .

فالدواةُ قَليب ، والقلمُ يقفُ عليه ، والمعانى التى ينْشئها من باب العلْم ، لا من باب الجهل .

فتأمّلْ هذه الكلماتِ الّتى ذكرتُها ، فإنّها لطيفةٌ جدًّا ، وهى مخترعةٌ لى .

وهذا القدرُ كافٍ فى طريقِ التعْليم ، فليُحْذَ حذوُه — إنْ أمكن — والله الموفِّق للصواب .

* * *

وأما الضربُ الآخرُ من المعانى ، وهو الذى يحتذَى فيه على مثالٍ سابقٍ ، ومنهجٍ مطروقٍ ، فذلك جُلُّ مايستعمِلُه أربابُ هذه الصناعة ، ولذلك قال عَنْترة :

* هَـــلْ غادَرَ الشُّعَراءُ منْ مُتَرَدَّم[1] *

إلّا أنّه لا ينبغِى أنْ يَرْسخَ هذا القولُ فى الأذهانِ ، لئلا يُؤْيِسَ من التّرَقِّى إلى درجةِ الاختراعِ ، بل يُعَوّلُ على القولِ المُطْمِع فى ذلكَ ، وهو قولُ أبى تمّام[2] :

لاَزِلْتَ منْ شُكْرِى فى حُلّةٍ   لاَبِسُها ذُو سَلَبٍ فاخرِ
يَقُولُ مَنْ تقْرعُ أسْماعَــهُ   كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخرِ

وَعَلَى الحقيقةِ فإنّ فى زوَايا الأفْكار خبايا ، وَفى أبْكار الخَواطِر سَبايا . لكنْ قدْ تَقاصرتِ الهِمم ، وَنكصَتِ العزائم ، وَصار قُصارى الآخر أنْ يتّبع الأوّل ، وَليتَه تَبعَهُ وَلَمْ يُقَصِّرْ عنه تقصيراً فاحشاً .

* * *

(١) هذا صدر مطلع معلقته ، وعجزه :

* أم هل عرفت الدار بعد توهم *

(٢) ديوان أبى تمام ١٤٣ من قصيدة فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى أولها :

قل للأمير الأريحى الذى   كفاه للبادى وللحاضر
لتجزك الأيام ممدوحة   ونضرة عن عودى الناضر

وَوَقَفْتُ عَلَى كِتاب يُقالُ له « مقدِّمة ابْن أفْلَح البَغْداديِّ » قد قَصَرها عَلَى تَفْصيل أقسامِ عِلْم الفصاحةِ والبلاغةِ ، وللعراقيِّينَ بها عنايةٌ وهُمْ واصفُون لها ، ومُكِبُّون عليها .

ولمَّا تأمَّلْتُها وجدتُها قشوراً لا لُبَّ تحتها ، لأنَّ غاية ماعنْد الرَّجُل أن يقولَ : وأمَّا الفصاحةُ فإنها كقول النَّابغة مثلا ، أوْ كقوْل الأعْشى[1] ، أوْ غيرهما ، ثمّ يذكُرُ بيتاً من الشِّعر ، أوْ أبياتاً . ومَا بِهذا تُعرفُ حقيقةُ الفصاحةِ حتى إذا ورَدَتْ فى كلامٍ عرَفْنا أنّه فصيح ، بما عرَفْنا من حَقيقتَها الموجودةِ فيه ، وكذلكَ يَقُولُ فى غير الفَصاحة .

ومن أعجب ما وجدْتُه فى كتابه أنه قال : أمّا المعانى المبتَدعة فليسَ للعربِ منها شئ ، وإنما اختصَّ بها المحدَثُون ؛ ثم ذكر للمُحْدَثينَ معانى ، وقال : هذا المعنَى لفُلان ، وهذا غريب ، وهذا القولُ لفلانٍ ، وهو غريبٌ .

وتلك الأقوالُ التى خصَّ قائليها بأنهُم ابتدعُوها قدْ سُبِقُوا إليها ، فإمّا أنْ يكونَ غَيْر عارفٍ بالمعنى الغريبِ ، وإمّا أنّه لم يقفْ على أقوال النَّاظمين والناثرين ، ولا تبَحّرَ فيها ، حتى عَرَف ماقاله المتقدِّم ، ممّا قاله المتأخِّر .

وأمّا قوله إنهُ ليس للعرب معنًى مبتدعٌ ، وإنما هو للمحْدثين ، فياليْتَ شعْرى ! مَنَ السّابق إلى المعانى ؟ من تقدّم زمانُه ، أمْ مَنْ تأخَّرَ زمانُهُ ؟

---

(١) أعشى قيس هو ميمون بن قيس بن جندل من بكر بن وائل من ربيعة ، وهوأحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم ، والبعض يقدمونه على سائرهم ، ويحتج الذين يقدمونه بكثرة طواله الجياد ، وتصرفه فى المديح والهجاء وسائر فنون الشعر مما ليس لسواه ، ويقال إنه أول من سأل بشعره ، وأنتجع به أقاصى البلاد ، وكان يغنى به ، فسمى صناجة العرب . توفى سنة ٦٢٩ م

وأنا أُورد هاهُنا ما يُستدلّ به على بُطْلانِ ماذكره .

وذاك أنَّه قد ورد من المعانى أنَّ صورَ المنازلِ تمثّلتْ فى القلوب ، فإذا عَفَتْ آثارُها لم تَعفُ صُوَرُها مِنَ القُلوب ، وأوّلُ من أَتى بذلكَ العرَبُ ، فقال الحارثُ بنُ خالدٍ[1] من أبيات الحماسة[2] :

إنِّى وَما نَحَرُوا غداةَ مِنًى عِنْدَ الجمارِ يَئُودُها العُقُلُ[3]

لوْ بُدِّلَتْ أَعْلى مَساكِنِها سِفْلًا وَأصبَح سِفْلها يَعلُو

لعَرَفتُ مَغْناها بِما[4] ضَمِنتْ مِنِّى الضُّلُوعُ لأهْلِها قَبْلُ

ثمّ جاء المحدثُون من بعدِه ، فانسَحبُوا على ذَيْله ، وحَذَوْا حذْوه ، فقال أبُو تمّام[5] :

---

(١) هو الحارث بن خالد المخزومى ، شاعر كثير الشعر ، وكان فى عهد بني أمية ولى مكة من قبل يزيد بن معاوية ، فلم يمكنه ابن الزبير ، فلما ولى عبد الملك اقره عليها ، ثم عزله : ، فعتب عليه بأبيات من الشعر ، فأرضاه ووصله ، وهوأحد المعدودين من شعراء قريش ، ولا سيما فى الغزل والنسيب ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة ، ولا يتجاوز الغزل إلى المديح والهجاء ، وأكثر شعره فى عائشة بنت طلحة وكان يهواها ويشبب بها .

(٢) ديوان الحماسة ٢/٨٦ من أربعة أبيات ترك بن الأثير الثالث منها وهو قوله :

فيكاد يعرفها الخبير بها فيرده الإقواء والمحل

(٣) فى الأصل « وإن نحروا » ، والواو من « وما نحروا » القسم وآده أعياه ، والعقل واحده عقال ، ما يعقل به البعير عن السير أو للنحر ، وجواب القسم « لو بدلت » إلى آخر الأبيات .

(٤) فى ديوان الحماسة « لما ضمنت »

(٥) ديوان أبى تمام ٢٢٩ من قصيدة يمدح فيها المعتصم بالله ، أولها :

أجل أيها الربع الذى خف آهله لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله

وقفتُ وأحشائى منازلُ للأسى ... بهِ وهو قفرٌ قد تعفَّتْ منازِلُه

وقال البحتريُّ[1] :

عَفتِ الرُّسومُ وما عَفتْ أحْشاؤُهُ

مِنْ عَهْد شوْقٍ ماتحُولُ[2] فتذْهَبُ

وقالَ المتنبِّي[3] :

لَكِ يا منازلُ فى القُلوب منازلُ

أَقفرْتِ أنْتِ وهُنَّ مِنْك أواهِلُ

وهذا المعنى قد تداوله الشعراءُ ، حتى أنه مامنْ شاعر إلا ويأتى به فى شـعره .

وكذلك وردَ لبعضهم من شعْراء الحماسة[4] :

أناخَ اللُّؤْمُ وَسْطَ بَنى رياحٍ ... مَطيَّتهُ فأقْسَمَ لا يَريمُ[5]

كَذَلِكَ كلُّ ذِى سَفرٍ إذا ما ... تَناهَى عِنْد غَايَتِهِ يقيمُ[6]

---

(١) ديوان البحترى ٣ ـ ١٨٨ من قصيدة يمدح بها إسحاق بن إبراهيم ، ومطلعها :

عارضتنا أصلا فقلنا الربرب ... حتى أضاء الأقحوان الأشنب

(٢) فى الديوان « مايحول » بالياء .

(٣) ديوان المتنبى ٣ ـ ٢٤٩ مطلع قصيدة فى مدح القاضى أبى الفضل أحمد بن عبد الله الإنطاكى .

(٤) ديوان الحماسة ٢ ، ٢٢٧ .

(٥) فى الأصل « بنى رماح » و« وأقسم » والتصويب عن ديوان الحماسة ومعنى لا يريم لايبرح .

(٦) فى ديوان الحماسة « مقيم » بالميم موضع الياء .

وهذان البيتان من أبيات المعانى المبتدعة، وعلى أثرهما مشى الشعراء.

وكذلك ورد لبعضهم فى شعر الحماسة[1]:

تركت ضأنى تود الذئب راعيها ... وأنها لا ترانى آخر الأبد

الذئب يطرقها فى الدهر واحدة ... وكل يوم ترانى مدية بيدى

وكذلك ورد قول الآخر:

قوم إذا ماجنى جانيهم آمنوا ... للؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا[2]

وكم للعرب من هذه المعانى التى سبقوا إليها.

ومن أدل الدليل على فساد ما ذهب إليه[3] من أن المحدثين هم المختصون بابتداع المعانى أن أول من بكى على الديار فى شعره رجل يقال له ابن حذام وكان هو المبتدىء لهذا المعنى أولا. وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره، فقال[4]:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا ... نبكى الديار. كما بكى ابن حذام[5]

وقد أجمع نقلة الأشعار إن لامرىء القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يسبق إليها، ولا قيلت من قبله.

---

(١) ديوان الحماسة ٢ ـ ٢٤٥.

(٢) البيت فى نقد الشعر ٤٧ و فى الصناعتين ١٠٥ وقبله:

اللؤم أكرم من وبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

(٣) يشير إلى أبن أفلح وكلامه فى مقدمته.

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ٢١.

(٥) قال ابن سلام: وابن حذام رجل من طيء لم يسمع شعره الذى بكى فيه ولاشعر غير هذا البيت الذى نكره أمرؤ القيس، وفى الأصل «ابن حرام»، وفى الأصل (الطلل المخيل) بالخاء المعجمة، ومعنى المحيل المتغير.

ويكفي من هذا كُلِّه ما قدَّمْتُ القولَ فيه . وهو أنَّ العربَ السابقُون بالشِّعر ، وزمانُهم هو الأوَّل ، فكيفَ يقال أنَّ المتأخِّرين هم السَّابقُونَ إلى المعاني ؟ ! .

وفي هذه الأمثلَة الّتي أوردتُها كفايةٌ في نقضِ ما ذكره .

ولوْ قال[1] : إنَّ المحدثينَ أكثرُ ابتداعاً للمعاني ، وألْطف مأخَذاً ، وأدقُّ نظراً ، لـكانَ قولُه صَواباً ، لأنَّ المحدَثين عظُمَ الملكُ الإسلاميُّ في زمانِهم ، ورأوْا مالم يره المتقدِّمون ، وقد قيلَ « إن اللُّهَا تفتحُ اللَّهَا[2] » وهو كذلك ، فإنَّ نفاقَ السُّوق جلّاب .

* * *

وقدْ رأيتُ جماعةً من متخلِّفي هذه الصِّناعةِ يجعلونَ همَّهُمْ مقصوراً على الألفاظِ التي لا حاصِلَ وَراءها ، ولا كبيرَ معنًى تحتَها ، وإذا أتى أحدُهم بلفظٍ مَسْجُوعٍ على أيِّ وجهٍ كانَ من الغثَاثَةِ والبَرْد يعتقدُ أنه قد أتى بأمرٍ عظيمٍ ، ولا يُشكّ في أنه صار كاتباً مُفْلقاً .

وإذا نُظِرَ إلى كُتَّاب زمانِنا وُجدُوا كذلك ، فقاتَلَ اللهُ القلمَ الذي يَمْشي في أيْدي الجُهَّال الأغْمَار ، ولا يعلمُ أنه كجوادٍ يمْشي تحْتَ حمار .

ولوْ أنه لا يتطاولُ إليه إلَّا أهلُه لبان الفاضلُ من النَّاقص ، على أنه كالرُّمح الَّذي إذا اعْتَقَلَهُ حاملُه بيْنَ الصَّفَّيْن بَانَ به المُقْدِم من الناكِصِ ، وقدْ

---

(١) الضمير عائد على أبن أفلح والكلام في مقدمته .

(٢) اللها بالضم جمع لهوة بالضم العطية دراهم كانت أو غيرها . واللها بالفتح واللهوات واللهيات أيضا جمع لهاة بالفتح ، وهى الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم .

أصبحَ اليومَ فى يدِ قومٍ هُم أحْوَجُ من صِبيان المكاتب إلى التّعْليم ، وقد قيل :
إنَّ الجَهْلَ بالجهلِ داءٌ لا ينتهى إليه سقم السَّقيم .

وهؤلاءِ لا ذنبَ لَهُمْ ؛ لأنّهم لوْ لم يُسْتَخدموا فى الدُّوَلِ ، ويُستكتبوا ، وإلّا ماظهرتْ جهالتُهُمْ ، وفى أمْثالِ العوامِّ « لاتُعِرِ الأحْمَقَ شَيئاً فيظنّه له » وَكذلك يَجرى الأمْرُ مع هؤلاء ؛ فإنّهُمْ استُكتِبُوا فى الدُّوَلِ ، فظنُّوا أنَّ الكتابة قد صارتْ لهمْ بأمرٍ حقٍّ واجِب .

وَمن أعجب الأشْياءِ أنّى لا أرى إلا طامِعاً فى هذا الفنِّ مُدّعياً له ، على خُلوّه عنْ تحصيل آلاته وَأسْبابه ، وَلا أرى أحداً يطمعُ فى فنٍّ من الفنونِ غيرِه وَلا يدّعيه ! .

هذا وَهُو بحرٌ لا ساحلَ له ، يحتاجُ صاحبُه إلى تحصيل علومٍ كثيرة ؛ حتى يَنتَهى إليه ، وَيحتوى عليه ، فسُبحانَ الله ! هلْ يدّعِى بعضُ هؤلاءِ أنه فقيهٌ ، أو طبيبٌ ، أو حاسبٌ ، أو غيرُ ذلك ، منْ غيرِ أن يحصِّل آلات ذلك ، ويُتقِنَ معرِفتَها ؟

فإذا كانَ العِلْمُ الواحدُ من هذه العُلُومِ الّذى يمكنُ تحْصيله فى سنةٍ أو سَنَتَين من الزّمان ، لايدّعيه أحدٌ من هؤلاء ، فكيف يجىءُ إلى فَنِّ الكتابةِ ، وهُو مالا تحْصُل معرفتُه إلا فى سنِينَ كثيرةٍ ، فيدّعيه ، وهو جاهلٌ به ؟

وممّا رأيتُه من المدّعين لهذا الفنِّ الذين حصلوا منْه عَلَى القشُور ، وقصَروا معرفتَهُم على الألفاظ المسْجوعة الغثّةَ الّتى لا حاصلَ وَراءها ، أنهم إذا أنكرتْ هذه الحالُ عليهم ، وقيلَ لهُمْ : إنَّ الكلامَ المسجوعَ ليس عبارةً عن تواطُؤِ الفِقَرْ عَلَى حرفٍ واحدٍ فقط ؛ إذْ لو كان عبارةً عن هذا وَحْده لأمكن أكثر

الناس أن يأتوا به من غير كُلْفَة ، وإنما هو أمر وراء هذا ، وله شُروطٌ متعددة فإذا سمعوا ذلك أنكرُوه لخلوِّهم عن معرفته ؛ ثم لو عَرَفُوه وأتوْا به على الوجه الْحسن مِن اختيار الألفاظِ المسجوعة لا حتاجوا إلى شَرْط آخر ، قد نبهت عليه فى باب (السَّجع) .

وإذا أُنْكِر عليهم الاقتصارُ على الألفاظ المسجُوعة ، وهُدوا إلى طريقِ المعانى يقولون: لنا أُسْوَةٌ بالعرب الذين هُمْ أربابُ الفَصاحةِ ، فإنهم إنما اعْتَنوْا بالألفاظِ ، ولم يَعْتَنوا بالمعانى اعتناءكُمْ بها ! !

فلمْ يكْفِهِمْ جهلُهمْ فيما ارتكبُوهُ ، حتى ادَّعَوْا الأسْوَة بالعرب فيه ، فصارتْ جهالتُهم جَهالتيْن .

ولنذكر هاهُنا فى الردِّ عليهمْ ما إذا تأمَّلهُ الناظرُ فى كتابنا عَرَف منه مايؤنقه ، ويذهبُ به الاستحسانُ كلَّ مذهبٍ ، فنقول :

اعْلَمْ أنَّ العربَ كما كانتْ تعتَنى بالألفاظ فتصْلحها وتهذِّبها ، فإنَّ المعانىَ أقوَى عندَها ، وأكرمُ عليها ، وَأشرفُ قدرا فى نفوسها ؛ فأوَّلُ ذلكَ عنايتَها بألفاظها ، لأنها لما كانتْ عنوانَ معَانيَها ، وطَريقَها إلى إظهارِ أَغْرَاضِها أصلحُوها وزيَّنوها ، وَبالغوا فى تحسِينها ؛ ليكونَ ذلك أوْقَع لها فى النَّفْس ، وأذهبَ بها فى الدِّلالة على القَصْد .

ألا ترى أنَّ الكلامَ إذا كانَ مَسْجُوعًا لذَّ لسامعهِ ، فحفِظَه ؛ وإذا لم يكن مسجوعًا لم يأنسْ بِه أُنْسَه فى حالةِ السجع ؟ .

فإذا رأيت العَربَ قَدْ أصْلَحُوا ألفاظهُم ، وحسَّنُوها ، ورقَّقُوا حواشيها ، وصَقَلوا أطْرَافَها ؛ فلا تظنَّ أنَّ العناية إذْ ذاك إنَّما هِى بألفاظِ فقط ؛ بل هىَ خِدْمةٌ منهُم للمعانى ؛ ونظيرُ ذلك إبرازُ صُورةِ الحسْناءِ فى الُحلَل الْمَوْشِيَّة ؛

والأثوابِ المحبَّرة ؛ فإنَّا قدْ نجدُ منَ المعَانى الفاخرةِ ما يُشوِّهُ منْ حُسْنِه بذاذةُ لفظِه ، وسوءُ العبارةِ عنْه .

فإنْ قيلَ : إنَّنا نرى منْ ألفَاظ العرب ماقدْ حسَّنُوهُ وَزَخْرفُوهُ ، ولَسنا نرَى تحتَهُ مع ذلك مَعْنًى شريفًا ، فمِمَّا جاءَ منْه قولُ بعْضِهِمْ[1] :

وَلمَّا قضَيْنَا منْ مِنًى كُلَّ حاجةٍ وَمسَّحَ بالأرْكانِ مَنْ هُو ماسِحُ

أَخَذْنَا بأطْرافِ الأحاديثِ بيْنَنَا وَسالَتْ بأَعْناقِ المَطىِّ الأباطحُ

ألا ترَى إلى حُسْنِ هذا اللفْظ وصَقالته ، وتدبيجِ أجزائه ؟ ومعناهُ مع ذلك ليسَ مُدانيًا له ، ولا مقاربًا ؛ فإنّه إنما هُو : لمَّا فرَغْنا من الحجِّ ركبْنا الطَّريقَ راجِعينَ وتحدَّثْنا على ظُهُور الإبل . ولهذَا نظَائرُ كثيرةٌ ، شَريفة الألفاظ ، خسِيسةُ المعانى[2] ؟

---

(١) هذا الشعر ينسب إلى كثير عزة ، وإلى يزيد بن الطثرية ؛ ونسبها الشريف المرتضى فى أماليه للمضرب ، وهو عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى (٢ / ١١٠) وبين هذين البيتين بيت هو :

وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغـادى الذى هـو رائح

وفى بعض الروايات « دهم المهارى » والمهارة جمع مهرية ، وهى الإبل المنسوبة إلى قبيلة « مهرة بن حيدان » .

(٢) صاحب هذا النقد هو ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) فإنه جعل الشعر أربعة أضرب ثانيها ضرب حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، وتمثل بالأبيات الثلاثة المذكورة ، ثم عقب عليها بقوله : هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع ، إن نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح » وهذا فى الشعر كثير (الشعر والشعراء ١-١١) .

فالجوابُ عَنْ ذلك أنّا نقُول[1] : هذا الموضعُ قَدْ سَبَق إلى التشبث به مَنْ لمْ يُنْعِمِ النَّظرَ فيه ، ولا رأى مارَآهُ القوم ؛ وإنما ذلك لجفاء طبعِ الناظر ، وعدم معْرفته ، وهو أنّ فى قول هذا الشاعر « كلّ حاجةٍ » مما يستفيد منه ، أهل النّسيب والرّقة [وَذَوُو][2] الأهواء والمِقَة مالا يستفيدُه غيرُهم ؛ ولا يشاركُهمْ فيه من ليسَ منهمْ .

ألا ترَى أن حَوائجَ مِنًى أشياءَ كثيرة ؟ فمنْها التّلاقى ، ومنْها التّشاكِى ، ومنها التّخلّى للاجتماع ؛ إلى غير ذلك ممّا هو تالٍ له ؛ ومعقودُ الكوْن به ، فكأنّ الشاعرَ صانَعَ عن هذا الموضِع الذى أوْمأ له ، وعقَد غرضَهُ عليه ؛

= وتمثل بهذه الأبيات قدامة بن جعفر فى نعت اللفظ بأن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها : عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ، مثل أشعار يوجد فيها ذلك . وأن خلت من سائر النعوت للشعر (نقد الشعر ١٢) .

وقال أبو هلال العسكرى : إن الكلام الذى إذا كان لفظه حلواً عذباً وسلسا سهلا ، ومعناه وسطاً ، دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ، وذكر الأبيات الثلاثة ، ثم عقب عليها بمثل تعقيب ابن قتيبة (انظر الصناعتين ٥٩) .

(١) قد يعتقد القارىء أن هذا الجواب من ثمار فطنة ابن الأثير واستواء ملكته النقدية ، ولكن الحقيقة أنه سطا عليه ، ونقله بمعانيه وأكثر حروفه من غير أن يرجعه إلى صاحبه ، وكثيرا ما رأينا منه مثل ذلك ، وهذا الجواب هو من تأليف أبى الفتح عثمان بن جنى صاحب « الخصائص » الذى بسط القول فيه على هذا النحو (أنظر الخصائص ١ ــ ٢٢٥) وقد أخذ رأى ابن جنى أيضا عبد القاهر الجرجانى وجعله دفاعاً عن الشعر عند من استقل معناه (أنظر أسرار البلاغة ١٥ ــ ١٨)

(٢) زيادة عن الخصائص .

بقوله فى آخرِ البيت « ومسّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ » أى إنما كانت حوائجُنا التى قضيناها ، وآرابُنا[1] التى بلغْناها من هـذا النَّحو الذى هو مسحُ الأركان ، وما هو لاحقٌ به ؛ وجارٍ فى القُربةِ من الله مَجْراه ، أى لم نتعدّ هذا القَدْر المذكورَ إلى ما يحتملُه أوّلُ البيت من التَّعريض الجارى مجرى التصريح .

وأما البيت الثانى : فانّ فيه « أخذْنا بأطراف الأحاديث بَيْنَنا » وفى هذا ما تذكرُهُ لِتعجَب بِهِ ؛ وبمَنْ عَجب منْه ، ووضَع من معناه ! .

وذلكَ أنّه لو قالَ : « أخذْنا فى أحادِيثنَا » ، أوْ نحوَ ذلك ، لكانَ فيه ما يُكْبِره أهلُ النسيب ، فانّه قد شاعَ عنْهم ، واتّسع فى مُحاوراتهم علوُّ قدر الْحديث بين الإلْفيْن ؛ والجَذْل بجمع شمْل المتوَاصليْن ، ألا ترَى إلى قوْل بعضهم :

وحدّثْتنى ياسعْدُ عنْها فزِدْتنى   جنُوناً فزِدْنِى منْ حَديثِك ياسعْدُ

وقول الآخر :

وحَديثُها السِّحْرُ الحلالُ لو انّهُ   لمْ يجْنِ قتلَ الْمُسْلم الْمُتحرِّزِ[2]

فإذا كان قدْرُ الحديث عندهم [مُرْسلًا][3] على ماترى ، فكيف به إذا قيّدوه بقوله « أخَذْنا بأطرافِ الأحاديثِ » ؟ فانَّ فى ذلك وَحْياً خَفيًّا ، ورمزاً حُلواً . ألا ترَى أنّه قد يُريد بأطرافها ، مايتعاطَاهُ المحبُّون ، ويتفَاوَضُه

---

(١) فى الخصائص « وآدابنا » .
(٢) هذا البيت والذى قبله فى الخصائص ١ — ٢٢٧ .
(٣) زيادة عن الخصائص ١ — ٢٢٨ والكلام منقول عن ابن جنى كما قدمنا .

ذوُو الصَّبابةِ من التعْريضِ والتَّلْويح والإيماء دُون التّصريح ؟ وذلكَ أَحْلى وأطيبُ ، وَأَغْزَلُ وأَنْسَب من أن يكون كشفاً ومصارحةً وجهراً .

وَإِنْ كانَ الأمرُ كذلك فمَعنى هذَين البيْتينِ أعلَى عِندَهم ، وأشَدّ تقدماً فى نفوسِهم منْ لَفظِهما ، وإنْ عذُب ولذّ مُستَمَعه .

نعمْ فى قول الشّاعر :

* وَسَالَتْ بأَعْناقِ المطِىِّ الأباطِحُ *

من لطافةِ المعنى وحُسْنه مالا خفاءَ به .

وسأُنَبِّه على ذلك ، فأقولُ : إنّ هؤلاء القومَ لما تحدَّثوا وهم سائِرُونَ على المطايَا شغلَتْهم لذّةُ الحديثِ عن إمساكِ الأزِمَّة ؛ فاسْترْخَتْ عن أيديهم ، وكذلك شأنُ مَنْ يَشْرَهُ وتَغْلِبُه الشّهوة فى أمرٍ من الأُمور ؛ ولمّا كانَ الأمرُ كذلك ، وارْتخت الأزمّة عن الأيدى أسْرعت المطايَا فى المسير ، فَشُبِّهَتْ أعناقُها بمرُور السّيلِ على وَجْه الأرض فى سُرْعتِه ، وهذا موضِعٌ كريمٌ حسنٌ ، لا مزيد على حُسْنه .

والذى لا يُنْعِم نظَرَهُ فيه لا يعلمُ ما اشْتمل عليه من المعْنى ، فالعربُ إنّما تحسِّنُ ألفاظَها ، وتُزَخْرِفُها ، عنايةً منها بالمعانى التى تحْتَهَا .

فالألفاظُ إذا خَدمُ المعانِى ، والمخدومُ لا شكَّ أشرفُ من الخادِم ، فاعرفْ ذلكَ ، وقِسْ عَلَيْه .

النـــوع الأول

فى الاستعارة

ولْنُقَدِّم قبلَ الـكلامِ فى هذا الموضع قولًا جَامعاً ، فنَقول :

اعلمْ أن للفصاحَةِ والبلاغَةِ أوصافاً خاصّةً ، وأوصَافاً عامّة .

فالخاصّةُ : كالتَّجْنِيس فيما يَرْجِـعُ إلى اللَّفْظ ، وكالمطابقَة فيما يَرْجِـعُ إلى المعنى .

وأمّا العامّة : فـكالسّجْع فيما يرجعُ إلى اللَّفظ ، وكالاستعارة فيما يرجعُ إلى المعنى .

وهذا الموضعُ الّذى نحنُ بصددِ ذكره — وهو الاستعارةُ — كثيرُ الإشكالِ ، غامضُ الخفَاء .

وسأوردُ فى كتابى هَذا ما استخرجْتُه ، ولمْ أسمَعْ فيه قولًا لِغَيْرى .

وكنتُ قدمْتُ القولَ فى الفَصْلِ السّابع منْ مقدِّمة الـكتابِ(١) فيما يختصُّ باثباتِ المجازِ ، والرّدِّ على مَنْ ذَهَب إلى أنّ الـكلامَ كلّه حقيقة ، لا مجازَ فيه ؛ وأقمتُ الدّليلَ على ذلك ، ولا حاجَة إلى إعادتِه ها هُنا .

بل الذى أذكره هاهُنا هو مايختصُّ بالاسْتعارةِ التى هىَ جزءٌ من المجاز ، ولِمَ سُمِّيتْ بهـذا الإسمِ ، وكَشفْتُ عن حَقيقتِها ، وميّزْتُها عن التّشبيهِ المضمَرِ الأدَاة .

(١) أنظر صفحة ١٠٥ من القسم الأول من هذا الكتاب .

والكلامُ فى هذا يحتاجُ إلى إعادَة ذِكْرِ المَجاز، وَإِدخالِهِ فيه، ليتقرّرَ وَيَتَبَيَّن .

أقسام المجاز :

والّذى انكشفَ لى بالنظرِ الصّحيحِ أنّ المجازَ ينْقَسِمُ قِسمين :
توسّعٌ فى الكلامِ وتَشْبيه .

والتشبيهُ ضربان : تشبيهٌ تام ، وتشبيه محذُوف .

فالتشبيهُ التَّامُّ : أنْ يُذْكَرَ المشبَّهُ والمشبَّهُ به .

والتشبيه المحذوفُ : أن يُذْكَر المشبَّه دُونَ المشبَّه به ، ويسمى (اسْتعارة) .

وهذا الإسمُ وُضِعَ للفَرق بينَه وبينَ التَّشبيه التّامّ ، وإلا فكلاهما يَجُوزُ أن يُطْلقَ عليه إسمُ (التَّشبيه) ويجوزُ أن يطلَقَ عليه إسمُ (الاستعارة) لاشتراكِهما فى المعْنَى .

وأمّا التوسُّع فانه يذْكرَ للتصرُّف فى اللُّغة ، لا لفائدةٍ أُخرى .

وإن شِئْتَ قُلْتَ . إنَّ المجازَ ينقَسِمُ إلى توسُّعٍ فى الكلام ، وتشبيهٍ ، واستعارةٍ ، ولا يَخْرج عن أَحَدِ هذه الأقسام الثَّلاثة ، فأيُّها وُجد كان مجازاً .

فانْ قِيل: إنَّ التّوسُّع شاملٌ لهذه الأقسامِ الثّلاثة ، لأنَّ الخروجَ من الحقيقةِ إلى المجاز اتِّساعُ فى الاستعمالِ . . .

قلتُ فى الجواب : إنَّ التوسُّع فى التشبيهِ والاستعارةِ جاءَ ضِمْناً وتبعاً ، وإنْ لم يكنْ هو السببَ الموجِبَ لاستعمالها .

وأمّا القسمُ الآخرُ — الذى هُوَ لاتشبيهٌ ولا استعارةٌ — فإنَّ السّببَ فى استعمالِه هوَ طلبُ التوسُّع لاغيرُ .

وبيانُ ذلكَ أنه قد ثبتَ أن المجازَ فرعٌ عن الحقيقةِ ، وأنّ الحقيقةَ هيَ الأصْلُ ، وإنّمَا يُعْدَلَ عن الأصل إلى الفرعِ لسببٍ اقتضاه .

وذلكَ السّببُ الذى يُعدل فيه عن الحقيقة إلى المجاز إمّا أن يكونَ لمشاركةٍ بين المنْقُول والمنْقول إليه فى وصفٍ من الأوصاَفِ ، وإمّا أنْ يكونَ لغير مُشاركةٍ .

الفرق بين التشبيه والاستعارة :

فإنْ كانَ لمشارَكةٍ ؛ فامّا أنْ يذكر المنْقُول والمنقولُ إليه معاً ، وإمّا أن يَذْكر المنقولُ إليه دُون المنقُول .

فانْ ذُكرَ المنقُول والمنقولُ إليه معاً كانَ ذلك تشبيهاً .

والتشبيهُ تشبيهان : تشبيهٌ مُظْهَرُ الأداةِ ، كقولنا : زيد كالأسَدِ ، وتشبيهٌ مُضْمَرُ الأدَاةِ كقولنا : زيدٌ أسدٌ .

وهذَا التّشْبيهُ المضمرُ الأدَاةِ قَدْ خاطهُ قومٌ بالاسْتعارةِ (١) ، ولمْ يفرِّقوا بَيْنهما ، وذلكَ خطأٌ مَحْضٌ .

---

(١) سبق القاضى الجرجانى صاحب الوساطة ابن الأثير إلى التمييز بينهما ، فقد ذكر أنه قد ورد ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، وأن بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

وليس هذا وما أشبهه إستعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل ، أو تشبيه شىء بشىء وإنما الاستعارة ما أكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبه المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ =

وَسأُوَضِّح وجه الخطإ فيه ، وأحقِّق القولَ فى الفرقِ بينهما تحقيقًا جليًّا ؛ فأقول :

أمّا التشبيهُ المُظْهَرُ الأداة فَلَا حاجةَ بنَا إلى ذِكره هاهُنا ، لأنّه معلومٌ لا خِلافَ فيه ، لكنْ نذْكُر (التّشْبيهَ المضمرَ الأداةِ) الذى وقع فيه الخلافُ ، فنقول :

إذَا ذكِرَ المنقولُ والمنقولُ إليه على أنه تشبيهٌ مضمرُ الأداةِ قيل فيه : زَيْدٌ أَسَد ؛ أى كالاسد ؛ فأداةُ التّشْبيه فيه مُضْمرة ؛ وإذا أُظهِرَت حَسُنَ ظهورُها ؛ ولم تَقْدح فى الكلام الذى أُظْهِرت فيه ؛ ولا تُزِيل عنه فصاحةً ولا بلاغةً .

وهذا بخلافِ ما إذا ذُكر المنقولُ إليه دُونَ المنقولِ ؛ فإنه لا يحسنُ فيه ظهور أداة التشبيه وَمتى أظهرَت أزالتْ عن ذلك الكلام ما كانَ متّصفًا به من جِنْسِ فصاحةٍ وَبلاغةٍ ، وَهذا هو (الاستعارة) .

ولنضربْ لك مثالا نُوضِّحه ؛ فنقول :

قدْ وردَ هذا البيت لبَعْض الشّعراء ؛ وهو :

فَرْعَاءُ إنْ نَهَضَتْ لحاجَتِهَا   عَجِلَ القَضيبُ وأبطَأَ الدِّعْصُ(١)

وهذا قَدْ ذُكر فيه المنقول إليه دونَ المنقول ؛ لأنّ تقديره « عَجِل قَدٌّ كالقضِيب ؛ وأبْطأ رِدْفٌ كالدِّعْص » وبيْنَ إيراده على هذا التقدير وبين إيراده على هَيْئته فى البيت بَوْنٌ بعيدٌ فى الُحسْنِ والملاحَة .

= بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر وانظر الوساطة بين المتنبى وخصومه ٤٠ .

(١) الفرعاء التامة الشعر ، والدعص قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب .

والفرق إذاً أنَّ التَّشْبيه المُضْمَرَ الأداة يَحْسُنُ إظهارُ أداةِ التَّشبيه فيه ، والاستعارة لا يَحْسُن ذلك فيها .

وعلى هذا فإنَّ الاستعارةَ لا تـكونُ إلا بحيثُ يُطْوى ذِكْر المستَعَار له الّذي هو المنقول إليه ؛ ويُـكْتفَى بذِكر المُسْتعَار الَّذي هو المنقول .

فإنْ قيل : لانُسَلِّمُ أنَّ الفرْقَ بَيْنَ التَّشبيه وبين الاستعارةِ ما ذهبْتَ إليه ، بل الفرقُ بينَهما أنَّ التشبيه إنَّما يكونُ بأداته ، كالـكافِ ، وكأنَّ ، وما جرى مجراهما ، فما لَمْ يظهَرْ فيه أداةُ التشبيهلا يكونُ تشبيهاً ، وإنَّما يكونُ استْعارة ، فاذا قُلْنا « زَيْدٌ أَسَدٌ » كان ذلك (استعارةً) وإذا قُلْنا « زيدٌ كالأسدِ » كان ذلك (تشبيهاً) .

قلتُ فى الجواب عنْ ذلك : إذا لمْ نجعلْ قولَنا « زيدٌ أسد» تشبيهاً مُضْمر الأدَاةِ استْحَال المَعْنى ، لأنَّ زيداً لَيْسَ أسداً ، وإنما هو كالأسدِ فى شجاعَته ، فأداةُ التشْبيه تُقَدَّرُ هاهنا ضَرُورةً ؛ كىْ لا يستحيلَ المعنى .

فإن قيل : وكذلِكَ أيضاً إذا لم تُقَدَّر أداةُ التشْبيه فى الاستعارةِ استحالَ المعنى ، لأنَّا إذا قُلنا « عَجِل القضيبُ ، وأَبْطأَ الدَّعْص » فما لمْ نُقَدِّر فيه أداةَ التشبيه ؛ وإلا استحالَ المعنى !

قلتُ فى الجوابِ عن ذلك : تقديرُ أداةِ التشْبيه لا بُدَّ منه فى الموضِعَين ؛ لـكنْ يحسُنُ إظهارُها فى التَّشْبيه دون الاستعارةِ .

وجملةُ الأمْر أنَّا نرى أداةَ التشبيه يحسُن إظهارُها فى موضعٍ دونَ موضع ، فعلمنا أنَّ الموضِـع الذى يحسُنُ إظهارها فيه غيرُ الموضع الذى لا يَحْسُنُ إظهارُها فيه ، فسمينْاَ الموضعَ الذى يحسُنُ إظهارها فيه (تشبيهاً مُضْمَرَ الأداة) والذى لايحسن إظهارها فيه (استعارةً) .

وإنما فعَلْنا ذلكَ لأنَّ تسميةَ ما يحسُنُ إظهار أداة التَّشْبيه فيه بـ (التشْبيه) أَلْيَق، وتسمية مالا يحسن إظهار أداة التَّشبيه فيه بـ (بالاستعارة) أَلْيَق، فإذا قُلنَا « زَيْدٌ أَسَد » حَسُن إظهارُ أداةِ التشبيه فيه بأنْ نقول « زيدٌ كالأسدِ » وإذا قلنا كما قال الشاعر :

فَرْعَاءُ إنْ نَهَضَتْ لحاجَتِها عَجِلَ القضيبُ وَأَبْطأَ الدَّعْصُ

لا يَحْسُن إظْهارُ أداةِ التشبيه فيه على ما تقدَّم من ذكر ذلك أوَّلا .

فإنْ قيل . إذا أجَزْتَ إضمار أداة التّشبيه، وقدّرت إظهارَها في قولك « زيدٌ أَسَد » أى كالأسد، فنحنُ نضمر أيضًا المستعارَ له ونقدِّر إظهارَه فإنه لما قال الشاعر « عَجِلَ القَضيبُ وأبطأَ الدِّعْص » أضمرَ المستعارَ له وهو القَدُّ والرِّدْف، وإذا أظْهر قيل « عَجلَ قدٌّ كالقضيبِ، وأبطأَ رِدْفٌ كالدِّعص » ولا فرقَ بين الإضْمَارَيْن، فكما يَسَعُكَ إضْمارُ أداة التشْبيه في قولك « زيدٌ أسد » فكذلك يسعُنا نحنُ إضمار المستعارِ له في قول الشاعر !

فالجوابُ عن ذلكَ أنى أقولُ : نَحْن فى هذا المقامِ واقفون مع الاستحسانِ لا مع الجَوَاز، ولو تأمَّلتَ ما أوردْتُه في أوَّل كلامى بالعَيْنِ الصحيحةِ لما أَوْرَدْتَ عَلَيَّ هذا الاعتراضَ هاهُنا، فإنِّي قلتُ : التشبيه المضمرُ الأداةِ يُحسن إظْهارُ أداة التشبيه فيه، والاستعارةُ لايحسُن إظْهار أداة التّشبيه فيها، ولوْ قلتُ : يجوزُ أو لا يجوزُ لوَرَد عَلَيّ هذا الاعتراضُ الذى ذكرته، وقد عُلِمَ وتحقّق أنَّ من الواجبِ فى حكمِ الفصاحة والبلاغةِ ألا يظْهر المستعارُ له، وإذا أُظهِر ذَهَب ما عَلَى الـكلامِ من الحُسْنِ والرّوْنق .

ألا ترَى أنا إذا اوْرَدْنَا هذا البيتَ الذى هو[1] :

(١) البيت للرأواء الدمشقى .

فأَمْطَرَتْ لُؤلُؤاً منْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
وَرْداً وَعَضتْ على العُنَّابِ بالْبَرَدِ

وُجِدَ عَلَيْه من الحُسْن والرَّوْنق مالا خَفَاء به ، وهو من باب الاستعارة .
فإذا أظهرنا المستعارَ له صِرْنا إلى كلامٍ غَثٍّ ، وذلك أنّا نقولُ : «فأمطرتْ دَمْعًا كاللُّؤْلُؤ من عينٍ كالنَّرجس ، وسَقَتَ خدًّا كالوَرْد ، وعضَّتْ على أناملَ مخضوبةٍ كالعُنَّابِ بأسنانٍ كالبَرَد » وفَرْقَ بين هذين الكلامين للمتأمِّلِ واسع .

وهكذا يَجْرى الحكمُ فى البيتِ المتقدِّم ذكره الذى هُو :

فَرْعَاءُ إنْ نَهضَتْ لحَاجَتِها عَجِلَ الْقَضيبُ وَأَبْطَأَ الدِّعْصُ

فإنَّ هذا البيتَ لا خَفاء بما عليه من الحُسْن ، وإذا ظَهَر فيه المستعارُ له زالَ ذلك الحُسْنُ عنه ، لا بَلْ تبدّل بضدِّه .

وليس كذلك التشبيهُ المضمرُ الأَدَاة ، فإنا إذا أظْهَرْنا أداةَ التشبيه وأضْمَرْناها كان ذلك سَوَاء ، إذ لا فَرْق بين قولنا « زيدٌ أسد » وبين قولنا « زيدٌ كالأسد » وهذا لا يخفى على جاهلٍ بعلمِ الفصاحةِ والبلاغةِ فضلاً عن عَالم .

والمعَوّلُ عَلَيْه فى تأليف الكلام من المنثور والمنظوم إنما هو حُسْنُه وطلاوَته ، فإذا ذهب ذلك عنه فليسَ بشىء .

ونحنُ فى الذى نورِدُه فى هذا الكتابِ واقفُون مع الحُسْنِ لا مع الجوَازِ .
ثمَّ لو تنزّلْنا معكَ أيُّها المعترضُ عن درجةِ الحسْنِ إلى درجة الجوَاز لمَا اسْتقَام لك ما ذكرتَهُ ، وذاك أنّ إضمارَ أداة التّشبيه ظاهرٌ فى قولنا « زيد أسد » أى كالأسد ، وهو مُضْمَر واحد ، وأما قولُ الشاعر «فَرْعاءُ إنْ نَهضَتْ

لحاجتِها » وإنه لا يُضمر فيه أَداةُ التشبيه إلا بعْد أَن يظهر المستعار له ، وحينئذٍ يكونُ فيه إضماران أحدُهما : المستعارُ له ، والآخرُ : أَداةُ التشبيه . وإضمارُ واحدٍ أَيْسَر من إضمارَين ، أَحدُهما معلَّق على الآخر .

وإذا كان الأمرُ كذلك فالفرقُ بيْن الاستعارةِ والتشبيه هو ما قدّمْتُ القولَ فيه من أنّ الاستعارة لا تكونُ إلا بحيثُ يُطْوى ذِكْرُ المستعارِ له . فتأمَّل ما أشَرْتُ إليه وتدبَّرْه ، حتى تعلمَ أنِّى ذكرْتُ ما لم يذكُرْ أحدٌ غيرى على هذا الوَجْه .

وإنما سُمِّى هذا القسمُ من الكلام (استعارة) لأنّ الأصل فى الاستعارَة المجازيَّة مأخوذٌ من العَارية الحقيقيَّة التى هى ضَرْب مِنَ المعامَلة ، وهى أنْ يستعيرَ بعضُ الناسِ من بعضٍ شيئًا من الأشياء ، ولا يقعُ ذلك إلا من شَخْصين بينهما سَبَبُ معرفةٍ ما يقتْضى استعارةَ أحدهما من الآخر شيئًا ، وإذا لم يَكنْ بينَهما سببُ معرفةٍ بوجهٍ من الوُجوه فلا يستعيرُ أحدهما من الآخر شيئًا ؛ إذ لا يعرفَه حتى يستعيرَ منه . وهذا الحكمْ جارٍ فى استعارةِ الأَلْفاظ بعضِها من بَعْضٍ ؛ فالمشاركةُ بينَ اللَّفظين فى نَقْل المعْنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفَة بين الشَّخْصين فى نقل الشىء المستعار من أحدهما إلى الآخرَ .

واعلمْ أنه قد وَرَد من الكلام مايجوزُ حمله على الاسْتعارة ؛ وعلى التشبيه المضمر الأداة معا ؛ باختلافِ القَرينَة ؛ وذلك أن يَرد الكلامُ محمولاً على ضمير من تقدّم ذِكْره ؛ فينتقل عنْ ذلك إلى غيْره ؛ ويرتجل ارْتجالاً .

فمّما جاء مِنهُ قَوْلُ الْبُحْترىِّ[1] :

---

(١) ديوان البحترى ١ — ١٣٧ من قصيدة يمدح فيها أحمد وإبراهيم ابنى المدبر ومطلعها :

عنانى من صدودك ماعنانى وعاودنى هواك كما بدانى

إذا سَفَرَتْ أضاءتْ شَمْس دَجْنٍ ... ومالَتْ فى التَّعطُّفِ غُصْنَ بانِ[1]

فلمّا قال « أضاءتْ شمسَ دَجْن » — بِنَصْبِ الشَّمس — كانَ ذلكَ مَحُولاً على الضَّمير فى قوله « أضاءتْ » كأنه قالَ : أضاءتْ هِيَ ؛ وهذا تشبيهٌ لأنَّ المشبَّه مذكور ؛ وهو الضميرُ فى «أضاءَتْ» الذى نابتْ عنْهُ التاء ؛ ويجُوزُ حملُه على الاستعارة ؛ بأن يُقالَ « أضاءتْ شَمْسُ دجْنٍ » برفع الشَّمس ؛ ولا يعودُ الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكْره .

وإنّما يكونُ الكلامُ مُرْتَجلا ؛ ويكونُ البيت :

إذا سَفَرَتْ أضاءتْ شمسُ دَجْنٍ ... ومالَ من التّعطُّفِ غُصْنُ بانِ

وهذا الموضعُ فيه دقةُ غُمُوضٍ ؛ وحرفُ التشبيه يحسُنُ فى الأوّل ؛ دُون الثّانى .

التوسع فى الكلام :

وأمّا القسمُ الذى يكونُ العدولُ فيه عن الحقيقة إلى المجَاز لغير مشاركةٍ بين المنقُول والمنْقُول إليه فذلك لا يكونُ إلا لطلب التّوسُّع فى الكلام ؛ وهو سببٌ صالح ؛ إذ التّوسُّع فى الكلامِ مَطْلُوبٌ .

ضربا التوسع :

وهُوَ ضَرْبان :

أحدهما : يَرِدُ على وجهِ الإضافة ؛ واستعمالُه قبيح ؛ لبُعْدِ ما بينَ المُضَافِ والمُضَافُ إليه ؛ وذاكَ لأَنه يلتحقُ بالتشبيه المضْمَرِ الأَداةَ ؛ وإذا وَرد التشبيهُ ولا مناسَبَةَ بين المُشبَّه والمُشَبَّه به كانَ ذلك قبيحًا ؛ ولا يَسْتَعْمل هذا الضَّرْبَ

---

١ — رواية الديوان :

إذا انصرفت أضاءت شمس دجن ... ومال من التعطف غصن بان

من التَوسُّع إلا جاهلٌ بأسرارِ الفصاحةِ والبلاغةِ ؛ أوْ ساهٍ غافلٌ يذهبُ به خاطرهُ إلى استِعمالِ مالا يجوزُ ولا يَحْسُنُ ؛ كقولِ أبى نُواس[1]:

بُحَّ صَوْتُ المَالِ مِمَّا مِنْكَ يشْكُو وَيَصِيحُ

فقوله « بحَّ صوتُ المال » من الكلامِ النازِل بالمرَّة ، ومُرَادُه من ذلكَ أنَّ المالَ يَتَظَلَّم من إهانَتِك إيَّاه بالتَّمْزيق ، فالمعنى حسَنٌ ، والتعبيرُ عنه قَبيحٌ .

وما أَحْسنَ ماقالَ مُسْلمُ بنُ الوليد[2] فى هَذَا المَعْنَى :

تَظَلَّمَ المالُ والأعداءُ منْ يدهِ ... لا زَالَ للمَالِ والأعداءِ ظَلَّاما

وَكذلِكَ وَردَ قوْلَ أَبى نُوَاسٍ أيضاً[3] :

ما لِرِجْلِ المالِ أَمْسَتْ ... تَشْتَكى منك الْكلالاَ

فإضافةَ « الرِّجْل » إلى « المالِ » أقبح من إضَافةِ الصّوت .

ومن هذا الضربِ قولُ أبى تمّام[4] :

---

(١) ديوان أبى نواس ٧٠ من قصيدة يمدح بها العباس بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور ، ومطلعها :

غرد الديك الصدوح ... فاسقنى طاب الصبوح

(٢) من قصيدة يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيبانى ومطلعها ،

طيف الخيال حمدنا منك إلماما ... داويت سقما وقد هيجت أسقاما

(٣) ديوان أبى نواس ١١٩ من قصيدة فى مدح إبراهيم بن عبد الله الحجى وأولها :

هل عرفت الدار أجلى ... أهله عنه فزالا

(٤) ديوان أبى تمام ١٢٧ من قصيدة فى مدح موسى بن إبراهيم الرافقى والإعتذار إليه ومطلعها :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ... ومحت كما محت وشاع من برد

وكَمْ أحْرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قُبْحِ قَدِّهَا

صُرُوفُ النَّوى مِنْ مُرْهِفٍ حسَنِ الْقَدِّ[1]

فإضافةُ « الْقدِّ » إلى « النَّوى » من التشبيه البعِيد البَعِيد ، وإنَّما أَوْقعهُ فيه المماثَلةُ بين القَدّ والقَدِّ .

وهذا دأْبُ الرَّجل فى تَتَبُّع (المماثلة) تارةً . (والتَّجْنيس) أُخْرى ، حتى أنه ليَخْرُج إلى بناء يُعابُ به أقْبح عَيْب وأفحشه .

وكذلكَ وَردَ قوْلَه[2] :

بَلَوْناكَ أمَّا كعْبُ عِرْضِك فى الْعُلا

فعَالٍ ، وأمَّا خدُّ[3] مالِكَ أَسْفَلُ

فقوله « كعبُ عِرضك » و « خدُّ مالِكَ » ممَّا يُسْتقبح ويُسْتنكرَ ، ومُرادُهُ منْ ذلك أنَّ عِرْضك مصُونٌ ومالك مبتذَل ، إلاَّ أنه عبَّر عنه أقبحَ تعبير .

وأبُو تمَّامٍ يقعُ فى مثل ذلك كثيراً .

وأمَّا الضَّرْبُ الآخرُ من التوسُّع : فانَّه يَرِدُ على غيرِ وجه الإضافةِ ، وَهُوَ حسَنٌ لاعَيْب فيه .

وقَدْ وَرد فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ

---

(١) رواية الديوان « صروف الردى » موضع صروف النوى » . والقد القوام ، والمرهف الرقيق .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٤٥ من قصيدة فى مدح أبى المستهل محمد بن شقيق الطائى ، مطلعها :

تحمل عنه الصبر يوم تحملوا وعادت صباه فى الصبا وهى شمأل

(٣) رواية الديوان « جد » بالجيم المعجمة ، والجد الحظ .

إلى السماء وَهِىَ دُخَانٌ فقَالَ لَهَا وَللأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين[1] » فنسبةُ القولِ إلى السَّماءِ والأرْضِ من باب التوسُّع، لأنَّهما جَمادٌ، والنُّطْقُ إنما هو للإِنسان لا للجمادِ ، وَلا مُشارَكةَ هاهنا بينَ المَنقولِ والمَنْقولِ إليه .

وكذلك قوله تعالى : « فما بكتْ عَلَيْهِم السَّماءُ والأرْضُ وما كانُوا منْظَرين[2] » .

وعليْه وَردَ قَوْلُ النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، فإنَّه نَظرَ إلى أُحُدٍ[3] يوماً فقال : « هذا جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه » فإضافةُ المحبّة إلى الجبل من باب التوسُّع ، إذْ لامشاركةَ بينَه وبينَ الجَبَلِ الَّذى هو جَماد .

---

(١) سورة فصلت : الآية ١١ قال ابن قتيبة : إن قوما قالوا فى هذه الآية : لم يقل الله ولم تقولا ، وكيف يخاطب معدوماً ؟ وإنما هذا عبارة لكوناهما فكانتا . ورد عليهم بقوله : وما فى نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب ؟ والله تبارك وتعالى ينطق الجلود والأيدى والأرجل ، ويسخر الجبال والطير بالتسبيح .

وأنظر تأويل مشكل القرآن ٧٨و٨٣ .

(٢) سورة الدخان : الآية ٢٩ قال ابن قتيبة تعقيبا على هذه الآية تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن ، رفيع المكانة ، عام النفع ، كثير الصنائع : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده وبكته الريح والبرق والسماء والأرض ، يريدون المبالغة فى وصف المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمت ، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه — أنظر تأويل مشكل القرآن ١٢٧ .

(٣) أحد — بضم أوله وثانيه معاً — اسم لجبل ظاهر المدينة ، كانت عنده الغزوة المشهورة ، وهو جبل أحمر فى شمالى المدينة .

وعلى هذا وَرَدَ مخاطبةُ الطُّلول ، ومساءَلةُ الأحْجار ، كقولِ أبى تمَّام[1] :

أمَيْدانَ لَهْوِى مَنْ أتاحَ لكَ البِلَى
فأصْبَحْتَ مَيْدانَ الصَّبا والجَنَائِبِ

وكقول أبى الطيِّبِ المُتَنبى[2] :

إثْلِثْ فإنَّا أيُّها الطَّلَلُ نَبْكى وتُرْزِمُ تحتَنا الإبلُ[3]

فأبُو تمَّامٍ ساءل رُبُوعًا عَافية ، وأحجاراً دارسة ، ولا وجْهَ لَهَا هاهنا إلاَّ مساءلةُ الأهْلِ ، كالذى فى قوْلهِ تعالى : « واسأل القَرْيَةَ[4] » أى أهلَ القرية .

وكلُّ هذا توسُّعٌ فى العبارة ، إذْ لامشاركةَ بين رُسُومِ الدِّيار وَبيْنَ فَهْمِ السُّؤالِ والجَوَاب .

وكذلكَ قال أبُو الطيِّب المتنبىِّ فى أمره الطلَل بأَنْ يكونَ ثالثًا لهما : أى الركْب والإبِل ، وهذَا واضحٌ لا نزاعَ فيه .

* * *

فإذْ قَدْ تبيَّن وتحقَّق ما أشَرْتُ إليه من هذا الموضع فالمجازُ لا يَخرجُ عن

---

(١) ديوانه ٤١ من قصيدة فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى ، ومطلعها :
على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

(٢) ديوان المتنبى ٣ / ٢٩٩ وهو مطلع قصيدة فى مدح عضد الدولة .

(٣) ثلثت الرجلين صرت ثالثهما ، والإرزام حنين الإبل ، ومنه الرزمة صوت السحاب ، والطلل ماأشرف من بقايا الديار .

(٤) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

هذه الأقسامِ الثلاثة : إمَّا توسُّع ، أو تَشبيه ؛ أو استعارة . وإذا حقّقْنا النظَر فى الاستعارة والتَّشْبيه وجدناهمَا أمراً قِياسيًّا فى حَمْل فَرْعٍ على أصلٍ ، لمناسبةٍ بَيْنَهما ، وإنْ كانا يفْتَرقانِ بحدِّهما وحَقيقتهِما .

حد الاستعارة :

فأمّا حدُّ الاستعارة فقيل : إنه نقْلُ المعنى من لفظٍ إلى لفظ بسببِ مشاركةٍ بينَهما .

وهذا الحدُّ فاسدٌ ، لأنَّ التشبيه يشاركُ الاستعارةَ فيه .

ألاَ ترَى أنَّا إذا قلنا « زيد أسد » أى : كأنَّه أسد ، وهذا نقلُ المعنَى من لفظ إلى لفظ بسببِ مشاركةٍ بينهما ؛ لأنا نقلْنا حقيقةَ الأسدِ إلى زيدٍ ؛ فصار مجازاً ؛ وإنما نقلناهُ لمشاركةٍ بين زيدٍ و بين الأسدِ فى وصفِ الشّجاعة .

والذى عندى من ذلكَ أنْ يُقال : حَدُّ الاستعارة نقلُ المعنى من لفظٍ إلى لفظٍ ، لمشاركةٍ بينهما ، مع طَىِّ ذكر المنقولِ إليه ؛ لأنه إذا احْتُرزَ فيه هذا الاحْترازُ اختصّ بالاستعارة ؛ وكانَ حدًّا لها دونَ التَّشبيه ؛ وطريقُه أنَّك تُريد تشبيهَ الشىء بالشىء مظهراً ومضمراً ؛ وَتجىءُ إلى المشبهفتعيرُه اسمُ المشبَّه به ، وتُجْريه عليه . مثالُ ذلِك أنْ تقول : رأيتُ أسداً ؛ وَهذا كالبَيْتِ الشِّعر المقدم ذكرُه ؛ وَهو :

فَرْعَاءُ إنْ نَهضَتْ لحاجَتِها ... عَجِلَ الْقضِيبُ وأبْطأَ الدِّعْصُ

فإنَّ هذا الشاعرَ أرادَ تشبيهَ القَدِّ بالقضيب والرِّدْف بالدِّعْص الذى هُو كَثيبُ الرّمل ؛ فتركَ ذكر التَّشبيه مُظهَراً ومضمراً ؛ وَجاءَ إلى المشبَّه — وَهو القدّ [والردفَ] — فأعارَهُ المشبه به ؛ وهو القضيب والدِّعص ؛ وأجراهُ عليــه .

القــــرينة :

إلا أنَّ هذا الموضع لا بدَّ له من قرينةٍ تُفْهَم من فَحْوَى اللفظِ ؛ لأنَّه إذا قالَ القائل : رأيتُ أسداً ؛ وهو يريدُ رجلاً شجاعاً ؛ فإنَّ هذا القولَ لا يُفْهم منه ما أرادَ ؛ وإنما يُفْهم منـه أنه أراد الحيوان المعروف بالأسد ؛ لـكن إذا اقترن بقوله هذا قرينة تدل على أنَّه أراد رجلاً شجاعاً اختص الـكلام بما أراد ، ألا ترَى إلى قول الشاعر « عجل القضيب وأبطأ الدعص » فإنه دل عليه من نفس البيت لأن قوله « فَرْعَاء إنْ نَهضَتْ » دليلٌ على أن المرادَ هو القـدُّ والرِّدْف ، لأنَّ القضيبَ والدِّعْص لا يكونانِ لامرأةٍ فرعاءَ تَنْهَضُ لحاجَتِها . وكذلِكَ كلُّ مايجئُ على هـذا الأسلوبِ ، لأنَّ المستعارَ له — وهو المَنقولُ إليهِ — مطويُّ الذِّكْر .

قول ابن جنى فى المجاز والرد عليه :

وكنتُ تصفَّحْتُ كِتَابَ (الخصائص) لأبى الفتح عُثمان ابْن جِنِّى [1] ، فوجدْته قد ذكر فى المجاز شيئاً يتطرَّق إليه النَّظر ، وذلك أنَّهُ قال : لايُعْدَل

---

(١) كان من حذاق أهل الأدب ، وأعلمهم بالنحو والتصريف. صنف فى النحو والتصريف كتباً أبدع فيها كالخصائص والمنصف وسر الصناعة ، وصنف كتباً فى شرح القوافى ، وفى العروض ، وفى المذكر والمؤنث إلى غير ذلك ، ولم يصنف أحد فى التصريف ، ولا تكلم فيه ، أحسن ولا أدق كلاما منه وكان أبوه « جنى » مملوكا روميا لسليمان بن فهد لأزدى الموصلى » وكان يقول الشعر ويجيده ، أخذ عن أبى على الفارسى وصحبه أربعين سنة ، ودرس النحو ببغداد بعده ، وتوفى ابن جنى فيما ذكر ابن الأنبارى يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة فى خلافة القادر — انظر نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٠٩ .

عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعانٍ ثلاثة : وهى الاتِّساع ، والتَّشبيه ، والتوكيد ، فإنْ عدِمت الثلاثةُ . كانت الحقيقة البتَّة .

فمنْ ذلك قولُه تعالى : فأدْخَلْناهُ فى رَحْمَتِنا[1] » فهذا مجازٌ ، وفيه الثلاثةُ المذكورةُ :

أمّا الاتساعُ : فهوَ أنه زادَ فى أسماءِ الجهاتِ والمحالَّ اسْمًا ، وهو الرَّحمة .

وأمَّا التشبيهُ : فإنه شبَّه الرحمةَ — وإنْ لمْ يصحَّ دخولُها — بما يَصِحُّ دُخُوله .

وأمَّا التوكيدُ : فهو أنه أَخْبَرَ عمَّا لا يدركُ بالحاسَّةِ بما يُدْرَكُ بالحاسَّة ، تعاليًا بالمخْـبَرَ عنْهُ ، وتفخيماً له ، إذا صُيِّرَ ، بمنزلةِ ما يشاهَدُ ويعايَن » .

هذا مجموعُ قولِ أبى الْفتْحِ — رحمه الله — من غير زيادةٍ ولا نقصٍ .

والنظرُ يتطرَّقُ إليه من ثلاثةِ أوجه :

الأوَّل : أنه جعلَ وجودَ هذه المعانى الثلاثة سبباً لوجود المجاز ، بل وجُودَ واحدٍ منها سَبباً لوجودِه ، ألا ترى أنَّه أذا وُجد التَّشبيه وحدَه كانَ ذلك مجازاً ، وإذا وجد الاتساعُ وحدَهُ كان ذاك مجازاً ، ثمَّ إنْ كان وجودُ هذهِ المعانى الثلاثة سبباً لوجودِ المجاز كان عدمُ واحدٍ منها سبباً لعدمِه .

ألا ترى أنا إذا قُلْنا : لا يوجدُ الإنسانُ إلا بأنْ يكونَ حيوانًا ناطقًا ؛ فالحيوانيَّةُ والنُّطْقُ سببٌ لوجودِ الإنسانِ ؛ وإذا عدِمَ وَاحدٌ منهما بَطَلَ أنْ يكونَ إنسانًا ؛ وكذلك كلُّ صفاتٍ تـكونُ متقدمةً لوجودِ الشىء فإنّ وجودها بوجوده ؛ وعدمَ واحدٍ منها يوجبُ عدمَه ؟

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧٥ .

وأمَّا الوجهُ الثانى : فإنَّه ذكر التوكيدَ والتَّشبيه ؛ وكلاهُما شىءٌ واحدٌ على الوجهِ الذى ذكره ؛ لأنه لما شُبِّهت الرحمةُ ، وهى معنًى لا يُدْرَكُ بالبصر ، بمكانٍ يُدْخَل ؛ وهو صورةٌ تُدْرَكُ بالبصر ؛ دخل تحتَه التَّوكيدُ الذِى هو إخْبارٌ عما لا يُدْرَكُ بالحاسَّة بما قد يُدْرك بالحاسّة .

على أنَّ التوكيدَ هاهنا ؛ على وجه ما أَوْرَدَهُ فى تمثيله ؛ لا أعلمُ ما الذى أراد به ؛ لأنه لا يؤْتَى به فى اللُّغة العربيَّة إلا لمَعنيَـيْن :

أحدهما : أنه يردُ أبداً فيما اسْتُقْرِى بألفاظٍ محصورةٍ نحو : نفسه ؛ وعيْنه ؛ وكلّه ، وما أُضِـيفَ إليها ممّا استُقْرِى ؛ وهو مذكور فى كتب النُّحاة ؛ وقد كُفِيتُ مئُونَتَه .

الآخر : أنَّه يُرد على وجه التّـكرير ؛ نحو : قام زيد قام زيد ؛ كرّر اللفظ فى ذلك تحقيقًا للمعْنى المقصودِ ؛ أى توكيداً .

والذى ذكره أبوُ الفتح — رحمه الله تعالى — لايدلُّ على أنّ المرادَ به أحد هذين المعْنَيَـيْن المشار إليهما ؛ ولا شكّ أنه أرادَ به المبالغـةَ والمغالاةَ فى إبراز المعْنى الموهُوم إلى الصُّورة المشاهدة ، فعبَّر عَنْ ذلك بالتَّوكيد ؛ ولا مُشاحَّةَ لهُ فى تعبيره ، وإذا أراد به ذلك فهو والتَّشْبيه سواءٌ على ماذكرهُ ؛ ولا حاجةَ إلى ذكر التّوكيد مع ذكر التّشْبيه .

وأمّا الوجهُ الثّالثُ : فإنه قال : « أمّا الاتساعُ فهو أنه زادَ فى أسماء الجهاتِ والمحالِّ كذا وكذا » .

وهذا القولُ مضطربٌ شديدُ الاضطرابِ ؛ لأنه يَنْبَغى على قياسِه أن يكونَ « جناح الذلّ » فى قوله تعالى « وَاخفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذّلّ[1] » زيادةً

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٤

فى أسماءِ الطيور ؛ وذلكَ أنه زاد فى أسماءِ الطُّيور اسمًا هو الذُّلّ. وهكذَا يَجْرى الحكمُ فى الأقوالِ الشِّعرية كقول أبى تمّام(١) :

لَبِسَتْ سِواهُ أَقْوَامًا فكانُوا كما أغْنَى التَّيَمُّمُ بالصَّعيد

فزاد فى أسماءِ اللِّباسِ اسما ؛ هو الآدمىّ ، وهذا مما يُضْحِك منه ؛ نعوذُ بِالله من الخطَلِ !

والاتساعُ فى المجالِ لا يقالُ فيه كذا ؛ وإنما يقال : هو أن تُجْرى صِفَةٌ من الصِّفاتِ على موصوفٍ ليس أهلًا لأن تُجْرى عليه ؛ لبعد ما بينه وبينها ؛ كقول أبى الطيب المتنبى :

اِثْلِثْ فإنّا أيُّها الطَّلَلُ نَبْكى وتُرْزِمَ تحتَنا الإبلُ

فإنه أَجْرَى الكلامَ على ذلك ؛ وإنما يُسْتعْمل طلباً للاتِّساع فى أساليبِ الكلامِ ؛ لا لمناسَبَةٍ بينَ الصِّفة والموصوفِ ؛ إذْ لَوْ كانَ لمناسبة لما كانَ ذلكَ اتِّساعاً ؛ وإنما كان ضرباً من القياسِ فى حَمْل الشىء على مايُناسبهُ ويشاكِلُه ؛ وحينئذٍ يكونُ ذلكَ تشبيهاً أو استعارةً ؛ على ما أَشَرْتُ إليه من قبل .

أقسام المجاز عند الغزالى واعتراضات ابن الأثير :

وكنتُ اطّلعْتُ فى كتاب من مُصَنّفاتِ أبى حامد الغَزَالىّ (٢) — رحمهُ

(١) ديوان أبى تمام ١٠٧ من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى ومطلعها :

أظن دموعها سنن الفريد وهى سلكاه من نحر وجيد

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، الفقيه الشافعى ، ولد فى طوس ونشأ فيها » وتكاثر الفلاسفة فى عصره ، وناهضوا رجال الدين ، فتصدى لهم ، وكان أحد المجتهدين ، قضى أعواما وهو يطالع ويفكر=

الله — ألّفه في أُصُولِ الْفِقْه ؛ ووجدْتُه قد ذكرَ « الحقيقةَ والمجاز » وقسَّم المجازَ إلى أربعةَ عَشَر قسْماً ؛ وتلكَ الأربعةَ عشر ترجعُ إلى الثَّلاثة التي أشرْتُ إليها ؛ وهى التوسُّع ؛ والتشبيهُ ؛ والاستعارة ، ولا تَخْرُجُ عَنْها . والتقسيمُ لا يصح في شيء من الأشياء إلا إذا اختصَّ كلُّ قسمٍ من الأقسام بِصِفَةٍ لا يختصُّ بها غيرُه ، وإلاّ كان التقسيمُ لَغْواً لا فائدةَ فيه .

وسأُورِدَ ما ذكرَه ، وأُبيِّن فساده .

فالقسمُ الأوّل من الأقسامِ التي ذكرَهَا هُوَ : ما جُعِلَ للشّيء بسببِ المشاركةِ في خاصَّة ؛ كقولهم للشُّجاع : أسد . وللبليد : حمار . وهذ القسمُ داخلٌ في الاستعارَة . إنْ ذُكرَ المَنْقُول وَحْدَه . مِثْل أنْ يقُول القائلُ « رأيت أسداً » ومرادُه رجلا شُجاعا . أو « رأيتُ حماراً » ومرادُه « رجلا بليداً » . وداخلٌ في التَّشْبيه المُضْمَر الأداة . إنْ ذُكِر المنقولُ والمنقولُ إليه معا . كقولِ القائل « زيدٌ أسدٌ » أىْ كالأسدِ . أو حمارٌ . أىْ كالحمار .

القسم الثاني : تسمية الشيء باسم ما يئول اليه :

كقوله تعالى : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً[1] » وإنّما كانَ يَعْصِرُ عنباً .

وهذا القسمُ داخِلٌ في القِسْمِ الأوّل . لصِفَةِ المُشابهةِ بينَ المنقولِ والمنقولِ

= ويدرس في المدرسة النظامية . ثم انقطع عن التدريس وسلك طريق الزهد ، وقضى عشرة أعوام في الأسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية ، وهو يطالع ويبحث ويناظر ، فسمى حجة الإسلام ، وخلف مايزيد على سبعين مؤلفا — توفى سنة ٥٠٥ هـ .

(١) سورة يوسف : الآية ٣٦ .

إليه . وهو من باب (الاستعارة) لا بلْ أوْغلُ فى المشابهةِ من ذاك . لأنَّ الخمْر من العِنَب . وليسَ الأسَدُ من الرّجُل . ولا الرّجُل من الأسد[1] .

القسم الثالث : تسمية الشيء باسم فرعه :

كقولِ الشّاعر :

وَمَا الْعَيْشُ إلاَّ نَوْمَةٌ وَتَشَوُّقٌ ... وَتَمْرٌ عَلَى رأس النّخِيلِ وَماء

فَسَمَّى الرُّطَب تَمْراً .

وَهذا القسمُ وَالقسمُ الذى قبلَه سواء . لأنَّ هناكَ سُمِّى العنبُ خَمْراً . وَهاهُنا سُمِّى الرُّطَبُ تَمْراً . فالعنبُ أصلٌ . وَالخمرُ فرعٌ . وَكذلك الرُّطَبُ أَصْل . وَالتّمْرُ فرع . وكِلاَ هذَيْن القِسْمَيْن داخل فى القسمِ الأوّل .

وهَبْ أنَّ الغزالىَّ لم يحقِّق أمرَ المجازِ وانقسامِهِ إلى تلك الأقسامِ الثّلاثة التى أشرتُ إليها ، ألمْ ينظرْ إلى هذين القِسْمين اللّذيْن هما العِنبُ والخمرُ ، والرُّطَب والتّمر ، ويعلم أنهما شىء واحدٌ لا فرقَ بينهما ؟

القسم الرابع : تسمية الشىء باسم أصله :

كقولهمْ للآدمىَّ « مُضْغَة » ، وهذا ضِدُّ القِسْم الذى قبله ، لأنَّ ذاك جُعِل الأصلُ فيه فَرْعاً ، وهذا جُعِل الفرعُ فيه أصلًا ، وهو داخلٌ فى القسم الأوّل أيضاً .

(١) ليس صحيحا ما اعترض به ابن الاثير ، لأن الخمر وإن كانت من العنب لا وجه للشبه بينهما فى الشكل أو فى الهيئة أو فى الأثر أو غير ذلك ، وإنما الخمر منه ، فصح كلام الإمام الغزالى ؛ وبقى مثل كلامه فى البلاغة العربية حتى اليوم التى تجعل هذا المثل من باب المجاز المرسل والعلاقة فيه ما ذكر أبو حامد ، والمجاز المرسل أحد قسمى المجاز اللغوى : المجاز الاستعارى (الاستعارة) ، والمجاز المرسل ، ويختص الأول بعلاقة المشابهة ، والآخر بكل علاقة سواها .

القسم الخامس : تسمية الشيء بدواعيه :

كتسميتهم الاعتقادَ قولًا ، نحو قولهم : « هذا يقولُ بقولِ الشافعيِّ رحمه اللهُ » أي : يعتقدُ اعتقادَه .

وهذا القسمُ داخلٌ في القسم الأوّل ، لأنَّ بين القولِ وبين الاعتقادمناسبةً كالمناسبةِ بين السَّبب والمسبَّب . والباطنِ والظاهرِ .

القسم السادس : تسمية الشيء باسم مكانه :

كقولِهم للمطر « سماء » . لأنه ينزلُ منها .

وهذا القسمُ داخلٌ في الأوّل . لِصِفَةِ المناسَبَة بين المنقولِ والمنقُول إليه ، وهو النزولُ من عالٍ . وكلُّ ماعلاكَ فأظلكَ فهو « سَماءٌ » .

على أنَّ الأغلَبَ على ظَنِّي أنَّ هذا القسمَ من الأسماء المشتركةَ . وتسميةُ المطرِ بـ « السَّماء» حقيقةٌ فيه ، وليسَ من المجاز في شيْءٍ .

القسم السابع : تسمية الشيء باسم مجاوره :

كنولهم للمَزَادةِ « رَاوِية » وإنما الرّاوية الجملُ الذى يحملُها(١) .

وهـذا القسمُ من بابِ التَّوسُّع ؛ لا مِنْ باب التَّشْبيـه ، ولا من بابِ الاستعارة ، لأنَّ عَلَى قياسِه ينبغى أنْ يسمَّى الجملُ « زامِلة » لأنه يحملها(٢) .

القسم الثامن : تسمية الشيء باسم جزئه :

كقولكَ لمن تُبْغِضه « أَبْعَدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِّي » وإنما تُرِيد سائرَ جُثَّته .

---

(١) فى المختار : الرواية البعير أو البغل أو الحمار الذى يستقى عليه ، والعامة تسمى المزادة راوية ، وهو جائز استعارة ، والأصل ماذكرناه .

(٢) فى المختار : الزاملة بعير يستظهر به الرجل يحمل متاعة وطعامه عليه .

وهـذا القسمُ داخلٌ فى القسمِ الأوّل ، وهو شبيهٌ بتَسْمية الشَّىء باسم فَرْعه .

القسم التاسع : تسمية الشىء باسم ضده :

كقولهمْ للأَسْوَدِ والأبْيض « جَوْن » .

وهذا القسمُ ليسَ من المجاز فى شىء الْبَتّةَ ؛ وإنمـا هو حقيقةٌ فى هذين المسمَّيَيْن معاً ، لأنه من الأسماء المُشْتَركة ، كقولهم : « شِمْتُ السَّيف » إذا سلَلْتُه ، و « شِمْتُهُ » إذا أغْمَدْتُه ، فدل الشّيْم على الضـدّين معاً بالوضعِ الحقيقىّ .

وفى اللُّغَة من هذا شىء كثير . فـكيفَ يُجعَل هذا القسمُ من المجاز ؟
ولا شكّ أن الغزالىّ نظرَ إلى أنّ الضِدّين لا يجتمعانِ فى محلٍّ واحد ، فقاسَ الاسمَ على الذّات . وظنَّ أن الذّاتين لا يجتمعان فى اسمٍ واحدٍ . كما أنهما لا يَجْتمعان فى محلٍّ واحد .

فإنْ قيل : لا نُسَلِّم أنَّ اللّفْظ المشتركَ حقيقةٌ بالوضع فى المَعْنيَـيْن معاً . لأنّ ذلك يُخِلُّ بفائِدة الوضْعِ . الذى هو البيانُ . وإنما هو حقيقةٌ فى أحدِ مَعْنَيَيْه . مجازٌ فى الآخَر !

فالجوابُ عن ذلك : أنّ هذا الموضعَ تقدّم الـكلامُ علَيْه فى الفصل الثّانى من مقدِّمة الـكتاب . وهذا الفصـلُ الذى يشتملُ على آلاتِ علمِ البيانِ وأدواتِه فَلْيُؤْخَذْ من هناك . فإنِّى قد أشبعتُ القولَ فيـه إشباعاً لا مزيدَ عليه[1] .

---

(١) انظر صفحة ٤٠ وما بعدها من القسم الأول من هذا الكتاب .

القسم العاشر : تسمية الشيء بفعله :

كتسمِيَة الْخَمْرِ « مُسكِراً » .

وهـذا القسمُ داخلٌ في القسمِ الأوّل . وأيُّ مشاركةٍ أقرب من هـذه المشاركة ؟ فانّ الإسكارَ صفةٌ لازمةٌ للخمرِ . وليست الشجاعةُ صفةً لازمةً لزيدٍ . لأنهُ يُمْـكِنُ أن يكونَ زيدٌ ولا شجاعةَ . ولا يمكنُ أن يكونَ خمرٌ ولا إسكارَ . ألا ترَى أنّها لم تُسَمّ خمراً إلّا لإسكارِها . فإنّها تَخْمُرُ الْعَقْلَ . أيْ تستُرُهُ ؟

القسم الحادى عشر : تسمية الشيء بكله :

كقولِكَ في جواب « ما فَعَلَ زَيْدٌ » ؟ القيام . والقيـامُ : جِنْس يتناولُ جميع أنواعه .

وهذا القسمُ لا ينبغي أن يُوصَل بأقسامِ المجاز . لأنّ القيامَ لزيدٍ حقيقة .

فإنْ قيل : إنّ القيامَ يشملُ جميعَ أنواعِ القيام من الماضي والحاضِر والمستقبَل .

قلتُ : وهذا من أقربِ أقسامِ المجاز مناسـبةً . لأنه إقامةٌ للمَصْدَر مقامَ الفِعْل المـاضِي . والمصدرُ أصلُ الفعلِ . وعلى هذا فإنّ هذا داخل في القسمِ الأوّل .

القسم الثاني عشر : الزيادة في الكلام لغير فائدة :

كقوله تعالى : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ »[1] فَـ (مَا) هاهُنا زائدة لامعْنى لها . أيْ : فَـبِرَحْمَةٍ من الله لِنْت لهمْ .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

وهذا القولُ لا أراهُ صواباً . وفيه نظرٌ من وَجْهَين :

أحدهما : أنّ هذا القسمَ ليسَ من المجازِ . لأن المجاز هو دلالةُ اللفظِ على غير ماوُضِـع له فى أَصلِ اللُّغة . وهذا غيْرُ موجودٍ فى الآية : وإنما هِىَ دَالة على الوَضْعِ اللّغوِىِّ المنطوقِ به فى أَصل اللُّغة .

الوجْهُ الآخَر : أنِّى لو سلّمْتُ أنَّ ذلك من المجاز لأنـكرْتُ أنّ لفظَةَ (ما) زائدة لا معنى لها . ولـكنها وردتْ تَفْخِيا لأمرِ النِّعْمَة التى لَانَ بها رسُول اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لهم : وهى محضُ الفصاحَة : ولو عُرِّىَ الـكلامُ مِنْها لما كانَتْ له تلكَ الفخَامة .

وقد وردَ مثلُها فى كلامِ العرب . كالذى يُحْـكى عن الزَّبّاء . وذاك أن الوضّاح الذى هو جَذِيمَةُ الأبْرَش[1] تزوّجها . والحـكاية فى ذلك مشهورَة ، فلمّا دخَل عليها كَشفَت لهُ عنْ فَرْجِها . وقد ضفرت الشعرَ من فوقِهِ ضَفِيرتين . وقالَتْ : (أذَاتَ عِرْس ترَى . أما إنّه ليسَ ذلك من عوَز المواس . ولا من قِلّة الأواس . ولـكنَّه شيمةُ ما أُناس) .

فمعنَى الـكلام : ولـكنه شيمةُ أُناس . وإنما جاءتْ لفظةُ (ما) هاهُنا تَفخِيا لشأنِ صاحب تلك الشِّيمة . وَتَعْظِيا لأمْرِه . وَلو أُسْقِطَت لما كانَ للـكلام هاهُنا هذه الفخامةُ وَالجزالَةُ . وَلا يعرفُ ذلِكَ إلا أَهْلُه من علمـــاء الفصـــاحة والبَلاغةِ .

---

(١) كان جذيمة الأبرش ملك ما على شاطىء الفرات ، وكانت الزباء ملكة الجزيرة ، وكان يقال جذيمة الأبرش وجذيمة الوضاح ، وذلك أنه كان أبرص ، فهابت العرب أن تقوله ، فقالت « الأبرش » وكانت تقول للذى به البرص : به وضح ، تفاديا من البرص ، فقالوا جذيمة الوضاح ، وهو جاهلى .

وَأمَّا الغزاليُّ — رحمهُ الله تعالى — فإنه معذورٌ عندِي فى ألاّ يعرف ذلك . لأنَّ ليسَ فَنَّه .

وَمَنْ ذهبَ إلى أنّ فى القرآنِ لفظاً زائداً لامعنَى له فإمّا أنْ يكونَ جاهِلا بهذا القول . وَإمّا أن يكونَ مُتَسَمِّحًا فى دِينه وَاعتقادِه .

وَقولُ النحاةِ إن (ما) فى هذه الآيةِ زائدةٌ . فإنمايَعْنون بِه أنّها لا تمنَع ما قبلَها عَنِ العمل، كما يسمُّونَها فى موضعٍ آخر كافّة . أىْ : أنها تكفُّ الحرفَ العَامل عن عمله . كقولِكَ : إنّما زيدٌ قائم . فما قد كفّت (إنّ) عن العمل فى زيدٍ ؛ وَفى الآيةِ لم تمنعْ عن العمل ؛ ألا ترَى أنّها لم تمنع (الباء) عن العمل فى خَفْضِ (الرّحمة) .

القسم الثالث عشر : تسمية الشيء بحكمه :

كقوله تعالى : (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحهَا)(١) فسمى النِّكاح (هِبَةً)

وهذا القسمُ داخلٌ فى القسم الأوّل ، لأنَّ النكاحَ هو تمكينُ الزّوج من الوَطْء عَلَى عِوَضٍ على هيئةٍ مخصُوصَة ، والهِبَةُ تمكينُه من الشيء الموهوبِ على غيرِ عِوَضٍ ، فشاركتِ الهِبَةُ النِّكاح فى نَفْس التّمكين من الوَطْء . وإن اختلَفا فى الصُّورة .

القسم الرابع عشر : النقصان الذى لا يبطل به المعنى :

كحذف الموصوفِ وإقامةِ الصِّفَةِ مقامَه . قال الله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خطيئَةً أَوْ إثْماً ثُمَّ يَرْمِ به برِيئاً)(٢) أىْ : شَخْصاً برِيئاً .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥٠

(٢) سورة النساء ، الآية ١١٢ .

وحذف المُضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . قال اللهُ تعالى : (واسْأَلِ القَرْيَة)[1] أَىْ : أهلَ القَرْيَة .

وهذا القسمُ داخلٌ فى القسم الأوَّل : أمّا حذفُ الموصوفِ وإقامة الصِّفة مقامَه فلأَنَّ الصفةَ لازمةٌ للموصوفِ ، وأمَّا حذفُ المضاف وإقامةُ المضافِ إليه مقامَه فلأَنه دلَّ بالمَسْكون على السَّاكن ؛ وتلك مُقَارَنَةٌ قريبَة .

فهذهِ أقسامُ الْمَجَازِ الَّتى ذكرها الغزالىُّ رَحِمَهُ الله تعالى (وقد بيَّنْتُ فسادَ التَّقسيم فيها ، وأنها ترجعُ إلى ثلاثةِ أقسام هى : التوسُّع ؛ والتَّشْبيه ؛ والاسْتِعارة .

* * *

وحيثُ انتهى بى الكلامُ إلى هاهنا ، وفرَغْتُ مِمَّا أردتُ تحقيقَه ، وبيَّنْتُ ما أردتُ بيانَه ، فإنِّى أُتْبِـعُ ذلك بضربِ الأمثلة للاستعارةِ التى يستفيدُ بها المتعلِّم مالا يَسْتَفِيده بذكر الحدِّ والحقيقة .

فمِمَّا جاء ذلك فى القرآنِ الكريمِ قولُه تعالى فى أوَّل سورة إبراهيم — صلواتُ الله عليه — : « الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »[2] .

فالظُّلمَاتُ والنُّور استعارةٌ للكُفْر والإيمانِ ؛ أو للضَّلال والهُدى ؛ والمستعارُ له مطوىُّ الذِّكر ؛ كأنَّه قال : لتُخْرِجَ الناسَ من الكُفر الذى هو كالظُّلمَةِ إلى الإيمانِ الذى هو كالنُّور .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١ .

وكذلك ورد قولُه تعالى فى هذه السُّورة أيضاً (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وإن كان مكرُهمْ لِتزُولَ منه الجِبَالُ)(١) .

والقراءة برفع (لَتَزُولُ منه الْجِبال) ليستْ من بابِ الاستعارةِ ، ولكنها فى نَصب (تَزول) واللام لامُ (كَيْ) والجبالُ هاهُنا استعارةٌ ، طُوِىَ فيها ذِكْرُ المُسْتعارِ لَه ، وهو أمْرُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من الآيات والمعْجزاتِ ، أىْ أنَّهم مكرُوا مكرَهم لِكىْ تزولَ منه هذه الآياتُ والمعجزاتُ التى هى فى ثباتها واسْتقرارِها كالجبالِ .

وعلى هذا ورد قولُه تعالى « والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كلِّ وَادٍ يَهيمون * وأنهمْ يَقُولُون مالاَ يفْعلُون »(٢) .

فاستعار الأوْدِية لِلْفُنُون والأغراضِ من المعانى الشِّعرية التى يقصُدونها ، وإنَّما خَصَّ الأودية بالاستِعارة ولمْ يستعر الطُّرُق والمسالِكَ أو مَاجَرى مجراها لأنَّ معانِى الشِّعر تُسْتخرَج بالفِكْرةِ والرَّوية ؛ والفكرةُ والرَّويَّةِ فيهما خفاء وُغموض ، فكانَ استعارةُ الأودية لها أشْبَه وألْيَقَ .

والاستعارةُ فى القرآنِ قليلةٌ ، لكنَّ التشبيهَ المضمرَ الأداة كثير ؛ وكذلِك هى فى فصيح الكلام من الرّسائِل والُخطب والأشْعار ، لأن طَىَّ المستعارِ لهُ لا يتيسَّر فى كلِّ كلاَم ، وأمَّا التشبيهُ المضمرُ الأداة فكثيرٌ سَهْل ، لمكانِ إظهارِ المشبَّه والمشبَّه بِه معاً .

* * *

وممَّا وردَ من الاستعارةِ فى الأخْبار النَّبوِية قولُ النبى صلى الله عليه وسلم :

(١) سورة إبراهيم : الآية ٤٦ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

« لا تَسْتَضِيئُوا بنار الْمُشْرِكين » فاستعارَ النّار للرّأىوالمشُورة ، أى لاتهتدُوا برأى المشركين ، ولا تأخُذوا بمشُورتهمْ .

ورُوى عنْه صلى الله عليه وسلم أنه دخل يوماً مُصَلاّهُ ، فرأى أُناساً كأنهم يُكْثِرُون ، فقال : أمَا إنّكمُ لو أكثرتُمْ من ذكْر هاذِم اللذّاتِ لشَغَلكم عمّا أرى) وهاذِمُ اللّذّات أرادَ به الموتَ ، وهو مطوىُّ الذكْر .

* * *

وبلَغنى عن العرب أنهم يقُولون عند رؤية الهلال (لا مرحباً باللّجين مُقرِّبُ أجلٍ وَمحْلٍ) وَهذا مِن باب الاستعارة فى طىِّ ذِكر المُسْتعارِ له .

وكذلكَ بلَغَنىعن الحجّاجِ بن يوسف[1] أنه خطبَ خطْبَةً عند قُدُومه العراقَ فى أوّل ولايته إياه ، والخطبةُ مشهورة ، من جُمْلتهـا أنّه قال : إن أميرَ الْمُؤمنين نَثَلَ[2] كِنانتَهُ ، وعَجَمَها[3] عُوداً عُوداً ، فرآنى أَصْلَبها نِجَاراً ، وأقْوَمَها عُوداً ؛ وأنفَذها نَصْلا) فقوله (نثل كنانتَه ؛ وعجَمها عُوداً عوداً) يريدُ أنه عرَض رجاله ؛ واختبرُهم واحداً واحداً جِدَّ اختباره فرآنِى أشدّهم وأمضاهُم .

وَهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة .

* * *

(١) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى ولد سنة ٤١ هـ ،وتربى فى الإسلام مع الاحتفاظ بشخصية جاهلية عنيفة ، ظهرت آثارها فى أعماله وفى كلامه . وقد ولى عدة مناصب لبنى أمية ، واشتهر بالخطابة القوية وسياسة العنف ، وتوفى سنة ٩٥ هـ .

(٢) نثل الكنانة : استخرج نبلها فنثرها .

(٣) الكنانة جعبة السهام ، وعجم عيدانها عضها لينظر أيها أصلب ، وهذا وما بعده كناية عن أنه اختبر أعوانه ، فوجد الحجاج أصلحهم لحكم العراق .

وَقد جاءَنِي من الاستعارة في رسَائِلي ما أذكر شيئاًمنه ؛ وَلو مثالاًوَاحـداً .

وَذلك أنَّه سألني بعضُ الأصدقاء أن أصِفَ له غُلامين تُرْكِيَّـيْن كان يهْواهما ، وكان أحدُهما يلبسُ قباءً أحمر ، والآخر قباءً أسود ؛ فقلت :

(إذا تشَعَّبَتْ أسبابُ الهوى كانتْ لِسِرِّه أظهرَ ، وأضْحَتْ أمراضُه خَطَراً كلُّها ، ولا يقال في أحدِها : هذا أخطَر ، وقد هويت بَدْرَيْن على غُصْنَيْن ، ولا طاقَة للقاب بهوى واحدٍ ، فكيفَ إذا حَمَل هوى اثنين ؟ وممَّا شجاني أنهما يتلوَّنان في أصباغ الثياب ، كما يتلوَّنانِ في فنون التَّجَرُّم والعِتاب ، وقد اسْتجدَّا الآن زيًّا لا مَزيد على حُسنهما في حُسْنه ، فهذا يخرجُ في ثوب من حُمرة خدِّه ، وهذا في ثوبٍ من سوادِ جَفْنه ، وما أدْرى منْ دلَّهما على هذا العجيب غير أنَّه ليس في فِتْنة المحبِّ أهدَى من حبيب) .

وهذا الفصلُ بجُملته مما تواصَفه الناسُ ، وأُغْرُوا بحفظِه .

* * *

وأمَّا ماورد من ذلك شعراً فكقولِ مِسْكِين الدَّارِمي(١) منْ شعراء الحماسة :

---

(١) اسمه ربيعة بن عامر يصل نسبه إلى دارم بن مالك ، وسمى مسكينا لقوله :

أنا مسكين لمن أنكرنى ولمن يعرفنى جد نطق

وهو شاعر شريف إسلامى ، كان فى عهد بنى أمية ، وهو سيد من سادات قومه ، هاجى الفرزدق ثم تكافئا ، فكان الفرزدق يعد ذلك من الشدائد التى أفلت منها . قال الفرزدق : نجوت من ثلاثة أشياء لا أخاف بعدها شيئا : نجوت من زياد حين طلبنى . و نجوت من ابنى رميلة =

لحافى لحافُ الضَّعيف والبَيْتُ بيتُهُ
وَلَمْ يُلْهِنِى عَنْهُ غـزَالٌ مُقَنَّعُ

أُحدِّثُهُ إنَّ الحديثَ من الْقِرَى
وَتَعْلَمُ نَفْسِى أَنَّهُ سَوْف يَهْجَعُ(1)

فالغزالُ المقنّع هنا استعارة للمرأَةِ الْحسناء .

وكذا وَرد قولُ رجلٍ من بنى يَسَار فى كتابِ الحماسة أَيضاً(2) :

أَقولُ لنفسِى حين خَوَّد رأْلُها رُوَيْدَكِ لمَّا تُشفقِى حين مُشْفَقِ
رُوَيْدَكِ حتى تنظُرِى عمّ تنْجلِى عَمايَةُ هذا الْعارِض الْمُتأَلِّقِ

فالعارضُ المتألِّق : استعارةٌ للحرب أَو الذى أَطَلّ بمكْرُوهِهِ كالبارق المتألِقِ .

ويحكَى أن امرأَةً وقفتْ لعبد الملك بن مَرْوان(3) ، وهو سائِر إلى قتال

= وقد نذرا أدمى وما فاتهما أحد طلباه ، ونجوت من مهاجاة مسكين الدارمى لأنى لو طاولت معه الهجاء لاضطرنى أن أهدم شطر حسبى وفخرى: لأنه من محبوبة نسبى وأشراف عشيرتى »

(1) البيتان فى ديوان الحماسة ٢ / ٣١٤ ومعناهما كل ما أملكه فهو للضيف ، وليس يلهينى عنه ما يلهى الناس ، وإنى لا أقتصر على إطعامه ، بل لا أزال أحدثه وأونسه حتى ينام ، والغزال المقنع أراد به ذا الوجه الجميل .

(2) ديوان الحماسة ١ / ١٤٣ وقد نسب هذا الشعر لرجل من بنى أسد قاله فى يوم اليمامة ، وقد سبق إيراد البيتين وتصحيحهما فى صفحة ٣٨١ من القسم الأول من هذا الكتاب عند الكلام فى « اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها » .

(3) عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بنى أمية شب عاقلا أديبا =

مُصعَب بن الزُّبَير(1) ، فقالتْ : يا أميرَ المؤمنين ! فقال : رُوَيْدَكِ حتى تَنظُرى عمَّ تَنجلى . . . وأنشد البيت .

* * *

ومن هذا الباب قولُ عبد السلام بن رَغْبان المعروف بديكِ الجنِّ :

لمَّا نظَرْتِ إلىَّ عنْ حَدَقِ المَهَا وَبَسَمْتِ عَنْ مُتَفَتِّحِ النُّوَّارِ
وَعَقَدْتِ بين قَضيب بانٍ أهْيَفٍ وَكَثِيبِ رمْلٍ عُقْدَةَ الزُّنّارِ
عَفَّرْتُ خدِّى فى الثَّرى لَكِ طَائعاً وَعَزمْتُ فيكِ عَلَى دُخُول النَّارِ

وهذه الأبياتُ لا تجدُ لها فى الحسن شريكاً ، ولأَنْ يسمَّى قائلُها شُحْرُوراً أوْلى من أنْ يسمَّى دِيكاً !

وكذلك ورَدَ قولُه :

لاَ ، وَمكانِ الصَّليبِ فى النَّحر منْـكَ ومَجْرَى الزُّنَّارِ فى الخَصْرِ
والخال فى الخدِّ إذْ أُشَبِّهُهُ وَرْدَةَ مِسْكٍ على ثرَى تِبْرِ
وَحاجِبٍ مُذ خطَّهُ قَلَمُ الْحُسْـنِ بِحِبْرِ الْبَهاَء لا الْحِبْرِ
وأُقْحُوَانٍ بِفِيـكَ مُنْتظِمٍ عَلَى شَبيهٍ منْ رَائِقِ الْخَمْرِ

فالبيت الرَّابعُ هو المخصوصُ بالاستِعارةِ ، والمستعارُ له هو الثَّغرُ والرِّيق .

= حازما ، وخلف أباه على الملك ، فكان من أنبه حكام المسلمين ؛ استطاع قمع الثائرين على بنى أمية ، وتقوية سلطانه فى البلاد الإسلامية وكانت وفاته سنة ٨٦ ﻫ .

(1) كان مصعب بن الزبير والياً على العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير حتى دهمته جيوش عبد الملك ؛ وقتلته سنة ٧٢ ﻫ .

وممّا ورد لأبى تمّام فى هذا المعنى قولُه(١) :

لما غدا مُظلِمَ الأحشاءِ منْ أشَرٍ أسْكَنْتُ جانِحَتَيْه كَوْكباً يَقِدُ(٢)

فالكوكبُ استعارةٌ للرُّمْح .

وكذلك وَرَدَ قولُه فى الاعتذار(٣) :

أسْرَى طَرِيداً للحياءِ من َ التى زَعَموا وَليْسَ لِرَهْبَةٍ بطَرِيدِ
وَغداً تَبيَّنُ ما براءَة ساحَتِى لوْ قدْ نَقَضْتُ تَهائِمِى ونُجودِى(٤)

والتهائمُ والنُّجُود هما استعارةٌ ممّا استعارَهُ من باطِنِ أمْرِه وظاهِرِه .

وكذلك وَرَد قوله(٥) :

---

(١) ديوان أبى تمام ٩٩ من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد ابن يوسف الطائى ، ومطاعها :

يابعد غاية دمع العين إن بعدوا هى الصبابة طول الدهر والسهد

(٢) الأشر البطر وكفر النعمة و الجانحة الضلع .

(٣) ديوان أبى تمام ٨٤ من قصيدة يمدج فيها أحمد بن أبى دؤاد ويعتذر إليه ، ويستشفع بخالد بن يزيد ومطلعها : .

أرأيت أى سوالف وخدود عنّت لنا بين اللوى فزرود

(٤) التهائم المنخفضات ، والنجود المرتفعات ، وبين هذا البيت والبيت الذى قبله بيتان ، هما :

كنت الربيع أمامه ووراءه قمر القبائل خالد بن يزيد
فالغيث من زهر سحابة رأفة والركن من شيبان طود حديد

(٥) ديوان أبى تمام ١١ من قصيدته فى مدح المعتصم بالله أبى أسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ويذكر فتح عمورية ، ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً
تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فى كُثُبِ (١)

فالقُضُب والكُثُب استعارةٌ للقُدُود والأرْدافِ .

وكذلك ورد فى هذه القصيدة أيضاً عند ذكر ملكِ الرُّوم وانهزامِه لمّا فُتِحتْ مدينة عَمُّورِيَّة ، فقال :

إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ فقَدْ
أَوْسَعْتَ جاحِمَهامِنْ كَثْرَةِ الْحَطَبِ (٢)

فالْحَطبُ استعارةٌ لِلْقَتْلى .

وقبلَ هذا البيتِ مايَدُلُّ عليه ، لأنَّه قال :

أَحْسَى قَرَابِينَه صِرْفَ الرَّدَى وَمَضَى
يَحُثُّ أَنْجَى مطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ (٣)

مُوَكّلًا بِيَفَاعِ الأَرْضِ يَشْرُفُهُ
مِنْ خِفَّةِ الْخَوْفِ لا من خِفَّةِ الطَّرَبِ (٤)

إنْ يَعْدُ مِنْ حرِّها عَدوَ الظَلِيمِ . . . البيت .

---

(١) قضب الهندى السيوف ، مصلتة مسلولة .

(٢) الديوان ١١ ، والعدو الإسراع ، والظليم ذكرالنعام ، والجاحم شدة الحرارة .

(٣) فى الأصل « أحذى » موضع « أحسى » و « يحتث » ، موضع « يحث » والتصويب عن الديوان ومعنى أحسى سقى ، والحث السوق .

(٤) فى الأصل « يشرفها » « موضع » « يشرفه » والتصويب عن الديوان ، واليفاع العالى ، ويشرفه يعلوه .

وأحسَنَ من هذا كلّه قولُه[1] :

تطِلُّ الطّلُولُ الدّمعَ فى كلّ منزلٍ وتَمْثُلُ بالصّبْرِ الدّيارُ المواثِلُ[2]
دوَارِسُ لَمْ يَجْفُ الرّبيعُ رُبُوعَها ولا مَرّ فى أَغْفالِها وَهْو غافِلُ[3]
يُعَفّينَ مِنْ زادِ الْعُفاةِ إذا انْتَحَى على الْحَىِّ صرْفُ الأَزْمَةِ الْمتَحَامِلُ[4]

فقوله : « زاد العُفاة » استعارةٌ ، طُوِىَ فيها ذِكْرُ المُسْتعَارِ له ، وهو أهلُ الدِّيار ، كأنه قال : يُعَفِّينَ منْ قوْمٍ هُمْ زادُ الْعُفاةِ

ولهُ فى الغزَلِ من الاستعارةِ ما بلغَ به غاية اللطافةِ والرِّقّة ، وذلك فى قصيدته التى مطلعُها :

* إنَّ عهْداً لوْ تَعْلَمانِ ذمِياً[5] *

فقال :

قدْ مَرَرْنا بِالدّار وَهْىَ خَلَاءٌ فبكَيْنا طُلُولَها والرُّسُـــــومَا

(١) ديوان أبى تمام ٢٥٥ من قصيدة له فى مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها :

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل وقلبك منها مدة الدهر آهل

(٢) تطل تسكب ، تمثل به تقتله .

(٣) الأغفال القفار .

(٤) فى الديوان تعفين بالتاء ، وفى الأصل « ضرب الأزمة » موضع « صرف الأزمة » والتصويب عن الديوان ، وبين هذا البيت والبيت الذى قبله بيت لم يذكره ابن الاثير ، وهو :

فقد سحبت فيه السحائب ذيلها وقد أخملت بالنور منها الخمائل

(٥) صدر بيت وعجزه :

* أن تناما عن ليلتى أو تنيما *

وهو مطلع قصيدة فى مدح أبى سعيد ، وقد قدم من مكة . الديوان ٢٩٠ .

وَسَأَلْنا رُبُوعَها فانصرفنا بِسَقامٍ[1] وَما سأَلْنا حكيماَ
كُنتُ أَرْعَى النُجومَ[2] حَتى إذا ما فارَقُونى أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُجُومَا

والبيت الثالثُ هو المخصوصُ بالاستعارةِ .

* * *

وعلى هذا المنهاجِ ورد قَوْلُ البُحترىِّ[3]:

وأَغَرَّ فى الزّمنِ البَهيمِ مُحَجَّلٍ قدْ رُحْتُ منْهُ على أغَرَّ مُحَجَّلِ

والأَغرّ المحجَّل الأول هو الممدوح ؛ والأغرُّ المحجَّل الثانى هو الفرس الذى أعطاه إيّاه .

وكذلك وَرَد قوله[4]:

وَصاعِقَةٍ فى كَفِّه تَنْكَفى بها عَلى أرْؤُس الأعْداء خَمْسُ سَحائِبِ[5]

وهذا من النَمطِ العالى الذى شغَلت براعةُ معناه وحُسْنُ سبكه عن النَّظر إلى استعارته ، والمراد بالسَّحائب الخمسِ : الأصابع .

---

(١) فى الديوان « بشفاء » .

(٢) رواية الديوان « كنت أرعى البدور » هذا البيت قبل البيتين السابقين فى رواية الديوان .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ٢١٧ من قصيدة فى مدح محمد بن على ابن عيسى القمى الكاتب ، ومطلعها :

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذى نهواه أو لم يفعل

(٤) ديوان البحترى ٢ / ٢١١ من قصيدة مطلعها :

هبيه لمنهل الدموع السواكب وهبات شوق فى حشاه لواعب

(٥) رواية الديوان « من نصله » « موضع » فى كفه » « والأقران موضع » الأعداء .

وَكذلك وَرَدَ فى أبياتِ الحماسة :

دَكَّ طَوْدَ الْكُفْرِ دَكًّا صاعِقٌ منْ وقْعِ سَيْفِكْ
أرْسَلَتْهُ خَمْسُ سُحْبٍ نَشأَتْ مِنْ بَحْرِ كَفِّكْ

وكذلك وردقوله فى أبياتٍ يصف فيها السّيف :

حَمَلَتْ حَمَائِلُه الْقَدِيمةُ بَقْلَةً منْ عَهْدِ عادٍ غَضَّةً لَمْ تَذْبُلِ (١)

وهـذا من الحُسْنِ على ما يَشْهَدُ لنفسِه ، كأنَّه قال : حملتْ حمائلُه سيفاً أخْضَرَ الحْديدِ كالبَقْلَة .

وعلى هذا الأسْلوبِ وَرَدَ قولُ أبى الطَّيب المتَنَبى :

فى الخَدِّ إنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلَا مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الخُدُود مُحُولاَ (٢)

وكذلك وردَ قوله (٣) :

* يَمُـــدُّ يَدَيْهِ فى الْمُفَاضَةِ ضَيْـــغَمٌ (٤) *

---

(١) آخر بيت فى قصيدة البحترى التى مطلعها :

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذى نهواه أو لم يفعل

وقد تقدم بيت من هذه القصيدة فى الصفحة السابقة .

(٢) ديوان المتنبى ٣/٢٣٢ وهو مطلع قصيدة فى مدح بدر بن عمار وذكر الأسد ، وقد أعجله فضربه بسوطه .

(٣) ديوان المتنبى ٣/ ٣٥٧ من قصيدته التى أولها :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم

(٤) صدر البيت ، وعجزه :

* وعينيه من تحت التريكة أرقم *

والمفاضة الدرع الواسعة ، والضيغم الأسد ، والتريكة : البيضة ، تشبيها بالتريكة وهى بيضة النعامة إذا إنفلقت وخرج الفرخ فتركت ، والأرقم : ضرب من الحيات ، يقول : هؤلاء الفتيان الذين حوله كلهم =

وأحسنُ هذا قوله فى قصيدته التى مطلعها[1] :

* عُقْبى اليَمِينِ على عُقْبَى الوَغَى نَدَمُ[2] *

وأَصْبَحَتْ بِقُرَى هِنْزِيطَ جائِلَةً ... تَرْعَى الظُّبَا فى خَصِيبٍ نَبْتُهُ اللِّمَمُ[3]

فَمَا تَرَكْنَ بها خُلْداً لهُ بَصَرٌ ... تَحتَ التُّراب ولا بازاً لهُ قَدَمُ[4]

وَلاَ هِزَبْراً لهُ مِنْ دِرْعِهِ لِبَدٌ ... وَلا مَهاةً لَهَا مِنْ شِبْهِها حَشَمُ[5]

وهذا من المليحِ النّادر، فالخُلْد استعارةٌ لمن اختفى تحت التُّراب خائفاً،

= أسد فى شدته، وأرقم فى بسالته، يمد فى درعه يدى أسد، قوة وشدة ويفتح من تحت تريكته عينى أرقم إقداما وشجاعة.

(١) ديوان المتنبى ٤/١٥ وقد أنشدها فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة؛ وهى آخر قصيدة قالها بحضرة سيف الدولة.

(٢) صدر المطلع، وعجزه:

ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

والمعنى: من حلف على الظفر يندم لا محالة، لأنه ربما لم يظفر، وهذا إشارة إلى تكذيب البطريق الذى حلف لملك الروم أنه لابد أن يلقى سيف الدولة فى بطارقته، ففعل، فخيب الله ظنه.

(٣) هنزيط: من بلاد الروم ا والظبا: جمع ظبة، ظبة السيف. والخصيب المكان الكثير النبات، واللمم جمع لمة، وهى ماألم بالمنكب من الشعر، وجائلة تجول للغارة، يقول: أصبحت الخيل بهذا المكان تجول للغارة والقتل، والسيوف ترعى فى مكان خصيب من رءوسهم إلا أن نبته الشعر.

(٤) الخلد: ضرب من الفأر، ليست له عيون.

(٥) الهزبر: الأسد واللبد جمع لبدة، وهى ما على كتفى الأسد من شعره، والمهاة بقرة الوحش، والحشم الخدم، وهى حاشية الإنسان العظيم.

والبازُ استعارةٌ لمن طارَ هارباً ، والهزَبْرُ والمهاةُ استعارتان للرِّجالِ المُقاتِلة والنِّساء من السَّبايا .

ومن هذا الباب قوله (١) :

كلُّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلامَتُهُ إلا جَرِيحًا دَهَتْهُ عَيْنَاهَا (٢)

تُبلُّ خَدَّيَّ كُلَّما ابتَسَمتْ مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَــــايَاهَا (٣)

والبيتُ الثَّانى من الأبياتِ الحِسَانِ الَّتى تُتَواصَف ؛ وقدْ حسَّن الاستعارةَ الَّتى فيه أنَّه جاءَ ذِكرُ المطرِ مع البَرْق .

وبلغنى عنْ أبى الْفتح بن جِنِّى (٤) — رحمهُ الله — أنَّه شرح ذلك فى

---

(١) ديوان المتنبى ٤ / ٢٧١ من قصيدة يمدح فيها عضد الدولة أبا شجاع فناخسرو سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، ومطلعها :

أوة بديل من قولتى واها لمن نأت والبديل ذكراها

(٢) من دهته : أى أصابته بعينها ، لم ترج سلامته

(٣) قال الواحدى : قال ابن جنى : دل بهذا البيت على أنها كانت متكئة عليه ، وعلى غاية القرب منه .

وقال ابن فورجة : أظنها وقعت عليه تبكى ، فوقع دمعها عليه .

ومعنى البيت : إن دموعى كالمطر ، تبل خدى ، كلما ابتسمت بكيت ، فكأن دموعى مطر برقه بريق ثناياها ، أى كان بكائى فى حال ابتسامها كقوله ظلت أبكى وتبتسم .

(٤) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ، كان من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف ، صنف فيهما كتباً أبدع فيها كالخصائص والمنصف وسر الصناعة ، وصنف كتاباً فى شرح القوافى وفى العروض وفى المذكر والمؤنث إلى غير ذلك ، ولم يكن فى شىء من علومه أكمل منه فى التصريف ، فإنه لم يصنف أحد فى التصريف ولا تكلم فيه أحسن ولا أدق كلاماً منه ، وكان أبو « جنى » مملوكا روميا لسليمان بن فهد =

كتابه الموسُوم بالْمُفَسِّر [1] الذِي ألَّفه في شرح شعر أبي الطَّيِّب ؛ فقال : «إنَّهَا كانتْ تبزُقُ في وَجْهِه» فظنَّ أنَّ أبا الطَّيِّب أرادَ أنَّها كانتْ تبْسم ، فيخرجُ الرِّيقُ من فمِهَا ، ويقعُ على وجهِه ، فشبَّهه بالمطرِ .

وما كُنت أظنُّ أنَّ أحداً من النّاسِ يذهبُ وَهمُهُ وخاطرُه حيثُ ذهَبَ وَهمُ هذا الرَّجل وخاطرُه .

وإذا كان هذا القولُ قولَ إمامٍ من أئمَّة اللغةِ العربيَّة تُشَدُّ إليه الرِّحال ، فما يُقَالُ في غَيْره ؟ لكنَّ فنَّ الفصاحةِ والبلاغةِ غيرُ فنِّ النَّحو والإعرابِ !!

وكذلك وَرَد قَوْلُ الشَّريفِ الرَّضِيّ [2] :

إذَا أنْتَ أفْنَيْتَ العَرَانِينَ وَالذُّرَا
رَمَتْكَ اللَّيالى منْ يَدِ الخَامِلِ الْغَمْرِ

وَهَبْكَ اتَّقَيْتَ السَّهْمَ منْ حيثُ يُتَّقَى
فَمَنْ لِيَدٍ تَرْمِيكَ مَنْ حَيْثُ لاتَدْرِى [3]

فالعرانينُ والذُّرَاهما عظماءُ الناسِ ، وأشرافُهم ، كأنّه قال : إذا أفْنَيْتَ عظماء النّاس رُمِيَت من يد الخامِل .

* * *

= الأزدى ، وكان يقول الشعر ويجيده ، ودرس النحو ببغداد ، وتوفى ابن جنى يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة في خلافه القادر .

(١) لابن جنى كتاب كبير في تفسير ديوان المتنبى ، وهو ألف ورقة ونيف ، وكتاب آخر في تفسير معانى هذا الديوان وحجمه مائة ورقة وخمسون ورقة — وانظر معجم الأدباء لياقوت ١٢/ ١١٠ .

(٢) الشريف الرضى هو أبو الحسن محمد بن الحسين الرضى العلوى نقيب أشراف بغداد ، وأشعر بنى هاشم ، توفى سنة ٤٠٦ هـ .

(٣) ديوان الشريف الرضى ١/ ٤٠٧ .

وإذْ قَدْ بيَّنْتُ أنّ الاستعارةَ لا تكونُ إلا بحيثُ يُطْوَى ذكرُ المُستعارِ له ؛ فإنّها لا تجيء إلا ملائمةً مناسبةً ، ولا يوجدُ فيها مُباينَة ولا تبَاعُد ، لأنّها لا تُذْكرُ مَطويةً إلا لبيَانِ المنَاسَبة بينَ المستعار منه والمستعارِ له ، ولَوْ طُويَتْ وَلَمْ يَكُنْ هناكَ مناسَبة بين المستعار منه والمستعارِ له لَعَسُرَ فهمُها ، ولم يَبِن المُرَادُ منْها .

* * *

ورأيْتُ أبا مُحَمّدٍ عبدَ الله بن سِنانٍ الخفاجيَّ — رحمهُ الله تعالى — قد خَلَطَ الاستعارة بالتَّشبيه المُضمَرَ الأداةِ ، ولم يفرِّقْ بينهما وَتأسَّى في ذلكَ بغيره من علماءِ البيان ، كأبي هلال العَسْكريّ[1] ، والغانِميِّ[2] ، وأبي القاسم الحَسنِ بن بشرِ الآمِديِّ .

على أنَّ أبا القاسم الحسنَ بنَ بشرٍ الآمديَّ كان أثبَتَ القومِ قدَماً في فنِّ الفصاحةِ والبلاغة ، وكتابُهُ المسمَّى بِـ « الموازنةِ بينَ شعرْ الطَّائيَيْن »

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران ، أبو هلال العسكري ، صاحب الصناعتين ، وكان مشهورا بالعلم والفقه ، والغالب عليه الأدب والشعر ، وله من التصانيف : التلخيص في اللغة ، جمهرة الأمثال ، شرح الحماسة ، لحن الخاصة ، الأوائل . . وغير ذلك ، قال ياقوت : ولم يبلغني شيء عن وفاته إلا أنه فرغ من إملاء كتابه « الأوائل » لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلثمائة . وللدكتور بدوي طبانة أحد محققي هذا الكتاب دراسة مفصلة في أبي هلال وبلاغته ونقده ، طبع بالقاهرة سنة ١٩٥١ م وطبعة أخرى سنة ١٩٦٠ تحت عنوان « أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية » .

(٢) هو أبو العلا محمد بن غانم المعروف بالغانمي ، كان من فضلاء عصره ، وشعره مشهور ، وهو من شعراء نظام الملك .

يشهدُ له بذلك ، وما أَعْلَمُ كيف خفيَ عليه الفرقُ بين الاستعارةِ والتشبيهِ المضمَر الأداةِ ؟!

وممَّا أوردَهُ ابن سُنان فى كتابه الموسوم بِـ « سرّ الفَصاحة » قولُ امرىء القَيْس فى صِفَةِ اللَّيل :

فَقُلْتُ له لمّا تَمطَّى بصُلْبـِه وَأَرْدَفَ أَعْجازاً وَناءَ بِكَلْكَلِ

وهذا البيتُ من التشبيه المضمرِ الأداة ، لأنَّ المستعارَ له مذكورٌ ، وهو اللَّيل ، وعلى الخطإِ فى خلْطِه بالاستعارة ، فإنّ ابن سنان أخطأَ فى الرَّدِّ على الآمِدىِّ ؛ ولمْ يُوَفّق للصواب .

وأنا أتكلّم على ماذكرهُ ، ولا أُضايقه فى الاستعارةِ والتَّشْبِيهِ ؛ بل أنزلُ معهُ على مارآهُ من أنّه استعارة ، ثمّ أُبيِّن فسادَ ماذهَب إليه .

وذاك أن الآمدىَّ قال فى كتابه « الموازنة » ، « إنَّ امرأَ القَيْس وَصفَ أحوالَ اللَّيل الطَّويل ، فذكر امتدادَ وَسَطِهِ ! وَتثَاقلُ صَدره ، وترادُفَ أعْجازِه فلمَّا جعلَ لهوَسَطاً مُمْتداً ، وصدراً ثقيلا ،وأعجازاً رَادفةً لوسَطه ، استعار له اسمَ (الصُّلب) وجعلهمتمطِّياً من أجْل امتدادِه ؛ واسمَ (الـكلْـكل) وجعلَه نائياً لِتثاقُله ، واسمَ (العجز) من أجل نهوضِه [1] » .

---

(١) تصرف ابن الأثير فى نقل كلام الآمدى ، وهذا نصه نقلا عن الموازنة (٢١٤) : وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعانى ولا المجازات ، وهو فى غاية الحسن والجودة والصحة ، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل ، فذكر امتداده وسطه ، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا ، وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه ،فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازا =

فقالَ ابنُ سنانٍ الخفاجيُّ معترضاً عليه : « إنَّ هذا الذى ذكرهُ الآمديُّ ليسَ بِمَرْضِيٍّ غايةَ الرِّضا . وإنَّ بيتَ امرىء القيس» ليسَ من الاستعارةِ الجيِّدةِولا الرَّديئة . بل هُو وَسَط . فإنّ الآمدِيَّ قد أفْصَحَ بأنَّ امرأَ القيس لمّا جعل لِلَيْل وسطاً ممتدًّا استعار لَهُ (الصُّلب) وجعلهُ متمطِّياً من أجْلِ امتداده . وحيثُ جعلَ له آخراً وأوَّلًا استعار لهُ عَجُزاً وكَلْكَلاً . وهذا كله إنما يحسُنُ بَعْضُه مع بعض ؛ فذِكرُ الصُّلب إنما يحسُنُ من أجْلِ العجز والوَسط ؛ والتمطِّى من أجَلِ الصُّلبِ ؛ والكلكل لمجموع ذلك ؛ وَهذه استعارةٍ مبنيّةٌ على استعارةٍ أخرى »(١) .

= رادفة للوسط ، وصدرا متثاقلا فى نهوضه ، حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل ، من أجل نهوضه ، وهذا أقرب الاستعارات من الحقيقة ، وأشد ملاءمة لما استعيرت له » .

(١) تصرف ابن الأثير أيضا فى نقل كلام الخفاجى ، وهذا نصه نقلا عن سرالفصاحة (١٢٩) : (وهذا الذى قاله أبو القاسم لاأرضى به غاية الرضا ، ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل بقوله أبو القاسم ، لصحة فكره ، وسلامة نظره ، وصفاء ذهنه ، وسعة علمه ، لكننى أغلب الحق عليه ، ولا أتبع الهوى فيما يذهب إليه . وبيت امرىء القيس عندى ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها ، بل هو من الوسط بينهما . . وإنما قلت ذلك لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وذكر الكلكل من أجل نهوضه ، فكل هذا إنما يحسن بعضه لأجل بعض ، فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز ، والوسط والتمطى لأجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك ، وهذه الاستعارة المبنية على غيرها ، فلذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات ، وأجدرها بالحمد والوصف .

هذا حكايةُ كلامه فى الاعتراضِ على الآمدىِّ .

وفيهِ نظرٌ من وَجْهَيْن :

الأوّل : أنّه قالَ هذا بيتٌ من الاستعارةِ الوُسْطى التى ليستْ بجيِّدةٍ ولا رديئة . ثم جعَلها استعارةً مبنيـةً على استعارةٍ أخْـرى . وعنده أن الاستعارةَ المبنيّةَ على الاستعارةِ من أبعدِ الاستعارات .

وذاكَ أنَّه قسّم الاستعارةَ إلى قسمين : قريبٍ مختار . وَبَعيد مُطَّرَح .

فالقريبُ المختارُ : ما كانَ بينَه وَبينَ ما استُعِيرَ له تناسبٌ قويٌّ . وَشَبَهٌ واضح .

والبعيدُ المطّرَحُ . إمّا أنْ يكونَ لِبُعْدِه ممّا استُعير لَه فى الأصل . أَوْ لأنه استعارةٌ مبنيَّة على استعارةٍ أُخرى . فَيضْعُفُ لذلك .

هذا ما ذكرهُ ابن سنانٍ الخفاجىُّ فى تقسيمِ الاستعارةِ .

وإذا كانتْ الاستعارةُ المبنّيةُ على استعارةٍ أُخْرى عنده بعيدةً مُطّرَحة . فكيفَ جعلَها وَسَطاً ؟ هذا تناقضٌ فى القول !

الوجهُ الثانى . أَنّه لم يأخذْ على الآمدىِّ فى موضعِ الأخْذ . لأنّه لم يَخْتَرْ إلا ما حَسُنَ اختيارُه .

وذاكَ أَن حَدّ الاستعارةِ على ما رآهُ الآمدىُّ وَابنُ سنانٍ . هو نقلُ المعنى من لفظٍ إلى لفظٍ . بسبب مشاركةٍ بينَهما . وإنْ كانَ المذهبُ الصحيحُ فى حدِّ الاستعارةِ غيرَ ذلك على ما تقدّم الـكلامُ عليه .

ولـكنّى فى هذا الموضعِ أنزلُ معهما على ما رَأَياهُ . حتى يتوجَّه الـكلامُ على الحـكمِ بَيْنَهما فى بيتِ امرىء القَيْس .

وإذْ حدَّدْنا الاستعارةَ بهذا الحدِّ فيهِ يفرّق على رأى ابن سنان بين

الاستعارة المرْضِيّة والاستعارة المطَّرَحَة . فإذا وجدْنا استعارةً فى كلامٍ ما عرَضْناها على هذا الحدِّ . فما وَجدنا فيهِ مناسَبَة بين المنقُول عنه والمنقول إليه حكمْنا لهُ بالجودة . وما لَمْ نجدْ فيه تلكَ المناسبة حكمْنا عليه بالرَّداءَة .

وبيتُ امرىء القيس من الاستعاراتِ المرْضيّةِ . لأنه لوْ لَمْ يكن للنَّيلِ صدرٌ . أعْنِي أوَّلا . ولم يكنْ له وسطٌ وآخِر لما حَسُنتْ هذه الاستعارةُ .

ولما كان الأمرُ كذلك استَعار لِوَسَطه صُلْباً . وجعله متمطِّياً . واستعار لصدرِه المُتَثَاقِلَ — أعْنِي أوَّله — كَلْكَلًا ؛ وجعلَه نائياً ؛ واستَعار لآخِره عَجْزاً ؛ وجعله رَادِفاً لِوَسَطه ؛ وكلُّ ذلك من الاستعاراتِ المناسِبة .

وأمّا قولُ ابن سِنانٍ الخفاجىِّ : « إنّ الاستعارةَ الْمَبنِيَّة على استعارة أُخْرى بَعيدة مُطّرَحةَ » فإنّ فى هذا القولِ نظراً .

وذاكَ أنّه قَدْ ثَبتَ لنا أصلٌ نَقِيس عليه فى الفَرْقِ بين الاستعارةِ الْمَرْضيّة والمُطَّرَحَة ؛ كما أريناكَ ، ولا يَمنع ذلك من أنْ تَجِيءَ استعارةٌ مبنِيَّةٌ عَلَى استعارةٍ أُخرى ، وَتوجَدُ فيها المناسبةُ المطلوبةُ فى الاستعارةِ المرْضِيّة ؛ فإنّه قد ورَدَ فى القرآنِ الْكريم ما هُو من هذا الجنس ؛ وهو قوُله تعالى . « وَضَرَبَ اللهُ مثلا قَرْيَةً كانَتْ آمنـةً مطمئِنَّةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ فَـكَفَرَتْ بأنْعُمِ الله فأذاقَهـا اللهُ لِباسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ »[1] .

فهذه ثلاثُ استعاراتٍ ينْبَنِى بعضُها على بَعْض :

فالأولى : استعارةُ القَرْيَة للأهْل .

والثّانية : استعارةُ الذَّوْق لِلّباس .

---

(١) سورة النحل الآية ١١٢ .

والثالثةُ : اســـتعارةُ اللِّباس للجُوع والخوف .

وهذه الاستعاراتُ الثّلاثُ من التناسُب على مالا خَفَاءَ به .

فكيفَ يَذُمُّ ابنُ سنان الخفاجيُّ الاستعارةَ المبْنيَّة على استعارةٍ أُخرى؟ وما أقول إنَّ ذلك شذَّ عنه ، إلاّ لأنَّه لم ينظرْ إلى الأصْل المَقِيس عليـه ؛ وهو التناسُب بينَ المنقولِ عنْه والمنقُول إليه ؛ بلْ نَظَر إلى التَّقسيم الذى هو قسَّمه فى القُرْب أو البُعْد ؛ ورأى أن الاستعارة المبنيَّـة على استعارةٍ أُخْرَى تـكونُ بعيدة . فحكم عليها بالاطِّراح .

وإذا كانَ الأصلُ إنما هو التناسُب فلا فَرْقَ بينَ أن يُوجَد فى استعارةٍ واحدةٍ : أوْ فى استعارةٍ مبنيَّة على استعارة .

ولهذا أشْباهٌ ونَظَائرُ فى غيرِ الاستعارة .

ألا ترَى أنَّ المنطِقيَّ يقُول فى المقدِّمة والنتيجةِ : كلُّ إنسانٍ حيوانٌ ؛ وكلُّ حيوانٍ نائمٍ ؛ فكلُّ إنسانٍ نائمٍ ؟

وكذلك يقول المُهَنْدِس : فى بعض الأشكالِ الهندسيَّة : إذا كان خَطّ (اب) مثـلَ خطّ (ب ج) وخطّ (ب ج) مثلَ خطّ (ج د) فخط (ا ب) مثلُ خطِّ (ج د) ؟

وهكذا أقولُ أنا فى الاستعارةِ : إذا كانتْ الاستعارةَ الأولى مناســبة ؛ ثُمَّ بُنِى عليها استعارةٌ ثانية ، وكانتْ أيضاً مناسِبة ؛ فالجميعُ مُتنَاسِب ؛ وهذا أمرٌ برْهانىٌّ ؛ لا يُتصَوَّرُ إنْـكارُه .

وهذا الـكلامُ الذى أوْرَدْتُه ها هنا هو اعتراضٌ على ما ذكرَهُ ابنُ سنانٍ الخفاجىُّ فى الاستعارة ؛ فلا تَظنَّ أنى مُوَافِقُه فى الأصل ؛ وإنما وَافقْتُه قَصْداً لتَبْيين وَجْهِ الخطأ فى كَلامِه ، وكيفَ يسُوغَ لى موافقَتُه ، وقد ثَبتَ عندى بالدَّليل أن الاستعارةَ لا تـكونُ إلا بحيثُ يُطْوَى ذكْرُ المُستعار له ؟

وفيما قدّمْتُه من الـكلامِ كفايَة .

النـــــــوع الثانى

فى التشبيه

وجدت عُلماءَ البيانِ قد فرّقوا بينَ التشبيه والتمثيل ، وجعلوا لهذا باباً مُفرَداً ؛ ولهذا باباً مُفرَداً ؛ وهما شيءٌ واحدٌ لا فرقَ بينَهُما فى أصْلِ الوضْع ؛ يقال : شَبَّهْتُ هذا الشيءَ بهذا الشَّيء ؛ كما يقال : مثَّلْتُهُ به .

وما أعْلَمُ كيفَ خَفِيَ ذلك على أولئِكَ العلماءِ مع ظُهوره وَوُضوحه ؟

وكنتُ قدَّمْتُ القولَ فى باب الاستعارةِ على الفرق بين التَّشْبيه وبَيْنَها ، ولا حاجةَ إلى إعادتِه هاهنا مرّةً ثانيةً .

والتشبيهُ ينقَسِمُ قِسْمين : مُظْهَراً ومُضْمَراً .

وفى المُضْمَرُ إشْكالٌ فى تقديرِ أَدَاةِ التَّشْبيه فيهِ فى بَعْض المواضع .

وهو ينقسمُ أقساماً خمسةً :

فالأول : يقعُ مَوْقِـعَ المبتدأ والخبر مُفْرَدَيْن .

والثانى : يقعُ موقِـعَ المبتدأ المُفرد وخبرهُ جُملةٌ مركَّبةٌ من مضافٍ ومضافٍ إليه .

والثالث : يقع مَوْقِـعَ المبتدأ والخبر جملتين

والرابع : يَردُ على وَجْهِ الفِعل والفاعِل .

والخامس : يَردُ على وجه المَثل المَضْرُوب .

وهذان القسمان الأخيرانِ هما أشْكلُ الأقسامِ الخَمْسَة فى تقدير أَداة التَّشْبيه .

أمّا الأوّل فكقولنا : (زيدٌ أسدٌ) فهذا مبتدأ وَخبَرُه ، وإذا قدَّرتَ أداة التّشْبيه فيه كان ذلك ببديهةِ النَّظر على الفَوْرِ ؛ فقيل : زيدٌ كالأسَدِ .

وأما القسمُ الثّانى والثالثُ فإنّهما متوسِّطان فى تقديرِ أداةِ التّشْبيه فيهما .

فالثانى كقول النبى صلى الله عليه وسلم (الكَمْأة جُدَرِىُّ الأرْضِ) وهذا يتنوَّع نوْعَيْن؛ فإذا كانَ المضافُ إليه معرفةً كهذا الخبر النَّبوىِّ لا يحتاجُ فى تقديرِ أداةِ التَّشْبيه إلى تقديمِ المُضافِ إليه ؛ بل إنْ شِئْنا قدَّمناه ، وإنْ شِئْنا أخرْناه فقلنا : الكَمْأَة للأرْضِ كالجُدَرِىِّ ؛ أوالكَمْأَة كالجُدَرِىِّ للأرْضِ ؛ وإذا كانَ المضاف إليه نكرةً فلا بدَّ من تقديمه عندَ تقديرِ أداةِ التشْبيه ؛ فمِنْ ذلك قول البُحْترِىِّ[1] :

غمَامُ سَماحٍ لا يَغِبُّ له حَيًا ... وَمِسْعَرُ حَرْبٍ لا يضِيع لَه وِتْرُ[2]

فإذا قدَّرْنا أداةَ التشبيه هاهُنا قلنا . سماحٌ كالغمامِ ؛ ولا يقدَّر إلا هكذا ، والمبتدأ فى هذا البَيْتِ محذوفٌ ؛ وهو الإشارة إلى الممدوحِ ؛ كأنه قال . هو غَمامُ سماحٍ .

ومن هذا النوعِ مايُشكِلُ تقديرُه أداةِ التشبيه فيه ؛ على غيرِ العارفِ بهذا الفنِّ ؛ كقولِ أبى تمّام :

أَىُّ مَرْعَى عَيْن وَوادِى نَسِيبِ ... لَحَبَتْهُ الأيّامُ فى مَلْحُوب[3]

---

(١) ديوان البحترى ١ / ٥٤ من قصيدة يمدح فيها المتوكل ، ومطلعها :

متى لاح برق أوبدا طلل قفر ... جرى مستهل لا بكىء ولا نزر

(٢) فى الأصل يحب بالحاء المهملة ، وهو تحريف ، وفى الديوان مايغب « وما يضيع » .

(٣) ديوان أبى تمام ٣٦ والبيت مطلع قصيدة له فى مدح سليمان بن وهب . قال الصولى: ويرويه قوم « أى مرعى عين » بكسر العين ، وهو =

ومرادُ أبى تمّامٍ أنْ يصفَ هذا المكانَ بأنَّه كان حسناً ؛ ثمّ زالَ عنه حُسْنُه ؛ فقالَ بأنّ العَيْنَ كانت تلتذُّ بالنظرِ إليه كالْتِذاذ السّائمة بالمرعَى ؛ فإنه كان يشَبِّب به فى الأشعارِ لحسْنِه وطِيبِه .

وإذا قدّرْنا أداةَ التشبيهِ هاهُنا قلنا . كأنّه كان للعَيْنِ مرعًى ؛ وللنّسيب منزِلًا ومَأْلفاً .

وإذا جاء شيء من الأبيات الشعريّة على هذا الأُسلوبِ ؛ أو مايجرِى مجراهُ فإنّه يحتاجُ إلى عارفٍ بوضْعِ أداةِ التشبيه فيه .

وأما الثالثُ فكقولِ النبى صلى الله عليه وسلم . « وهل يكبُّ الناسَ على مناخِرِهم فى نارِ جَهَنّمَ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنتهم » كأنّه قال : كلامُ الأَلْسِنةِ كحصائِد المَنَاجِلِ .

وهذا القسمُ لايكون المشبّهِ به مذكوراً فيه ؛ بل تُذْكرُ صفتُه ؛ ألا ترى أنّ الْمِنْجَل لم يذكَرْ هاهُنا ، وإنما ذكِرَتْ صِفتَهُ وهى الحصْد . وكلُّ مايجىء من هذا القسمِ فإنه لايرِد إلاّ كذلك .

وأما القسمُ الرابعُ والخامسُ اللّذانِ هما أشكلُ الأقسامِ المذكورةِ فى تقدير أداةِ التّشْبيه فيهما فإنهما ، لا يتَفَطن لهما أنّهما تشبيه .

= تصحيف ، إنما يريد « مرعى عين » بفتح العين ، جعل نظرها إلى الحسان رعيا لها ، ويروى من ملحوب » ، وقوله « وادى نسيب » أى كان هذا الوادى فيه أهل » يستحقون أن يقال فيهم النسيب ، وملحوب اسم موضع ، وتردده فى الشعر كثير ، ولحبته من شدد الحاء فهو من قولهم « لحبت القتيل » إذا صرعته ، وقال قوم : لحبه إذا قطعه بالسيف ، وقيل معنى لحبه أى ألقاه على الطريق الواضح ، وهو اللاحب ، ومن روى لحبته بالتخفيف فهو من القشر ، يقال لحب اللحم إذا قشره — وانظر ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ١ / ١٢٢ .

فمّا جاء من القسم الرابع قوله تعالى : « والذينَ تبوّءوا الدّارَ والإيمانَ من قبلِهمْ »[1] وتقديرُ أداةِ التّشبيه في هذا الموضع أنْ يُقَال: هُمْ في إيمانهمْ كالمتبوِّىءِ داراً ؛ أي أنهمُ قد اتخذوا الإيمان مَسْكناً يسكنُونه ؛ يصف بذلك تمكّنَهمْ منه .

وعلى هذا ورَد قولُ أبي تمّام .

نطقت مُقْلَةُ الْفَتى الْمَلْهوفِ فَتَشَكّتْ بِفَيْضِ دمعٍ ذَرُوفِ[2]

وإذا أرَدْنا أنْ نقدِّرَ أداة التّشْبيه هاهنا قلْنا . دمعُ العَيْن كنُطقِ اللسان ، أوْ قلْنا : العينُ الباكيةُ كأنما تنْطقُ بما في الضّمير .

وأمّا ماجاء من القسم الخامسِ فكقولِ الْفَرزْدَق[3] يهْجُو جريراً[4] .

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩ .

(٢) ديوان أبي تمام ٤٠٤ مطلع قصيدة له في ابن أبي سعيد يعاتبه .

(٣) الفرزدق هوأبو فراس همام بن غالب التميمي الدارمي ، أحد فحول الشعراء الأمويين ، نشأ بالبصرة والبادية يروى الشعر ويعالجه حتى نبغ فيه ، واتصل بولاة العراق ، يمدحهم ويهجوهم ، ورحل إلى دمشق يمدح الخلفاء وينال جوائزهم وله مع جرير نقائض تعد وثيقة تاريخية لعصرهما ولكثير من أيام العرب وأحوالهم في الجاهلية والإسلام ، ويمتاز شعر الفرزدق بخشونه الألفاظ ، ووعورة المعاني ، والميل إلى الفخر في هجائه ، والفحش في غزله ، وقدمات سنة ١١٤ هـ .

(٤) ينتسب أبو حزرة جرير بن عطية بن الخطفي إلى يربوع من تميم ، كما ينتسب الفرزدق إلى دارم بن تميم كذلك ، وقد ولد باليمامة ، ونشأ في البادية يأخذ الشعر عن أسرته وغيرها ، ويتكسب به لدى الولاة والخلفاء ، حتى اشتبك مع الفرزدق في التهاجي والتساب ، لعوامل سياسية واجتماعية ، ومات بعد الفرزدق بقليل سنة ١١٤ هـ .

مَاضَرَّ تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَها   أَمْ بُلْتَ حَيْثُ تَناطَحَ الْبَحْرَانِ[1]

فشبَّه هِجاءَ جريرٍ تَغْلبَ وائلٍ ببَوْلِه فى مَجمَعِ الْبَحْرَيْن ؛ فكما أنَّ البَوْلَ فى مجمعِ البحرينْ لا يؤثِّرشيئاً ؛ فكذلك هجاؤُك هؤلاءِ الْقومَ لايؤثر شيئاً .

وهذا البيتُ من الأبياتِ التى أقرَّ لها[2] الناسُ بالُحسن

وكذلِكَ وَرَد قوله أيضاً[3] :

قَوَارِصُ تأتِينِي وَتَحْتَقِرُونَها   وَقدْ يَملأُ القَطْرُ الإناءَ فيُفْعَمُ

فإنه شبَّه القوارص التى تأتيه مُحْتقرَةً بالقطْرِ الذى يملأُ الإناءَ على صِغرِ مقدارِه ، يشيرُ بذلك إلى أنَّ الكثرةَ تجعلُ الصَّغير من الأمر كبيراً .

وهذا الموضعُ يُشْكِلُ على كثيرٍ من علماء البيانِ ؛ ويخلطُونَه بالاستعارةِ ؛ كقول البحترىِّ فى التَّعزيةِ بولد[4] :

---

(١) ديوان الفرزدق ٢ /٨٨٢ وهذا البيت ثانى أبيات قصيدته التى أولها :

ياابن المراغة والهجاء إذا التقت   أعناقه وتماحك الخصمان

وفى هذه القصيدة يذكر الفرزدق تفضيل الأخطل إياه ، ويمدح بنى تغلب ، ويهجو جريراً .

(٢) فى الأصل « الذى أقر له.. » .

(٣) ديوان الفرزدق ٢ /٧٥٦ ، وكان الفرزدق لما هرب من زياد ابن أبيه نزل بالروحاء على بكر بن وائل ، ثم انتقل عنهم إلى المدينة ، فقال الفرزدق :

تصرم عنى ود بكر بن وائل   وما كان عنى ودهم يتصرم

قوارص تأتينى فيحتقرونها   وقد يملأ القطر الأتى فيفعم

ومعنى الأتى الجدول .

(٤) ديوان البحترى ٢ /٥٢ والبيت من قصيدة له فى رثاء ابن أبى الحسن ابن عبدالملك بن صالح الهاشمى ، ومطلعها :

لأية حال أعلن الوجد كاتمه   وأقصر عن داعى الصبابة لائمه

تَعزَّ فإنَّ السَّيفَ يمضى وإنْ وَهَتْ
حمَائِله عَنْه وَخَلَّاهُ قَائِمُهُ

وهذا ليسَ من التَّشبيه ، وإنما هو استعارةٌ ، لأنَّ المستعار له مطويُّ الذِّكر ، وهو المُعزَّى ، كأنه قال : تعزَّ فإنك كالسيفِ الذى يمْضى وَإنْ وَهَتْ حمَائِله وخَلَّاه قائمُهُ .

فإنْ قِيلَ : إنَّك قدَّمْتَ القولَ فى بابِ الاستعارةِ بأنَّ التشبيه المضمرَ الأداةِ يحسُنُ تقديرُ أداةِ التشبيهِ فيه ، والاستعارَةَ لايحسُنُ تقديرُ أداة التشبيه فِيها ، وجعلتَ ذلكهو الفرقَ بيْنَ التشبيهَ المضْمرِ الأداةِ وبين الاستعارةِ ، وقرَّرت ذلك تقريراً طويلًا عريضاً ، ثم نرَاك قد نقضْتَه هاهنا بِقَولك : إن من التشبيهِ المضمرِ الأداةِ ما يُشْكِلُ تقديرُ أداة التشبيه فيه ، وإنه يحتاجُ فى تقديرِها إلى نظرٍ كهذين البَيْتَين المذكورين لِلفرَزْدق ، وما يَجرى مجراهما .

فالجوابُ عن ذلك أنِّى أقول : هذا الذى ذكرتَه لا ينقُضُ علىَّ شيئاً مِمَّا قدَّمْت القولَ فيه فى باب الاستعارةِ ، لأنى قلتُ : إنَّ التشبيهَ المضمرَ الأداة يحسُنُ تقديرُ الأداةِ فيه ، أىْ لا يتغيّر بتقديرها فيه عن صِفته التى اتَّصفَ بها من فصاحةٍ وبلاغةٍ ؛ وليسَ كذلك الاستعارةُ ؛ فإنها إذا قدِّرتْ أداةُ التشبيه فيها تغيّرتْ عن صِفتها التى اتَّصفتْ بها من فصاحةٍ وبلاغـةٍ .

وأمَّا الذى وَرَد هاهُنا من بَيتَى الفَرَزْدق وما يجرى مجراهُما من التَّشبيه المضمر الأداة فإنَّ أداةَ التشبيه لا تتقَدّر فيه ، وهو على حالتِه من النَّظم ؛ حتى تَتَبَيّن هل تغيّرت صفتُه التى اتَّصف بها من فصاحةٍ وبلاغةٍ أم لا ؟ وإنّما

تتقدّر أداةُ التشبيهِ فيه على وَجْهٍ آخر ، وهذا لاينقضُ ما أشرتُ إليه فى باب الاستعارة .

* * *

وإذا ثبَتَتْ هذه الأقسامُ الأربعةُ فأقول : إن التشبيهَ المضمَر أبلَغُ من التَّشبيه المُظْهر وأوْجَز .

أمّا كونُه أبلغَ فلجَعْلِ المشبّه مشبّهاً به من غيرِ واسطَةِ أداةٍ ، فيكونُ هوَ إيّاه ، فإنك إذا قُلْتَ : « زَيْدٌ أسَد » كنتَ قد جعلتَه أسداً من غيرِ إظهار أداةِ التّشبيه .

وأمّا كونُه أوْجَز ، فلحذْفِ أداة التّشبيه منه .

وعلى هذا فإنّ القِسْمَيْن من المظْهرَ والمُضْمر كِلَيْهما فى فضيلَةِ البيانِ سواءٌ ، فإنّ الغرضَ المقصودَ من قولنا « زيدٌ أسد » أن يتَبيّن حالُ زيدٍ فى اتِّصافه بشهامةِ النفسِ ، وقُوّة البطشِ ، وجَراءة الإقْدام ، وغيرِ ذلك ممّا يجْرى مجراهُ ؛ إلا أنّا لم نَجِدْ شيئاً ندلُّ به عليه سِوَى أن جعلناهُ شَبيهاً بالأسدِ ، حيثُ كانتْ هذه الصفاتُ مختصّةٌ بهِ ؛ فصَار ما قصدْناهُ من هذا القولِ أكْشَفَ وأبيَن منْ أنْ لوْ قُلْنا : زَيْدٌ شهمٌ ، شجاعٌ ، قويُّ البطشِ ، جريءُ الجنَانِ ، وأشباه ذلك ؛ لما قد عُرِف وعُهِد من اجتماع هذه الصفات فى المشبّه به — أعنى الأسد — وأما زيد الذى هو المشبه فليس معروفاً بها ، وإن كانتْ موجودة فيه .

وكِلا هذين القِسْمين أيضاً يختصُّ بفضيلة الإيجاز ، وإنْ كانَ المُضْمرُ أوْجَزَ من المُظْهر ؛ لأنَّ قولنا « زيدٌ أسد » أو « كالأسد » يسدّ مسدّ قولنا : زيدٌ من حالِه كيْتَ وكيْت ؛ وهو من الشّجاعة والشِّدةِ على كذا وكذا ؛ مما يَطُولُ ذِكْرُه .

فالتشبيه إذاً يجمعُ صفاتٍ ثلاثة ؛ هى : المبالغةُ ؛ والبيانُ ؛ والإيجازُ ؛ كما أريْتُك ؛ إلا أنّه من بَيْنِ أنواعِ علمِ البيانِ مُستوْعِرُ المذهَب ؛ وهو مَقْتَلٌ من مَقَاتِلِ البلاغة .

وسببُ ذلك أنّ حَمْل الشيء على الشيء بالمماثلة إمّا صُورَة ؛ وإمّا معنًى يعِزُّ صوابُه ؛ وتَعْسُر الإجادة فيه ؛ وقَلّما أكثرَ منه أحدٌ إلا عَثَر ؛ كما فعل ابنُ المعْتَزِّ [1] من أُدباء العراق ؛ وابنُ وكيعٍ [2] من أُدباء مصْر ؛ فإنّهما

(١) هو أبو العباس عبدالله بن المعتز بالله الخليفة العباسى ولد سنة ٢٤٩ ه ، وقد نشأ وتربى تربية الخلفاء ، وأخذ العلم والأدب عن علماء عصره ، وأولع بالشعر ونبغ فيه ، ولما خلع المقتدر لعسف الأتراك من شيعته بويع عبد الله هذا بالخلافة ، ولكن جند المقتدر والأتراك حملوا على دار ابن المعتز ، وقاتلوا أصحابه حتّى هزموهم ؛ وقبضوا على الخليفة ، وقتلوه أول ليلة من حكمه سنة ٢٩٦ ه ، وقد برع فى الشعر لاسيما الأوصاف ، ويمتاز شعره بطابع الترف ورقة الأسلوب ، وهو صاحب كتاب البديع الذى يعد أول كتاب فى البلاغة العربية وغيره .

(٢) هو أبو محمد الحسن بن على ... الضبى المعروف بابن وكيع التنيسى الشاعر المشهور .

أصله : من بغداد ، ومولده بتنيس ، ذكره أبو منصور الثعالبى فى يتيمة الدهر ، وقال فى حقه : شاعر بارع ، وعالم جامع ، قد برع فى إبانه على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد فى أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام . وتستعبد الأفهام . وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بين فيه سرقات أبى الطيب المتنبى ، سماه « المنصف » وكانت وفاته يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة بمدينة تنيس ، ودفن فى المقبرة الكبرى فى القبة التى بنيت له بها ، ووكيع لقب جده أبى بكر محمد بن خلف ، وكان فاضلا نبيلا فصيحا ، من أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم . وله مصنفات كثيرة — انظر وفيات الأعيان ٤ / ٢٢٨ طبعة دار المأمون — (القاهرة) .

أكثرا من ذلك لاسيما فى وصفِ الرِّياض والأشجار والأزهار والثِّمارِ ؛ لاجرَم أنهما أتيا بِالغَثِّ البارِدِ الذى لا يثبُتُ على محكِّ الصّواب .

فعليك أن تتوقّى ما أشرتُ إليه .

* * *

فائدة التشبيه :

وأمّا فائدةُ التشبيهِ من الكلام فهى أنّك إذا مثّلْتَ الشىءَ بالشىء فإنما تقصدُ به إثبَات الخيالِ فى النفْس بصورة المشبّه به ، أو بمعناهُ . وذلك أوْكدُ فى طَرفى الترغيب فيه ، أو التّنْفير عنه .

ألا تَرَى أنك إذا شبّهْتَ صُورةً بصورةٍ هى أحسنُ مِنْها كان ذلك مُثْبتاً فى النّفْس خيالًا حسناً يدعُو إلى التّرغيبِ فيها .

وكذلك إذا شبّهتها بصورة شىء أقبحَ منْها كانَ ذلك مُثْبِتاً فى النّفْسِ خيالًا قبيحاً يدعُو إلى التّنْفِير عَنْها ، وهذا لا نزاعَ فيه .

ولنضْربْ لهُ مثالا يوضّحُهُ فنقُول : قد وَردَ عن ابْن الرُّومىِّ[(١)] فى مدحِ العَسَل وذمِّه بيْتٌ من الشِّعْر ، وهو :

تقولُ هذا مُجَاجُ النَّحلِ تَمْدَحُه وَإنْ تَعِبْ قُلْتَ : ذا قَىْءُ الزّنابير[(٢)]

---

(١) ولد أبو الحسن على بن العباس الرومى ببغداد ، وعاش فيها متأثرا بمزاجه اليونانى ، وبالثقافة العربية كذلك ، فكان شعره صورة طريفة فى الأدب العربى من حيث الابتكار والتنسيق المنطقى والاستقصاء فى أسلوب جزل متين ، وقد أجاد فنون الشعر ، وخاصة الوصف والهجاء ، توفى ابن الرومى سنة ٢٨٣ هـ .

(٢) هذا البيت ثانى أبيات ثلاثة ، وهذه هى مرتبة :

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير =

ألا تَرَى كيفَ مَدح وذمَّ الشيء الواحدَ بتصريف التشْبيهِ المجازيِّ المضْمرَ الأداة الذى خيَّل به إلى السَّامع خيالًا يحسِّنُ الشيء عندَهُ تارةً ويقبِّحُه أُخْرى ؟ ولولا التوصُّل بطريقِ التشْبيه على الوجْه لما أمكنَه ذلك ؟

وهذا المثالُ كافٍ فيما أَرَدْناه .

* * *

واعلم أنَّ من محاسِنَ التشْبيه أن يجيء مَصْدَرِيًّا ؛ كقولنا : أَقْدَمَ إِقْدَامَ الأسَدِ ،وفَاضَ فَيْضَ البَحْر . وهو أَحْسنُ ما اسْتُعْمِلَ فى باب التشْبيه كقولِ أبى نُواس فى وَصْفِ الخمر[1] :

ثُمَّ لمّا مَزجُــوهَا وَثَبتْ وَثْبَ الجَرادِ[2]
ثمّ لمّا شرِبُوهــا أَخذَتْ أَخذَ الرُّقادِ[3]

* * *

وَقيل : إنّ من شرطِ بلاغةِ التشْبيه أن يشبّه الشيء بما هُو أكبرُ منه وَأعظمُ .

= تقول دله مجاج النحل تمدحه وإن تذم فقل خرء الزنابير
مدحا وذما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور
والمجاج الريق ترميه من فيك ، والعسل وقد يقال له مجاج النحل .

(١) ديوان أبى نواس ٢٦٥ من قصيدة خمرية له أولها :
اسقنيها بسواد قبل تغريد المنادى

(٢) فى الأصل « وإذا مامزجوها » موضع « ثم لما مزجوها والتصويب عن الديوان .

(٣) فى الأصل «وإذا ماشربوها » موضع « ثم لما شربوها » والتصويب عن الديوان

وَمن هاهنا غلطِ بعضُ الـكُتّابِ من أهْل مصر فى ذِكْر حصْنٍ من حصون الجبالِ مُشبِّهاً له . فقال . « هامَة . عليها من الغَمامةِ عِمامة . وَأَنْمُلة . خضبها الأصيلُ . فـكان الهلالُ منْها قُلامَة » .

وهذا الـكاتبُ حَفظ شيئاً ، وغابتْ عَنْه أشياءُ ! !

فإنه أخطأ فى قوله « أنملة » وأىُّ مقدارٍ للأنملة بالنِّسبة إلى تشبيهِ حصْن على رأس جَبَل ؟

وأَصاب فى المناسَبة بين ذِكْر الأنمُلة والقُلامة ، وتشبيهها بالهلال .

فان قيل :

إن هذَا الـكاتبَ تأسَّى فيما ذكرَهُ بكلام الله تعالى حيْثُ قال : « اللهُ نُورُ السَّمٰوات والأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كمشْكاةٍ فيهاَ مِصبْاحٌ[1] » فمثّـل نورَهُ بطَاقةٍ فيها ذُبالة .

وقال الله تعالى : « والْقمَرَ قدَّرْناهُ منازِلَ حَتى عادَ كالعُرْجونِ القَديم[2] » فمثّل الهلالَ بأصْل عِذْقِ النّخلة .

فالجواب عن ذلك أنى أقول :

أمّا تمثيلُ نورِ الله تعالى بمشكاةٍ فيها مصباحٌ فإنَّ هذا مثالٌ ضربَه للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ويدلُّ عليه أنّه قال : « يوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زَيْتُونَةٍ لا شرْقيّةٍ وَلا غرْبيّةٍ » .

وإذا نظرتَ إلى هذا الموضِع وجدْتَه تشبيهاً لطيفاً عجيباً ، وذاكَ أنَّ قلبَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وما أُلقِيَ فيه من النُّور ، وما هُو عليه من الصِّفة الشفَّافة كالزّجاجةِ التى كأنّها كوكبٌ بصفائها وإضاءتها .

(١) سورة النور : الآية ٣٥ .
(٢) سورة يس : الآية ٣٩ .

وأمّا الشجرةُ المباركةُ التى لاشرقيّة ولا غربيّة فإنّها عبارةٌ عن ذاتِ النبيِّ صلّى الله عليه وسلم، لأنه من أرضِ الحجازِ التى لا تميلُ إلى الشّرق، ولا إلى الغرْب.

وأمّا زيتُ هذه الزّجاجة فإنه مُضيءٌ من غير أن تمسَّه نار؛ والمرادُ بذلك أنَّ فِطرَته فِطرةٌ صافيةٌ من الأكدار، مُنيرةٌ من قبلِ مصافحةِ الأنوار.

فهذا هو المرادُ بالتّشبيهِ الذى ورد فى هذهِ الآية.

وأمّا الآيةُ الأخرى فإنه شبَّه الهلال فيها بالْعُرْجونِ القْدَيم، وذلك فى هَيْئةِ نُحولِه واستْدارتهِ، لا فى مِقْدارِه؛ فإنَّ مقدارَ الهلال عظيمٌ؛ ولا نِسْبة بالْعرْجون إليه؛ لكنه فى مَرْأى النّظر كالعُرْجون هيئةً لا مقداراً.

وأما هذا الكاتبُ فإنَّ تشبيهَهُ ليسَ على هذا النّسقَ، لأنه شبّه فيه صُورَةَ الحِصْن بأنملةٍ فى المقدار؛ لا فى الهيْئَة والشّكْل.

وهذا غيرُ حَسَنٍ ولا مُناسِب؛ وإنما ألْقاه فيه أنَّه قصَد الهلال والقُلامة مع ذكر الأنملة. فأخْطأ من جهةٍ، وأصابَ من جهةٍ، لكنْ خطَؤه غطّى على صوَابِه.

* * *

والقولُ السّديدُ فى بلاغةِ التشبيه هو ما أذكُره، وهو أنَّ إطلاقَ من أطلقَ قولَه فى أنَّ منْ شرطِ بلاغةِ التشبيه أن يُشَبَّه الأصْغَرُ بالأكبر غيرُ سديدٍ، فإنَّ هذا قولٌ غيرُ حاصِرٍ للغرضِ المقصودِ؛ لأن التشبيه يأتى تارةً فى معرضِ المدْح، وتارةً فى معرضِ الذّمّ، وتارةً فى غير معرضِ مدحٍ ولا ذمٍّ، وإنما يأتى قَصْداً للإبانة والإيضاح، ولا يكونُ تشبيهَ أصْغَر بأكْبَر؛ كما ذهب إليه من ذهبَ.

بل القولُ الجامعُ فى ذلك أن يُقَال : إن التشبيه لا يُعْمَدُ إليه إلا لضَرْب من المبالغة ، فإمّا أن يكونَ مدْحاً ، أوْ ذمًّا ، أوْ إيضاحاً ؛ ولا يَخْرُجُ عن هذه المعانى الثّلاثة .

وإذا كان الأمرُ كذلك فلا بدَّ فيه من تقدير لفْظة « أفْعَل » فإن لم تُقَدّر فيه لفظة « أفعل » فليْس بتشبيهٍ بليغٍ ، ألا ترَى أنا تقول فى التشْبيه المُضْمر الأداةِ « زيدٌ أسد » فقد شبّهْنا زيداً بالأسَدِ الذى هو أشجعُ مُنْه ؛ فإن لم يكنْ المشبّه بهِ فى هذا المقَام أَشْجَع منْ « زيد » الذى هو المشبّه ؛ وإلا كانَ التّشبيهُ ناقصاً ؛ إذ لا مبالغةَ فيه .

* * *

وأما التشْبيهُ المُظهَر الأداة فكَقوْله تعالى «ولهُ الجْوارِ المُنْشآتُ فى البحْر كالأعْلَام[1] » وهذا تشبيهُ كبيرٍ بما هو أكْبرُ مِنْه ؛ لأنّ خلْق السُّفُن البحَرية كبيرٌ ، وخَلْق الجبال أكْبرُ مِنْهُ .

وكذلك إذا شُبّه شىءٌ حسنٌ بشىء حَسَن فإنهُ إذا لم يشبّهْ بما هو أحسنُ منه فليسَ بواردٍ على طريق البْلاغة .

وإنْ شُبّه قبيحٌ بقَبيحٍ فهكذا يَنْبغى أن يكونَ المشبّه به أقْبح .

وإنْ قُصِد البيانُ والإيضاحُ فيَنْبغى أَن يكونَ المشبّه به أبْيَن وأوْضح .

فتقديرُ لفظةِ « أفْعل » لابدّ منْه فيما يُقْصد به بلاغةُ التشبيه ؛ وإلا كان التشبيهُ ناقصاً فاعلمْ ذلكَ ، وقِسْ عليْه .

أقسام التشبيه :

واعلمْ أنه لا يَخْلو تشبيهُ الشيئين أحدِهما بالآخر من أرْبعَة أقْسام :

---

(١) سورة الرحمن ، الآيه ٢٤ .

(١) إما تشبيهُ معنًى بمعْنًى . كالذى تقدّم ذِكرُه من قولنا « زيدٌ كالأسد » .

(٢) وإما تشبيهُ صُورَةٍ بصورةٍ . كقوله تعالى : « وعِنْدهُمْ قَاصراتُ الطّرْفِ عِينٌ * كأنّهُنَّ بَيْضٌ مكْنونٌ[1] » .

(٣) وإما تشْبِيه مَعْنًى بصُورة . كقوله تعالى : « والذِينَ كَفَروا أَعْمالُهمْ كَسرَابٍ بِقيعَةٍ[2] » وهذا القِسْمُ أَبْلَغُ الأقسامِ الأربعة . لتمْثِيله المعانى المَوهومة بالصُّور المُشاهَدَة .

(٤) وإما تشبيهُ صورةٍ بِمعْنًى ، كقولِ أبى تمَّام .

وَفَتَكْتَ بالْمَالِ الجْزِيل وبالعِدا   فَتْكَ الصَّبَابةِ بالْمُحِبِّ الْمُغْرَمِ[3]

فشبَّه فتْكَهُ بالمالِ وبالعِدَا — وذلك صورةٌ مَرْئيَّةٌ — بِفَتْكِ الصَّبابة ، وهُوَ فتكٌ معنويٌّ . وهذا الْقسْمُ أَلْطَفُ الأقسامِ الأرْبعة . لأنه نقْلُ صورةٍ إلى غيْر صُورَة .

وكلٌّ واحدٍ من هذه الأقسامِ الأربعة المُشَار إليها لايخْلُو التَّشْبيهُ فيه من أربعةِ أقسامٍ أيضاً :

(١) إما تشبيهُ مُفْرَدٍ بِمُفْرَد .

---

(١) سورة الصافات : الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٩ .

(٣) لم أعثر على هذا البيت فى طبعة بيروت ، ويوحى معنى البيت ووزنه بأنه من قصيدته التى قالها فى مدح أبى الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة التى مطلعها :

نثرت فريد مدامع لم تنظم   والدمع يحمل بعض شجو المغرم

وانظر ديوان أبى تمام ٣١٣ .

(٢) وإما تشبيهُ مركَّب بمركَّب .

(٣) وإما تشبيهُ مفردٍ بمركَّب .

(٤) وَإما تشبيهُ مركَّبٍ بِمُفرد .

والمرادُ بقولِنا مُفْرَد وَمركَّب : أنَّ المفردَ يكونُ تشبيه شىء واحدٍ بشىء واحدٍ ، والمركب تشبيهُ شيئَين اثْنَين بِشَيئَيْن اثْنَين .

وكذلك المفردُ بالمركب ، والمركب بالمفرد ، فإنَّ أحدَهما يكونُ تشبيهَ شىء واحدٍ بِشيْئين ، والآخر يكونُ تشبيهَ شَيئين بشىء واحدٍ .

ولستُ أَعْنى بقَوْلى « تشْبيه شَيئين » أنَّه لا يكونُ إلا كذلك ، بلْ أردتُ تشبيهَ شَيئين بِشَيئين فَمَا فَوْقَهما ، كقولِ بَعْضِهم فى الْخَمْر .

وكأنهَا وكأنَّ حَامِلَ كَأسِها   إذْ قَامَ يَجْلُوها عَلَى النُّدماءِ

شَمس الضُّحا رقَصتْ فَنَقَّطَ وجهَها   بدْرُ الدُّجى بِكَواكِبِ الْجَوْزاءِ

فشبّه ثلاثةَ أَشْياء بثلاثةَ أشياء ، فإنه شبَّه السّاقى بالْبَدْرِ ، وشبَّه الْخَمْر بالشمس ، وشبَّهَ الْحبب الذى فوقها بالْكواكِبِ .

* * *

وَإذْ بيَّنْتُ أنَّ التشْبيهَ ينقسِمُ إلى تلك الأقسامِ الأربعة فإنِّى أقولُ : إنَّ التشبيه الْمُضْمَر الأداة قدْ قدّمْتُ القولَ فى أنه ينقسِمُ إلى خمسةِ أقْسَام[1] .

فالقسمُ الأوّل لا يَردُ إلا فى تشبيهِ مُفْردٍ بمُفْرد .

والقسمُ الثانى لا يَردُ إلا فى تشبيه مُفْرد بمركَّب .

---

(١) أنظر تفصيل هذه الأقسام الخمسة فى صفحة (١١٥) من هذا القسم الثانى .

والقسم الثالث لايرِدُ إلا فى تشبيه مركَّب بمُركَّب .

والقسم الرابعُ والخامسُ لا يردان إلا فى تشبيه مُركَّب بمركَّب .

ألا تَرى أنَّا إذا قُلنَا فى القِسمِ الأوَّل « زيدٌ أَسَدٌ » كان ذلك تشبيه مفردٍ بمفردٍ .

وإذا قلنا فى القسم الثانى ما مثَّلناه به من الخَبر النَّبَوىِّ وهو « الكَمْأَةُ جُدْرِىُّ الأرضِ » كان ذلك تَشبيهَ مُفردٍ بمركَّبٍ ، وكذلِك بَيتُ البُحْتُرِى[1] وَبيتُ أبى تمّامٍ[2] المشارُ إليهما فيما تقدَّم .

وإذا قلنا فى القسمِ الثّالث ما أشرْنا إليْه من الخبرِ النبوىِّ أيضاً الَّذى هو « وهَل يكبُّ الناس على مناخِرِهم فى نَارِ جهنَّمَ إلا حصائدُ أَلسنَتِهم » كان ذلك تشبيهَ مركَّب بمركَّب .

وإذا قلنا فى القسمِ الرابعِ والخامسِ ما مثَّلنا به من بَيْتَى الفرَزْدق[3] والبُحْترِىِّ[4] كان ذلك تشبيه مركَّبٍ بمركَّب .

---

(١) البيت الذى يعنيه هو قول البحترى :

غمام سماح لايغب له حياً ‏ ‏ ومسعر حرب لا يضيع له وتر

(٢) بيت أبي تمام المقصود هو قوله :

أى مرعى عين ووادى نسيب ‏ ‏ لحبته الأيام فى ملحوب

(٣) يقصد قول الفرزدق فى هجاء جرير :

ماضر تغلب وائل أهجوتها ‏ ‏ أم بلت حين تناطح البحران

وكذلك قوله ،

قوارص تأتينى وتحتقرونها ‏ ‏ وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

(٤) يعنى قول البحترى فى التعزية بولد ،

تعز فإن السيف يمضى وإن وهت ‏ ‏ حمائله عنه وخلاه قائمه

وإذا كانَ الأمرُ كذلك وجاءكَ شيءٌ من التشبيهِ المُضْمَر الأداة ، وهو منَ القِسْمِ الأوّل ، فاعلمْ أنّه تشبيهُ مفردٍ بمفْرد ، وإذا جاءكَ شيءٌ من القسم الثّانى فاعلمْ أنّه تشبيهُ مُفْردٍ بمركب ، وإذا جاءك شيءٌ من القسم الثّالث فاعلمْ أنّه تشبيهُ مركبٍ بمركب ، وكذلك إذا جاءك شيءٌ من القسم الرّابع والقِسمُ الخامِس فإنهما من باب تشبيهِ المركّب بالمركّب .

* * *

وانرجعْ إلى ذِكْر ما أشرنا إليه أوّلا فى تقسيمِ التشبيه إلى الأربعةِ الأقسامِ الأُخرى التى هى : تشبيهُ مفردٍ بمفْرد ، وتشبيهُ مركبٍ بمركّب وتشبيه مفردٍ بمركب ، وتشبيهُ مركبٍ بمُفرد .

فالقسم الأوّلُ منهـا كقَوله تعالى فى المُضْمَرِ الأداة « وجَعَلْنَا اللَيْـلَ لِبَاساً[1] » فشبَّه الليلَ باللِّباس ، وذاكَ أنهُ يسترُ الناسَ بعضَهُمْ عن بَعضٍ من أرَاد هرباً من عدُوٍّ ، أوثبَاتاً لعدوٍّ ، أوْ إخْفَاء مالا يُحِبُّ الاطلاعَ عَلَيْـه من أمرِه .

وهذا من التشبيهات التى لم يأت بها إلا القرآن الـكَريم ، فإنَّ تشبيه الليل باللِّباس مما اختفَى به دُونَ غيره من الـكَلام المنثور والْمَنظُوم .

وكذلك قوله تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لـكم وأنتُمْ لباسٌ لَهُنَّ[2] » فشـبَّه المرأة باللباس للرّجل ، وشبَّه الرجلَ باللباس للمرأةِ .

ومن محاسن التشبيهاتِ قوله تعالى : « نِسَاؤُكُمْ حرْثٌ لـكُمْ[3] » وهذا

(١) سورة النبأ : الآية ١٠ .
(٢) سورة البقرة : الآيه ١٨٧ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٣ .

يكاد ينقله تناسُبه عنْ درجة المجاز إلى الحقيقة ، والحرثُ هو الأرضُ التى تُحرثُ للزّرع ، وكذلك الرَّحِمُ يُزْدَرَعُ فيه الوَلدُ ازدراعاً كما يُزْرع البَذْر فى الأرض .

ومن هذا الأسْلُوب قوله تعالى : « وآيةٌ لهُم الليْلُ نَسْلَخُ منْهُ النّهار[1] » فشبَّه تَبَرُّأ الليْلِ من النهار بانسِلاخ الجِلْدِ عن الجسم المسْلُوخ ، وذاك أنه لما كانت هوادِى الصُّبْح عند طُلوعه مُلْتَحِمة بأعجاز الليل أجرَى عليهما اسمَ السَّلخ ، وكان ذلك أوْلى من أن لَوْ قيل . « يَخْرُج » لأن السَّلخ أدلُّ على الالتحام من الإخراج ، وهذا تشبيهٌ فى غاية المُناسَبة .

وكذلك ورَد فى قوله تعالى : « واشْتَعَلَ الرّأْسُ شَيْباً[2] » فشبّه انتشارَ

(١) سورة يس : الآية ٣٧ والذى فى الآية من قبيل الاستعارة ، فقد طوى ذكر المستعار له ، قال أبو هلال العسكرى فى هذه الآية : إن هذا الوصف إنما هو على مايتلوح للعين لا على حقيقة المعنى ، لأن الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه لغروب الشمس ، وإضاءته لطلوعها ، وليسا على الحقيقة شيئين يسلخ أحدهما من الآخر إلا أنهما فى رأى العين كأنهما ذلك ، والسلخ يكون فى الشيء الملتحم بعضه ببعض ، فلما كانت هوادى الصبح عند طلوعه كالملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ ، فكان أفصح من قوله : « يخرج » لأن السلخ أدل على الإلتحام المتوهم فيهما من الإخراج (الصناعتين ٢٧٣) وقد نقل ابن الأثير هذا الكلام بمعانيه وأكثر ألفاظه كما ترى .

(٢) سورة مريم : الآية ٤ و هذه الاية أيضا من قبيل الاستعارة قال أبو هلال : قوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » حقيقته كثر الشيب فى الرأس وظهر ، والاستعارة أبلغ ، لفضل ضياء النار على ضياء الشيب ، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه ، ولأنه لا يتلافى انتشاره فى الرأس ، كما لا يتلافى اشتعال النار (الصناعتين ٢٧٢) .

الشَّيْبُ باشـتِعال النار ، ولما كان الشَّيبُ يأخذ فى الرأس ، ويسْعى فيـه شيئاً فشيئاً ،حتى يُحيلُه إلى غيْرِ لوْنه الأوَّل كان بمنزلة النَّار التى تَشْتَعِل فى الجسم ؛ وتسْرى فيه ، حتى يُحيله إلى غيْرِ حاله الاولى

وأحسَنُ من هذا أن يُقال إنه شبَّه انتشارَ الشَّيبِ باشتعال النار فى سُرْعة الْتهابه ، وتَعذُّر تلافيه ، وفى عظم الألم فى القلب به ، وأنه لَمْ يَبْقَ بعـدَه إلا الخمُودُ .

فهذه أوصافٌ أربعةٌ جامعةٌ بيْنَ المشبّه والمشبَّه به ، وذلك فى الغاية القَصْوى من التناسُبِ والتَّلاؤم .

وقد ورَدَ فى الأمثال « الليْلُ جُنّةَ الهارب » وهو تشبيهٌ حَسَنٌ .

وكلُّ ذلك من التشبيه المُضْمر الأداة .

وممّا وَرد منه شِعْراً قولُ أبى الطيِّب الْمُتَنبى(١) .

وَإِذَا اهتزَّ للنّدى كانَ بحْراً   وإذَا اهتَزّ لِلْوَغَى كان نَصْلَا
وإذَا الأرضُ أظْلَمَتْ كانَ شمْسًا   وإذا الأرضُ أمْحَلتْ كان وَبْلا

حَرْفُ التشبيهِ ههُنـا مُضْمر ، وَتقديرُه : كان كأنَّه بَحْرٌ ، وَكان كأنه نصْل ، وَكذلك يُقَال فى البيت الثانى : كان كأنَّه شمسٌ ، وَكان كأنَّه وَبْل. وهذا تشبيه صُورةٍ بصُورة . وهو حَسَنٌ فى معناه .

وَكذلك ورَدَ قول أبى نُواس ؛ وَهو فى تشبيه الحَبَب(٢) :

(١) ديوان المتنبى ٣ — ١٣٢ من قصيدة يعزى فيها سيف الدولة بأخته الصغرى ، ومطلعها :

إن يكن صبر ذى الرزية فضلا   فكن الأفضل الأعز الأجلا

(٢) ديوان أبى نواس ٢٧٥ من قصيدة له أولها : =

فاذَا ما اعْتَرَضَتْهُ الْعيْنُ مِنْ حَيْث اسْتَدَارَا
خِلْتَهُ فى جَنَبَاتِ الْكأس وَاوَاتٍ صِغَارا

وَهذا تشبيهُ صُورَةٍ بصورة أيضاً . وَقد أبْرَزَ هذا المَعْنى فى لباس آخر . فقال[١] :

وإذَا[٢] عَلاَها المَاء ألْبَسَهَا حَبَباً شبيه جَلاجل الحجْلِ
حَتى إذَا سَكَنَتْ جَوانحُهَا كَتَبْتْ بِمثْل أكَارع النمل

ومِنْ هذا قولُ البُحْتُرِى[٣] .

تَبسُّمٌ وقُطوبٌ فى نَدًى وَوَغًى
كالرّعْدِ وَالْبَرق تحت الْعَارض الْبَرِدِ[٤]

وهذا من أحسن التشبيه وأقرَبه ، إلا أنَّ فيه إخلالا من جهةِ الصَّنعة . وهى تَرْتيبُ التفسير ، فإن الأوْلى إن كانَ قَدّم تفْسيرَ التبسُّم على تفسير القُطوب . بأنْ كانَ قال : « كالْبرْق والرّعْد[٥] » .

= دع لباكيها الديارا وأنف بالخمر الخمارا
وأشربنها من كميت تدع الليل نهارا

(١) ديوان أبى نواس ٣١١ من قصيدة مطلعها :
كان الشباب مطية الجهل ومحسن الضحكات والهزل
(٢) رواية الديوان « فإذا » .
(٣) ديوان البحترى ٢ ــ ١٦ من قصيدة له فى مدح أبى نهشل محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسى ، ومطلعها :
إنى تركت الصبى عمدا ولم أكد من غير شيب ولاعذل ولافند
(٤) رواية الديوان .
* وسط العارض البرد *
(٥) والعجب أن مااقترحه ابن الأثير هو نص رواية الديوان :
* كالبرق والرعد وسط العارض البرد *

فانظر أيُّها المُنْتَمى إلى الفنِّ · كيف ذهبَ على البُحترىِّ مثلُ هذا الموضع على قُرْبه · معَ تقدُّمِه فى صناعةِ الشِّعر ؟ وليسَ فى ذلك كبير أمْر ، سِوَى أنْ كان قدَّم ما أخَّر لاغيْرُ .

وإنّما يُعْذَرُ الشّاعرُ فى مثل هذا المقام إذَا حكمَ عليه الوزنُ والقافيـةُ ، وَاضْطُرَّ إلى ترك مايجبُ عليْه ، وَأمّا إذا كانت الحال كالتى ذكرها البحترىّ فحينئذٍ لا عُذْرَ له .

وسَيأتى لذلك بابٌ مفْردٌ فى موضعه من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى ؛ وهو بابُ (ترتيب التقسيم) .

وَكذلك وَردَ قول البحترىّ[1] .

فى مَعْرَكٍ ضَنْكٍ تَخَال به الْقَنا
بيْنَ الضُّلوع إذا انْحَنَيْنَ ضُلوعا

وَمنْ تَشبيه المُفْرَد بالمفرد قول أبى الطَّيِّبِ المتنبىِّ[2] .

خَرَجْنَ مِنَ النَّقْع فى عارض ... وَمِنْ عرَق الرَّكْضِ فى وَابلٍ[3]
فلَمَّا تَشفِّنَ لِقين السِّياط ... بِمِثْل صَفا الْبَلدِ الْمَاحِلِ[4]

---

(١) ديوان البحترى ١ / ١٦٨ من قصيدة فى مدح محمد بن يوسف ومطلعها :

فيم ابتداركم الملام ولوعا ... أبكيت إلا دمنة وربوعا

(٢) ديوان المتنبى ٣ — ٢٤ من قصيدة له فى مدح سيف الدولة ، ويذكر فيها استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر ، ومطلعها :

إلام طماعية العاذل ... ولا رأى فى الحب للعاقل

(٣) النقع الغبار ، والعارض السحاب ، والوابل المطر الكثير .

(٤) الصفا الصخر ، والسياط جمع سوط ، والماحل الذى لم يمطر .

وقد حوى هذان البيتان قُرْب التشبيه مع براعةِ النّظم، وجزالةِ اللفظ.

* * *

وأمّا القسم الثانى: وهو تشبيه المركّبِ بالمركّبِ فمما جاء منه مُضْمر الأداة ما يُرْوى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثٍ يَرْويه مُعاذ بن جَبَل — رضى الله عَنْه — وهو حديثٌ طويلٌ (يشتمل على فضائل أعمال متعددة، ولا حاجةَ إلى إيراده هاهُنا على نصّه، بل نذكُرُ الغرضَ منه، وهو أنّه قال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَمْسِكْ عليْك هذا» وأشارَ إلى لسانه، فقال مُعاذ «أَوَ نحْنُ مُؤاخَذُون بما نتكلّم به»؟ فقال: «ثَكِلتْك أُمُّك يامُعاذ! وَهل يُكبُّ الناسَ عَلَى مَناخِرِهم فى نار جَهنّم إلا حَصائدُ أَلْسِنتهم».

فقوله: «حصائدُ ألسنتهم» من تشبيه المركّبِ بالمركّب، فإنه شبّه الألسنة وما تَمْضى فيه من الأحاديث التى يؤاخَذُ بهاَ بالمناجل التى تحصُدُ النبات من الأرض.

ومما وَرد منه شعراً قولُ أبى تمّام(1):

مَعْشَرٌ أَصْبَحوا حُصونَ المعالى وَدُرُوعَ الأحْسَاب والأعْراضِ

فقوله «حصون المعالى» من التّشبيه المركب. وذاك أنّه شبّهَهم فى مَنْعهم المعالى أَنْ ينالها أحدٌ سواهُم بالحصُونِ فى منعها مَنْ بها وحِمايته، وكذلك قوله «دُرُوع الأحساب».

وأمّا المُظْهر الأداة فمما جاء منه قوله تعالى «إنّما مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كَماءٍ أنزَلْناهُ منَ السّماء فاختَلَط به نَباتُ الأَرض ممّا يأكلُ الناسُ والأنْعامُ

(1) ديوان أبى تمام ١٨٨ من قصيدة له فى مدح أحمد بن أبى دواد ومطلعها:

بدلت عبرة من الإيماض يوم شدوا الرحال بالأغراض

حتى إذَا أخَذَتِ الأَرْض زُخرُفَها وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنّهم قادِرونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاها حَصِيداً كَأنْ لَمْ تغنَ بالأَمْس[1] ».

فشُبِّهَتْ حَالُ الدُّنيا فى سرعة زوالها وانقراض نَعيمها بعدَ الإقبال بحال نبات الأرْض فى جفَافه وذهابه حُطاماً بعد ما الْتَفَّ وتكاثَفَ وزَيّنَ الأرضَ.

وَذاكَ تشبيهُ صورةٍ بصُورة. وهو منْ أبدع ما يجىء فى بابه.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى وصفِ حال المنَافقينَ « مَثَلُهمْ كمَثَلِ الذى اسْتَوْقد نَاراً فلمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذهبَ الله بنورهمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لايُبْصِرُون[2] ».

تقديرُه إنَّ مثلَ هؤلاء المنافقين كمثل رجلٍ أوقد ناراً فى ليلةٍ مُظْلمةٍ بمفَازةٍ، فاستضاء بها ما حَوْله، فاتَّقى مايخافُ وَأَمِنَ، فبينْا هو كذلك إذْ طُفِئَتْ نارُه فبقى مظلماً خائفاً، وكذلك المنافقُ إذا أظهرَ كلمة الإيمان استنارَ بها، واعتزَّ بعزها، وأمن على نَفْسه وماله وَولدِه، فإذا مات عادَ إلى الخوف، وبقى فى العذاب والنِّقْمه.

وممَّا وردَ منه فى الأخبارِ النبويَّة قولُ النَّبىصلى الله عليه وسلم: « مَثَلُ المُؤْمِنِ الذى يقرأُ القرآنَ كمثلِ الأُتْرُجَّة، طعمُها طيِّبٌ وريحُها طيب، ومثلُ المؤمنِ الذى لا يقرأُ القرآنَ كمثل التَّمْرةِ طعمُها طيب، ولا ريحَ لها، ومثلُ المنافِقِ الذى لا يقرأُ القرآنَ كمثل الحَنْظَلة لا ريحَ لها وطعمُها مُرٌّ ».

وهذا من باب تشبيهِ المركَّب بالمركَّب. ألا ترَى أن النبى صلى الله عليه

(١) سورة يونس: الآية ٢٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧.

وسلم شبَّه المؤمن القارىء ، وهو متَّصِفٌ بصفتين هما الإيمانُ والقراءة بالأُترُجَّة وهي ذاتُ وصْفَين ، هُما الطَّعْم والرِّيح ، وكذلك يجرى الحكمُ في المؤمنِ غير القارىء ، وفي المنافقِ القارىء ، والمنافقِ غير القارىء .

وقد جاءني شيءٌ من ذلكَ أوردتُه في فصل من كتابٍ أصِفُ فيه البرَّ والمَسِيرَ ، فقُلْتُ : « ولمْ أزَلْ أصِلُ الذَّميلَ بالذَّميل ، وأَلُفُّ الضُّحَا بالأصيل والأرضُ كالبَحْرِ في سَعَةِ صدْرِه ، والمطايا كالجواري راكِدَة على ظهْرِه ، فكان الرَّكْبِ منها كمكانهم منَ الأكْوَار ، ومَسيرُهم فيها على كُرَة لا تستقرُّ بها حركةُ الأدْوَار » .

وأما ماوَرَدَ من ذلك شِعْراً فكقولِ البُحتريّ(١) :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّد فيهمْ ولِيَتْهُ عصابَةٌ عنْ عِصابهْ
كالْحُسامِ الْجُرَازِ(٢) يَبْقَى عَلَى الدَّهْـــر ويُفْنَى في كلِّ حِينٍ قِرَابَهْ

وكذلك ورد قولُ ابن الروميّ(٣) :

أدْرِكْ ثِقَاتَكَ إنَّهمْ وقَعوا فِي نَرْجِسٍ معَهَ ابْنَةُ الْعِنَبِ
فهُم بحال لو بَصُرْتَ بها سَبَّحْتَ منْ عُجْبٍ ومنْ عَجَبِ
رَيْحَانُهمْ ذَهَبٌ على دُرَرٍ وشرابُهم دُرَرٌ على ذهبِ

---

(١) ديوان البحترى ١ — ١٢٠ من قصيدة في مدح ابن ثوابه ، ومطلعها :

ان دعاه داعى الهوى فأجابه ورمى قلبه الصبى فأصابه

(٢) الجزار السيف القاطع .

(٣) ديوان ابن الرومى ١٧٦ من قصيدة له في على بن عبد الله ، وأول ما في الديوان منها :

يابن المسيب عشت في نعم وسلمت من هلك ومن عطب

وهذا تشبيهٌ صَنِيع . إلا أنّ تشبيهَ البحتريّ أصْنع ؛ وذلك أنّ هذا التشبيهَ صَدرَ عن صُورةٍ مشاهَدةٍ ، وذاك إنما اسْتَنْبطه استنباطاً من خاطره .

وإذا شِئْتَ أن تفرِّق بَيْن صناعة التشبيه فانظرْ إلى ما أشرتُ إليْه ها هُنا فانْ كان أَحَد التشْبيهيْن عن صُورةٍ مشَاهدة والآخر عن صورةٍ غير مشاهدة فاعلم أنّ الذى هوَ عن صُورةٍ غير مُشاهدة أَصْنع .

ولعَمرى إنّ التّشبيهين كليْهما لابدّ فيهما من صورةٍ تحْـكى لـكنّ أحدَا هُما شوهدت الصورة فيه فحُـكيَت . والآخر استنبِطَت له صورةٌ لم تشاهَد فى تِلْك الحال . وإنما الفـكر استَنْبَطها .

ألا ترَى أنَّ ابن الرُّومى نظر إلى النّرجس وإلى الخمر فشبّه. وأمّا البحترىّ فإنه مدح قوماً بأنّ خُلق السّماح باقٍ فيهم يَنتَقِل عن الأوّل إلى الآخر . ثمّ استنبطه لذلك تشبيهاً . فأدّاه فـكرُه إلى السيفِ وقرُبه التى تَفْنى فى كلِّ حينٍ . وهو باق لا يَفْنى بفنَائِها . ومنْ أجلِ ذلك كان البحترىُّ أصنعَ .

وَسأُورد هاهنا من كلامى نبْذة يسيرة .

فمنْ ذلك ما كتبتهُ من جملة كتاب إلى ديوان الخلافة . أذ كر فيـه نزُول العدوّ الـكافر على ثغر « عَـكاّ[1] » فى سنة خمْسٍ وثمانين وخمسمائة . فقلتُ :

---

(١) بلد على ساحل بحر الشام ، كانت قديماً فى غاية الحصانة وقد اختلفت أيدى المتغلبين عليها ، وصارت بيد الفرنج واستنقذها منهم صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم استعادها الفرنج بعد ذلك ، وفى سنة تسعين وستمائة فتحها الملك الأشرف بن الملك المنصور قلاوون ، ونقض بيوتها وأبراجها ، وقتل من بها من الفرنج ، وكان ذلك من فتوح المسلمين العظيمة .

« وأحاط بها العدوُّ إحاطَة الشِّفاهِ بالثُّغُور ، ونزلَ عليه نزول الظَّلْماءِ على النُّور » .

وهذا من التشبيهاتِ المناسبَة .

ثمَّ لمّا جئتُ إلى ذكر قتال المسلمين إيَّاه وإزالته عن جانبِ الثَّغر قُلْت :

« وقد اصْطَدم من الإسلام والكفر ابنَا شَمَام[١] والتَقى من عَجَاجتهما ظلام ، وعند ذلكَ أخَذ العدوُّ فى التحيُّز إلى جانب . وَكان كحاجبٍ على عينٍ ، فصارَ كعينٍ فى حاجِب . وإذا تزَعْزَعَ البناءُ فقد هوَى . وإذا قُبِضَ منْ طَرَف البِسَاط فقدِ انطوى » وهـذا التشبيه فى مناسبته كالأُول . بل أحسن .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان . فقلتُ :

« وما شبَّهْتُ كتابَه فى وُرُودِه وانقباضِه ، إلا بنظر الحبيبِ فى إقبالِه وَأعْراضِه . وَكِلَا الأَمْرين كالسَّهم فى ألم وَقْعِه وَألمِ نَزْعِه . والمَشوقُ من اسْتَوتْ صَبابتُه فى حالَـتَىْ وَصْلِه وَقطْعِه . وما أزالُ على وَجل من إرسال كتبه وَإجْمامِها . واشتباه لمها بإلْمامها » .

وممَّا جاء منْ هذا القِسْم فى الشِّعْر قول بَكْر بن النَّطاح[٢] :

(١) ابنا شمام ، هما هضبتان فى أصل جبل يقال له شمام ، يضرب بهما المثل فى الاقتران والاصطحاب ، قال لبيد :

فهل نبئت عن أخوين داما على الأيام غير ابنى شمام

(٢) كان شاعرا حسن الشعر ، كثير التصرف فيه ، وكان صعلوكا يقطع الطريق ، ثم اقتصر عن ذلك ، وكان كثيرا مايصف نفسه بالشجاعة والإقدام وهو القائل : =

تَرَاهمْ ينظرونَ إلى المعَالِى كما نظرتْ إلى الشَّيبِ المِلاَحُ
يَحُدُّونَ الْعيون إلىَّ شذْراً كأنَّ فى عُيونِهم السَّماحُ

وهذا بديعٌ فى حُسْنه، بليغٌ فى تَشبيهه.

وعلى هذا النَّهْـج ورد قول أبى تمَّام(١) :

خَلَطَ الشَّجَاعَةَ بالحيَاءِ فأَصْبَحَا كالْحُسْن شِيبَ لِمغْرمٍ بدَلالِ

وهـذا من غريب ما يأتى فى هذا الباب، وقد تغَالَتْ شِيعَةُ أبى تمَّام فى وصف هذا البيت. وهو لعَمْرى كذلك.

ومن هذا القسم أيضاً قوله(٢) :

= هنيئا لإخوانى ببغداد عيدهم وعيدى بحلوان قراع الكتائب

وأنشدها أبادلف، فقال له إنك لتصف نفسك بالشجاعة وما رأيت عندك لذلك أثراً، فقال: أيها الأمير، وما ترى عند رجل حاسر أعزل ؟ فقال: أعطوه سيفاً ورمحاً ودرعاً، فأعطوه ذلك أجمع، فأخذه وركب الفرس وخرج على وجهه فلقيه مال لأبى دلف يحمل إليه من بعض ضياعه، فأخذه وجرح جماعة من غلمانه، فهربوا وسار بالمال، فلم ينزل إلا على عشرين فرسخا، فلما اتصل خبره بأبى دلف قال: نحن جنينا على أنفسنا وكنا أغنياء عن إهاجته، لوكتب إليه بالأمان، وسوغه المال، وأمره بالقدوم، فرجع، ولم يزل يمدحه حتى مات.

(١) ديوان أبى تمام ٢٦٩ من قصيدة له فى مدح المعتصم، ويذكر أخذ بابك، ومطلعها:

آلت أمور الشرك شر مآل وأقر بعد تخمط وصيال

(٢) ديوانه ١٥١ من قصيدة يمدح فيها المعتصم. ويذكر إحراق الأفشين، ومطلعها:

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

كَمْ نِعْمَةٍ لله كانَتْ عِنْـدَهُ
فـكأنهـا فى غُرْبَةٍ وإســارِ

كُسِيت سَبَائِبَ لؤمِهِ فتضاءلَتْ
كتضاؤل الْحَسْنَاء فى الأَطْمَار[1]

وكذلك قوله[2] :

صَدَفَتْ عَنه ولم تَصْدِفْ مَوَاهِبُه عَنى وعَاوَدَهُ ظَنى فَلَمْ يَخِبِ
كالْغَيْثِ إنْ جِئْتَه وافَاك رَيِّقُه وإنْ تَرَحَّلتَ عنه لجَّ فى الطَّلَب

وعلى هذا الأسلوب وَرَدَ قول علىّ بن جَبلة :

إذا ماتَرَدّى لَأْمَةَ الْحَرب أَرْعدَتْ
حَشا الأرض واستَدمى الرماحُ الشَّوارعَ

وأسفرَ تحتَ النَّقْع حَتى كأنَّهُ
صَباحٌ مَشَى فى ظُلمَة اللّيـل طَالِعُ

وقد أحسنَ علىُّ بنُ جَبلَة فى تشبيهه هذا كلَّ الإِحسان . وكمثله فى الْحُسْن قوله أيضاً فى تشبيه الْحَبَب فَوقَ الخمر :

تَرَى فَوقَها نَمَشاً للمزاَج تباذِيرَ لايتَّصِلنَ اتِّصالَا
كَوجه الْعَرُوسِ إذا خَطَّطَت عَلَى كل ناحيَةٍ منهُ خَالا

---

(١) السبائب جمع سبيبة ، وهى شقة رقيقة ، تضاءلت أخفت شخصها و تصاغرت ، والأطمار الثياب البالية .

(٢) ديوانه ١٦ من قصيدة له فى مدح الحسن بن سهل ، وأولها :
أبدت أسىي أن رأتنى مخلس القصب وآل ما كان من عجب إلى عجب
ومخلس القصب ، أى فى قصب شعره — وهى خصلة — سواد وبياض

ومنْ هذا القسم قولُ مُسلم بن الوليد .

تَلقى المنيَّةَ في أمثال عُدَّتِها ... كالسَّيل يقذِفُ جُلموراً بِجلمود[1]

وعلى هذا الأسلوب ورَدَ قول العبَّاس بن الأحنَف[2] .

لاَ جَزى الله دَمْعَ عَيْني خيْراً ... وَجَزى الله كُلَّ خيْرٍ لِساني

نمَّ دمْعي فلَيْس يكْتُمُ شيئاً ... وَوَجدْتُ اللِّسانَ ذا كِتْمانِ

كُنتُ مِثْلَ الكِتَابِ أخفَاهُ طَيٌّ ... فَاسْتدلُّوا علَيْه بالعُنْوَانِ

وهذا من اللَّطيف البديع

ويُرْوى أنَّ أبا نُواس لمّا دخلَ مصْرَ مادِحا للخصيب جَلس يوماً في رهْطٍ من الأدباء ، وتذكَّروا منارة بَغداد ، فأنْشَد مرتجلا .

ذكَر الكَرْخَ نَازحُ الأوْطَانِ ... فصَبا صَبْوةً ولاتَ أوَانَ[3]

(١) من قصيدة له في مدح دواد بن حاتم بن خالد المهلب، ومطلعها :

لا تدع بي الشوق إلى غير معمود ... نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد

(٢) هذه الأبيات منسوبة في الأمالي (٢٠٩/١) لأبي نواس ، قال القالي : وكان أبو بكر بن دريد يستحسن قول أبي نواس في هذا المعنى «لا جزى الله دمع عيني ... الأبيات» وكتب بهامش أصله «هذه الأبيات للعباس بن الأحنف. وفي كتاب « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه » ٦٦ مانصه «قال أبو علي : وكان ابن دريد يستحسن قول أبي نواس : « لا جزى الله دمع عيني خيراً .. » وهذا الشعر للعباس بن الأحنف بلا اختلاف ، وهو ثابت في ديوان بن الأحنف

(٣) ديوان أبي نواس ٩٧ وهو مطلع قصيدة له في مدح الخصيب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادي ، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء ، وليس بابن صاحب نهر أبي الخصيب ، ذاك عبد للمنصور يقال له «مرزوق» . وكان هذا رئيساً في أرضه ، فانتقل إلى بغداد ، وصار كاتب مهرويه الرازي ، ثم انتقل إلى الإمارة . و في الأصل « الكرج »بالجيم موضع «الكرخ » وهو تصحيف .

ثمَّ أتمَّ ذلك قصيداً مدحَ به الخصيبَ ، فلمَّا عاد إلى بغدادَ دخَل عليه العباسُ بن الأحْنف ، وقال : أنشِدْنى شيئاً من شعرك بمصرَ ، فأنشده :

* ذكَر الكرْخَ نازحُ الأوْطان *

فلمَّا استتمَّ الأبياتَ قال له : لقدْ ظلمكَ من ناوَاك ، وتخلَّف عنْك مَن جارَاك ، وحرامٌ على أحدٍ يتفوه بقول الشِّعر بعْدَكَ !

فقالَ له أبو نُواس . وأنت أيضاً ياأبا الفضْل تقول هذا ؟ ألَسْتَ القائل .

* لاجَزى الله دمْع عيْنى خيْراً *

وأنشد الأبياتَ ، ثمَّ قال . ومن الَّذى يُحْسِن أن يقول مثل هذا ؟

* * *

ومن تشبيه المركَّب بالمركب قول البحتريِّ[1] .

جِدةٌ يذُودُ البُخْلَ عن أطْرَافِها كالْبَحْر يمْنَع مِلْحَهُ عنْ مائِهِ

وهذا من محاسنِ التشبيهات .

وكذلك ورد قوله[2] .

وتَراهُ فى ظُلَم الوغى فتَخالُه
قمَراً يَكُرُّ عَلَى الرِّجال بكَوْكَبٍ

---

(١) ديوان البحترى ٢ ــ ٤٠ من قصيدة له فى مدح يوسف بن محمد ، أولها :

ياغاديا والثغر خلف مسائه يصل السرى بأصيله وضحائه

(٢) ديوانه ٢ / ١٣٤ من قصيدة يمدح فيهامالك بن طوق ، مطلعها :

رحلوا فأية عبرة لم تسكب أسفاً ؟ وأى عزيمة لم تغلب ؟

ورواية الديوان «قمرا يشد على الرجال»

وفى هذا البيت تشبيه ثلاثةِ أشياء بثلاثة أشياء . فإنه شبَّه العَجَاجَ بالظُّلمة ، والمَمْدُوحَ بالقمر ، والسِّنانَ بالكوكب ، وهذا من الحسَن النَّادر .

وكذلك ورد قوله [1] .

يَمشُونَ فى زَغَفٍ كأنَّ متُونَها فى كلِّ معركة مُتُون نِهاءِ[2]
بيضٌ تَسِيلُ عَلَى الكماةِ نُصُولها سيْلَ السَّراب بقفرةٍ بَيْدَاءِ[3]
فإذا الأسِنَّةُ خالَطتْها خِلتَها فيها خَيالَ كواكبٍ فى ماء

فالبيتان الأخيران هما اللَّذان تضمَّنا تشبيهَ المركب بالمركّب . وإنما جئنا بالبيْت الأوّل سياقةً إلى مَعْناهُما . وهو من التشبيه الذى أَحْسَن فيه البحترىُّ وأَغْرب .

ومن هذا الباب ماورد لبعض الشُّعراء فى وصفِ الخمرِ . فقال :

كانَتْ سراجُ أُناسٍ يَهتدون بها فى سالف الدَّهْر قبْلَ النَّار والنُّورِ
تَهْتزُّ فى الكأس منْ ضَعفٍ ومن هرَم
كأَنها قَبسٌ فى كفِّ مقْرُورِ

وقدْ يندُر للنَّاظم أو النَّاثر شيءٌ من كلامه يبلغُ الغاية الَّتى لا أمدَ فوقها . وهذان البيتان منْ هذا القَبيل .

---

(1) ديوانه ٢/٢٢٧ من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد يوسف ، ومطلعها :

زعم الغراب منبىء الأنباء أن الأحبـة آذنوا بتناء

(2) الزغف اسم جنس جمعى واحدة زغفة ، وهى الدرع ، والنهاء جمع نهى بكسر فسكون ، وهو الغدير .

(3) رواية الديوان « بيض تسيل على الكماة فضولها ، وهى أجود .

ومن أغرب ماسمعتهُ فى هذا الباب قولُ الْحسيْن بن مُطيْر[1] يرثى مَعْن ابنَ زائدة .

فَتًى عِيشَ فى معْرُوفِهِ بعْد موته كما كان بعْدَ السَّيْل مَجراهُ مَرْتعاً[2]

* * *

القسم الثالث : فى تشبيه المفرد بالمركب :

فمّا ورد منه قوله تعالى : « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ مثَلُ نُورِه كمشْكاةٍ فيها مصْباحٌ الْمصْبَاحُ فى زُجاجةٍ الزّجاجةُ كأَنّها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ منْ شَجَرةٍ مُبَاركةٍ زيتُونَةٍ لاشَرْقيَّةٍ ولا غرْبيَّةٍ[3] » .

وكذلك قوله تعالى : « مثَلُ الّذين كفَرُوا برَبِّهم أعْمَالُهُمْ كرمادٍ اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ فى يوْم عاصفٍ[4] » .

ومن ذلك ماذكرتُه فى فصل من كتاب يتضمَّنُ استنجاداً فقلتُ :

« وهُوَ إذا استصْرخ أَصْرخَ بعزْمٍ كالشِّهاب فى رَجْمِه . وهَمٍّ كالقَوْس الممتلىء بنَزْع سَهْمِهِ . ويرَى أَن صَريخَهُ لم يخِبْ . وأنه إذا لم يُجِبْهُ بالسّيف

---

(١) سماه فى الأغانى الحسين بن مطير بن مكمل وأنه مولى لبنى أسد بن خزيمة ثم لبنى سعد بن مالك بن ثعلبة ، وهو شاعر إسلامى فصيح متقدم الرجز والقصيد ، يعد من فحول المحدثين ، وكلامه يشبه كلام الأعراب وأهل البادية ، ويماثل مذهبهم ، أدرك بنى أمية وبنى العباس ، ووفد على معن بن زائدة الشيبانى لما ولى اليمن مادحاً فأجزل صلته .

(٢) ديوان الحماسة ١ / ٣٩٥ من أبيات أولها :

ألمّا على معن وقولا لقبره سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعا

(٣) سورة النور : الآية ٣٥

(٤) سورة إبراهيم : الآية ١٨

فكأنه لم يُجِب . فهُوَ مُغْرِى جوادِه وحُسامه . ومُسْمِع العدوِّ صريرَ رُمْحه قبل قعْقعَةِ لجامه » .

وكذلك أيضاً ما كتبتهُ فى كتابٍ إلى بعض الإخوان أَذُمُّ الفِراقَ . فقلت :

« والفراقُ شيءٌ لا كالأشْياء . وصاحِبُه ميِّتٌ لا كالأموات . وحيٌّ لا كالأحياء . وما أراهُ إلا كنار الله الموقدَةَ الَّـتى تطّلع على الأفئِدةِ . وما يجعَلُ صاحبَها فى ضَحْضاحٍ منْها إلا تواتُر الكُتُب التى تقيه بعض الوقاء . وتقومُ له — وإنْ لمْ يُسْقَ — مقامَ الإسْقاء » .

وأما ماورد منْه فى الشعر فكقول أبى نُواس[١] .

إذا امْتحَنَ الدنْيا لَبيبٌ تَكَشَّفَت
له عنْ عدوٍّ فى ثياب صَديق

وكذلك قول أبى تمَّام يصف قصيداً له[٢] .

خذْها مثقَّفَةَ القَوافى ربُّها ... لِسَوابغِ النَّعْماء غيْرُ كَنودِ[٣]

---

(١) ديوان أبى نواس ١٩٢ من أبيات خمسة أولها :

أيارب وجه فى التراب عتيق ... ويارب حسن فى التراب رقيق

(٢) ديوان أبى تمام ٨٥ من قصيدة له فى مدح عبد الله أحمد بن أبى داود . مطلعها :

أرأيت أى سوالف وخدود ... عنت لنا بين اللوى فزرود

(٣) بين هذا البيت والبيت الذى بعده بيتان هما :

حذاء تملأ كل أذن حكمة ... وبلاغة وتدر كل وريد
كالطعنة النجلاء من يد ثائر ... بأخيه أو كالضربة الأخدود

كالدُّرِّ والْمَرجانِ أُلِّفَ نظمُهُ بالشذْرِ فى عنقِ الفتَاة الرُّودِ[1]

وكذلك ورد قول البُحتُرِى وهو من جملة قصيدته المشهورة التى وصف فيها الفَرسَ والسيِّف : وأوّلها .

* أهلًا بذٰلِـكمُ الخيَالِ المُقْبِلِ[2] *

فقال فيها منْ أبْياتٍ تَضمّنتْ وصْف السَّيف بيتًا أَجادَ فى تشبيهه :

وكأنما سُودُ النِّمال وحُمْرُها دَبَّتْ بأيدٍ فى قواهُ[3] وأرْجُلِ

فشبه فِرِنْدَ السَّيف بدبيب النمل سودِها وحُمرِها ، وذلك من التَّشْبيه الحسن .

وأمّا ما وردمنهُ مضمرَ الأداة ، فكقول النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، وقد سُئل عن العَزْل ، فقالَ : « هو الْوَأْدُ الخفِيُّ »وهذا تشبيهٌ بليغ « والوأدُ » هو ما كانت العربُ تفعله فى دفْن البنات أحياءً ، فجعل العزْل فى الجِماع كالوأدِ ، إلّا أنه خفِىّ ، وذلكَ أنَّهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هرباً منهنَّ ، وهكذا من يعزل فى الجِمَاع ، فإنما يفعلُ ذلك هرباً من الوَلد .

وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « هو الْوأدةُ الصُّغْرى » وهذا من الْحُسْنِ إلى غايةٍ تغضُّ لها العيونُ طرْفَها ، ولا ينتهى الوصفُ إليها فيكون تركُ وصفِها كوصفها .

---

(١) رواية الديوان « فى عنق الكعاب » والشذر قطع الذهب ، والرود الجارية الناعمة .

(٢) ديوان البحترى ٢ / ٢١٧ صدر مطلع قصيدة له فى مدح محمد بن عيسى القمى ، وعجز البيت :

* فعل الذى نهواه أولم يفعل *

(٣) رواية الديوان ٢ / ٢١٩ « فى قراه » بالراء ، والقرا الظهر .

ومما جاءنى من ذلكَ فصل من جملةِ كتابٍ ضمنتُه وصف القلم ، فقلت :

« جُدِع أنفُه فصار فى الكيْد قصيراً ، وأُرْهِفَ صدرُه فصار فى المضاء عضْباً شهيراً ، وقُمِّص لِباسَ السَّواد ، وهو شعارُ الخطباء ، فنطَق بفصل الخطاب ، ونكِّس رأسُه . وهى صُورةُ الإذلال . فاختال فى مشيِه من الإعجاب . وأوحَى إليه بنجوَى الخواطرِ . وهو الأصمُّ . فأفضى بما سَمِعه إلى الكُتَّاب » .

وهذه الأوصافُ غريبةٌ جداً . ومن أغْربها ذكرُ « قصير » عند جَدْعِ الأنف .

* * *

وأما القسم الرابع وهو تشبيه المركب بالمفرد :

فإنَّه قليلُ الاستعمالِ بالنِّسْبة إلى الأقسام الثلاثة . وليسَ ذلك إلا لعدم النظير بين المشبَّه والمشبَّه به .

وعلى كثرةِ ماحفظتُه من الأشعارِ لم أَجِد ما أمثل به هذا القسم إلا مثالاً واحداً . وهو قول أَبى تمَّام فى وصف الربيع[1] :

يا صاحِبَيَّ تَقَصَّيا نظريْكما تَرياوُجوهَ الأرض كَيْفَ تُصَوَّرُ

تَرَيا نهاراً مُشمِساً قد شابَهُ زَهْرُ الرُّبا فَكأنما هُو مُقْمِرُ

فشبَّه النهارَ المشمِسَ مع الزّهر الأبيض بضوء القمر . و هو تشبيهٌ حسنٌ واقعٌ فى موقعه مع مافيه من لُطفِ الصَّنعة .

ولربما اعترضَ فى هذا الموضع معترضٌ . وقال : إنَّك أَوردتَ هذا

(١) ديوان أبى تمام ١٥٧ من قصيدة له فى مدح المعتصم ، ومطلعها :
رقت حواشى الدهر فهى تمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسر

القسمَ من التشبيه . وذكرتَ أنَّه قليل . وليس كذلك !؟ فإن تشبيه شيئين بشيء واحدٍ كثيرٌ . كقول أبي الطيِّب المتنبي[1] .

تُشْرِقِ أعْرَاضُهُم وأوْجُهُهم كأنها في نُفوسِهم شِيَمُ

فشبّه إشراقَ الأعراض والوجوه باشْراق الشِّيم .

الجواب عن ذلك أنِّي أقولُ . هذا البيت المعترض به على ما ذكرتَه ليس كالذي ذكرتُه . فإني أردتُ أن يشبّه شيئان هما كشيء واحدٍ في الاشتراك بشيء واحد .

ألا ترى أنَّ نُور الشَّمس مع بياض الزَّهر — وهمَا شيئان مُشْتركان — قد شُبِّها بضوء القمر . وأما هذا البيت الذى لأبي الطيب المتنبي فإنه تشبيهُ شيئين كلٌّ واحدٍ منهما مفردٌ برأسِه بشيء واحد . لأنه شبّه إشراقَ الاعْراضِ وإشراقَ الوجوه باشراق الشِّيم . وهذا غير ما أردته أنا .

لكن يَنْبغي أنْ تعلم أنَّ تشبيه المركَّب بالمفرد ينقسمُ قسمين .

أحدهما . تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحدٍ ، كالَّذى أوردْته لأبي تمام . وهو قليلُ الاسْتعمال .

---

(١) ديوان المتنبي ٤ / ٥٨ من قصيدةله في مدح على بن إبراهيم التنوخى ، مطلعها :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم

قال أبوالفتح بن جنى : سألته — المتنبي — عن معنى هذا البيت ، فقال : أحق ماصرفت إليه بكاءك همم الناس ، لأنها قد عفت ودرست ، فصار أحدثها عهداً قديماً . وقال الخطيب : أحق عاف بأن يبكى عليه همم الكرام ، لأنها عفت كما تعفو الربوع فهى أحق بدمعك من كل الدارسات ، وجعل القدم أحدث الأشياء عهدا بالهمم ، أى دروسها قديم ، فلاهمم فى الأرض .

والآخرُ . تشبيهُ شَيئين منفردين بشيءٍ واحد . كالّذى ذكرته أنتَ لأبى الطيِّب المتنبِّى . وهو كثيرُ الاستعمال .

من معيب التشبيه :

وإذْ ذكرنا أقسامَ التشبيه . وبيَّنا المحمودَ منها الذى ينْبغى اقتفاءُ أثره . واتِّباع مذهبه . فلنتْبِعْهُ بضده . ممَّا ينبغى اجتنابُهُ . والإضرابُ عنه .

على أنَّه قد قدّمنا القولَ بأنّ أحد التشبيه هو « أنْ يثبَتْ للمشبَّه حكمٌ من أحكام المشبَّه به » . فإذا لم يكن بهذه الصفة ؛ أو كان بين المشبَّه والمشبَّه به بعْدٌ فذلك الذى يطرّحُ ولا يُستعمل ؛ والذى يَرد منه مضمر الأداة لا يكونُ إلا فى القسم الواحد من أقسام المجازىّ ؛ وهو التوسُّع ؛ وقد قدّمت القولَ فى ذلك فى أول باب (الاستعارة) وضربتُ له أمثلةً منها قولُ أبى نُواس .

ما لِرجْلِ المالِ أمْسَتْ تشْتَكى مِنْكَ الكلالا

فجعَل للمال رجْلًا ؛ وذلك تشبيهٌ بعيدٌ ؛ ولا حاجَة إلى إعادة ذلك الكلام هَاهنا بجُملته[1] ؛ لكن قد أشرت إليه إشارةً خفيفةً .

ومن أقبح ما سمعتُه من ذلك قول أبى تمّام[2] .

وَتَقاسم[3] النّاسُ السّخاءَ مجزّأً وَذهبْتَ أنت بِرأسِه وَسنَامِه
وتَركْتَ للنّاس الإهابَ وما بَقِى منْ فَرْثِه[4] وعُروقِهِ وعِظامِه

---

(١) أنظر كلامه بجملته فى صفحة ٧٩ و ما بعدها من هذا القسم .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٩٨ من قصيدة له فى مدح أبى سعيد ، وأولها :

قل للأمير أبى سعيد ذى الندى والمجد زاده الله فى إكرامه

(٣) رواية الديوان « وتقسم »

(٤) الإهاب الجلد ، والفرث السرجين فى الكرش .

والقبح الفاحشُ فى البيتِ الثانى .

وكلُّ هذا التعسُّف فى التشبيه البَعيد دندنَةٌ حول معنًى ليسَ بطائلٍ ؛ فإنّ غرضَه أن يقول . ذَهَب بالأعلى ؛ وترك للناس الأدنى ؛ أو ذَهبْتَ بالجيِّد ؛ وتركتَ للنّاس الرَّدىء .

وقد عِيب عليه قوله(١) :

لا تَسْقِنِى ماءَ المَلَامِ فإنّنى ... صَبٌّ قد استعْذبْتُ مَاءَ بكائى

وقيل : إنّه جعل للملام ماء ، وذلك تشبيهٌ بَعيدٌ ، وما بهذا التشبْيه عندى من بأسٍ ، بلْ هو من التشبيهاتِ المتوسِّطة التى لا تُحْمد ولا تذمُّ ، وهو قريبٌ من وجْه ، بعيدٌ من وجْه .

أمّا سببُ قُربِه فهو أنّ الملامَ هو العَذلُ الذى يعنَّف به المَلوم لأمرٍ جَناه ؛ وذاكَ مختصٌّ بالسَّمع ، فنقَله أبو تمَّام إلى السُّقْيا الّتى هى مختصَّةٌ بالحلْق ؛ كأنه قال : لا تذِقْنى الملامَ ، ولو تهيّأ له ذلك مع وزْن الشِّعر لكان تشبيهاً حَسناً ، لكنّه جاء بذكْر الماء ، فحط من درجته شيئاً ؛ ولمّا كانَ السمعُ يتجرّع الملامَ أوّلاً أوّلاً كتجرُّع الحلْقِ الماءَ صار كأنّه شبيهٌ به ؛ وهو تشبيه معنًى بصُورة .

وأمّا سببُ بعْدِ هذا التشبيه فهو أنّ الماء مُستلذّ ؛ والملامَ مستكرهٌ ؛ فحصَل بينَهما مخالفة من هذا الوجْهِ .

---

(١) ديوان أبى تمام ٣ والبيت ثانى أبيات قصيدة له فى مدح يحيى بن ثابت ، ومطلعها :

قدك اتئب أربيت فى الغلواء ... كم تعذلون وأنتم سجرائى

فهذا التشبيه إنْ بَعُد من وجهٍ فقَد قرُبَ من وجه ؛ فيُنفَر هذا لهذا ؛ ولذلك جعلتهُ من التشبيهات المتوسِّطةِ التى لا تُحْمد ولا تذَمُّ .

وقد رُوِىَ — وهو روايةٌ ضعيفة — أَنّ بعضَ أَهلِ المجانةِ أَرسلَ إلى أَبى تمّام قارُورة ، وقال: إبعثْ فى هذه شيئاً من ماءِ الملام ! فأرسلَ إليه أَبو تمّام ؛ وقال : إذا بعثتُ إلىّ ريشةً من « جناح الذُّل » بعثتُ إليك شيئاً من ماء المــلام !

وما كان أَبو تمام ليذهب عليه الفرقُ بينَ هذين التشبيهين ؛ فإِنه ليس جعل الجناح للذُّلِّ كجعلِ الماء للملاَم ، فإنّ الجناح للذُّلّ مناسبٌ ؛ وذاكَ أَنّ الطائر إذا وَهَن أو تعِب بَسَط جناَحه وخَفَضهُ ، وأَلقَى نَفْسه على الأرض ، وللأنسان أيضاً جناَحٌ ، فإنّ يديْه جَنَاحاه ، وإذا خضعَ واستكانَ طَأطَأَمن رَأسِه وخفض مِنْ يديه . َفحُسُنَ عند ذلك جعلُ الجناح للذل ، وصار تشبيهاً مناسِباً ، وأمّا الماء للملام فليسَ كذلك فى مُناسبة التشْبيه .

وأما التَّشبيهُ المضمرُ الأداة من هذا الباب فقد أَوْردتُ له أمثلةً يستدَلُّ بها على أشباهِه وأَمثاله، فإنَّ لذِكرِ المثال فائدةً لاتــكونُ لذِكرِ الحدِّ وحْدَه .

فمِنْ ذلك قولُ بعضهمْ :

مَلا حاجِبَيْك الشيْبُ حَتّى كأَنّه ‏ ‏ ‏ ‏ ظِبَاءٌ جرَتْ منْها سَنيِحٌ وبارحُ

وكذلك قولُ الآخر يصِفُ السِّهام :

كَساهاَرطيب الرِّيشفاعتدَلتْ لهُ ‏ ‏ ‏ ‏ قِداحٌ كأعناقِ الظِّباء الفَوارق

فإِنَّه شبّه السهام بأعناق الظباء ، وذلك من أبْعَد التشبيهات .

وعلى نحوٍ منْه قول الفَرَزْدق(١) :

---

(١) ديوان الفرزدق ٢ / ٧١٥ من قصيدته التى أولها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ‏ ‏ ‏ ‏ بيتــا دعائمه أعز وأطول

يَمشُونَ فى حلَق الَحْديد كما مشَتْ

جُرْبُ الجْمالِ بِهاَ الْـكُحَيْلُ المشْعَلُ(١)

فشبّه الرجالَ فى دروع الزَّرَد بالجمال الُجرب ، وهذا من التشبيه البَعيد ؛ لأنَّه إنْ أرادَ السّوادَ فلاَ مقاربةَ بينَهما فى اللّون ، لأنّ لونَ الحديدِ أبيضُ ، ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبِيض ، ومع كَوْن هذا التشبيهِ بعيداً فإنّه تشبيهٌ سَخيف .

ومن التشبيهاتِ الباردة قولُ أبى الطيب المتَنبى(٢) :

وجَرَى على الوَرق النّجيعُ الْقانى(٣)

فكأنه النّارَنْجُ فى الأغْصـِــــــانِ

وهذا تشبيهٌ ينـكرُه أهلُ التَجْسِيم ، وإذا قُسِّمت التشبيهاتُ بين الُبعْد والْـبَرْد حازَ طرفَى ذلك التقْسـيم .

وأبشعُ من هذا قول أبى نُواسٍ(٤) فى الخمر :

---

(١) الكحيل القطران ، وحلق الحديد الدروع ، والمشعل الحديدة التى يحرق بها الجلد ، ويروى « كأنهم » موضع « كما مشت »

(٢) ديوان المتنبى ٤ / ١٨٤ من قصيدة له فى مدح سيف الدولة ، أولها :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

(٣) النجيع الدم ، والقانى الأحمر الشديد الحمرة .

(٤) لم أجد هذا البيت والبيت الذى بعده فى ديوان أبو نواس ، ولعلهما من جملة الأبيات التى وردت فى ديوانه (٣٤٩) وهى :

أأ دميت بالماء القراح جبينها يسمع فى صحن الزجاج أنينها

فقد سمعت أذناك عند مزاجها أنينا وألحانا تجيب دنينها =

كأنّ بواسار[1] رواكِدُ حولَها وزُرْقَ سَنانيرٍ تُدِيرُ عُيونَها

والعجبُ أنه يقولُ مثل هذا الغَثّ الذى لاملاءمة بينه وبين ماشبّه به ، ويقرنُه بالبديع الّذى أحْسَن فيه وأبْدَع ، وهو :

كأنّا حُلولٌ بينَ أ كْنافِ روْضةٍ

إذا ماسَلَبْناها معَ اللَّيْل طِينَها

فانظرْ كيف قرنَ بين ورْدةٍ وسَعْدانةٍ ، لا بلْ بينَ بَعْرةٍ ومَرَجانةٍ .

وقد أ كـثرَ فى تشبيهِ الخمْرِ ، فأَحْسنَ فى موضعٍ وأساء فى مَوضعٍ ، ومِن إساءتهِ قولُه أيضاً فى أبياتٍ لاميّة[2] :

وإذا ما الماء واقعَها أظْهرَتْ شَكْلاًمنَ الْغَزْلَ

لُؤْلُؤاتٍ يَنْحَدِرْنَ بها كانْحِدَارِ الذَّرِّ من جَبْلِ[3]

= فصنها عن الماء القراح وهاتها فانك إن لم تسقنى مت دونها

بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها

بكف تكاد الكأس تدمى بنانها إذا أزعج التحريك منهاسكونها

كان رجال الهند حول إناثها عكوف على خيل تدير متونها

(١) هكذا فى الأصل ، ولم أقف لهذه الكلمة على معنى ، ولكنى رأيت فى القاموس (١ / ٣٨٢) أن البياسرة جيل بالسند تستأجرهم النواخذة لمحاربة العدو الواحد بيسرى . والنواخذة هم أهل السفن ، فلعل البواسار منها ، ويرجح هذا ذكره « رجال الهند» فى آخر أبيات الديوان المذكورة فى الهامش السابق :

(٢) ديوان أبى نواس ٣١٧ من قصيدة أولها :

يا مبيح الدمع فى الطلل راكباً منه إلى أمـل

(٣) رواية الديوان فى الشطر الثانى هكذا :

* كانحدار الدمع فى عجل *

ولا معنى لاعتراض المؤلف على هذه الرواية .

فشبّه الحَبَبَ في انحداره بنَمْل صغارٍ يَنحدر من جَبَلٍ ، وهذا من البُعْد على غايةٍ لا يحتاجُ إلى بيانٍ وإيضاح .

* * *

وأعلم أنَّ من التشبيه ضرباً يسمّى « الطرد والعكس » وهو أن يُجْعَل المشبّه به مشبَّهاً والمشبَّهُ مشبّهاً به وبعضُهم يُسَمِّيه «غلبةالفُروعلى الأصول[1]» ولا تجدُ[2] شيئاً من ذلك إلا والغرضُ به المبالغةُ ، فمّا جاء من ذلك قولُ ذِي الرُّمّة[3] :

ورَمْلٍ كأرداف العَذارى قَطعتُهُ إذا أُلْبِسَتْهُ المظلماتُ الحنادِسُ[4]

ألا ترى إلى ذي الرُّمّة[5] كيف جعلَ الأصلَ فرعاً والفرعَ أصْلا ، وذاك

---

(١) أنظر الخصائص لابن جنى ١/٣٠٨ وقد نقل ابن الأثير كلامه كما ترى .

(٢) في الخصائص « ولا تكاد تجد » قال ابن جنى : هذا فصل من فصول العربية ظريف تجده في معانى العرب كما تجده في معانى الأعراب ، ولا تكاد تجد . . الخ .

(٣) هو غيلان بن عقبة بن نهيس ، من مضر ، ومن الشعراء المتيمين وصاحبته مي بنت مقاتل المنقري ، كان كثير المدح لبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري وقيل إنه استسقى مرة فخرجت له « مية » وكانت بارعة الجمال ، وكان على كتفه رمة — قطعة حبل بالية — فقالت له : شرب ياذا الرمة ، فلزمته هذه الكنية منذ ذلك ، ولزمه حب مية من هذه النظرة .

(٤) من قصيدة لذى الرمة مطلعها :

ألم تسأل اليوم الرسوم الدوارس بحزوى ؟ وهل تدرى القفار البسابس؟

(٥) في الخصائص « أفلا ترى ذا الرمة . . » وقد تصرف ابن الأثير في كثير من المواضع في هذا النص .

أن العادَةَ والعُرْفَ فى هذا أنّ تشبّه أعجازُ النساء بكُثْبان الأنْقاء[1] ، وهو مطْرد فى بابه ، فعكسَ ذو الرمّة القصّة فى ذلك ، فشبّه كُثبان الأنقاء بأعْجاز النِّساء ، وإنّما فعل ذلك مبالغة ؛ أىْ قد ثَبتَ هذا الموضع وهذا المعنى لأعْجاز النِّساء ، وصار كأنه الأصْلُ ، حتى شُبِّهتْ به كُثْبانُ الأنْقاء ، وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى[2] :

فى طلعةِ البَدر شىءٌ من محاسِنها ... وللقَضيبِ نَصِيبٌ من تَثَنِّيْها[3]

وكذلك ورد قولُ عبد الله بن المعتزّ فى قصيدته المشهورة التى أولها :

* سَقَى الْمَطِيرةَ ذاتَ الطَلِّ والشَّجَرِ[4] *

فقال فى تشـــبيه الهلال :

ولاحَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كاد يَفْضَحُنا ... مِثْلُ القُلَامةِ قد قُدّتْ من الظُّفُرِ

ولمّا شاع ذلك فى كلام العربِ واتّسع صار كأنه هو الأصلُ ، وهو موضعٌ من علم البيانِ حسنُ الموقعِ لطيفُ المـــأخَذ .

وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جِنِّى فى كتاب « الخصائص » وأورده هكذا مهْملا .

---

(١) الأنقاء جمع نقا ، وهو من الرمل القطعة تنقاد محدودبة ، وهما نقوان ونقيان ، والجمع أنقاء ونقى « بضم فكسر » .

(٢) ديوان البحترى (٢٣/١) من قصيدة له فى مدح المتوكل مطلعها :

أنافعى عند ليلى فرط حبيها ... واوعـــة لى أبديها وأخفيها

(٣) روى صدر البيت فى الديوان هكذا :

* فى حمرة الورد شكل من تلهبها *

(٤) هذا صدر البيت وعجزه :

* ودير عبدون هطال من المطر *

ولمّا نظرتُ أنا فى ذلك ، وأنعمتُ نظرى فيه تبيَّن لى ما أذكُره ، وهو أنه قد تقرّر فى أصْلِ الفائدةِ المُسْتَنْتِجة من التشبيه أن يشبّه الشيء بما يطلقُ عليه لفظةُ « أفعل » أى يشبّه بما هو أبْيَن وأوضحُ ، وبما هو أَحسَن منه أو أقبح ، وكذلك يشبّه الأقلُّ بالأكثر ، والأدنى بالأعلى .

وهذا الموضع لا ينقضُ هذه القاعدة ، لأنّ الذى قدّمنا ذكره مطَّردٌ فى بابه ، وعليه مدار الاستعمالِ . وهذا غير مطَّرِد . وإنما يَحسُن فى عكس المعنى المتعارَف . وذاكَ أنْ تجعلَ المشبّه به مشبّهاً والمشبه مشبهًا به . ولا يحسن فى غير ذلك مما ليسَ بمتعارَفٍ .

أَلا ترى أَنّ من العادة والعُرْف أَن تشبّه الاعجازُ بالكُثْبان . فلمّا عكسَ ذو الرُّمّة هذه القضيةَ فى شعره جاء حسنًا لائقًا ؟ وكذلك فعلَ البحترىُّ . فإنّ من العادةِ والعُرْف أن يشبَّه الوجهُ الحسنُ بالبدْر . والقَدُّ الحسَنُ بالقضيب . فلمَّا عكَسَ البحترىُّ القضيةَ فى ذلك جاء أَيضًا حسنًا لائقًا ؟

ولو شبّه ذو الرُّمّة الكُثْبانَ بما هو أَصْغرُ منها غير الإعجاز لما حَسُن ذلك .

وهكذا لو شبّه البحترىُّ طلعَة البدْرِ بغير طلعةِ الحسْناء . والقضيبَ بغير قدِّها لما حسُن ذلك أَيضًا .

وهكذا القولُ فى تشبيه عبد الله بن المعتزّ صورة الهلال بالقُلامة . لأنّ من العادة أَن تشبّه القلامةُ بالهلالِ ، فلمّا صار ذلك مَشهوراً متعارفًا حسنَ عكسُ القضيّة فيه(١) .

---

(١) هذا نهاية الجزء الأول من النسخة الخطية المحفوظة فى دار الكتب المصرية بخط أبى المكارم بن منصور البا وشناى الموصلى ، فرغ من كتابة هذا الجزء فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة =

النـــــــوع الثالث

فى التجريد

وهذا اسمٌ كنتُ سمعته . فقال القائل : التجريد فى الكلامِ حسنٌ . ثم سكت فسألته عن حقيقته . فقالَ : كذا سمعت ! ولمْ يزِد شيئًا . فأنعمْتُ حينئذٍ نظرى فى هذا النوعِ من الكلامِ . فألقِى فى روعِى أنه ينبغِى أن يكون كذا وكذا . وكان الذى وقعَ لى صوابًا . ثمّ مضى على ذلك برهةٌ من الزمان ووصل إلىّ ماذكره أبو علىّ الفارسىُّ(١) رحمه الله تعالى ، وقد أوردته هاهنا . وذكرتُ ما أتيت بهِ من ذاتِ خاطرى من زيادةٍ لم يذكرهـا . وستَقف أيُّها المتأمِّل على كلامِه وكلامِى .

فأمَّا حدُّ (التجريد) فانه : إخلاص الخطابِ لغيرك . وأنت تريد به نفسك . لا المخاطب نفسَه . لأنّ أصله فى وضع اللغةِ من « جَرّدْتُ السيفَ » إذا نزعْته من غمده . و « جرّدْت فلانًا » إذا نزعْت ثيابه . ومن هاهُنا قال صلى

= اثنتين وعشرين وستمائة من الهجرة ، وفى أول هذا الجزء إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل فى شهر شعبان من السنة نفسها ، أجاز بها الشيخ أبا محمد المظفر عضدالدين بن محمد بن على بن جعفر بن زهير الدمشقى.

(١) هو أبو على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار محمد بن أبان الفارسى النحوى ، ولد بمدينة فساد واشتغل ببغداد ، ودخل إليها سنة ٣٠٧ ، وكان إمام وقته فى علم النحو ، ودار البلاد ، وأقام بحلب عند سيفى الدولة بن حمدان مدة ، وكان قدومه إليها سنة ٣٤١ ، وجرت بينه وبين أبى الطيب المتنبى مجالس ، ثم انتقل إلى بلاد فارس ، وصحب عضد الدولة بن بويه ، وتقدم عنده ، وعلت منزلته ، حتى قال عضد الدولة : أنا غلام أبى على فى النحو . وكان مولده سنة ٢٨٨هـ ووفاته ببغداد سنة ٣٧٧ هـ

الله عليه وسلم : « لامَدَّ ولا تجْرِيد » وذلك فى النَّهى عند إقامة الحدِّ أن يُمَدَّ صاحبُه على الأرض ، وأنْ تُجَرَّد عنه ثيابُه : وقد نُقِلَ هذا المعنى إلى نوعٍ من أنواع علمِ البَيان .

وقدْ تأمَّلتُه ، فوجدتُ له فائدتين إحداهما أبلغُ من الأخْرى .

فالأولى : طلبُ التوسُّع فى الكلام ، فإنه إذا كانَ ظاهرُه خطاباً لغيرك ، وباطنُه خطاباً لنفسك ، فانَّ ذلك من باب التوسُّع وأظنُّ أنه شىءٌ اختصَّت به اللغة العربيَّة دونَ غيرها من اللُّغات .

والفائدةُ الثانية : وهى الأبلغُ ، وذاكَ أنه يتمكَّن المخاطَبُ من إجراء الأوصافِ المقصودَة من مدحٍ أو غيره على نفسِه ، إذ يكونُ مخاطباً بها غيرَه ، ليكونَ أعْذَر وأبْرَأ من العُهْدة فيما يقوله غيرَ محجورٍ عليه .

وعلى هذا فانَّ التجريد ينقسِم قسمْين :

أَحـــدهما : تجريدٌ محْضٌ .

والآخرُ : تجريدُ غيرُ محض .

التجرِبة المحض : التجريد

فالأوَّل — وهو المحْضُ — أنْ تأتِيَ بكلامٍ هو خطابٌ لغيرك ، وأنت تريدُ به نفسَك ، وذلك كقولِ بعض المتأخِّـرين وهو الشاعر المعروفُ بالحَيْص بَيْصَ (١) فى مطلعِ قصـــيدةٍ له :

---

(١) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صيفى التميمى ، الملقب شهاب الدين ، المعروف بحيص بيص ، الشاعر المشهور ، كان فقيها شافعى المذهب ، تفقه بالرى : ثم غلب عليه الأدب و نظم الشعر ، فأجاده مع جزالة اللفظ ، وله رسائل بليغة ، وكان أخبر الناس بأشعار العرب واختلاف لغتهم ، وكان فيه تيه و تعاظم ، ولا يخاطب أحدا إلا بالكلام =

إلَامَ يرَاكَ الْمَجْدُ فى زِىٍّ شاعرٍ　　وقد نَحَلتْ شوقًا فروعُ المنابرِ
كَتمْتَ بعَيْبِ الشِّعْرِ حلمًا وحكْمَةً　　ببَعضهما يَنقْاد صَعبُ الْمَفاخِرِ
أَمَا وأبيكَ الْخَيْرِ إنّكَ فارِسُ الـــمَقَال ومُحْيى الدَّارساتِ الغوابرِ
وإنَّك أعْيَيْت الْمَسامِعَ والنُّهَى　　بقولك عما فى بطونِ الدَّفاترِ

فهذا من محاسِنِ التَّجريد ، أَلا ترى أنه أُجْرى الخطابَ على غيره ، وهو يريد نفسَه ، كىْ يتمكن من ذكرِ ماذكره من الصِّفاتِ الفائقة ، وعَدِّ ماعدَّه من الفضائلِ التائهة .

وكلُّ مايجىء من هذا القبيلِ فهو التجريدُ المحْضُ .

وأمّا ماقُصدَ به التوسُّع خاصَّة ، فكقول الصِّمةِ بن عبد الله مِنْ شُعراء الْحَماسَة[1] :

حَنَنْتَ إلى ريّا ونَفْسُك باعدَتْ　　مَزارَكَ من ريّا وشَعباكُمَا معاً
فَما حسنٌ أن تأتىَ الأمرَ طائعًا　　وتجزعَ أنْ داعى الصبابةِ أسْمَعا

وقد ورد بعد هذين البيتْين ما يدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع لأنّه قال :

= العربى . وكان يلبس زى الأعراب ، ويتقلد سيفاً . وقيل له الحيص بيص لأنه رأى الناس مرة فى حركة مزعجة وأمر شديد ، فقال : ما للناس فى حيص بيص ؟ أى فى شدة واختلاط ، فبقى عليه هذا اللقب توفى سنة ٥٧٤ ﻫ ببغداد ، ودفن فى الجانب الغربى فى مقابر قريش .

(١) كان شريفا ناسكا عابدا غزلا شاعرا مقلا من شعراء الدولة الأموية ، والأبيات فى ديوان الحماسة (٢ـــ٥٤) .

وأذكرُ أيامَ الحِمى ثمَّ أنثنِي   على كبدِي من خشيةٍ أنْ تصدَّعا[1]
بنفْسى تِلكَ الأرضَ ما أطْيَب الرُّبا
وَما أحْسنَ المُصْطافَ وَالْمُتربَّعـــا

فانتقل من الخطابِ التجريديِّ إلى خطابِ النفس ، ولو استمرَّ على الحالةِ الأولى لَمَا قُضِيَ عليه بالتوسُّع ، وإنما كان يُقْضى عليه بالتجريد البليغ الذى هو الطَّرفُ الآخر ، ويتأوَّل له بأن غرضَه من خطابِ غيره أن ينْـفِيَ عن نفسه سُمة الهوَى ومعرَّة العشْق ، لما فى ذلك من الشُّهرة والفضاضة . لـكنْ قد زال هذا التأويلُ بانتقالهِ عن التجريدِ أوَّلا إلى خطابِ النَّفْس .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى الطيِّب المتنبى[2] :

لا خَيْلَ عندكَ تُهْديها ولا مالُ   فلْيُسْعِدِ النُّطْق إنْ لم تُسْعدِ الحَالُ
وَاجْزِ الأميرَ الَّذى نعْماهُ فاجئَةٌ   بغَيْر قولٍ ونُعْمى الْقوْم أقْوَالُ

وهذان البيتانِ من مطلع قصـيدةٍ يمدحُ بها فاتـكاً الإخْشيدىَّ بمصر ، وكان وصَله بصلةٍ سـنيَّة من نفقة وكُسوة قبل أنْ يمدحه ، ثمّ مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة ، وهى من غُررِ شِعْره ، وقد بنَى مطلعها على المعنى المشار إليه من ابتداءِ فاتكٍ إيّاه بالصِّلة قبل المديح .

وليسَ فى التجريد المذكورِ فى هذين الْبَيْتَيْن مايدلُّ على وصْف النَّفْس ،

---

(١) رواية ديوان الحماسة تجعل هذا البيت آخر الأبيات التى اختارها أبو تمام جميعا » وتورد البيت الذى بعده قبل هذا البيت بخمسة أبيات

(٢) ديوان المتنبى ٣ـ ٢٧٦ مطلع قصيدة له فى مدح أبى شجاع فاتك سنة ثمان وأربعين وثلثمائة .

ولا على تزكيتها بالمديح كما وَرَد فى الأبيات الرائيَّةِ المتقدِّم ذكرُها ، وإنما هو توسُّعٌ لاغيرُ .

التجريد غير المحض :

وأما القسم الثانى : وهو غير المحض ، فإنه خطابٌ لنفسِك لا لغيْرِكَ ، ولئن كان بينَ النفْس والبَدن فَرْقٌ إلا أنَّهما كأنهما شيءٌ واحد ، لعلاقَة أحدهما بالآخر .

وبين هذا القسم والّذى قبله فرقٌ ظاهر ، وذاكَ أوْلى بأن يسمَّى تَجْريداً ، لأنّ التجريد لائقٌ به ، وهذَا هو نصفُ تجريدٍ . لأنّك لم تجرِّد به عنْ نَفْسك شيئًا . وإنما خاطبْتَ نفْسَك بنفسِك . كأنك فَصَلتها عنك . وهى منْك .

فمّا جاء منه قول عَمْرو بن الإطْنابة (١) :

أقُولُ لها وَقَدْ جَشَأَتْ وَجاشَتْ   رُوَيْدَكِ تُحْمَدِى أوْ تسْتَريحى (٢)

وكذلكَ قولُ الآخر (٣) :

---

(١) هو عمرو بن الإطنابة أحد بنى الخزرج ، ومعنى الإطنابة المظلة ، واسم أم عمرو هذا ، وهو أحد من ملك الحجاز فى الجاهلية ، وكان شاعراً مجيدا .

(٢) انظر شرح التبريزى ديوان الحماسة ٢ — ٢٧٣ ، وقد رواه « مكانك » موضع « رويدك » وقد تمثل بالبيت معاوية فى إحدى وقعاته مع الإمام على ، وكاد ينهزم ، فما لبث أن ثبت مكانه .

(٣) أحد بيتين اختارهما أبو تمام فى ديوان الحماسة ١ / ٧٣ ونسبهما لأعرابى قتل أخوه ابناً له ، والبيت الآخر :

كلاهما خلف من فقد صاحبه   هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

أقُول للنَّفْسِ تَأساءً وَتَعْزِيَةً   إحْدى يدَىّ أصابتْنى ولمْ تُرِدِ(١)

وليسَ فى هذا مايصلحُ أن يكونَ خطابًا لغيركَ كالأوّل . وإنما المخاطِبُ هو المخاطب بعينه . وليسَ ثمّ شىءٌ خارجٌ عنه .

وأمّا الذى ذكرهُ أبوعلىٍّ الفارسىُّ — رحمه الله — فانه قال : إنّ العربَ تعتقد أنّ فى الإنسانِ معنًى كامنًا فيه كأنه حقيقته ومحصوله . فتُخْرج ذلك المعنَى إلى ألْفاظِها مجرّداً من الانسان كأنه غيرُه . وهُو هو بعينِه . نحوَ قولهم « لئن لقيتَ فُلانًا لتَلْقيَنَّ به الأسَد . ولئِنْ سألتَه لتَسألنَّ منه البَحْر » وهو عينُه الأسدُ والبحرُ . لا أنَّ هناك شيئًا منفصلا عنْه . أو متميِّزاً منه .

ثمَّ قال : وعلى هذا النمَّطِ كونُ الانسانِ يخاطبُ نفسَه . حتى كأنه يُقاوِل غيرَهُ . كما قال الأعشَى :

* وهَلْ تطيقُ ودَاعًا أيُّها الرَّجلُ(٢) *

وهو الرجلُ نفسُه لا غيرُه .

هذا خلاصَةُ ماذكره أبوعَلىٍّ رحمه الله .

والذى عندى فيه أنه أصابَ فى الثانى ولم يُصِبْ فى الأول . لأن الثانى هو التجريدُ . ألا ترى أن الأعشى جرّد الخطاب عن نفسِه وهو يريدُها .

---

(١) التأساء هى مايؤتسى به من الحزن والتعزية حسن الصبر وقوله : « إحدى يدى أصابتنى » أجراه على المثل والمجاز « والمعنى : أناجى النفس بهذا القول طلبا للتأسى وحسن الصبر .

(٢) هذا عجز مطلع قصيدته المشهورة ، وصدر البيت :

* ودع هريرة إن الركب مرتحل *

ويعدها بعض الرواة إحدى المعلقات .

وأمَّا الأولُ . وهو قوله : « لَئِن لقيتَ فلانًا لتَلْقينَّ به الأسَدَ . ولئن سألتَهُ لتسألنَّ منه البحر » فانَّ هذا تشبيهٌ مضمرُ الأداةِ . إذْ يحسُنُ تقديرِ أداةِ التشبيه فيه .

وبيانُ ذلكَ أنَّكَ تقول : « لَئِن لقيتَ فلانًا لتلقينّ منه كالأسد . ولئنْ سألته لتسألنّ منه كالبحر » وليس هذا بتجريدٍ . لأنّ حقيقةَ التجريدَ غيرُ موجُودةٍ فيه . وإنما هو تشبيهٌ مضمر الأداة . ألا ترى أن المذكورَ هو كالأسد . وهو كالبحر . وليسَ ثمَّ شيءٌ مجرَّد عنه . كما تقدم فى الأبياتِ الشِّعرية .

ويبطُل على أبى عليٍّ قولُه أيضًا من وجهٍ آخر . وذاك أنَّه قال . « إنّ العربَ تعتقدُ أنّ فى الإنسان معنًى كامنًا فيه كأنه حقيقتهُ ومحصولُه . فتُخرج ذلك المعنى إلى ألْفاظها مجرّداً من الإنسان كأنه غيره وهُوَ هُوَ » كالمثالِ الذى مثَّله فى تشبيهه بالأسد وتشبيهه بالبحر . وهذا ينتقضُ بقولنا . « لَئِنْ رأيتَ الأسد لترينّ منهْ هضبَةَ . ولئن لقِيتَهُ لتلقينّ منه الموت » فانّ الصورةَ التى أوردها فى الإنسانِ، وزعم أن العربَ تعتقدُ أنّ ذلك معنًى كامنٌ فيه قدْ أوردنا مثلها فى الأسد ، فتخصيصه ذلكَ بالإنسانِ باطل .

وكلا الصُّورتين ليسَ بتجريدٍ ، وإنَّما هو تشبيهٌ مضمرُ الأداة :

وقد سبق القولُ بأنّ التجريد هو أن تُطلقَ الخطابَ على غيرِكَ ، ولا يكونُ هو المراد ؛ وإنما المرادُ نفسُك ؛ وهذا لا يوجَدُ فى هذا المثالِ المضمر الأداة ، بل المخاطبُ هو هو لا غيرُه ، فلا يطلق عليه إذاً اسمُ التجريد ، لأنه خارجٌ عن حقيقته ، ومُنافٍ لموضوعِه .

فإذا قال القائلُ : « لَئِن لقِيتَه لتلقَينَّ به كالأسد ، ولئن سألتَه لتسألنَّ منه

كالبحر » لم يجرِّد عن المقول عنه شيئًا ، وإنما شبَّهه تارةً بالأسد فى شَجاعته ، وتارةً بالبحر فى سخَائه .

وما أعلمُ كيف ذهبَ هذا على مثل أبى علىّ — رحمه الله — حتى خَلَطه بالتجريد ، وأجراهُ مجراه ؟

وأمّا قولُه : إنّ العربَ تَعْتَقدُ أنّ فى الإنسانِ معنًى كامِنًا فيه كأنه حقيقتُهُ ومحصولُه » فأقولُ : وغيرُ العرب أيضًا تعتقدُ ذلك !

فإن عَنَى بالمعنى الكامن معنى الأنسانيّة الذى هو الاستعدادُ للعلوم والصنائع، فما هذَا من الشيء الغريب الخفىّ الذى علمتْه العربُ خاصَّة وانفرد باستخراجه أبو علىّ رحمهُ الله !

وإنْ عَنَى بالمعنى الكامن ما فيه من الأخلاقِ كالشجاعةِ والسّخاء فى المثالِ الذى ذكره ، حتّى يشبّه بالأسد تارة ، وبالبحرِ أُخْرى ، فليسَ الإنسانُ مختصًّا بهذا المعنَى الكامن دُونَ غيرِه من الحيوانات ، بل الأسدُ فيه من معنَى الشجاعة ما ليس فى الإنسانِ ، ولهذا إذا بُولغ فى وصفِ الإنسانِ بالشّجاعة شبّه بالأسد ، وكذلك فى بعض الحيوانات من السَّخاء ما ليس فى الإنسان ، ومن الأمثال « أَكْرَمُ منْ ديكٍ » لأنه إذا ظَفِر بحبَّة من الحنْطة أخذها فى مِنقارِه ، وطافَ بها على الدَّجاج ، حتّى يضعَها فى منقار واحدةٍ منهنّ .

فالأخْلاقُ إذاً مشتركةٌ بين الإنسانِ وغيرِه من الحيوانات . غير أنّ الإنسانَ يجتمعُ فيه ما تفرّق فى كثير منها .

وما أعلمُ ما أراد أبو علىّ — رحمه الله — بقوله : « إنّ فى الإنسانِ معنًى

كامناً فيه كأنَّه حقيقتُهُ ومحصوله » إلا أن يكونَ أحد هذين القِسْمين اللَّذين أشَرتُ إليهما .

على أنّ القسمَ الواحد الذى هو خُلق الشّجاعة والسخاء وغيره من الأخلاق ليسَ عبارةً عن حقيقة الإنسانِ ، إذْ لا يقالُ فى حدِّه : « حيوانٌ شجاعٌ ، ولا سخىٌّ » بل يُقال : « حيوانٌ ناطقٌ » فالنُّطْقُ الذى هو الاستعدادُ للعُلوم والصنائع هو حقيقةُ الإنسان .

فبطلَ إذاً قولُ أبى علىٍّ رحمه الله فى تمثيله حقيقةَ الإنسان بالشّجاعة والسخاء .

فالخطأُ توجَّه فى كلامه من وجْهَين :

أحدُهما : أنه جعل حَقِيقَةَ الإنسان عبارةً عن خُلقه .

والآخر : أنه أدخلَ فى التجريدِ ما ليسَ منه .

وهذا القدرُ كافٍ فى هذا الموضع فلْيتأمّلْ .

النـــوع الرابع

فى الالتفات

وهذا النوعُ وما يليه[١] هو خلاصة علم البيان التى حَوْلَها يُدَنْدَنُ ، وإليها تستندُ البلاغةُ ، وعنْها يُعَنْعَن .

وحقيقتُه مأخوذةٌ من التفاتِ الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يُقبِل بوجْهِهِ تارةً كذا ، وتارةً كذا .

وكذلك يكونُ هذا النوعُ من الكلام خاصَّة ، لأنه يُنْتقلُ فيــهِ عن

---

(١) هو النوع الخامس « توكيد الضميرين » وسيأتى .

صيغَةَ إلى صِيغَة ، كانتقال من خطاب حاضرٍ إلى غائبٍ ، أو من خطابٍ غائبٍ إلى حاضر ، أو من فعـلٍ ماض إلى مُستقبل ، أو من مُستقبلٍ إلى ماض ، أوْ غير ذلك مِمّا يأتي ذكرهُ مفصّلا .

ويسمَّى أيضاً « شجاعة العربية » وإنَّمـا سمِّى بذلك لأنّ الشجاعة هى الإقدام ، وذاكَ أن الرّجُل الشجاعَ يركبُ مالا يسْتَطيعهُ غيرُه ، ويتوردُ مالا يتوردُه سِواه . وكذلك هذا الالتفاتُ فى الـكلامِ ، فإنّ اللغة العربيّة تختصُّ به دونَ غيرها من اللّغاتِ .

وهو ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فى الرجوع من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة :

اعلم أن عامّةَ المنتمينَ إلى هذا الفَنّ إذا سُئِلُوا عن الانتقالِ عن الغيْبة إلى الخطابِ ، وعن الخطابِ إلى الغَيبة ، قالوا · كذلك كانتْ عادةُ العرب فى أساليبِ كلامها . وهذا القولُ هو عُـكَّاز العمْيان ، كما يقال . ونحْنُ إنما نسأَلُ عن السّببِ الذى قَصَدَت العربُ ذلك من أجْله .

وقال الزّمخشَرىُّ (١) رحمه الله : إن الرُّجوعَ من الغيْبة إلى الخطاب إنّما يستعملُ للتفَـنُّن فى الـكلامِ والانتقال من أسْلوبٍ إلى أسلوبٍ ، تطريةً لنشاطِ السّامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه .

---

(١) هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشرى ، كان إماما فى التفسير والنحو واللغة والأدب » واسع العلم كبير الفضل ، متفننا فى علوم شتى ، معتزلى المذهب متجاهرا بذلك ، ولد بزمخشر من أعمال خوارزم سنة ٤٦٧ وتوفى بقصبة خوارزم ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة .

وليس الأمرُ كما ذكرهُ، لأنّ الانتقال فى الكلامِ من أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ إذا لم يكنْ إلا تطريةً لنشاطِ السّامع، وإيقاظاً للأصغاء إليه، فانّ ذلك دليلٌ على أَن السّامِعَ يملّ من أُسلوبٍ واحدٍ. فينتقلُ إلى غيره، ليجدَ نشاطاً للاستماع. وهذا قَدْحٌ فى الكلام، لا وصفٌ له، لأنّه لو كان حسناً لما ملّ.

ولو سلّمنا إلى الزمخشرىّ ما ذهبَ إليه لكان إنما يوجدُ ذلك فى الكلام المطوّل، ونحنُ نرى الأمرَ بخلافِ ذلك، لأنه قد ورد الانتقالُ من الغيبةِ إلى الخطابِ، ومن الخطاب إلى الغيْبة فى مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ الكريم، ويكونُ مجموعُ الجانبَين معاً يبلغ عَشْرَةَ ألفاظٍ أو أقلّ من ذلك.

ومفهومُ قولِ الزمخشرىِّ فى الانتقالِ من أسلُوبٍ إلى أسلُوبٍ إنّما يُستعملُ قصداً للمخالفةِ بينَ المنتقَل عنْه والمنتقل إليه، لا قصْداً لاستعمال الأحسن: وعلى هذا فإذا وَجَدْنا كلاماً قد استُعمِل فى جميعِهِ الإيجازُ، ولم يُنْتَقَل عنه، أو استعملَ فيه جميعِهِ الإطناب، ولم ينتقل عنه؛ وكانَ كلاالطّرفين واقعاً فى موقعِهِ قلنا: هذا ليس بِحسَنٍ، إذ لم ينتقل فيه من أسلوبٍ. وهذا قولٌ فيه ما فيه.

وما أعلمُ كيفَ ذهَب على مثْل الزمخشرىّ مع معرفته بفنّ الفصاحةِ والبلاغَةِ؟.

والذى عندِى فى ذلك أنّ الانتقالَ من الخطابِ الى الغيبة أو مِن الْغَيبة إلى الخطابِ لايكونُ إلا لفائدةٍ اقتضتْه. وتلك الفائدةُ أمرٌ وراءَ الانتقالِ من أسلوبٍ إلى أُسلوب، غير أنّها لا تُحَدُّ بِحَدٍّ، ولا تُضْبَطُ بِضَابطٍ، لكنْ يشارُ إلى مواضعَ منها، ليُقاسَ عليها غيرُها، فإنّا قد رأَينا الانتقالَ من الغيبة الى الخطاب قد استُعمل لتعظيمِ شأنِ المخاطَب؛ ثم رأَينا ذلك بعينه — وهوَ ضدٌّ

الأوّل — قد استعمل فى الانتقالِ من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذٍ أنّ الغرضَ الموجِبَ لاستعمال هذا النّوع من الكلامِ لايجرى على وتيرةٍ واحدةٍ، وإنّما هو مقْصُورٌ على العناية بالمعنى المقصودِ ، وذلك المعنَى يتشعَّب شُعَباً كثيرة لا تنحصر ، وإنّما يُؤتَى بها على حسبِ الموضعِ الذى تَرِدُ فيه .

وسأوضِّح ذلك فى ضرب من الأمثلةِ الآتى ذكرها :

فأمّا الرُّجوع من الغيبةِ إلى الخطابِ فكقوله تعالى فى سُورَةِ الفاتحة « الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * إِهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم * صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهم » .

هذا رجوعٌ من الغيبة إلى الخطابِ ، وممّا يختصّ به هذا الكلامُ من الفوائد قوله : « إيَّاكَ نَعْبُد وإيّاكَ نَسْتَعينُ » بعد قوله « الْحَمْدُ لِلهِ ربِّ العَالَمينَ » فإنه إنّما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب ، لأنَّ الحمدَ دونَ العبادة ألا تراك تحمدُ نظيرك ولا تعبدُه ؟ فلمَّا كانت الحالُ كذلك استعمل لفظ « الحمد » لتوسّطه معَ الغيبة فى الخبر ، فقال : « الحمدُ لله » ولم يقل : الحمدُ لك ، ولمّا صارَ إلى العبادةِ التى هى أقصَى الطَّاعات قال : « إيَّاكَ نَعْبد » فخاطبَ بالعبادة إصراحاً بها ، وتقرُّباً منه عزَّ اسمهُ بالانتهاء إلى محدُودٍ منها .

وعلى نحو من ذلك جاءَ آخر السورة ، فقال : « صِرَاط الّذينَ أنعمتَ عليْهم » فأَصْرَح الخطابِ لمّا ذكر النِّعمة ، ثم قال : « غَيْرِ الْمَغضوبِ عَلَيهم » عطفاً على الأول ، لأنّ الأول موضعُ التقرُّب من الله بذكرِ نعمه ، فلمَّا صارَ إلى ذكر الغضَبِ جاء باللّفظ منحرفاً عن ذكرِ الغاضِب ، فأَسْندَ النِّعمة إليه لفظاً وَروَى عنه لفظ الغَضَب تحُنناً ولطفاً .

فانظرْ إلى هذا الموضعِ ، وتناسُبِ هذه المعانى الشّريفة التى الأقدامُ لا تكاد تطؤها ، والأفهامُ مع قُربِها صالحةٌ عنها .

وهذه السورة قد انتقلَ فى أولها من الغَيبة إلى الخطابِ . لتعظيم شأنِ المخاطبَ ، ثم انتقل فى آخرِها من الخطابِ إلى الغيبة ، لتلك العِلّة بعينها ، وهى تعظيمُ شأنِ المخاطب أيضاً ، لأنّ مخاطبَة الربِّ تبارك وتعالى بإسناد النِّعمة إليه تعظيمٌ لخطابه ، وكذلك تركُ مخاطبته باسناد الغضَبِ إليه تعظيمٌ لخطابه .

فينبغى أن يكونَ صاحبُ هذا الفنِّ من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعِه فى مواضِعها على اشْتباهها .

ومِنْ هذا الضرب قوله تعالى « وقَالُوا اتَّخَذَ الرّحْمٰنُ ولَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدًّا »(١)

وإنما قيل : « لقدْ جِئْتُم » وهو خطابٌ للحاضِر بعد قوله : « وقَالُوا » وهو خطاب للغائبِ لفائدة حَسنةٍ ، وهى زيادةُ التسجيل عليهم بالجراءةِ على الله تعالى ، والتعرُّض لسُخطه ، وتنبيهٌ لهم على عِظمِ ما قالوه ، كأنه يخاطبُ قوماً حاضرينَ بيْن يديه مُنكِراً عليهم ، ومُوبِّخاً لهُمْ .

ومما جاء من الالتفاتِ مراراً على قِصَرِ مَتْنه ، وتقارُب طَرفيه ، قولُه تعالى أوّل سُورة بنى اسرائيل : « سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إلى الْمَسجِدِ الْأَقْصَى الّذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنا إنهُ هو السّمِيعُ البَصيرُ » .

فقال أوّلا : « سُبْحانَ الَّذى أَسْرَى » بلفظ الواحد ، ثمّ قال : « الذى

---

(١) سورة مريم الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

بارَكْنَا» بلفظ الجمع، ثمّ قال: «إنهُ هُوَ السّميعُ البَصير» وهو خطاب غائب ولو جاءَ الكلام على مساق الأوّل لكانَ: سبحانَ الذى أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرامِ إلى المسجد الأقصى الذى باركَ حوله ليُريهُ من آياته إنَّهُ هو السميع البصير. وهذا جميعُه يكونُ معطوفاً «على أَسْرى»، فلما خُولفَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليْه فى الانتقالِ من صيغةٍ إلى صيغةٍ كانَ ذلك اتساعاً وتفنُّناً فى أساليبِ الكلامِ، ولمقصدٍ آخرَ معنوىٍّ هو أَعْلى وأَبلغُ.

وسأذكرُ ما سَنَح لى فيه، فأقُول:

لمَّا بدأَ الكلامَ بسُبحان رَدَفه بقولِه: «الذى أَسْرى» إذ لا يجوزُ أن يقالَ: الذى أَسْرَيْنا، فلما جاء بلفظِ الواحد، واللهُ تعالى أعظمُ العظماء، وهو أَوْلى بخطاب العظيمِ فى نفسه الذى هو بلفظ الجمع استدْركَ الأوّل بالثّانى، فقالَ: «بارَكنا» ثم قال: «لِنُرِيهُ منْ آياتنا» فجاء بذلك على نسقِ «باركنا» ثم قال: «إنَّه هُو» عطفاً على «أَسْرَى» وذلك موضعٌ متوسِّط الصِّفة، لأن السّمع والبصرَ صفتان يشاركُه فيهما غيرُه، وتلك حالٌ متوسِّطة؛ تَخرجَ بهما عن خطاب العظيمِ فى نفْسِه الى خطابِ غائبٍ.

فانظر إلى هذه الالْتفاتات المترادِفة فى هذه الآيةِ الواحدة التى جاءت لمعانٍ اختصّت بها؛ يعرفُها من يعرفها؛ ويجهلها من يَجهلُها.

وممّا يَنخرطُ فى هذا السِّلك الرجُوعُ من خطابِ الغَيْبة الى خطاب النفس كقوله تعالى: «ثمّ استَوى إلى السّماء وهِيَ دُخَانٌ فقَالَ لهَا وللْأَرضِ ائتِيا طوعاً أو كَرهاً قالَتا أَتَينا طائِعينَ * فقضَاهُنّ سبعَ سمٰواتٍ فى يَوْمَيْنِ

وأوحى فى كلِّ سماءٍ أمرَها وزيّنا السّماءَ الدُّنيا بمَصابيحَ وحِفْظًا ذلكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ[1] » .

وهذا رجوعٌ من الغيبة إلى خطاب النفس ، فإنّه قال : « وزيّنا » بعد قوله: « ثمّ استوى » وقوله : « فقَضاهُنّ » . و « أوحى » والفائدةُ فى ذلك أن طائفةً من الناسِ غير المتشرِّعين يعتقدونَ أن النجومَ ليست فى سماء الدُّنيا . وأنها ليست حِفْظًا ولا رُجُومًا . فلمّا صار الكلامُ إلى هاهُنا عدَل به عن خطابِ الغائبِ إلى خطابِ النَّفس . لأنَّه مهمٌّ من مهماتِ الاعتقادِ . وفيه تكذيبٌ للفِرقةِ المكذِّبة المعتقدة بُطْلانَه . وفى خلافِ هذا الرُّجوعُ من خطابِ النفسِ إلى خطابِ الغيبة .

وممّا ينخرطُ فى هذا السِّلك أيضاً الرجوعُ من خطابِ النفسِ إلى خطاب الجماعة ، كقوله تعالى : « وَمَا لِىَ لا أعْبُد الذى فطرَنى وإليهِ تُرْجعون[2] » .

وإنّما صرَف الكلامَ عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنَّه أبرزَ الكلامَ لهم فى معرضِ المُنَاصَحَة . وهو يريدُ مناصحتهم ليتَلَطف بهم ويُدَارِيُهمْ ، لأنّ ذلك أدخلُ فى إمحاضِ النُّصح حيثُ لا يريدُ لهم إلا ما يريدُ لنفسه ، وقد وضع قوله « ومالِىَ لا أعْبُد الذى فطرَنى » مكان قوله : وما لكُمْ لا تعبدون الذى فطركُمْ ؟ ألا ترى إلى قوله « وإليهِ تُرجعُون » ولولا أنّه قصدَ ذلك لقال : الذى فطرَنى وإليه أُرجع ، وقد ساقَهُ ذلك المساق إلى أن قالَ : « إنِّى آمَنتُ بربِّكُمْ فَاسمَعُون[3] » .

---

(١) سورة فصلت : الآيتان ١١ و١٢ .
(٢) سورة يس : الآية ٢٢ .
(٣) سورة يس . الآية ٢٥ .

فانظر أيُّها المتأمّلُ إلى هذه النُّـكتِ الدّقيقة التى تمرُّ عليها فى آياتِ القرآنِ الـكريم ، وأنت تظنُّ أنّك فهمتَ فحواها ؛ واستنبطت رموزَها .

وعلى هذا الأسلوبِ يجرى الحـكم فى الرُّجوع من خطابِ النفس إلى خطابِ الواحدِ كقوله تعالى : « حم * والـكتابِ المبين * إنّا أنزَلْناهُ فى ليلةٍ مُبَاركَةٍ إنّا كُنّا مُنذِرِينَ * فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم * أمراً من عِندنا إنّا كُنّا مُرسِلين * رحمَةً من ربِّكَ إنّهُ هو السّميعُ الْعَليمُ[1] » .

والفائدةُ هاهنا فى الرجوعِ من خطابِ النّفس إلى خطاب الواحد تخصيصُ النبى صلى الله عليه وسلم بالذكر والإشارة بأنّ إنزال الـكتابِ إنما هو إليه . وإن لم يكن ذلك صريحاً ، لـكنّ مفهومَ الـكلامِ يدلُّ عليه .

وإذا تأمّلتَ مطَاوىَ القرآن الـكريمِ وجدتَ فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة ، وإنّما اقتصرنا على هذه الأمثلةِ المختصرة ليقاسَ عليهـا مايَجرِى على أسلُوبها .

وقد وَردَ فى فصيحِ الشِّعْر شىءٌ من ذلك ، كقول أبى تمّام[2] :

وَرَكْبٍ يُساقُون الرِّكابَ زُجَاجةً
من السّيْرِ لَمْ تَقْصِدْ لها كفُّ قاطبِ[3]

---

(١) سورة الدخان الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦

(٢) ديوان أبى تمام ٤١ من قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم ابن عيسى العجلى ومطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب ... أذيلت مصونات الدموع السواكب

(٣) قاطب مازج الخمر بالماء .

فقد أكلوا منها الغواربَ بالسُّرى
وصارتْ لهُمْ أشباحُهمْ كالْغوَاربِ (١)

يُصَرِّفُ مَسْرَاها جُذَيلُ مَشَارِقٍ
إذا آبَهُ هَمٌّ عُـذَيْقُ مغاربِ (٢)

يرَى بالـكَعابِ الرَّوْدِ طَلْعَة ثائرٍ
وبالْعِرْمِسِ الْوَجنـاءِ غُرّة آيِبِ (٣)

كأنّ بها ضِغْناً على كلِّ جانبٍ
من الأرض أو شوقاً إلى كل جَانبِ (٤)

إذا العِيسُ لاقَتْ بى أَبا دُلَفٍ فقدْ
تقطّعَ ما بينى وبين النّـــوائِبِ (٥)

هُنالِك تَلْقى الْجُودَ من حيْثُ قُطِّعت
تمائمُه والْمَجْدَ مُرخَى الذوَائبِ (٦)

---

(١) رواية الديوان «لها» موضع «لهم» ، والغوارب الكواهل .

(٢) الجذيل تصغير جذل ، وهو عود ينصب للجربى لتحتك به ، ومنه « أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب » على سبيل الافتخار ، آبه أتاه ليلا ، والعذيق تصغير عذق ، وهو الفرع من النخلة .

(٣) الكعاب بارزة النهد ، الرود اللينة ، الثائر طالب الثأر ، العرمس الناقة الشديدة ، الوجناء عظيمة الوجنتين .

(٤) رواية الديوان «كأن به» موضع «كأن بها» .

(٥) العيس : الإبل البيض بشقرة .

(٦) رواية الديوان :

هنالك تلقى المجد حيث تقطعت تمائمه والجود مرخى الذوائب

والتمائم خرزات تعلق فى عنق الصبى لدفع العين عنه، والمفرد تميمة .

ألا ترى أنَّه قال فى الأوّل « يصرِّفُ مسراها » مخاطبةً للغائب ، ثمّ قال بعدَ ذلك : « إذا العِيسُ لاقتْ بى » مخاطباً نفسه ؟ وفى هذا من الفائدة أنّه لما صار إلى مشافَهةِ الممدوح والتصريحِ باسمه خاطبَ عنـد ذلك نفسه مبشراً لها بالبُعْد عن المكروهِ ، والقُرب من المحبوب ، ثمّ جاء بالبيت الذى يليه معدولًا به عن خطابِ نفسه إلى خطاب غيره ، وهو أيضاً خطابٌ لحاضرٍ فقال : « هُنالِك نَلْقى الُجود » والفائدةُ بذلك أنَّه يخبر غيرهُ بما شاهَده ، كأنه يصفُ له جُود الممدوحِ ، وما لاقاهُ منه ، إشادةً بذكره ، وتنويهاً باسمه ، وحملًا لغيره على قَصْده . وفى صفتِهِ جودَ الممدوحِ بتلك الصِّفة الغريبة البليغة ، وهى قولُه : « حيث قُطِّعت تمائمه » ما يقتضى له الرجوعَ إلى خطابِ الحاضر ، والمرادُ بذلك أن محلَّ الممدوحِ هو مألفُ الُجود ومنشؤه ووطنُه ، وقد يُراد به معنًى آخر ، وهو أن هذا الجودَ قد أمنَ عليه الآفات العارضَـة لغـيره من المنِّ والمطْل والاعتذار ، وغير ذلك ، إذ التمائمُ لا تقطع إلا عمَّن أُمنت عليه المخاوف .

وعلى هذا النَّهج ورد قولُ أبى الطِّيب المتنبى فى قصيدٍ يمدحُ به ابن العميد فى النَّوْرُوز (١) ومن عادة الفُرس فى ذلك اليوم حملُ الهدايا الى ملوكهم فقال فى آخر القصيد :

كَثُرَ الفِـكْرُ كَيفَ تُهدى كما أهْـــدَتْ إلى ربِّها المليك عِبادُه (٢)

---

(١) ديوان المتنبى ٢ — ٤٧ والقصيدة فى مدح أبى الفضل محمد ابن الحسين بن العميد » وتهنئته بعيد النيروز ، وأولها :

جاء نيروزنا وأنت مراده   وورت بالذى أراد زناده

(٢) رواية الديوان « الرئيس » موضع « المليك » .

والذى عندنَا من المالِ والخَيْـــلِ فمنـــهُ هباتُهُ وقيادُهْ
فبَعثْنا بأربعـــينَ مِهَـــاراً كلُّ مُهْرٍ مَيْدانُه إنشادُهْ[1]
عَددٌ عِشْتَه يرَى الجسمُ فيهِ أرَباً لا يَرَاهُ فيما يُزادُهْ[2]
فَارْتبطْها فإنّ قلباً نمَـاها مَرْبط تَسْبقُ الجيـادَ جيادُه

وهذا من إحسان أبى الطِّيبِ المعروف ، وهو رجوعٌ عن خطابِ الغائب إلى الحاضر ، واحتجَّ أبو الطيبِ عن تخصيص أبياته بالأربعينَ دونَ غيرها من العدد بحجةٍ غريبةٍ ، وهى أنّه جعَلها كعدَدِ السنين الّتى يرى الإنسانُ فيها من القوّة والشباب وقضاء الأوطار مالا يراهُ فى الزيادة عليها ، فاعتذَر بألطف اعتذَارٍ فى أنّه لم يزِدْ القَصيد على هذه العِدَّة ، وهذا حسنٌ غريبٌ .

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغَيْبةِ فكقوله تعالى : « هُوَ الذى يُسَيِّرُكم فى الْبَرِّ والْبَحْرِ حتى إذا كُنتُم فى الْفُلكِ وجَرَيْنَ بهِم بريحٍ طَيبةٍ وفَرِحُوا بها جَاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وجاءهم الْمَوْجُ من كل مَكانٍ وظَنُّوا أنَّهم أُحيطَ

---

(١) يروى « بأربعين مهار » بالجر ، على أنه بدل أو صفة على التأويل ، وبالنصب صفة على الموضع ، تقديره بعثنا أربعين » والبدل أيضا على الموضع ، وليس نصبه على التمييز ، لأن تمييز « الأربعين » مفرد ، والمهار جمع مهر ، وهو الفتى من أولاد الخيل .

(٢) أى : الأربعون عدد عشته ، دعاء له بأن يعيش هذا العدد من السنين على ماعاش ، وكان ابن العميد قد جاوز السبعين ، وناهز الثمانين فى هذا الوقت . والمعنى : زاد الله فى عمرك هذا العدد ، والجسم لا يرى من أرب العيش فيما زاد على الأربعين ما كان يراه فيما دونه ، فلهذا اختار هذا العدد ، فجعل القصيدة أربعين بيتا . قال أبو الفتح : الأربعون إذا تجاوزها الإنسان نقص عما يعهد من أحواله فى جسمه وتصرفه .

بهم دَعَوُا اللهَ مُخلصِينَ لَه الدِّين لئِنْ أنجَيْتَنا من هذه لنكونَنّ من الشّاكِرين[1] » :

فإنَّه إنما صرف الكلامَ هاهنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهى أنه ذكر لغيرهم حالهم، ليُعَجِّبهم منها كالمخبر لهمْ، ويستدعى منهم الإنكارَ عليهم، ولو قال: حتى إذا كنتمُ فى الفُلْك وجرَيْن بكم بريحٍ طيبةٍ وفرِحتُم بها، وساقَ الخطابَ معهم الى آخر الآية لذهبتْ تلك الفائدةُ التى أنتجها خطابُ الغيبة، وليس ذلك بخافٍ عن نَقَدةِ الكلام.

ومما ينخرطُ فى هذا السلك قولُه تعالى: « إنَّ هٰذه أمّتُكمْ أمّةً واحدةً وأنا ربُّكمُ فاعْبدُون * وتقطّعوا أمْرهُم بينهم كلٌّ إلينا راجعون[2] ».

الأصلُ فى « تقطّعوا » تقطّعتم، عطفاً على الأوّل، إلا أنه صرف الكلامَ من الخطاب إلى الغيبة على طريقة « الالتفات » كأنّه ينعى عليهم ما أفسدُوه إلى قومٍ آخرين، ويقبِّح عندهمُ ما فعلوه، ويقول. ألا تَروْن إلى عظيمِ ما ارتكب هؤلاء فى دين الله تعالى. فجعلوا أمرَ دينهم فيما بينهم قِطعاً؟ وذلك تمثيلٌ لاختلافهم فيه، وتباينهم، ثمّ توعّدهم بعد ذلك بأنّ هؤلاء الفرقَ المختلفة إليه يرجعُونَ، فهو مُجازيهم على ما فعلوا.

ومما يجرى هذه المجرى قولُه تعالى: « يٰأيُّها النّاسُ إنّى رَسول الله إليكمْ جميعاً، الذى له ملْكُ السّمٰواتِ والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميتُ فآمِنوا بالله ورَسوله النّبيِّ الأمِّى الذى يؤْمنُ بالله وكلماتِه واتّبعوه لعلّكم تهتَدُون[3] ».

(١) سورة يونس: الآية ٢٢.
(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٩٢ و٩٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

فإنه إنما قال « فآمِنُوا بالله ورَسُوله » ولم يقل : فآمنُوا بالله وبى ، عطفاً على قوله : « إنِّى رَسُولُ الله اليَكُمُ » لكى تجرى عليه الصفاتُ التى أُجريتْ عليه ، وليعلمَ أن الذى وجَب الإيمانُ به والاتباعُ له هو هذا الشخصُ الموصوفُ بأنّه النبىُّ الأمىُّ الذى يؤمنُ بالله وبكلماته كائناً مَنْ كان ، أنا أو غيرى ، إظهاراً للنَّصَفةِ ، وبعداً من التعصُّب لنفسه ، فقرّر أولاً فى صدر الآية أنه رسُول الله إلى الناس ، ثم أخرج كلامه من الخطابِ إلى معرض الغَيْبة لغرضَين .

الأول منهما : إجراء تلك الصِّفاتِ عليه .

والثانى : الخروجُ من تُهمة التعصُّب لنفسه .

* * *

القسم الثانى : فى الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضى الى فعل الأمر :

وهذا القسمُ كالّذى قبله فى أنَّه ليس الانتقالُ فيه من صيغةٍ إلى صيغةٍ طلباً للتوسُّع فى أساليب الكلام فقط ، بلْ لأمرٍ وراءَ ذلك ، وإنما يُقْصَد إليه تعظيما لحالِ من أجْرىَ عليه الفعلُ المستقبلُ ، وتفخيماً لأمره ، وبالضدّ من ذلك فيمَنْ أجْرِى عليه فعل الأمر .

فممّا جاء منهُ قوله تعالى : « يا هُودُ ما جِئْتنا بِبَيِّنَةٍ وما نَحْن بِتارِكى آلِهَتِنا عن قَوْلِكَ وما نَحنُ لكَ بمؤمِنينَ * إنْ نَقولُ إلا اعْتَرَاكَ بَعْض آلِهَتنا بِسوءٍ قالَ إنِى أُشْهِدُ الله واشْهَدُوا أنى برِىءٌ مما تُشركُون[1] » .

فإنه إنما قال : « أُشْهِدُ الله واشْهَدُوا » ولم يقُل : وأُشْهِدُكم ليكُونَ

---

(٢) سورة هود : الآيتان ٥٣ و ٥٤ .

موازناً له وبمعناه ، لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيحٌ ثابتٌ ، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاونٌ بهم ، ودلالةٌ على قِلةِ المبالاَة بأمرهم ، ولذلك عُدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ؛ وجيء به على لفظِ الأمرِ ؛ كما يقولُ الرجلُ لمن يَبِس الثّرى بينَه وبينه : « أشْهَدَ علَيّ أنى أحِبُّك » تهكُّماً به ، واستهانةً بحاله .

وكذلكَ يرجعُ عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر ، إلّا أنّه ليسَ كالأوّل ، بل إنما يُفْعل ذلك توكيداً لما أجْرِى عليه فعلُ الأمر ، لمكان العنايةِ بتحقيقه ، كقوله تعالى : « قُلْ أمَرَ رَبِّى بالقِسْطِ وأقِيموا وجوهكم عندَ كلّ مَسْجِدٍ وادْعوهُ مُخْلصينَ لهُ الدين .. » الآية (١)

وكان تقديرُ الكلامِ : أمَرَ رَبِّى بالقِسْط وبإقامة وُجوهكم عند كلِّ مسجد ، فعدِلَ عن ذلك إلى فِعْل الأمر ، للعناية بتوكيده فى نفوسهم ، فإنَّ الصلاة من أوْكد فرائض الله على عباده ، ثم أتْبعَها بالإخلاص الذى هو عمل القلْب ، إذْ عملُ الجوارح لا يصحُّ إلا بإخلاص النّية ، ولهذا قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنِّيّات » .

واعلمْ أيها المتوشحُ لمعرفةِ علم البيان أن العدول عن صيغةٍ من الألفاظ إلى صيغةٍ أخرى لا يكونُ إلا لنوع خصُوصيّة ، اقتضَتْ ذلك ، وهو لا يتوخّاه فى كلامِه إلا العارفُ برمُوزِ الفصاحةِ والبلاغة الذى اطَّلع على أسرارِها ، وفتَّش عن دَفائنِها . ولا تجدُ ذلك فى كلِّ كلامٍ ، فإنَّه من أشكلِ ضُروب علمِ البيان ، وأدقِّها فهماً ، وأغمضِها طريقاً .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٩ .

القسم الثالث : فى الاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضى :

فالأوَّل : الإخبار بالفعل المستقبَل عن الماضى :

اعلمْ أن الفعلَ المستقبلَ إذا أُتى به فى حالة الإخبارِ عن وجُود الفعلِ كان ذلك أبلغَ من الإخبار بالفعْل الماضى ، وذلك لأن الفعلَ المستقبلَ يوضِّح الحالَ التى يقعُ فيها ، ويستحضر تلك الصورةَ ، حتى كأنَّ السامعَ يشاهدُها ، وليسَ كذلك الفعلُ الماضِى ، وربَّما أُدخل فى هذا الموضعِ ماليسَ منه جهلًا بمكانِه ، فإنَّه ليس كل فعلٍ مستقبلٍ يُعطفُ على ماضٍ بِجارٍ هذا المجرى :

وسأبيِّن ذلك فأقول : عطفُ المستقبل على الماضى ينقسِمُ إلى ضربين :

أحدُهما بلاغىٌّ : وهو إخبار عن ماضٍ بمستقبل ، وهو الذى أنا بصَدد ذكره فى كتابى هذا الَّذى هو موضوعٌ لتفصيل ضُروبِ الفصَاحةِ والبلاغةِ .

والآخرُ : غيرُ بلاغىٍّ : وليس إخباراً بمستقبل عن ماضٍ ، وإنَّما هو مستقبلٌ دلَّ على معنى مستقبلٍ غيرِ ماضٍ ، ويرادُ به أن ذلك الفعلَ مستمرٌّ الوجُود لم يمضِ .

فالضَّربُ الأول كقوله تعالى : « واللهُ الذى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْناهُ إلى بَلَدٍ مَيتٍ فأَحْيَيْنا به الأَرْضَ بعد موتِها كذلكَ النُّشورُ »(١) .

فإنَّه إنَّما قال « فَتُثير » مستقبلًا ، وما قبله وما بعدهُ ماضٍ ، لذلك المعنى الذى أشرنا إليه ، وهو حكايةُ الحال التى يقعُ فيها إثارةُ الريح السحابَ واستحضار تلكَ الصورة البديعة الدالّة على القدرةِ الباهرة .

---

(١) سورة فاطر : الآية ٩ .

وهكذا يُفعل بكلِّ فعلٍ فيه نوع تمييزٍ وخصوصيّة كحالٍ تستغرب، أو تُهِمُّ المخاطب، أو غير ذلك.

وعلى هذا الأسلوب ماورد من حديث الزُّبَيْر بن العوَّام — رضى الله عنه — فى غزوةِ بدر، فانه قال: لقيتُ عبيدة بن سعيد بن العاص، وهو على فرسٍ، وعليه لأمةٌ[1] كاملة لا يُرَى منه إلا عَيْناه، وهو يقول: «أنا أبُو ذاتِ الكئوسِ، وفى يدى عَنَزَة[2] فأطعنُ بها فى عينه، فوقع، وأطأُ برجْلى على خدِّه، حتى خرجت العَنَزةُ متَعَقِّفَة[3]».

فقوله «فأطعنُ بها فى عينه، وأطأ برجلى» معدولٌ به عن لفظ الماضى إلى المستقبل، ليمثِّل للسامعِ الصورة التى فعل فيها ما فَعل من الإقدام والجراءة على قتلِ ذلك الفارس المُسْتَلْئِمْ.

ألا ترى أنه قال أولا: «لقيتُ عبيدَة» بلفظ الماضى، ثم قال بعد ذلك: «فأطعَنُ بها فى عينه» ولو عطفَ كلامه على أوَّله لقالَ: فطعنتُ بها فى عينه!

وعلى هذا وَرَد قول تأبَّطَ شَرًّا[4].

---

(١) اللأمة، وقد تخفف، الدرع »أو السلاح، أوأداة الحرب.

(٢) العنزة — بفتحتين — مثل نصف الرمح أو أكبر، وفيها سنان كسنان الرمح.

(٣) متعقفة ملوية.

(٤) اسمه ثابت، وكنيته أبو زهير، وهو من بنى فهم «وفهم وعدوان أخوان. وكان أحد العدائين، وإنما لقب «تأبط شرا» لأنه تأبط سكينا ذات يوم وخرج، فسئلت عنه أمه، فقالت: لاأدرى إنه تأبط شرا وخرج! والبيتان فى الأغانى (١٨ — ٢١٠) من جملة أبيات أولها: =

بِأَنِّى قدْ لقِيتُ الغُولَ تَهوِى ... بِسَهْبٍ كالصَّحِيفةِ صَحْصَحانِ (١)

فأَضْرِبها بِلَا دهَشٍ نَخرَّتْ ... صَرِيعاً لِلْيدَيْن وَللْجِرَانِ (٢)

فانّه قصدَ أن يصوّر لقومِه الحالَ التى تشجَّع فيها على ضرب الغُول، كأنه يبصّرهم إياها مشاهدةً، للتعجُّب من جراءته على ذلك الْهَولِ، ولو قال: «فضربتها» عطفًا على الأوّل، لزالتْ هذه الفائدة المذكورةُ.

فإنْ قيل: إنَّ الفعلَ الماضى أيضًا يتخيّل منه السامعُ ما يتخيَّله من المستَقْبل!

قلت فى الجوابِ: إنَّ التخيُّل يقع فى الفعْلين معًا، لكنَّه فى أحدهما وهو المستقبل أوكدا وأشدُّ تخيُّلاً؛ لأنه يستحْضِرُ صورةَ الفعل، حتى كأنَّ السامعَ ينظر إلى فاعلها فى حال وجودِ الفعلِ منه.

ألا ترى أنه لما قال تأبَّطَ شَرًّا «فأضرِبُها» تخيّل للسّامع أنه مباشرٌ للفعلِ، وأنه قائم بازاء الغُول، وقد رفع سيفه ليضربها، وهذا لا يوجد فى الفعلِ الماضِى، لأنه لا يتخيّل السامعُ منه إلا فعلا قد مَضى من غير إحضارٍ للصورة فى حالة سماعِ الكلام الدّال عليه، وهذا لاخلاف فيه.

وهكذا يجرى الحكم فى جميع الآيات المذكورة، وفى الأَثر عن الزبير رضى الله عنه، وفى الأَبيات الشِّعرية.

وعليه ورد قوله تعالى أيضًا وهو: «ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرماتِ الله فَهُوَ

= ألا من مبلغ فتيان فهم ... بمالاقيت عند رحى بطان

(١) فى الأصل «بشهب» وهو تصحيف، والسهب الأرض المستوية والصحصحان والصحصح الأرض المستوية الواسعة.

(٢) الجران، جران البعير، وكذا الفرس: مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره.

خَيْرٌ له عِنْدَ ربه وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعَام إلا ما يُتْلَى عليْكم فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأوْثانِ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ به وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فكأنَّمَا خَرَّ من السَّماء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوِى به الرِّيحُ فى مَكانٍ سحيقٍ »[1].

فقال أوّلا : « خَرَّ من السَّماء » بلفظِ الماضى ، ثم عطفَ عليه المستقبل الذى هو « فَتَخْطَفُهُ » و « تهوى » وإنما عدَل فى ذلكَ إلى المستقبل لاستحضارِ صورةِ خطفِ الطّير إياه وهُوِىّ الريح به . والفائدةُ فى ذلك ما أشرتُ إليه فيما تقدّم ، وكثيراً ما يراعى أمثالُ هذا فى القرآن .

* * *

وأما الضربُ الثانى — الذى هو مستقبل — فكقوله تعالى : « إنَّ الذين كَفَرُوا ويَصُدُّونَ عنْ سَبِيلِ الله »[2] .

فإنَّه إنَّما عطَف المستقبل على الماضِى ، لأن كُفْرَهم كان وَوُجد ، ولم يستجدُّوا بعده كفراً ثانياً ، وصدّهم متجددٌ على الأيامِ لم يَمْضِ كَونُهُ ، وإنما هو مستمرٌّ ، يُسْتَأْنفُ فى كل حينٍ .

وكذلكَ ورد قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَل من السّماء ماء فَتُصْبِح الأرضُ مُخْضَرَّةً إنّ الله لطيفٌ خبيرٌ »[3] .

أَلا تَرى كيفَ عدَل عن لفظِ الماضى هاهنا إلى المستقبل ، فقال « فتُصْبِحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً » ولم يقل : فأصْبَحت ، عطفاً على « أنْزَل » وذلكَ لإفادةِ

---

(١) سورة الحج : الآيتان ٣٠ و ٣١ .
(٢) سورة الحج : الآية ٢٥.
(٣) سورة الحج : الآية ٦٣ .

بتماء أثرِ المطر زمانًا بعد زمان ، فإنزال الماء مضى وجودُه ، واخضرارُ الأرضِ باقٍ لم يَمْضِ ، وهذا كما تقولُ « أنعَم عليَّ فلانٌ فأَروحُ وأغدوا شاكراً له » ، ولو قلتَ : فرحتُ وغَدوتُ شاكراً له ، لم يقعْ ذلك الموقع ، لأنّه يدلُّ على ماض قد كان وانقضى .

وهذا موضِـعٌ حسنٌ ينبغى أن يُتأمّل .

* * *

وأما الإخبارُ بالفعل المـاضى عن المستقبل فهو عكسُ ما تقدَّم ذكرُه ، وفائدتُه أن الفعلَ الماضى إذا أُخبر به عن الفعل المستقبل الذى لم يوجد بعدُ كان ذلك أبلغَ وأوكَدَ فى تحقيق الفعل وإيجاده ، لأنّ الفعلَ الماضى يُعطى من المعنى أنه قد كانَ وَوُجِد ، وإنما يُفْعل ذلك إذا كان الفعلُ للمستقبلُ من الأشياء العظيمة التى يُسْتَعْظم وجودها .

والفرقُ بينه وبين الأخبارِ بالفعل المستقبل عن المـاضى أن الغرضَ بذاكَ تَبْيين هيئة الفعل : واستحضار صُورته ، ليكونَ السامع كأنه يشاهدها ، والغَرضُ بهَذَا هو الدلالةُ على إيجادِ الفعلِ الذى لم يُوجَدْ بعدُ .

فمن أمثلة الأخبار بالفعلِ الماضى عن المستقبل قولُه تعالى : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فى السَّمٰوات ومن فى الأرض » [1] .

فإنه إنما قال « ففَزِع » بلفظِ الماضى بعد قوله « يُنفخ » —وهو مستقبل— للإشعار بتحقيقِ الفزع ، وأنه كائن لا محالَة ، لأنَّ الفعلَ الماضى يدلُّ على وجود الفعل ، وكونه مقطوعًا به .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٧ .

وكذلك جاء قوله تعالى : « ويوم نُسَيِّرُ الجبال وترى الأرضَ بارِزةً وحَشَرْناهم فلَمْ نغَادِر منهم أحداً »[1] .

وإنما قيل : « وحشرناهم » ماضياً بعد « نُسير » و « ترى » — وهما مستقبَلان — للدّلالة على أنّ حشرَهم قبل التسيير والبروز ، ليشاهدوا تلك الأحوالَ كأنّه قال : وحشرناهُم قبلَ ذلك ، لأن الحشر هو المهمُّ ، لأنّ من الناسِ من ينكرهُ كالفلاسفة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكرَ بلفظِ الماضِى .

ومما يجرى هذا المجرى الإخبارُ باسم المفعول عن الفعْل المستقبل ، وإنما يُفعل ذلك لتضمُّنه معنى الفعل الماضى ، وقد سبق الكلامُ عليه .

فمن ذلك قولُه تعالى : « إنَّ فى ذلك لآيةً لمنْ خافَ عَذابَ الآخرةِ ذلكَ يومٌ مَجْمُوعٌ له النَّاسُ وذلك يَوْمٌ مَشْهودٌ »[2] .

فإنه إنما آثر اسم المفعول الذى هو « مجموع » على الفعل المستقبل الذى هو « يجمع » لما فيه من الدلالة على ثباتِ معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوفُ بهذه الصِّفة ، وأن شئتَ فوازنْ بينَه وبين قوله تعالى « يومَ يَجْمَعُكُمْ ليَوْمِ الَجْمْعِ »[3] فإنَّك تعثُر على صحَّة ماقلتُ .

النــــوع الخامس
فى توكيد الضميرين

إنْ قيل فى هذا : الموضع إن الضمائر مذكورة فى كتُب النحو ، فأىُّ حاجة إلى ذكرِها هاهُنا ، ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ماذكرْته ؟

---

(١) سورة الكهف : الآية ٤٧ .
(٢) سورة هود الآية ١٠٣ .
(٣) سورة التغابن : الآية ٩ .

قلتُ : إن هذا يختصُّ بفصاحةٍ وبلاغةٍ ، وأُولئك لايتعرضُون إليه . وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأنّ المنفصل منه كذا ، والمتَّصل كذا ، ولا يتجاوزُون ذلك ، وأمّا أنا فإنى أوردت فى هذا النـوع أمراً خارجًا عن الأمر النحوىّ .

وأعنى بقولى « توكيد الضَّميرين » أن يؤكَّد المتَّصل بالمنفصل ، كقولك : « إنَّك أنت » أو يؤكّد المنفصِلُ بمنفصِلٍ مثلِه كقولك « أنتَ أنت » ، أو يؤكد المتصل بمتّصل مثله ، كقولك : « إنَّك إنَّك لعالم » أو « إنّك إنَّك لجواد » .

وإنما يؤتى بمثل هذه الأقوال فى معرض المبـالغة ، وهو من أسرار علم البيان .

ولنقدِّم فى ذلك قولًا يحصُرهُ ، ويجمع أطرافَه ، فنقُول :

إذا كان المعنى المقصُود معلومًا ثابتًا فى النفوس فأنت بالخيار فى توكيد أحد الضّميرين فيه بالآخر ، واذا كان غَير معلومٍ ، وهو مما يشكُّ فيه ، فالأوْلى حينئذ أن يؤكَّد أَحدُ الضميرين بالآخر فى الدلالة عليه ، لتقرِّره وتثبته .

فما جاء من ذلك قولُه تعالى : « قَالُوا يامُوسى إمّا أنْ تُلْقِيَ وإمّا أَنْ نَـكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِين » (١) .

فإنّ إرادة السَّحَرةِ الإلقاءَ قبل مُوسى لم تـكنْ معلومةً عنده ، لأنَّهم لم يصرِّحوا بما فى أنفسهم من ذلك : لـكنّهُمْ لمـا عدَلوا عن مقابلة خطابهم مُوسى بمثله إلى توكيد ما هُو لهم بالضميرين اللذين هما « نـكون » و « نحن » دلّ ذلك على أنَّهم يُريدون التقدُّم عليـه ، والإلقاء قبله . لأنَّ من شأن مقابلة

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١١٥.

خطابهم موسى بمثله أنْ كانوا قالوا : إمّا أنْ تُلقىَ وإمّا أنْ تُلقىَ ، لتكونَ الجملتان متقابلتين ، لحيثُ قالوا عن أنفُسِهم : « وإمَّا أنْ نَكُونَ نحْنُ المُلْقين» استدلّ بهذا القول على رغبتهم فى الإلقاء قبله .

توكيد المتصل بالمتصل :

وأما توكيدُ المتصل بالمتصل فكقوله تعالى فى سورةَ الكهف : « فَانْطَلَقا حَتى إذا لَقِيا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْراً * قالَ أَلمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لن تَسْتَطِيع مَعِى صَبْراً[1] » .

وهذا بخلاف قصة السفينة ، فإنّه قال فيها : « أَلَم أَقُل إِنَّكَ لن تَسْتَطِيع مَعِى صَبْراً[2] » .

والفَرق بين الصورتين أنّه أكّد الضمير فى الثانيةَ دون الأولى[3] ، فقال فى الأولى « ألم أقل إنك . . . » وقال فى الثانية : « ألم أقل لكَ إنّك » .

وإنما جِيء بذلك للزيادةِ فى مكافحةِ العتابِ على رَفْض الوصيَّة مرَّة على مرّة ، والوَسم بعدمِ الصَّبر .

وهذا كما لو أتى الإنسانُ مانهيتَه عنه ، فلُمْتَه وعنّفتَه ، ثم أتى ذلك مرّة ثانيةً ، أليسَ أنَّك تزيد فى لوْمِه وتعنيفِه ؟

وكذلك فعل هاهُنا ، فإنّه قيل فى الملامةِ أوّلاً : «ألمْ أقلْ إنّك» ثم قيل ثانيًا : « ألم أقلْ لكَ إنك » وهذا موضعٌ يدقّ عن العثور عليه ببادِرَة النظر، مالم يُعْطَ التأمُّلُ فيه حقّه .

---

(١) سورة الكهف : الآيتان ٧٤و٧٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٧٢ .

(٣) أى أكد الضمير فى قصة الغلام ولم يؤكده فى قصة السفينة التى هى الأولى فى الترتيب القرآنى .

توكيد المتصل بالمنفصل :

وأما توكيدُ المتَّصل بالمنفصلِ فنحو قوله تعالى : « فأَوْجَسَ فى نَفْسِه خِيفةً مُوسى * قلنا لاتَخَفْ إنك أنتَ الأعْلَى [1] » فتوكيدُ الضَّميرين هاهُنا فى قوله « إنكَ أنت الأعلى » أنـفَى للخوف من قلْب موسى وأثبتُ فى نفْسِه لِلغَلَبة والقهْر ، ولو قال : « لاتخفْ إنك الأعلى » أو « فأنت الأعلى » لم يكنْ له من التَّقرير والإثباتِ لنفى الخَوف ما لقوله : « إنَّـكَ أنتَ الأعلى » .

وفى هذهِ الـكلماتِ الثَّلاثِ ، وهى قوله : إنَّـكَ ، أنْتَ ، الأعلى ، سِتٌّ فوائد :

الأولى : « إنّ » المشدّدَة التى من شأنها الإثباتُ لما يأتى بعدَها ، كقولِكَ « زيد قائم » ، ثمَّ تقولُ : « إنّ زيداً قائم » ففى قولكَ : « إنّ زيداً قائمٌ » من الإثبات لقيامِ زيدٍ ماليسَ فى قولك : « زيدٌ قائمٌ » .

الثانية : تـكرير الضَّمير فى قوله « إنّـك أنْتَ » ولو اقتصر على أحد الضّميرين لمَا كانَ بهذه المـكانةِ فى التقرير لغَلبةِ موسى والإثبات لقهْره .

الثالثة : لامُ التَّعريف فى قوله « الأعلى » ولم يقلْ : « أَعلى » ولا «عالٍ» لأنه لو قال ذلك لـكَانَ قد نَـكَّرهُ ، وكان صالحًا لـكل واحدٍ من جِنْسهِ ، كقولِكَ : « رجل » فإنه يصلُح أنْ يقعَ على كلِّ واحدٍ من الرجال ، وإذا قلتَ « الرجل » فقد خصّصْتَه من بين الرجال بالتّعريف ، وجعلتَه علمًا فيهم وكذلِكَ جاء قولُه تعالى : « إنَّـكَ أنْتَ الأَعْلى » أىْ : دُونَ غَيْرِك .

الرابعة : لفظ « أَفعَل » الذى من شأنِه التفضيلُ ، ولم يقلْ « العالى » .

الخامسة . إثباتُ الغلبةِ لهُ من العلوّ ، لأنَّ الغرضَ من قوله : « الأعلى »

---

(١) سورة طه : الآيتان ٦٧ و٦٨ .

أى : الأغلب ، إلّا أنَّ فى الأعلى زيادةً ، وهى الغَلَبَةُ من عالٍ .

السادسة : الاستئنافُ ، وهو قوله تعالى : « لا تَخَفْ إنَّك أَنْتَ الأعلى » ولم يقل : « لأنك أنت الأعلى » لأنَّه لم يجعل علَّة انتفاء الخوفِ عنه كونَهُ عالياً ، وإنما نَفَى الخوفَ عنه أوَّلا بقوله : « لا تخفْ » ، ثم استأنفَ الكلامَ ، فقال : « إنَّك أنت الأعلى » فكان ذلك أبلغَ فى إيقانِ موسى عليه السّلام بالغلبَة والاستعلاء ، وأثبَت لذلك فى نفسه .

وربما وقع لبعض الأغمار أن يعترضَ على ماذكرناه فى توكيد أحدِ الضميرين بالآخر ، فيقول : لو كانَ توكيدُهما أبلغَ من الاقتصارِ على أحدِهما لورَدَ ذلك عند ذِكر الله تعالى نفسَهَ حيثُ هو أولى بما هو أبلغُ وأوكدُ من القول ، وقد رأينا فى القرآن الكريم مواضِعَ تختصُّ بذكر الله تعالى ، وقد وَرَد فيها أحد الضميرين دونَ الآخر كقوله عزّ اسمُهُ . « قل اللَّهُمَّ مالكَ المُلْكِ تؤتى المُلْكَ من تَشَاء وتنزعُ المُلْكَ ممّنْ تشاء وتعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تَشاء بيَدِكَ الخيرُ إنّك على كلِّ شيء قدير[1] » ولم يقلْ : إنَّك أنتَ على كلِّ شيء قدير ، فما الموجِب لذلك إن كان توكيدُ أحد الضميرين بالآخر أبلغَ من الاقتصارِ على أحدهما ! ؟

الجوابُ على ذلك أنَّا نقول : قدْ قدَّمْنا القولَ فى أوَّل هذا النوع أنَّه إذا كانَ المعنى المقصُود معلوماً ثابتاً فصاحبُ الكلام مُخَيَّرٌ فى توكيد أحدِ الضَّميرين بالآخر ، فإنْ أكَّدَ فقد أتى بفضل بيانٍ ، وإنْ لم يؤكِّد فلأنَّ ذلك المعنى ثابتٌ لايفتقرُ فى تقريره إلى زيادةِ تأكيد كهذه الآية المشار إليها ، وهى قوله تعالى : « قل اللَّهُمَّ مالكَ المُلْكِ » فإنَّ العِلْم بأنَّ الله على كلِّ شيء قدير لا يفتقرُ إلى تأكيدٍ يقرِّره .

(١) سورة ال عمران : الآية ٢٦ .

وقد ورد ما يجري مجرى هذه الآية مؤكداً كقوله تعالى: « وإذْ قال الله ياعيسى بنَ مَرْيَمَ أأنْتَ قلْتَ للنَّاسِ اتخِذُونى وَأُمّىَ إلٰهيْن من دُونِ الله قالَ سُبْحَانَك ما يكونُ لى أنْ أقولَ ما ليْسَ لى بحَقٍّ إنْ كنتُ قلتُهُ فقَدْ عَلِمْتَه تعْلَمُ ما فى نَفْسى ولا أعْلَمُ مافى نَفْسِك إنّك أنْتَ عَلّامُ الغيوب [1] ».

فأكّد فى هذهِ الآية وَلَمْ يؤكّد فى الأخرى، وقد عرّفتك الطريق فى ذلك.

وأمَّا إذا كان المعنى المقصودُ غير معلومٍ، وهو ممّا يُشَكُّ فيه، فالأوْلى أن يؤكّد بالضميرين فى الدّلالة عليه، كقوله تعالى: « قلْنَا لا تخَفْ إنك أنْتَ الأعلى » فإنّ مُوسى لم يكن مُتَيَقنًا أنه غالبٌ للسحَرة، فلذلك أكّد خطابه بالضميريْن، ليكونَ أبلغَ فى تقرير ذلك فى نفْسه.

توكيد المنفصل بمنفصل:

وأما توكيدُ المنفصِل بمنفصلٍ مثله؛ فكقول أبى تمام [2]:

لا أنْتَ أنتَ ولا الدِّيارُ ديارُ   خَفَّ الْهَوَى وتَوَلَّت الأوطَارُ

فقوله: « لا أنتَ أنتَ ولا الدّيارُ ديارُ » من المليح النَّادِر فى هذا الموضع، لأنه هُو هُو والديار الديار، وإنما البواعث التى كانت تبعثُ على قضاء الأوطار زالتْ فبَقِيَ ذلك الرجلُ وليس هُوَ هو على الحقيقة، ولا الديارُ فى عينه من الْحُسْن تلك الديار.

---

(1) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(2) ديوان أبى تمام ١٤٤ وهذا البيت مطلع قصيدة فى مدح أبى سعيد الثغرى.

وعلى هذا ورد قول أبى الطيِّب المتنبِّى[1] :

قبيلٌ أنتَ أنتَ وأنتَ منهُمْ وَجَدُّكَ بِشْرٌ الْمَلِكُ الهمامُ

فقوله « أنت أنت » من توكيد الضميرين المشار إليهما ، وفائدته المبالغَة فى مدحِه ، ولو مَدَحَه بما شاء الله لما سدَّ مسدَّ قوله : « أنت أنت » أى : أنك المشار إليه بالفضل دونَ غيرك .

وأمَّا قوله « وأنتَ منهم » فخارجٌ عن هذا الباب ، وهو كلامٌ مستأنف لا يتعلَّق بتوكيد الضميرينْ ، كأنه قال : أنتَ الموصوفُ بكذا وكذا ، وأنتَ من هذا القبيلِ ، يريد بذلك مدح قبيله به .

وهذا البيتُ لم أُمثِّل به اختياراً لهُ واستجادةً ، وإنما مثّلت به ليُعْلَم مكانُ توكيدِ المنفصِل بالمنفصِل ، وإلاَّ فالبيتُ ليسَ من الْمَرْضِيِّ ، لأنَّ سَبْـكه سبكٌ عارٍ من الحسْنِ ، وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ .

وقرأتُ فى كتابِ (الأغانى) لأبى الْفَرجِ أنّ عَمْرو بنَ رَبيعة قال لزِيَادِ ابن الهَبُولة[2] : « يا خَيْرَ الْفِتيَان ، اردُدْ علىَّ ما أخذتَه من إبلى » فردَّها عليه ، وفيها فَحْلُها ، فنازَعه الفحلُ إلى الإبل ، فصَرَعة عَمْرو ، فقالَ له زياد : « لو صَرَعْتُمْ يابنى شَيْبان الرِّجالَ كما تصرعُون الإبل لـكُنتُم أنتُم أنتُم » فقالَ عمرو له : « لقد أعطيتَ قليلًا ، وسُمْت جَايِلا ، وجرْتَ على نَفسِك وَيلاً طَويلًا » فقوله له : « لـكنتُم أنتُم أنتُم » أى : أنتم الأشدَّاء ، أو الشجعَان ،

---

(١) ديوان المتنبى ٤ - ٧٩ من قصيدة يمدح فيها المغيث بن على العجلى ، مطلعها :

فؤاد ماتسليه المدام وعمر مثل ماتهب اللئام

(٢) فى القاموس المحيط (٤ - ٦٧) أن ابن هبولة ، أو الهبولة ، أوالهبول : ملك من ملوكهم .

أو ذَوُو النجدة والبأس، أو ما جَرى هذا المجرى ؛ إلا أنَّ فى « أنتم » الثانية تخصيصًا لهم بهذه الصفة دونَ غيرهم ، كأنه قال : لـكنتُم أنتم الشُّجعان دون غيركم، ولو مدحَهُم بأىّ شيء مدحهم من وصْفِ البأس والشّدة والشَّجاعة لما بلغَ هذه الـكلمةَ، أعنى « أنتم » الثانية .

وهذا موضعٌ من علم البيانِ تتـكاثرُ محاسِنه، فأعْرِفْه .

النـــــــــوع السادس

فى عطف المظهر على ضميره والافصاح به بعدة

وهذا إنما يُعْمَد إليه لفائدةٍ، وهى تعظيمُ شأنِ الأمر الذى أَظهرَ عنده الإسم المضْمَر أوَّلا .

ومثالُ ذلك قولُ القائل : «ولمَّا تلاَقَيْنَا وبنو تميم أَقبلوا نحْوَنا يركُضون، فرأينَا منهم أسوداً شـكلاً تسابقُ الأسِنّة إلى الوُرُود ، ولا ترتدُّ على أعقابها إذا ارتدَّتْ أمثالها من الأسودِ ، وتناَجَدَ بنو تميمٍ علينا بحمْلةٍ، فلذنا بالفرار ، واستبقنا إلى تولية الأدبار » فإنه إنما قيل : « وتناجد بنو تميم » مصرَّحًا باسمِهم ، ولم يَقلْ « وتناجدُوا » كما قِيـل « أقْبَـلُوا » للدُّلالة على التعجُّب من إقدامهم عند الحملة ، وثباتهم عند الصَّدْمة ، لاسيَّما وقد أُردَفَ ذلك بقوله « لذْنا بالفرار ، واستبقْنَا إلى توليـة الأدبار » كأنه قال : وتناجَد أُولئك الفرسانُ المشاهير، والـكُماةُ المناكير ، وحملوا علينا حملةً واحدة ، فولَّيْنا مُدبرين منهزمين » .

ومما جاء من ذلك قوله تعالى : « أوَ لَمْ يرَوْا كيفَ يبْدىء اللهُ الخلْقَ ثمّ يعِيدهُ إنّ ذلك على اللهِ يسير * قل سِيروا فى الأرضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدأَ

الْخَلقَ ثمّ اللهُ يُنْشِىء النشْأَةَ الآخِرةَ[1] » ألا ترى كيف صرّح باسمه تعالى فى قوله : « ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » مع إيقاعِه مبتدأ فى قوله : « كيف يبْدِىء الله الخَلْق » وقد كانَ القياسُ أن يقول : كيف يبْدىء الله الخلقَ ثم ينشِىء النشْأةَ الآخِرَة .

والفائدة فى ذلكَ أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمُور العظيمةِ ، وكان صَدرُ الكلام واقعًا مَعَهُم فى الإبداء ، وقرّرهم أنّ ذلك من الله ، احتجّ عليهم بأنّ الإعادةَ إنشاء مثلُ الإبداء ، وإذا كان الله الذى لا يُعْجِزُه شىء هو الذى لايعجزُه الإبداء ، فوجَبَ أن لاتُعجِزَه الإعادة ، فللدلالة والتنبيه على عظَم هذا الأمر الذى هو الإعادةُ أبرَزَ اسمه تعالى ، وَأَوقَعَهُ مبتداً ثانيًا .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : « ويَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُم فَلَم تغْنِ عَنكُم شَيْئًا وضاقَتْ عليكُم الأرضُ بمَا رَحُبَت ثُمَّ وليّتُمْ مُدْبرين * ثمَّ أنزلَ الله سَكِينَتَهَ على رَسوله وعلى الْمُؤْمنينَ وأنْزلَ جنوداً لَمْ تَرَوْها وعَذَّبَ الذين كفَرُوا وذٰلِكَ جزاء الْكَافرين[2] » .

ألا ترَى أنَّه قالَ أوّلا : « وَيومَ حُنَيْنٍ إذ أعجبتكم كَثرَتكُم » فذكر مضمراً تقدَّم الكلامُ فيه ، ثم عطَفَ المظهرَ الذى هوله ، وهو قوله « ثم أنزل الله سكينتَهُ على رسوله وعلى المؤمنين » وكان العطف لو أضمر كما أضْمِرَ الأول لقيل : ثم أنزل الله سكينتَه عليكم وأنزل جنوداً لم تروْها ؟

وفائدةُ الإظهارِ هاهنا للمعطوف بعد إضماره أولا التّنْويهُ بذكر رسُول الله

---

(١) سورة العنكبوت : الآيتان ١٩ و٢٠ .

(٢) سورة التوبة : الآيتان ٢٥ و٢٦ .

صلى الله عليه وسلم ، وذكر المؤمنين ، أو لأنَّ الأمر عظيم ، وهو الانتصارُ بعد الفِرار ، فأيّ الأمرين قدّر كان لإظهارِ المعطوف مناسبًا .

وهكذا يكون عطفُ المظْهَر على ضَميره ، فإنه يستندُ إلى فائدةٍ يهمُّ ذكرها فإنْ يكنْ هناكَ [1] مثلُ هـذه الفائدةِ وإلا فلا يحسُنُ الإظهار بعدَ الإضمار .

وكـذلك جاء قوله تعالى : « إذا تتْلَى عَليهمْ آياتنا بيِّناتٍ قالوا ما هٰذا إلا رَجُلٌ يريدُ أَنْ يَصُدَّكم عمَّا كان يَعْبُدُ آباؤكم وقالوا ماهٰذا إلا إفْكٌ مُفترًى وقال الذين كـفَروا للْحَقِّ لمَّا جاءهم إنْ هٰذا إلا سِحرٌ مُبين [2] » فإنَّه إنما قال : « وقال الذينَ كـفَروا » ولم يقل : وقالوا كالذى قبله للدلالة على صُدور ذلك عن إنْـكارٍ عظيم ، وغضبٍ شديد ، وتعجُّبٍ من كـفرهم بليغ ، لاسيّما وقد انْضَاف إليه قوله : « وَقَال الّذين كـفَروا لِلْحَقِّ لمَّا جاءهم » وما فيه من الإشارة إلى القائلين والمقُول فيه ، وما فى ذلك من المبادَهة ، كـأنَّه قال : وقال أُولئك الـكفَرة المتمرِّدون بجراءتهم على الله ومكابَرتهم لمثل ذلك الحقِّ المبين قبلَ أن يتدبَّرُوه : إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ مبين .

وعلى نحوٍ من ذلِكَ وردَ قوله تعالى : « صٓ * وَالْقُرآنِ ذى الذِّكْر بل الذين كـفَرُوا فى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَـكنا من قَبْلِهم من قَرنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناص » وَعَجبُوا أنْ جَاءَهُم مُنذِرٌ مِنْهمُ وقالَ الـكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كـذَّاب [3] » .

---

(١) فى الأصل « فإن لم يكن هناك » وسياق المعنى يقتضى حذف « لم » والتقدير : إن يكن هناك مثل هذه الفائدة حسن الإظهار ، وإلا فلا يحسن الإظهار .

(٢) سورة سبأ الآية ٤٣ .

(٣) سورة ص : الأيات ١ و٢ و ٣ و ٤ .

وكان القياسُ أن يُقال : وقالوا هذا ساحر كذّاب ، عطفًا على «عَجِبوا» وإنما أتى باسمِ الكافرينَ -- مظهراً بعد إضمار — للأشعار بتعظيم ما اجترءوا عليه من القول فى أمر النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، أو لأنَّ هذا القول كان أهمَّ عندهم وأرْسَخَ فى نفوسهم ، فصرَّح باسم قائله ، دلالةً على ما كان فى أنفُسِهم منه .

النـــوع السابع
فى التفسير بعد الابهام

اعلم أنَّ هذا النوع لا يعمدُ إلى استعماله إلا لضَربٍ من المبالغة ، فإذا جِيءَ به فى كلامٍ فإنما يُفعل ذلك لتفخيم أمر المبهَم وإعظامه ، لأنه هو الذى يطرُقُ السمع أولًا . فيذهبُ بالسَّامع كلَّ مذهب ، كقوله تعالى : «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمرَ أَنَّ دابِرَ هٰؤلاء مَقْطُوعٌ مُصبِحِين[1] » .

ففسّر ذلك الأمرَ بقوله « أَنَّ دابِرَ هٰؤلاء مَقطوعٌ » وفى إبهامه أوّلا وتفسيره بعد ذلك تنخيمٌ للأمر ، وتعظيمٌ لشأنه ، فإنَّه لو قال : وقضيْنا إليه أنَّ دابر هؤلاء مقطوعٌ ، لما كانَ بهذه المكانةِ من الفخامة ، فإنَّ الإبهامَ أوّلا يوقعُ السَّامع فى حَيرةٍ وتفكُّر ، واستعظام لما قرع سمعَه ، وتشوُّفٍ إلى معرفته ، والاطّلاع على كنهه .

وعلى نحوٍ من هذا جاء قوله تعالى : « قال قدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا موسى * ولقدْ مَنَنَّا عليكَ مرّةً أُخرى * إذْ أَوْحينَا الى أُمِّك مايُوحَى . أَنِ اقذِفيهِ فى التّابُوتِ فَاقذِفيه فى الْيَمِّ[2] » .

---

(١) سورة الحجر الآية ٦٦ .

(٢) سورة طه : الآيات ٣٦ و٣٧ و ٣٨ و٣٩ .

ففسّر « مايوحى » بقوله « أن اقذفيه » وهذا كالأول فى إبهامه أوّلا وتفسيره ثانيًا .

ومثلُ هذا وَرَدَ قوله تعالى فى سورة أُم الكتاب : « اهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم . صِرَاطَ الّذين أنعَمتَ علَيهم » فإنه إنما قال ذلك ولَمْ يقُل : اهدِنا صِرَاطَ الّذين أنعمتَ عليهم لِمَا فى الأوّل من التَّنبيه والإشعَار بأن الصِّراط المستقيم هو صراطُ المؤمنين ، فدلّ عليه بأبلغِ وجهٍ ، كما تقولُ : هل أُدلُّك على أكرم النَّاس وأفضلِهم ؟ ثم تقول : فلانٌ ، فيكونُ ذلك أبلغَ فى وصفه بالكرم والفضل من قولك : هل أُدلُّك على فلانٍ الأكرمِ الأفضل ؟ لأنَّك تثبتُ ذكرهُ مُجملًا ومفصلًا ، فجعلتَه عَلَمًا فى الكرم والفضل ، كأنَّك قلتَ : مَن أراد رجُلا جامعًا للخَصلتين جميعًا فعليه بفلان !

فإن قيل : فما الفرقُ بين عطفِ المظهرِ على ضميرهِ وبين التفسير بعد الإبهام فإنَّ المضمرَ كالمبهم ؟

فالجوابُ عن ذلكَ أنى أقول :

إن كانَ سؤالُك عن فائدتِهما فإنّهما فى الفائدة سواء ، وذلك أنهما إنما يُرادَان لتعظيم الحال ، والإعلام بفخامةِ شأنِها .

وإن كان سُؤالك عن الفرقِ بينهما فى العبَارة ، فإنى أقولُ .

المضمر يأتى بعدَ مظهرٍ تقدّم ذكره أوّلا ، ثم يُعطَف المظهر على ضميره ، أى ضمير نفسِه ، كالمثال الذى ضربنَاه فى بنى تميم .

وأما التفسيرُ بعد الإبهام فإنّ المبهَم يقدَّم أولًا ، وهو أن يذكر شيء يقعُ عليه محتملاتٌ كثيرة ، ثم يفسّر بإيقاعِه على واحدٍ منها ، وليس كذلك عطفُ المظهرِ على ضميره .

وممَّا جاء من التفسير بعد الإبهام قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِى أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَاقَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وإِنَّ الآخِرَةَ هِى دَارُ القَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ومَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ[1] » .

ألا ترى كيفَ قال : « أهدكم سبيلَ الرَّشاد » فأبهمَ سبيلَ الرَّشاد ، ولم يبيِّن أىَّ سبيلٍ هو ، ثم فسَّر ذلك فافتتح كلامَهُ بذمِّ الدنيا ، وتصغيرِ شأنها ، ثم ثنَّى ذلك بتعظيمِ الآخرة والاطِّلاع على حقيقتها ، ثم ثلث بذكر الأعمال سيِّئِها وحسَنِها ، وعاقبةِ كلٍّ منهما ، ليُثَبِّط عما يُتْلف ، ويُنشِّط لما يُزْلف ، كأنَّه قال : سبيلُ الرشادِ هو الإعراضُ عن الدُّنيا ، والرغبةُ فى الآخرة ، والامتناعُ عن الأعمال السيئة ، خوفَ المقابلةِ عليها ، والمسارعةُ الى الأعمال الصالحةِ ، رجاء المجازاةِ عليها .

وكذلك ورد قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإِسْمَاعِيلُ[2] » .

فإنَّه إنما قال « القواعد من البيت » ولم يقلْ « قواعد البيت » لما فى إبهام القواعد أوّلا وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حالِ المبيَّن ما ليس فى الإضافة .

وممَّا يجرى هذا المجرى قوله تعالى : « وقَالَ فِرْعَونُ يا هَامَانُ ابْنِ لى صَرْحًا لعَلِّى أَبْلغُ الأسْبَابَ . أَسْبَابَ السمٰوات فأطَّلِعَ إلى إلٰهِ مُوسَى[3] » .

(١) سورة المؤمن : الآيات ٣٨ ، ٣٩ و ٤٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٧ .

(٣) سورة المؤمن : الآيتان ٣٦ و ٣٧ .

فإنه لما أرادَ تفخيمَ ما أمّل فرعونُ من بلوغه أسبابَ السموات أبهمَها أوّلا ، ثمّ فسّرها ثانيًا ، ولأنه لما كان بلوغُها أمراً عجيبًا أرادَ أن يُورِدَه على نفس متشوِّقةٍ إليه ، ليعطيه السامعُ حقَّه من التعجُّب ، فأبْهمه ليشوِّف إليه نفسَ هامَان ، ثم أوضَحه بعد ذلك .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى : « قلْ إنما أعِظُكمْ بواحِدَةٍ أنْ تقومُوا لله مَثْنى وفُرادَى ثمّ تتفكّرُوا ما بِصاحِبِكم من جِنَّةٍ إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بَيْنَ يدَىْ عذابٍ شديد » (١) .

فإنه قال أولًا : « أعظكم بواحدة » فأبهمَ الواحدة ، ثمَّ فسرها بقوله : « أن تقومُوا لله مثْنى وفرادى ، ثمّ تتفكروا (٢) » .

وهذا فى القرآن الكريم كثير الاستعمال :

وأمَّا الإبهامُ من غير تفسيرٍ فكثيرٌ شائع فى القرآن الكريم أيضاً ، كقوله تعالى : « وفَعلْتَ فعلَتكَ الَّتى فعلْتَ » (٣) .

وكذلك ورد قوله تعالى : « إنَّ هٰذا الْقرآنَ يَهْدِى لِلَّتى هى أَقْوَمُ » (٤) أىْ للطَّريقة ، أو الحالة ، أو المِلّةِ الّتى هى أقومُها وأسَدُّها ، وأىّ ذلك قدّرت لم تجدْ له مَعَ الإفصاح ذَوْقَ البلاغة الذى تجدُه مع الإبهام ، وذلك لذهابِ الوهم فيه كلَّ مذهبٍ ، وإيقاعه على محتملاتٍ كثيرة .

وهذا كقولِ القائل : (لوْ رأيْتَ عَليًّا بين الصَّفّين) فإنه لو وصَفه مهما

---

(١) سورة سبأ : الآية ٤٦ .

(٢) فى الأصل « وأن » موضع « ثم » .

(٣) سورة الشعراء : الآية ١٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٩ .

وصَف من نَجْدَةٍ وشجاعةٍ وثباتٍ وإقدام وأطال القولَ فى ذلكَ لم يكن بمثابة ما يترامَى إليه الوهمُ معَ الإبهام ، وهذا للعارف برُموز هذه الصِّناعة وأسْرارها .

وعلى هذا الأسلوبِ ورد قوله تعالى :(فغَشِيَهُمْ من الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ)(١)

وأبْلغُ من ذلك قوله تعالى : (والْمؤْتفِكةَ أهْوى . فغَشَّاها ماغَشَّى)(٢)

فإنه قال فى تلك الآية : (فغَشِيَهُم من اليمّ ماغَشِيَهم) فذكر (اليم) وهو البحر ، فصار الذى غشيهم إنما هو منه خاصَّة ، وقال فى هذه الآية : (فغشَّاها ماغشَّى) فأبْهمَ الأمر الذى غشَّاها به ، وجعله عاماً ، وذلك أبلغُ ؛ لأنَّ السامعَ يذهبُ وَهْمه فيهِ كلَّ مذهب .

وأمّا ماجاء من ذلك شعراً فكقولِ البحترىِّ(٣) :

بَعيدُ مَقيلِ الصَّدْرِ لايَقْبَلُ التى ... يُحَاوِلهَا مِنْهُ الأريبُ الْمُخَادِعُ(٤)

فقوله (التى يحاولها) من الإبهام المقدَّم ذكرهُ فى الآية .

وممّا ينتظمُ بذلك قولُ الشاعرُ فى أبيَاتِ الحماسة(٥) :

---

(١) سورة طه : الآية ٧٨ .

(٢) سورة النجم : الآيتان ٥٣ و ٥٤ .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ٤٦ من قصيدة له فى مدح الفتح بن خاقان ، مطلعها :

ألمت وهل إلمامها لك نافع ... وزارت خيالا والعيون هواجع

(٤) رواية الديوان لصدر البيت هكذا

* مبيد مقيل السر لا يدرك الذى *

(٥) هو دريد بن الصمة ، من قصيدة قالها فى رثاء أخيه عبد الله بن الصمة » وأول المذكور منها فى ديوان الحماسة ١ — ٣٤٢ :

نصحت لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بنى السوداء والقوم شهدى

صَبَا ما صَبا حتى عَلَا الشَّيْبُ رأْسَهُ
فلمّا عَلَاهُ قال لِلْبَـــاطِل ابْعَدِ[1]

فقوله : (صَبَا ماصبا) من الإبهام الذى لو قدّرْتَ ما قدّرتَ فى تفسيره لم تجدْ له من فضيلةِ البيان ما تجدُ له مع الإبهام .

وعليه ورد قولُ أبى نواس :

ولقد نهزْتُ مع الْغُواةِ بِدَلْوِهم
وأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّحْظ حِينَ أَسَامُوا
وَبَلَغتُ مابَلَغَ امْرُؤٌ بشَبَابهِ فإذا عُصارَةُ كلِّ ذَاكَ أَثَام

فقوله : (وبلغتُ ما بلغ امرؤٌ بشبابه) من هذا النَّمط المشار إليه ، وهو من المليح النادر .

ومما يجرى على هذا النَّهْج قولُ الآخر فى وصف الخمر :

مَضى بها مامَضى من عَقْل شَاربِهَا
وفى الزُّجاجَةِ باقٍ يطلبُ الْباقى

والـكلامُ على هذا البيتِ كالـكلام على البيت الذى قبله .

ومثله ورد قولُ بعض المتأخرين : (فؤاد فيه مافيهِ) .

وعلى هذا ورَدَ قولى فى فصْل من تقليدٍ لبعض الوزَراء ، فقلت :

(وأنت مُؤَهَّل لواحدةٍ متخلّق لها غُرَر الجياد ، وتنَاديها العلْياء بلسانٍ

---

(١) صبا الأول من الميل ، والثانى من الصباء ، وهو حداثة السن . والمعنى أنه مال إلى اللهو مدة صغر سنه ، فلما شاب ترك الملاهى . هكذا شرحه التبريزى (١/ ٣٤٥) من ديوان الحماسة .

الإحماد، وتفخرُ بها سُمر الأقلام على سُمْر الصِّعاد، فأبْسُط يدكَ لأخذ كتابها، واسمعْ لطيِّب ذكرها بعد سَعْيِكَ في طِلَابها، واعلمْ أنَّ الخُطَّاب إليها كثير لكنَّها صدَّتْ بك عن خُطَّابها، ولقد مضَى عليها زمنٌ وهي نَفُورٌ، حتى استقادها الآنَ تأنيسُك، ولم تَسْبِق الأقدارُ باسمِكَ إلا لتكونَ سُلَيْمانَها وهي بَلْقِيسُك).

وهذا الوزيرُ كان اسمُه (سليمان). فسُقْتُ المعنى إليه فجاءَ كما تراهُ من الحسْنِ واللَّطافة.

وأمّا قولي (وأنتَ مُؤهّل لواحدة) فانه من الإبهام من غير تفسيرٍ، وذلك بخلافِ ما وَرد في الآيةِ المقدّمِ ذكرها؛ لأنَّ تلك من التفسير بعد الإبهام.

ومما ينتظمُ في هذا السِّلك (الاسْتِثْناء العدَديّ) وهو ضربٌ من المبالَغةِ، لطيفُ المأخَذ، وفائدتُه أنّ أوّلَ مايطرق سمعَ المخاطبِ ذكرُ العَقْدِ من العَدد فيكثر موقعُ ذلك عنده، وهو شبيهٌ بما ذكرناه من الإبهام أوّلا، ثم التفسير بعدَه ثانياً، وذلك كقول القائل: أعطيتُه مائةً إلا عشرةً، أو أعطيتُه ألفاً إلا مائةً، فإنَّ ذلك أبلغُ من أنْ لو قال: أعطيتُه تسعين، أو تسعمائة.

وعليه وردَ قوله تعالى: (ولقَدْ أرْسَلْنا نوحًا إلى قوْمِه فَلَبِثَ فيهِمْ ألْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسين عامًا)[1] ولمْ يَقلْ: تسعمائةٍ وخمسين عامًا، لفائدةٍ حَسَنةٍ، وهي ذكرُ ما ابْتُلِيَ به نوحٌ من أمَّته، وما كابدَه من طول المصابرةِ، ليكونَ ذلك تسليةً لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من أمَّته وتثبيتا له، فإنّ ذكرَ رأس العَدد الذى هو منتهى العُقود وأعظمُها أوقعُ وأوْصَلُ إلى الغَرض من استطالةِ السَّامع مدّة صبره، وما لاقاهُ من قوْمه.

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ١٤

النــــوع الثامن

فى استعمال العام فى النفى والخاص فى الاثبات

أعلمْ أنَّه إذا كان الشيئان أحدُهما خاصًا والآخر عامًّا فإن استعمالَ العامِّ فى حالةِ النفى أبلغُ من استعمالهِ فى حالةِ الإثباتِ ، وكذلك استعمالُ الخاصِّ فى حالةِ الإثبات أبلغُ من استعمالهِ فى حالة النفى .

ومثالُ ذلك الإنسانيّة والحيوانيّة ، فإنّ إثبات الإنسانيَّة يوجبُ إثباتَ الحيوانية ، ولا يوجبُ نفيُها نفى الحيوانيَّة ، وكذلك نفى الحيوانيّة يوجبُ فى الإنسانيّة ، ولا يوجبُ إثباتُها إثباتَ الإنسانيّة .

ومما ينتظمُ بذلك الأسماءُ المفردَةُ الواقعةُ على الجنس التى يكونُ بينَها وبينَ واحدِها تاءُ التأنيث ، فإنّه متى أُريدَ النفى كان استعمالُ واحدِها أبلغَ ، ومتَى أُريدَ الإثباتُ كان استعمالُها أبلغ .

وكذلك يتّصل بهذا النوعِ الصّفَتَان الواردتَان على شيءٍ واحدٍ ، فإنّه إذا لَزِمَ من وجود إحداهما وجُود الأخرى اكتُفى بها فى الذكر ، ولم يُحْتَج الى ذكر الأخرى ، لأنها تجىء ضِمْنًا وتبعًا ، أو أنْ يبْدأ بها فى الذكر أوّلا ، ثم تجىء الأخْرى بعدها .

وأما الصّفاتُ المتعدّدة فإنه ينبغى أن يبْدأ فى الذكر بالأدنى مرتَبَةً ، ثمَّ بعدَها بما هو أعلى منها ، إلى أن يُنْتَهَى إلى آخرها .

هذا فى مقامِ المدح ، فإنْ كان فى مقامِ الذمّ عُكِسَتْ القضيةُ .

فالأوّلُ — وهو الخاصُّ والعام — نحو قوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنُورِهم) (١) ولم يقلْ : ذهب

(١) سورة البقرة : الآية ١٧ .

بضوئهم ، موازنًا لقوله (فلما أضاءتْ) لأنّ ذكر النُّور فى حالةِ النّفى أبلغُ ، من حيث أن الضوءَ فيه الدلالةُ على النُّور وزيادة ، فلو قال :ذهب اللهُ بضوئهمْ لـكان المعنى يعطى ذهابَ تلك الزيادة ، وبقاءَ مايسمَّى نوراً ، لأن الإضاءة هى فرطُ الإنارة ، قال اللهُ تعالى (هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نوراً)[1] فـكلُّ ضوءٍ نور ، وليس كلُّ نورٍ ضوءًا .

فالغرضُ من قوله تعالى (ذهبَ الله بنورهم) إنما هو إزالةُ النّور عنْهم أصلًا ، فهو إذا أزاله فقد أزالَ الضّوء .

وكذلك أيضاً قوله تعالى (ذهب الله بنورهم) ولم يقلْ (أذهبَ نورهم) لأنَّ كلَّ من ذهب بشيء فقد أذهبه ، وليس كلُّ من أذهبَ شيئاً فقد ذهب به ، لأنَّ الذهابَ بالشيء هو استصحابٌ له ومُضِىٌّ به ، وفى ذلك نوعُ اخْتِجَارِ بالمذهوب به ، وإمساكٌ له عن الرُّجوعِ إلى حالتهِ ، والعودِ إلى مكانهِ ، وليسَ كذلكَ الإذهاب للشيء لزوالِ مَعْنَى الاختجار عنه .

ومما يُحْمَلُ على ذلك الأوصافُ الخاصَّة إذا وقعتْ على شَيْئَيْن ، وكان يَلزَمُ من وصفِ أحدِها وَصْفُ الآخر ، ولا يلزمُ عكسُ ذلك . ومثالُ قوله تعالى : « وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ »[2] . فإنَّه إنما خصَّ العَرْضَ بالذِّكرِ ، دون الطُّول ، للمعنى الذى أشرْنا إليه ، والمرادُ بذلك أنّه إذا كانَ هذا عَرْضها فكيف يكونُ طولها ؟

وهذا فى حالةِ الإثباتِ ، ولو أُريد النّفىُ لـكان له أسلوبٌ غير ماذكرناه ؛ وهو أنّه كان يخصُّ به الطولَ دون العَرْض .

* * *

---

(١) سورة يونس : الآية ٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

وأما الأسماءُ المفردةُ الواقعةُ على الجنسِ فنحو قوله تعالى فى قصَّةِ نوح عليه السلام : (قالَ المَلأُ من قومِه إنَّا نَرَاكَ فى ضلالٍ مبين . قال ياقومِ ليْسَ بى ضلالةٌ ولكنّى رَسولٌ من ربِّ العَالمين)[1] :

فإنَّه إنما قال (ليس بى ضَلالة) ولم يقلْ : ليس بى ضلالٌ ، كما قَالوا ، لأنَّ نفى الضَّلالة أبلغُ من نفى الضَّلال عنه ، كما لو قيل : أَلَكَ تمْر ؟ فقُلتُ فى الجواب : مالى تمْرة ، وذلك أنفى للتّمر ، ولو قلت (مالى تمْر) لما كانَ يؤدِّى من المعنى ما أدَّاهُ القول الأوّل .

وفى هذا الموضع دقَّة تحتاجُ إلى فضل تمام ، فينبغِى لصاحبِ هذه الصِّناعة مراعاته ، والعناية به .

فإن قيل : لا فرق بين الضلالةِ والضلال ، وكلاهما مصدرُ قولنا ضَلَّ يضلُّ ضلالًا ، وضلَّ يضِلُّ ضلالةً ، كما يقال : لذَّ يَلِذُّ لِذَاذاً ولذاذةً !

فالجوابُ عن ذلك : أنَّ الضلالة تكونُ مصدراً كما قلت ، وتكونُ عبارةً عن المرَّة الواحدة ، تقول ضلَّ يضل ضلالةً ، أى مرةً واحدةً ، كما تقولُ ضرب يضرب ضَرْبَةً ، وقامَ يقومُ قومةً ، وأكلَ يأكلُ أكلةً :

والمراد بالضلالةِ فى هذه الآية إنما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال ، فقد نَفى ما فوقها من المرَّتين والمرَارِ الكثيرة .

* * *

وأما الصفَتان الواردتان على شىء واحدٍ فكقول الأشْتَرْ النّخْعى[2] :

(١) سورة الأعراف : الآيتان ٦٠ و ٦١ .

(٢) هو مالك بن الحارث ، أحد بنى النخع ، والأشتر لقب له ، كان شاعراً يمنيا من شعراء الصحابة ، شهد حرب القادسية أيام عمر بن الخطاب التى كانت بين المسلمين والفرس ، وكان لعلى فى حروبه مثل ما كان =

بقّيتُ وفرِى وانحرفتُ على العُلا

ولقِيتُ أضيافى بوجه عَبُوسِ (١)

إنْ لَمْ أشُنَّ على ابن حَرْبٍ غارةً

لَمْ تخلُ يومًا من نِهاب نُفُوسِ (٢)

خَيْـلًا كأمثالِ السَّعالى شزَّبًا

تَعْدُو ببيض فى الكريهَة شُوسِ (٣)

حَمِيَ الحـديدُ عليهمْ فكأنهُ

لَمعانُ برقٍ أوْ شُعَاعُ شُمُوسِ (٤)

= على ارسول الله صلى الله عيله وسلم . كتب له على بولاية مصر ، فخرج يريدها ، وبلغ ذلك معاوية ، فعظم عليه الأمر ، فبعث إلى المقدم على الخراج بالقلزم يعده ويمينه إن كفاه شر مالك فلما انتهى الأشتر إلى القلزم استقبله ذلك الرجل ، وعرض عليه النزول عنده فنزل فأتاه بطعام فأكل ، ثم جاءه بعسل وضع فيه سما فشربه فمات ، وذلك سنة ثلاث وثلاثين للهجرة ، فقال معاوية لما بلغه ذلك : إن لله جنوداً منها العسل .

(١) فى الأصل «حلقت وفدى» موضع «بقيت وفرى» والوفر المال ، يقول : بقيت مالى ، ولم أنفقه فيما يكسبنى الذكر الجميل .

(٢) يدعو على نفسه بما يكسبه السوء إن لم يشن أى يفرق الغارة على ابن حرب يعنى معاوية بن أبى سفيان .

(٣) فى الأصل «شرما» موضع «شزبا» والتصويب عن الحماسة ١/ ٤٩ والسعالى الغيلان ، وقيل هى بنات الغيلان ، والشزب الضمر. والبيض من البياض كناية عن الكرم ونقاء العرض ، والشوس جمع أشوس ، وهو الغضبان أو المتكبر ، ونصب «خيلا» على أنه بدل من غارة فى البيت قبله .

(٤) فى ديوان الحماسة (١ / ٤٩) - «رمضان برق» موضع «لمعان برق»

ألا ترى أنه رقى فى التشبيه من الأدنَى إلى الأعْلى فقال « لمعانُ برق أو شعاعُ شموس » لأنّ لمعانَ البرق دونَ شعاع الشُّموس ؟ !

ومِمَّا ورَدَ من ذلكَ فى القرْآن الكريم قولُه تعالى : « ما لهذا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلا أحْصاهَا »[1] فإنّ وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة .

وعلى القياس المشار إليه أوّلًا فينبغى أن يكون لا يغادر كبيرةً ولا صغيرة لأنه إذا لم يغادر صغيرةً ، فمن الأوْلَى ألا يغادر كبيرة .

وأمَّا اذا لَمْ يغادِرْ كبيرةً ، فإنّه يجوز أن يغادِرَ صغيرةً ، لأنّه إذا لم يعفُ عن الصغيرة فيقْضى القياسُ أنه لا يعفُوا عن الكبيرة ، وإذا لم يَعْفُ عن الكبيرة فيجوز أن يَعفُوا عن الصغيرة .

غير أن القرآن الكريم أحقُّ أن يتّبع ، وأجدر بأنْ يقاس عليه لا على غيره والذى ورد فيه من هذه الآية ناقضٌ لما تقدَّم ذكره .

وكذلك ورد قوله تعالى : (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا)[2] لأنّ التأفيفِ أدنَى درجة .

وقد تقدم قولِى فى أول هذا النوع أنه اذا جاءتْ صِفَتان يلزمُ من وجودِ إحداهما وجودُ الأخرى أنْ يكتفى بذكرها دون الأخرى لأنَّ الأخرى تجىء ضِمْناً وتبعًا ، وأن يبدأ بها فى الذّكر ، ثم تجىء الأخرى بعدها ، وعلى هذا فيقالُ : أوّلا : فلا تَنْهَرْهما ولا تَقُلْ لهما أفٍّ ، لكن إذا لم يقُلْ لهما (أفٍّ) امتنع أن يَنْهَرهما .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٤٩

(٢) سورة الإسراء : الآية ٢٣

وقد كان هذا هو المذهب عندى ، حتى وجدت كتاب الله تعالى قد وَرَدَ بخلافه . وحينئذٍ عُدْتُ عما كُنْتُ أراهُ وأقول به .

* * *

وأما الصّفاتُ المتعدّدة الواردةُ على شيء واحدٍ فكقول أبى عُبادَة البحترى فى وصف نُحُول الرّ كابِ[1] :

يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّرَابِ وقدْ خُضْـــنَ غماراً من السَّراب الجارى
كالقِسّى المُعَطَّفاتِ بَلْ الأسْـــهُمِ مَبْرِيَّةً بَل الأوْتَارِ

ألا تَرَى أنه رقى فى تشبيه نُحولها من الأدنى إلى الأعلى ، فشبّهها أولاً بالقِسِىّ ، ثم بالأسهُم المبريَّة ، وتلك أبلغُ فى النُّحول ، ثم بالأوتار ، وهى أبلغ فى النُّحول من الأسهم .

وكذلكَ ينبغى أن يكونَ الاستعمالُ فى مثل هذا الباب .

وقدْ أغفلَ كثيرٌ من الشعراء ذلك فمن جملتهم أبو الطيّب المتنبى فى قوله[2] :

يَا بَدْرُ يا بَحْرُ يا غمامَةُ يا ليثَ الشَّرَى يا حِمامُ يا رَجُلُ

وينْبَغى أن يبدأَ فيه بالأدنى فالأدنى ، فإنَّه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع

(١) ديوان البحترى ٢ / ٣٠ من قصيدة له فى مدح أبى جعفر بن حميد ، ومطلعها :

أبكاء فى الدار بعد الدار وسلوا بزينب عن نوار

(٢) ديوان المتنبى ٣ / ٢١٥ من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار ، وقد فصد لعلة مطلعها :

أبعد نأى المليحة البخل فى البعد مالا تكلف الإبل

من محلٍّ إلى محل أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محلٍّ إلى محلٍّ أدنى منه .

فأمَّا قوله (يابدر) فإنَّه اسم الممدوح ، والابتداء به أَوْلى ، ثم بعدَه فيجبُ أَن يقول : يارجُل ، يا ليثُ ، ياغمامة ، يابحر ، ياحِمامُ ، لأنَّ اللَّيْثُ أَعظم من الرجل . والبحر أَعظم من الغمامة ، والحمام أَعظم من البحر ، وهذا مقامُ مدحٍ ، فيجبُ أَنْ يَرْقى فيه من منزلةٍ إلى منزلةٍ ، حتى ينتهىَ إلى المنزلةِ العُليا آخراً ، ولو كان مقام ذمٍّ لعكس القضيَّة .

وعلى مثله وَرَدَ قولُ أَبى تمام يفتخرُ (١) :

سَمَا بِى أَوْسٌ فى الْفَخَارِ وَحَاتِمٌ   وَزَيْدُ الْقَنَا والأَثْرَمانِ وَرَافِعُ (٢)

نجُومٌ طوَالِـعٌ جبالٌ فوارِعٌ   غُيوثٌ هَوَامِـعٌ سُيولٌ دَوَافِـعُ (٣)

فإن السُّيول دونَ الغيُوث ، والجبال دونَ النُّجوم ، ولو قدَّم ما أَخَّر لما أختلَّ النظم بأنْ قال :

سُيولٌ دَوَافعٌ غُيوثٌ هَوَامعٌ   جبَال فَوارِعٌ نجُومُ طَوَالعُ (٤)

وهذا عندى أَشدُّ ملامةً من المتنبى ، لأنَّ المتنبى لا يمكنُه تقديم ألفاظ بيتِه

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٧٩ من قصيدة له يصف فيها قومه ، ويفتخر بهم ، ومطلعها :

ألا صنع البين الذى هو صانع   فإن تك مجزاعاً فما البين جازع

(٢) بين هذا البيت والبيت الذى يليه :

وكان إياس ما إياس وعارف   وحارثة أو فى الورى والأصابع

(٣) رواية الديوان « طواليع » موضع « طوالع » و « هواميع » موضع « هوامع » .

(٤) هذا على رواية ابن الأثير ، أما على رواية الديوان فإن النظم يختل بالتقديم والتأخير على النحو الذى افترضه ابن الأثير .

وتأخيرها ، وأبو تمّام متمكّن من ذلك ، وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع مع معرفته بالمعانى ! !

النـــوع التاسع

فى التقديم والتأخير

وهذا بابٌ طويل عريض ، يشتمل على أسرارٍ دقيقةٍ ، منها ما استخرجته أنا ، ومنها ما وجدته فى أقوال علماء البيَان ، وسأورد ذلك مبيّناً .

وهو ضَرْبان :

الأوّل : يختصّ بدلالةِ الألفاظ على المعانى ، ولو أُخِّر المقدَّم أو قدِّم المؤخر لتغير المعنى .

والثانى : يختصّ بدرجة التقدُّم فى الذكر ؛ لاختصاصه بما يوجبُ له ذلك ، ولو أُخِّر لما تغيّر المعنى .

فأمّا الضربُ الأول فإنه ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : يكونُ التقديمُ فيه هو الأبلغ .

والآخر : يكونُ التأخير فيه هو الأبلغ .

فأما القسمُ الّذى يكونُ التقديمُ فيه هو الأبلغ فكتقديمِ المفعُول على الفعلِ ، وتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل .

فمن ذلك تقديمُ المفعولِ على الفعل كقولك : زيداً ضربتُ ، وضربْتُ زيداً ، فإنَّ فى قولك « زيداً ضربْتُ » تخصيصاً له بالضَّربِ دُون غيره ، وذلك بخلافِ قولك : « ضربتُ زيداً » لأنَّك إذا قدَّمتَ الفعل كنت

بالخيارِ فى إيقاعه على أىّ مفعولٍ شئت ، بأن تقُول : ضربتُ خالداً ، أو بكراً أو غيرهما ، وإذا أخّرتَهُ لَزِمَ الاختصاصُ المفعول .

وكذلكَ تقديمُ خبر المبتدأ عليه ، كقولك : « زيد قائم » ، و « قائم زيد » فقولك « قائم زيد » قد أثبتَ له القيامَ دُونَ غيره ، وقولُكَ « زيد قائم » أنت بالخيارِ فى إثبات القيام له ، ونفيه عنه ، بأنْ تقول : ضارِبٌ ، أو جالسٌ ، أوغير ذلك .

وهكذا يجرِى الحكم فى تقديم الظّرف ، كقولك : إنّ إلىَّ مصير هذا الأمر ، وقولك : إنَّ مصيرَ هذا الأمر إلىَّ ، فإنَّ تقديمَ الظرف دلّ على أن مصير الأمر ليس إلا إليك ، وذلك بخلاف قولك : إنّ مصيرَ هذا الأمر إلىّ ، إذْ يحتملُ إيقاعَ الكلام بعد الظّرف على غيركَ ، فيقال : إلى زيد ، أو عمرو ، أو غيرهما .

وكذلك يجرى الأمرُ فى الحال والاستثناء .

وقالَ علماء البَيَان ، ومنهم الزّمَخْشَرِى — رحمه الله — : إنّ تقديم هذه الصُّورة المذكورة إنما هو للاختصاص ، وليسَ كذلك .

والّذى عندى فيه أنه يُسْتعمل على وجهين :

أحدُهما : الاختصاصُ .

والآخر : مراعاة نَظْمِ الكلام ؛ وذاكَ أن يكونَ نظمه لا يُحسن إلاّ بالتقديم ، وإذا أُخِرّ المقدّم ذهبَ ذلك الُحسْن ، وهذا الوجْه أبلغُ وأوْكدُ من الاختصاص .

فأمّا الأوّل — الذى هو الاختصاصُ — فنحو قوله تعالى : (قلْ أفغَيْرَ الله تأمُرُونّى أعبُدُ أيُّها الجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أوحِىَ إلَيْكَ وإلى الّذينَ مِنْ قبلكَ

لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكُونَنَّ من الْخَاسِرِين * بَل اللّهَ فاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشّاكرين)[1] .

فإنه إنما قال : « بل الله فاعبدْ » ولم يقل : بل اعْبُد الله ، لأنه إذا تقدم وجبَ اختصاصُ العبادة به دونَ غيره ، ولو قال : بل اعبد لجاز ايقاع الفعلِ على أيِّ مفعولٍ شاء .

وأمّا الوجْهُ الثانى — الذى يختصُّ بنظْمِ الكلامِ — فنحو قوله تعالى : (إيّاكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَسْتَعِينُ) .

وقد ذكر الزمخشريُّ فى تفسيره أنّ التقديم فى هذا الموضع قصد به الاختصاص ، وليس كذلكَ ، فإنه لم يقدّم المفعولَ فيه على الفعل للاختصاصِ ، وإنما قدِّم لمكان نظمِ الكلام ، لأنه لو قال : نعبدك ونستعينُك ، لم يكنْ لهُ من الحسْن ما لقولهِ « إياكَ نعبُد وإيّاكَ نستعين » ألا ترى أنه تقدّم قولُه تعالى : (الحمدُ لله ربّ العالمينَ * الرّحمن الرّحيم * مالِكِ يومِ الدِّين) فجاء بعد ذلك قوله « إيّاكَ نعبد وإيّاك نستعين ، وذلكَ لمراعاةِ حُسْن النّظم السّجْعِى الذى هو على حَرْف النون ، ولو قال : نعبدكَ ونَسْتعينك لذهبت تلك الطلاوة ، وزال ذلك الحُسْن .

وهذا غير خافٍ على أحدٍ من الناسِ ، فضلًا عن أرْباب علم البيَان .

وعلى نحوٍ منه ورَدَ قولُه تعالى : (فَأوْجَسَ فى نَفْسِهِ خِيفَةً موسى * قلْنا لاتَخَفْ إنّكَ أنْتَ الأعْلَى[2]) وتقدير الكلام : فأوجس موسى فى نفسِهِ خِيفةً ، وإنَّما قدّم المفعولَ على الفاعل وفصَل بينَ الفِعل والفاعل بالمفعول وبحرْف الجر قصداً لتحسين النَّظْم .

(١) سورة الزمر . الآيات ٦٤و٦٥و٦٦

(٢) سورة طه : الآيتان ٦٧ و٦٨

وعلى هذا فليس كلُّ تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص ، فبطَل إذاً ماذهبَ إليه الزمخشرى وغيره .

ومما ورَدَ من هذا البابِ قوله تعالى : (خُذُوه فغُلُّوه * ثم الْجَحِيم صَلُّوه[1]) فإنَّ تقديم الجحيم على التَّصلية ، وإنْ كانَ فيه تقديمُ المفعول على الفعل ، إلَّا أنه لم يكنْ هاهُنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السَّجْعِيّة ، ولا مِرَاء فى أنَّ هذا النظم على هذه الصُّورة أحسَنُ من أنْ لو قيل : خُذُوه فغلُّوه ثم صَلُّوه الجحيم .

فإن قيل : إنما قُدِّمت الجحيم للاختصاص ، لأنَّها نارٌ عظيمة ، ولو أخِّرَتْ لجازَ وقُوع الفعلِ على غيرها ، كما يقُال : ضربتُ زيداً ، وزيداً ضربْتُ ، وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك .

فالجوابُ عن ذلك : أن الدرْكَ الأسفلَ أعظمُ من الجحيم ، فكانَ ينبغى أنْ يُخَصّ بالذِّكْر دونَ الجحيم ، على ماذهبَ إليه ، لأنَّه أعظمُ .

وهذا لايذهبُ إليه إلا من هو بنَجْوَةٍ عن رُمُوز الفصاحَةِ والبلاغةِ ، ولفظة « الجحيم » ههنا فى هذه الآية أوْلى بالاستعمالِ من غيرها ، لأنها جاءتْ ملائمة لنظم الكلام ، ألا ترى أنَّ من أسماء النارِ السَّعير ، ولَظى ، وجَهَنَّم ؛ ولو وضعَ بعضُ هذه الأسماء مكانَ الجحيم لما كان له من الطّلاوة والُحسْن ما للجحيم ، والمقصُود بذكر الجحيم إنّما هو النّار ، أىْ صلُّوه النار ، وهكذا يقَالُ فى (ثم فى سِلْسِلةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوه)[2] .

---

(١) سورة الحاقة : الآيتان ٣٠ و٣١

(٢) سورة الحاقة: الآية ٣٢

فإنه لم يقدِّم السِّلْسِلة على السَّالك للاختصاص ؛ وإنّما قدِّمت لمكان نظمِ الكلام .

ولا شكّ أن هذا النظمَ أحسنُ من أن لو قيل : ثم اسْلكوه فى سلسلةٍ ذرعها سبْعون ذِراعًا ؛ والكلامُ على هذا كالكلام على الّذى قبل .

ولهُ فى القرآن نظائر كثيرةٌ ، ألا ترَى إلى قوله تعالى : « وآيةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنهُ النَّهارَ فإذا هُمْ مُظْلِمُون * والشَّمْسُ تجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذلكَ تقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعلِيم * وَالقَمرَ قدَّرْناهُ منَازلَ حَتّى عادَ كَالعُرْجُون القَدِيم »[(١)] .

فقوله « والقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنَازِل » ليس تقديم المفعولِ فيه على الفعل من باب الاختصاص ، وإنّمَا هو من باب مُراعاةِ نظمِ الكلام ، فإنَّه قال : « الليلُ نَسْلَخُ مِنهُ النَّهارَ » ثم قال « والشَّمْسُ تجرى » فاقتضى حسنُ النظم أن يقول « والقمر قدرناهُ » ليكونَ الجميع على نَسَقٍ واحدٍ فى النَّظم ، ولو قال : وقدَّرنا القمر منازلَ لما كان بتلك الصُّورة فى الحُسْن .

وعليه وَرَدَ قوله تعالى : « فأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ . وأمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ »[(٢)] .

وإنّمَا قدّم المفعولَ لمكان حُسْن النظم السَّجعى .

وأما تقديم خبر المبتدأ عليه فقد تقدَّمْت صُورته كقولك : « زيد قائمٌ » « وقائمٌ زيد » .

---

(١) سورة يس : الآيات ٣٧ و٣٨ و ٣٩

(٢) سورة الضحا : الآيتان ٩ و ١٠

فمِمَّا وَرَدَ منه فى القرآن الكريم قوله تعالى : « وظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ »(١) .

فإنه إنَّمَا قال ذلك ولم يقل : وظنوا أنَّ حصُونهم تمنعهم ، أو مانِعتهُمْ ، لأنَّ فى تقديم الخبر الذى هو « مانعتهم » على المبتَدأ الذى هو « حصونهم » دليلا على فرط اعتقادِهم فى حصانتها ، وزيادة وُثُوقهم بمنعها إيَّاهم .

وفى تصويب ضميرهم إسماً لأنَّ وإسناد الجملة إليه دليلٌ على تقريرهم فى أنفسِهم أنهم فى عزَّة وامْتناعٍ لا يُبَالى معها بقصد قاصد ، ولا تعرُّض متعرِّضٍ ، وليسَ شىء من ذلكَ فى قولك : وظَنُّوا أنَّ حُصونهم مانعتهُم من الله .

ومن تقديم خَبر المبتدأ قوله تعالى : « قالَ أَرَاغبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يا إبراهيم »(٢) .

فإنَّه إنما قدَّم خبر المبتدأ عليه فى قولِكَ « أراغبٌ أنت » ولم يقل : أأنْتَ راغبٌ ، لأنَّه كان أهمّ عندَه ، وهو به شديدُ العناية(٣) .

وفى ذلك ضربٌ من التعجُّب والإنكار لرغبة إبراهيمَ عَنْ آلهته ،

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢

(٢) سورة مريم . الآية ٤٦

(٣) وهكذا فى «مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل » للنسفى (٣/ ٢٩) قال : إنه قدم الخبر على المبتدأ ، لأنه كان أهم عنده .

ورأى جمهور النحاة أن «أنت» فاعل للمبتدأ «راغب» المعتمد على استفهام ، وليس مبتدأ مؤخراً كما ذكر ، وذلك للفصل بين « راغب» والمعمول «عن آلهتى » بأجنبى وهو «أنت» وانظر حاشية الصبان على شرح الأشمونى ٢/ ٨

وأنَّ آلهته لا ينبغى أن يرْغب عَنها ، وهذا بخلافِ مالو قالَ : أأنتَ رَاغبٌ عن آلهتى ؟ .

ومِنْ غَامِضِ هذا الموضعِ قوله تعالى : « واقترَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فإذا هِيَ شَاخِصة أبْصَارُ الَّذينَ كَفَرُوا »(١) .

فإنَّه إنما قالَ ذلك ، ولمْ يقل : فإذا أبْصَارُ الذين كفروا شَاخِصة لأمْرَيْن : أحدهما : تخصيصُ الأبصارِ بالشُّخُوص دونَ غيرها ، أمّا الأوّل فلو قال : فإذا أبصارُ الذين كفروا شَاخِصة لجاز أن يضعَ موضع « شاخصة » غيره ، فيقول ، « حائرة » أو « مطموسة » أو غير ذلك ، فلما قدم الضمير اختصّ الشُّخُوص بالأبصار دون غيرها .

وأمَّا الثانى فإنَّه لمَّا أراد أن الشخوصَ خاصٌّ بِهِمْ دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أوَّلا ، ثمَّ بصاحبهِ ثانياً ، كأنه قال : فإذا هُم شَاخِصون دُون غيرهم ، ولو لَا أنه أرادَ هذَيْن الأمْرين المشارَ إليهما لقال : فإذا أبصَارُ الذين كَفَروا شاخِصة ، لأنه أخْصَرُ بحذفِ الضَّمير من الكلام .

ومن هذا النوع قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقد سئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْر ، فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ » وتقديرُ الكلامِ : هو الذى ماؤُه طَهُور ، وَمَيْتَتهُ حِلٌّ ، لأنَّ الألِفَ واللاَّم هاهُنا بمعنى الَّذِى .

وأمَّا تقْدِيمُ الظَّرْف فإنَّه إذا كان الكلامُ مقصوداً به الإثبات فإنَّ تقديمه أوْلى من تأخيره ، وفائدته إسنادُ الكلام الواقع بعدَه إلى صاحبِ الظَّرف دونَ غيره .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٩٧

فإذا أُريد بالكلام النَّفى فيحسن فيه تقديمُ الظَّرف وتأخيرُه، وكلا هذين الأمْرين له موضعٌ يختصُّ به.

فأمَّا تقديمه فى النفْى فإنَّه يقصد به تفضيلُ المنفىِّ عنه على غيره، وأمَّا تأخيره فإنه يُقْصد به النفى أصلاً من غَيْرِ تفضيل.

فأمَّا الأول — وهو تقديم الظرف فى الإثبات — فكقولك فى الصورة المقدَّمة: إنَّ إلىَّ مصير هذا الأمْرِ، ولو أُخَّرت الظَّرف، فقلت: إن مصير هذا الأمرِ إلىَّ، لم يعطِ من المعنى ما أعطَاه الأوَّل، وذلكَ أنَّ الأوَّل دلَّ على أنَّ مصيرَ الأمرِ ليسَ إلا إليك، وذلك بخلاف الثانى إذْ يحتمل أن توقع الكلامَ بعد الظَّرف على غيرك، فيقالُ: إلى زيد، أو عمرو، أو غيرهما.

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى: « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثم إِنْ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »(١).

وكذلك جاء قولُه تعالى: « يُسَبحَ لله مَا فى السَّموات وَمَا فِى الأرْض لَهُ الْملْكُ وَلهُ الْحَمْدُ »(٢).

فإنَّه إنمَّا قدَّم الظرفين ها هُنا فى قوله « له الملك وله الحمد » ليدلَّ بتقديمها على اختصاص المُلك والحمد بالله لا بغيْره.

وقد استْعمل تقديمُ الظَّرف فى القرآن كثيراً كقوله تعالى: (وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة * إِلى رَبِّها ناظِرةٌ)(٣) أىْ تنظر إلى ربِّها دون غيره، فتقديمُ

---

(١) سورة الغاشية: الآيتان ٢٥ و٢٦

(٢) سورة التغابن: الآية ١

(٣) سورة القيامة: الآيتان ٢٣ و٢٤

الظّرف هاهنا ليسَ للاختصَاص[1] ، وإنما هو كالذى أشرتُ إليْه فى تقديم المفعول ، وأنّه لم يقدّم للاختِصَاص ، وإنما قُدِّمَ من أجْل نظمِ الـكلام ، لأنّ قوله تعالى :

« وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » أحسنُ من أنْ لو قيل : وُجوهٌ يومئذٍ ناضرة ناظرةٌ إلى ربها ، والفرقُ بيْن النّظمين ظاهر .

وكذا قوله تعالى : (وَالْتَفَّت السَّاقُ بالساقِ * إلى ربِّكَ يَوْمئِذٍ المْسَاق)[2] فإنّ هذا رُوعىَ فيه حُسْن النَّظْم ، لا الاختصاصُ فى تقديم الظرف .

وفى القرآن مواضعُ كثيرةٌ من هذا القبيل يقيسُها غيرُ العارف بأسرار الفصاحة على مواضِعَ أُخرى وَردتْ للاختصَاص ، وليْسَتْ كذلك .

فمنْها قوله تعالى : (إلى ربِّكَ يَوْمَئذٍ المُسْتَقَرّ)[3] .

وقوله تعالى : (أَلَا إلى اللهِ تَصِيرُ الأمور)[4] . و « لهُ الْحُكْمُ وإليْه تُرْجَعُونَ)[5] . و (عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وإليْه أُنيب)[6] .

فإنّ هذه جميعَها لم تقدّم الظروفُ فيها للاختصاص ، وإنما قدّمت لمراعاةِ الْحُسن فى نظم الـكلام ، فاعرفْ ذلك .

---

(١) ناقض المؤلف نفسه بقوله إن تقديم الظرف هاهنا ليس للاختصاص بعد تفسيره الآية بقوله « تنظر إلى ربها دون غيره »

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٢٩ و ٣٠

(٣) سورة القيامة : الآية ١١

(٤) سورة الشورى : الآية ٥٣

(٥) سورة القصص : الآية ٨٨

(٦) سورة هود : الآية ٨٨

وأما الثانى — وهو تأخيرُ الظَّرفُ وتقديمُه فى النفى — فنحو قوله تعالى : (الٓمٓ . ذٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه)[1] وقوله تعالى : (لافيها غَوْلٌ ولاهُمْ عَنْها ينْزَفُون)[2] . فإنّه إنما أخَّر الظَّرف فى الأوّل لأنّ القصدَ فى إيلاء حرفِ النّفى الرّيْب نَفْيُ الرّيب عنه ، وإثبات أنَّه حقٌّ وصِدْق ، لا باطل وكذب ، كما كانَ المشركون يدّعونه ، ولو قدّم الظرفَ لقصد أن كتاباً آخر فيه الرَّيب لا فيه ، كما قصد فى قوله تعالى : « لا فيها غَوْلٌ » فتأخيرُ الظَّرف يقْتضى النّفيَ أصْلًا من غير تفضيلٍ ، وتقديمُه يَقْتضى تفضيلَ المنْفيِّ عنه ، وهو خمر الجنَّة على غيرها من خُمُور الدُّنيا ، أىْ ليسَ فيها مافى غيرها من الغَوْل . وهذا مثل قولنا : لاعيبَ فى الدار ، وقولنا : لافيها عيبٌ ، فالأوّل نفىُ العيب عن الدَّار فقط ، والثَّانى تفضيلٌ لها على غيرها ، أىْ ليس فيها مافى غيرها من العيب ، فاعرفْ ذلك فإنه من دقائِق هذا الباب .

وأمّا تقديمُ الحالِ فكقولكَ : « جَاءَ راكباً زيدٌ » ، وهذا بخلاف قولك : « جاءَ زيد راكباً » ، إذْ يحتمِلُ أن يكونَ ضاحكاً ، أو ماشياً ، أو غير ذلك .

وأمّا الاستثناء فجارٍ هذا المجْرَى ، نحو قولك : « ماقامَ إلاَّ زيداً أحدٌ » ، أو « ما قام أحدٌ إلا زَيْداً » ، والكلامُ على ذلك كالكلام على ما سَبَق .

المعاظلة المعنوية :

وأما القسم الثانى فهو أن يقدّم ما الأوْلى به التأخير ، لأنَّ المعنى يختَلُّ بذلك ويضْطرب ، وهذا هو (المعاظَلةُ المعنويّة) وقد قدّمنا القَول فى المقالةِ

(١) سورة البقرة : الآيتان ١ و٢

(٢) سورة الصافات : الآية ٤٧

الأولى المختصّة بالصناعةِ اللفظية بأنّ المعاظَلةَ تنقسِم قسمين : أحدُهما لفظيٌّ ، والآخرُ معنويٌّ .

أمّا اللفظيُّ فذكرناه فى بابه[1] .

وأمّا المعنويُّ فهذا بابُهُ وموضِعُه ، وهو كتقديم الصفة أوْ ما يتعلّق بها على الموصُوف ، وتقديم الصِّلة على الموصُول ، وغير ذلك مما يردُ بيانه .

فمن هذا القسْم قولُ بعْضِهم :

فَقَدْ والشَّكُّ بَيَّنَ لى عَنَاءٌ ... بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيح[2]

فإنه قدَّم قوله « بِوشك فراقهم » وهو معمول « يصيح » و « يصيح » صِفةٌ لصردَ على « صرد » ، وذلك قبيحٌ .

ألا ترى أنه لا يجُوزُ أن يقالَ : هٰذا من موضع كذا رجلٌ وردَ اليومَ ، وإنما يجُوز وقوعِ المعمولِ بحيثُ يجُوز وقوعُ العاملِ ! فكما لا يجُوز تقديمُ الصِّفة على موصُوفها فكذلك لا يجُوز تقديم ما اتَّصل بها على موصوفها .

ومن هذا النحو قول الآخر :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِها ... كَأَنَّ قَفْراً رُسُومَها قلَمَا

فإنه قدَّم خبر كأنّ عليها ، وهو قوله (خطّ) .

وهذا وأمثاله مما لا يجُوز قياسٌ عليه ، والأصلُ فى هذا البيتُ : فأصْبَحتْ

---

(١) انظر (النوع السابع — فى المعاظلة اللفظية) وقد سبق فى صفحة ٣٩٦ وما بعدها من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) الصرد — بضم الصاد وفتح الراء — طائر ضخم الرأس يصيد العصافير

بعد بهجتها قفراً ، كأنَّ قلَّما خطَّ رسومَها ، إلا أنه على تلك الحالة الأولى فى الشِّعر مختلٌّ مضطرب .

والمعاظَلةُ فى هذا الباب تتفاوت دَرَجاتها فى القُبح ، وهذا البيتُ المشارُ إليه من أقبحها ، لأنَّ معانيه قد تداخلت ، وركبَ بعضُها بعضاً .

ومما يَجْرى هذا المجرى قولُ الفَرَزْدَق :

إلى مَلِكٍ ما أُمُّه مِنْ مُحارِبٍ   أبوه ولا كانَت كُلَيْبٌ تُصاهِرُه[1]

وهو يريد إلى ملِكٍ أبوه ما أُمُّهُ من مُحاربٍ وهذا أقبحُ من الأوَّل ، وأكثرُ اختلالًا .

وكذلك جاء قوله أيضاً :

ولَيْسَت خُراسانُ التى كانَ خالِدٌ   بها أَسَدٌ إذْ كَانَ سَيْفاً أَمِيرُهَا

وحديثُ هذا البيت ظريف ، وذلكَ أنَّه فيما ذكر يمدحُ خالِدَ بنَ عبد الله القَسْرِىْ ؛ ويهجو أسداً[2] ، وكان أسَدٌ وليهَا بَعْدَ خالدٍ ؛ وكأنه قال : وليستْ خُراسَانُ بالبلدةِ التى كان خالدٌ بها سَيْفاً إذ كان أسدٌ أميرَها .

وعلى هذا التقدير فى (كان) الثانية ضَميرُ الشأنِ والحديث ؛ والجملةُ بعدَها خبرٌ عنها ، وقدَّمَ بعض ما (إذْ) مضافةٌ إليه ، وهو (أَسَد) عليها وفى تقديم المضَافِ إليه أو شىء منْه على المضافِ من القبح مالا خفاء به .

---

(١) ديوان الفرزدق ١/ ٣١٢ من قصيدة له فى مدح الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ومطلعها :

كم من مناد والشريفان دونه   إلى الله تشكى والوليد مفاقره

ورواية الديوان «أبوها» موضع «أبوه»

(٢) هو أسد بن عبد الله القسرى .

وأيضاً فإنَّ أسداً أَحَدُ جُزأى الجملة المفسّرة للضّمير ، والضّمير لا يكون تفسيرُه إلا من بعده ، ولو تقدَّم تفسيرُه قبله لما احتاجَ إلى تفسير ، ولما سمَّاه الكوفيُّون (الضمير المجهول) .

وعلى هذا النَّحو ورد قولُ الفرزدق أيضاً :

وَمَا مِثْلهُ فى النّاس إلا مُمَلَّكاً أبو أُمِّهِ حَىٌّ أَبُوهُ يقَارِبُه(١)

ومعنى هذا البيتِ : وما مثله فى النـــاس حَىٌّ يقاربه إلا مملَّكاً أبو أُمه أبوه .

وعلى هذا المثالُ المصُوغُ فى الشّعر قد جاء مُشَوّهاً كما تراه .

وقد استعملَ الفرزدق من التعاظل كثيراً ، كأنه كانَ يقصِدُ ذلك ويتعمَّده ، لأنّ مثله لا يجىء إلا متكلّفاً مقصوداً .

وإلا فإذا تركَ مؤلِّف الكلام نفسَه تجْرى على سَجِيّتها وطبعِها فى الاسترسال لم يعْرض له شىء من هذا التّعْقيد ، ألا ترَى أنّ المقصودَ من الكلام معدومٌ فى هذا الضّرب المشار إليه ، إذ المقصودُ من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانةُ وإفهام المعنى ، فإذا ذهبَ هذا الوصفُ المقصود من الكلام ذهبَ المرادُ به .

---

(١) ديوان الفرزدق ١ / ١٠٨ وقال جامع الديوان إن هذا البيت لم يرد فى أصوله ، ولكنه ورد فى عدة مراجع موثوق بها شاهداً للتعقيد المعنوى ، وقد قالوا فيه أنه من قصيدة له من الطويل يمدح بها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام بن عبد الملك ، ولكنى لم أجده فى قصيدة ما ، فلعلها ضاعت ، أولعل البيت أهمل من بين أبيات القصيدة على فرض وجودها ، على أن رواة الديوان لم يذكروا قصيدة بائية نصوا على أنه مدح بها إبراهيم بن هشام هذا — انظر شرح ديوان الفرزدق — مطبعة الصاوى — القاهرة ١٩٣٦ م .

ولا فرقَ عند ذلك بينه وبين غيره من اللُّغات كالفارسيَّة والروميَّة وغيرهما .

واعلم أنّ هذا الضَّربَ من الـكلام هو ضِدُّ الفصاحةِ ، لأنّ الفصاحة هى الظهُور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصْف .

* * *

وأما الضرب الثانى[1] الذى يختصّ بدرجة التقدُّم فى الذِّكر لاختصاصِه بما يوجب لهُ ذلك فإنه مما لا يحصُرُه حدٌّ ، ولا ينتهى إليه شَرْح ، وقد أشرْنا إلى نبذَةٍ منه فى هذا الـكتابِ ، ليستدلَّ بها على أشباهِها ونظائرها .

فمن ذلك تقديم السَّبَبِ على المسبّبِ ، كقوله تعالى : (إيَّاكَ نعبُدُ وإيّاك نستعين) فإنه إنَّما قدّم العبادة على الاستعانةِ لأنَّ تقديم القُرْبَةِ والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجحُ لحصُولِ الطَّلب ، وأسْرَعُ لوقوعِ الإجابة ، ولو قال : إيّاكَ نَستَعين ، وإيَّاك نعبد ، لـكان جائزاً ؛ إلَّا أنه لايسدُّ ذلك المسَدَّ ، ولا يَقَعُ ذلك الموقعَ .

وهذا لا يخفى على المنْصِف من أرْبابِ هذه الصِّناعةِ .

وعلى نحو منه جاء قوَله تعالى : (وأَنْزَلْنَا مِن السَّمَاء ماء طَهُوراً لِنُحْيِيَ بهِ بَلْدَةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعامًا وأَنَاسِيّ كَثِيراً)[2] .

---

(١) سبق للمؤلف فى هذا الفصل أن جعل التقديم والتأخير ضربين . الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعانى ولوأخر المقدم أوقدم المؤخرلتغير المعنى ، والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر ، لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولوأخرلما تغير المعنى .

(٢) سورة الفرقان : الآيتان ٤٨ و٤٩

فقدّم حياةَ الأرض وإسقاء الأنعام على إسْقاء الناس ، وإنْ كانوا أشرفَ محلاً لأنّ حياةَ الأرض هى سببٌ لحياةِ الأنعامِ والنّاس ، فلمّا كانت بهذه المثابة جعِلَتْ مُقدِّمة فى الذكر ، ولمَّا كانت الأنعامُ من أسبابِ التعيُّش والحياةِ للنّاس قدّمها فى الذكر على الناس ، لأنّ حياة الناس بحَيَاة أرْضهم وأنعامِهم ، فقدّم سَقْى ماهو سببُ نمَائهم ومعاشهم على سَقْيهم .

ومن هذا الضَّربِ تقديم الأكثر على الأقل ، كقوله تعالى (ثُمّ أوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا من عِبَادنا فمِنْهُم ظالمٌ لنفْسِه ومنْهُم مقْتصدٌ ومنهم سابِقٌ بالخَيْراتِ)[1] .

وإنما قدّم الظَّالم لنفسِه للإيذان بكثرته ، وأنَّ مُعظم الخلْقِ عليه ، ثم أتى بعده بالمقتصدين ، لأنّهم قليلٌ بالإضافة إليه ، ثم أتى بالسّابقين ، وهم أقلّ من القليل — أعْنى من المقتصدين — فقدّم الأكثر ، وبعده الأوْسط ، ثم ذكر الأقلّ آخراً .

ولو عُكِست القضيّةُ لكان المعنَى أيضاً واقعاً فى موقِعه ، لأنَّه يكونُ قد رُوعَى فيه تقديمُ الأفضل فالأفْضَل .

ولْنوضِّحْ لك فى هذا وأمثاله طريقاً تَقْتَفيه ، فنقول :

اعلمْ أنه إذا كان الشَّيْئان كلّ واحدٍ منهما مختصًّا بصفةٍ فأنتَ بالخيار فى تقديمِ أيّهما شئْت فى الذكر ، كهذه الآية ، فإنّ السّابق بالخيرات مختصٌّ بصفةِ الفضْل ، والظالم لنفسه مختصٌّ بصفة الكثرة ، فقِسْ على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : (واللهُ خَلَق كلّ دابةٍ من ماء فمِنْهُمْ من

---

(١) سورة فاطر : الآية ٣٢

يَمشى عَلَى بَطْنهِ ومنهُم من يمْشى عَلَى رِجْلَين ومنْهم من يمْشى عَلَى أربَع)[1].

فإنه إنما قدّم الماشِيَ على بطنه ، لأنه أدلّ على القدرة من الماشى على رجْلين إذْ هُو ماش بغيْر الآلة المخلوقة للمشى ، ثمّ ذكرَ الماشِيَ على رجْلين ، وقدّمه على الماشى على أربعٍ ، لأنه أدلُّ على القدرة أيضاً حيثُ كثرتْ آلاتُ المشْى فى الأربع .

وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعْجَب .

فإن قيل : قد ورد فى القرآن الكريم فى مواضعَ منه مايخالفُ هذا الذى ذكرته كقوله تعالى فى سُورَةِ هود : (وما نُؤَخِّرُه إلا لأجَلٍ معْدودٍ * يومَ يأْتِى لا تكَلّم نفسٌ إلا باذْنِه فمنهُم شقِىٌّ وسَعيدٌ * فأَمّا الذينَ شَقُوا ففى النّار[2]) ثم قال : (وأمّا الذين سُعِدوا ففى الجنّة[3]) فقدّم أهلَ النار فى الذِّكْر على أهل الجنّة ، وهذا مخالِفٌ للأَصْل الذى أَصّلتَه فى هذا الموضع .!

فالجوابُ عن ذلك : أنّ هذا الذى أشرت إليه فى سورة هودٍ وما أشْبَههُ لهُ أسرار تحتاجُ إلى فضل تأمُّل ، وإمْعان نظَر ، حتّى تفهَم .

أمّا هذا الموضعُ فانَّه لما كان الكلامُ مسوقاً فى ذكر التخويفِ والتحذير وجاء على عَقِب قصَص الأوَّلين ، وما فَعَل الله بهم من التَّعذيب والتدمير ، كان الأليقُ أن يوصَل الكلامُ بما يناسبُه فى المعنى ، وهو ذكر أهل النار ، فمن أجْل ذلك قُدِّموا فى الذكر على أهلِ الجنّة .

---

(١) سورة النور : الآية ٤٥

(٢) سورة هود : الآيات ١٠٤ و١٠٥ و١٠٦

(٣) سورة هود : الآية ١٠٨

وإذا رأيتَ في القرآن شيئاً من هذا القبيل وما يجْرى مجراه فتأمّله ، وأمْعِن نظرك فيه ، حتى يتبيّن لكَ مكانُ الصوَّاب منه .

واعلمْ أنه إذا كانَ مطلعُ الكلام في مَعْنى من المعاني ، ثم يجيء بعدَه ذكر شيئين أحدَهما أفضَلُ من الآخر ، وكان المعنى المفضول مناسباً لمطلع الكلام ، فأنت بالخيار في تقديم أيّهما شئت ، لأنّك إن قدّمت الأفضل فهو في مَوضِعه من التقديم ، وإن قدّمتَ المفضُول فلأَن مطلع الكلام يناسبُه .

وذكر الشيء مع ماينَاسبُه أيضًا واردٌ في موضعه ، فمن ذلك قوله تعالى : (وَإنّا إذَا أذَقنَا الإنسَانَ منّا رَحْمَةً فَرِحَ بهَا وإن تُصبهُم سَيِّئةٌ بمَا قَدّمَت أيديهم فإنّ الإنسانَ كَفُورٌ * لِلهِ مُلكُ السّمَوَاتِ والأرضِ يَخلُقُ مايشاء يَهَبُ لِمَن يَشاء إناثًا ويَهَبُ لِمَن يَشاء الذُّكُور * أو يُزَوّجُهُم ذُكرانًا وإناثًا ويَجعَلُ مَن يَشاء عَقِيماً إنّه عَليمٌ قَدير)[1] .

فإنه إنما قدّم الإناث على الذُّكور مع تقدّمهم عليهن ، لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى ، وكفران الإنسان بنسيانه للرّحمة السّابقة عنده ، ثم عقَّب ذلك بذكره ملكه ومَشيئته ، وذكر قسمة الأولادِ ، فقدّم الإناث ، لأنّ سياق الكلام أنه فاعِلٌ مايَشاء ، لا مايَشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناثِ اللّاتى هُنّ من جُملة مالا يشاؤه الإنسان ولا يختاره أهمّ ، والأهمُّ واجبُ التّقديم ، وليَلى الجنس الذى كانتِ العربُ تعدّه بلاءً ذكر البلاء .

ولما أخّر ذكر الذكور ، وهم أحقّاء بالتقديم ، تداركَ ذلك بتعريفِهِ إيّاهم ، لأنّ التعريفَ تنويهٌ بالذّكر ، كأنه قال : ويَهَبُ لمن يشَاء الفرسان الأعلَام

---

(١) سورة الشورى : الآيات ٤٨ و٤٩ و٥٠ .

المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضٍ آخر ، فقال : (ذُكراناً وإناثاً) وهذه دقائقُ لطيفة قلّ من يتنبّه لها ، أو يعثر على رُموزها .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَما تَكُونُ فى شَأْنٍ وما تَتْلو مِنهُ من قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ من عَمِلٍ إلا كُنّا عَلَيكُمْ شُهوداً إذ تُفيضُونَ فيه وما يَعْزُبُ عن ربِّكَ من مِثقَالِ ذَرّةٍ فى الأرضِ ولا فى السَّماء)(١) .

فإنه إنما قدّم الأرضَ فى الذّكر على السماء ، ومن حقّها التأخير ، لأنَّه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم ، ووصل ذلك بقوله : (وما يَعْزُبُ) لاءم بينهما ، ليلى المعنى المعنى .

فإن قيل : قدْ جاء تقديمُ الأرض على السّماء فى الذكر فى مواضع كثيرة من القُرآن ! !

قلنا : إذًا جاءت مقدّمةً فى الذّكر فلا بدّ لتقديمها من سببٍ اقتضاه ، وإن خَفِيَ ذلك السبب ، وقد يستنبطهُ بعضُ العلماء دون بعضٍ !

النــوع العاشر

فى الحروف العاطفة والجارة

وهذا موضع لطيف المأخذ ، دقيق المغزى ، وما رأيتُ أحدًا من علماء هذه الصناعةِ تعرّضَ إليه ، ولا ذكره . وما أقولُ إنهم لم يعرفوه ، فإنّ هذا النوعَ من الكلام أشهرُ من أن يخفى ، لأنه مذكورٌ فى كتبِ العربيّة جميعها .

---

(١) سورة يونس : الآية ٦١

ولستُ أعني بإيراده هاهُنا مايذكره النَّحويُّون من أنّ الحروفَ العاطفة تُتْبع [المعطوف] المعطوفَ عليه فى الإعراب ، ولا أنّ الحروف الجارّة تجرُّ ما تدخُل عليه . بل أمراً وراءَ ذلك ، وإن كان المرجح فيه إلى الأصل النحوىِّ .

فأقول : إن أكثر النـاس يضعُون هذه الحروف فى غير مواضعها ، فيجعلون ما ينبغى أن يُجَرَّ بعلى [مجروراً][1] بفى ، وفى هذه الأشياء دَقَائق أذكرُها لك .

حروف العطف :

أمّا حروفُ العطْفِ فنحو قوله تعالى : (والّذى هُوَ يُطْعِمنى ويسْقين * وَإذَا مَرِضْتُ فَهَوَ يَشْفين * والذى يُميتنى ثُمَّ يُحْيِين) [2] .

فالأوّل عَطَفَه بالواو التى هى للجمع ، وتقديم الإطعام على الإسقاء ، والإسقاء على الإطعامِ ، جائز ، لولا مراعاةُ حسْنِ النَّظم ، ثم عطفَ الثّانى بالفاَء لأنّ الشفاء يعقُب المرضَ بلا زمانٍ خالٍ من أحدهما ، ثم عطَف الثالث بثُمّ ، لأنّ الإحياء يكونُ بعدَ الموت بزمانٍ ، ولهـذا جِىء فى عطفِه بثُمّ التى هى للتّراخى .

ولو قال قائل فى موضع هذه الآية : الذى يطْعمنى ويسقِين ، ويمرضُنى ويشفِين ويُميتنى ويُحيين ، لـكان للـكلام معنى تامٌّ ، إلا أنّه لايكون كمعنى الآية ، إذ كلُّ شىءٍ مِنْها قد عُطف بما يناسبُه ، ويقع موقع السِّداد منه .

ومما جاء من هذا الباب قوله تعالى (قتِل الإنْسَانُ ما أكْفَرَهْ * من أَىِّ

(١) فى الأصل « فيجعلون ما ينبغى أن يجربعلى بفى فى حروف الجر » وهى عبارة مختلطة لاتبين عن المراد .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ٧٩ و ٨٠ و ٨١

شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)[١] .

ألا ترَى أنه لما قال : (من نطفة خلقه) كيف قال (فقدَّره) ، ولم يقل ثمَّ قدّره ، لأنَّ التقدير لما كان تابعاً للخلقة وملازماً لها عطفهُ عليها بالفاء ؟ وذلك بخلافِ قوله (ثمّ السبيل يسّره) لأن بين خلقته وتقديره فى بطن أمِّه وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مُهْلة وزماناً ، فلذلك عطفه بثُمّ .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : (ثمّ أماتهُ فأَقْبَره * ثم إذا شَاءَ أنشَره) لأنَّ بين إخراجه من بطنِ أمه وبين موته تراخياً وفسْحَة ، وكذلك بين موته ونُشُوره أيضاً ، ولذلك عطفْهما بثُمّ ، ولما لم يكن بَيْن موتِ الإنسان وإقباره تَرَاخٍ ولا مُهْلة عطفَه بالفاء .

وهذا موضعٌ من علم البيان شريفٌ ، وقلّما يتفطّن لاستعماله كما ينبغى .

ومما جاء من ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصّة مريم وعيسَى عليهما السّلام : (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا)[٢] .

وفى هذه الآية دليلٌ على أن حملها به ، ووضعْها إياه كانا متقاربين ، لأنَّه عطفَ الحمل والانتباذَ إلى المكان الذى مضَتْ إليه ، والمخاضَ الذى هو الطّلق بالفاء ، وهى للفوْر ، ولو كانتْ كغيرها من النساء لعطفَ بِثُمَّ التى هى للتّراخى والمهلة .

ألا ترى أنه قد جاء فى الأخرى (قتِل الإنسان ما أكفره * منْ أىِّ

(١) سورة عبس : الآيات ١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢
(٢) سورة مريم : الآيتان ٢٢ و٢٣

شيء خلقه * من نُطفَةٍ خلقه فقدّره * ثم السبيلَ يسره) فلما كانَ بينَ تقديره في البطن ، وإخراجه منه مدةٌ متراخيةٌ ، عطَف ذلك بثمّ ، وهذا بخلاف قصّة مريم — عليها السّلام — فإنّها عُطِفتْ بالفاء . وقد اختلفَ الناسُ في مدّة حملها فقيل إنه كان كحَمل غيرها من النّساء ، وقيل : لا ، بل كان مدّة ثلاثة أيام ، وقيل : أقلّ ، وقيل : أكثر .

وهذه الآية مزيلةٌ للخلافِ ، لأنّها دلّت صريحًا على أن الحملَ والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مُهلة ، وربّما كان ذلك في يومٍ واحدٍ أو أقلّ ، أخذًا بما دلّت عليه الآية .

ومما ورد من هذا الأسلوب قوله تعالى : (ولقَدْ خَلَقنَا الإنسَانَ منْ سلَالةٍ من طِين * ثمّ جَعَلنَاهُ نطفَةً في قرَارٍ مَكِين * ثم خَلقنَا النُّطفَةَ عَلَقةً فخلَقنَا العَلقةَ مُضْغَةً فخلَقنَا المُضغَةَ عِظَامًا فكَسَوْنَا العِظامَ لحمًا ثم أنشأْنَاهُ خَلقًا آخرَ)(١) .

ففي الآية المقَدّمِ ذكرُها قال : (من نطفةٍ خلقه فقدّره) فعطف التقديرَ على الخلق بالفاء ، لأنه تابعٌ له ، ولم يذكرْ تفاصيلَ حالِ المخلوق ، وفي هذه الآية ذكرُ تفاصيل حالهِ في تنقله ، فبدأ بالخلق الأوّل ، وهو خلق آدمَ من طينٍ ، ولما عَطَفَ عليه الخلق الثاني — الذي هو خلق النسل — عطفَه بثُمّ ، لِمَا بينهما من التراخي ، وحيثُ صار إلى التقدير الذي يتبعُ بعضُه بعضًا من غير تراخٍ عطفَه بالفاء ، ولما انتهى إلى جَعْله ذكراً أو أنثى — وهو آخر الخلق عطفَه بثُمّ .

فإن قيل : إنه قد عطفَ المُضغَة على العَلقَة في هذه الآية بالفاء ؛ وفي

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ و١٣ و١٤

أخرى بثمّ ، وهى قوله تعالى : (يا أيُّهَا الناسُ إنْ كُنتُمْ فى رَيْبٍ من البَعْثِ فإنّا خَلَقنَاكُم منْ ترابٍ ثمّ من نُطفَةٍ ثمّ من عَلَقةٍ ثمّ من مُضغَةٍ[1]) .

فالجوابُ عن ذلك[2] . .

* * *

واعلم أن فى حروفَ العطف موضعًا تلتبِسُ فيه الفاء بالواو ، وهو موضعٌ يحتاجُ فيه إلى فضل تأمُّل .

وذلك أنّ فعل المطاوَعة لا يعطَفُ عليه إلا بالفاء دونَ الواو ، وقد يجىء من الأفعال ما يلتبسُ بفعلِ المطَاوعة ، ويعطى ظاهرُه أنه كذلك إلاّ أن معناهُ يكون مُخالفًا لمعنى فعلِ المطاوعة ، فيعطفُ حينئذٍ بالواو ، لا بالفاء ، كقوله تعالى : (وَلَا تُطِـعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاه[3]) .

فقوله (أغفلنا قلبه) ههنا بمعنى صادفْناه غافِلاً ، وليسَ منقولاً عن (غفل) حتى يكونَ معناهُ صددْناهُ ، لأنّه لو كانَ كذلك لكان معطوفًا عليه بالفاء ، وقيل : فاتّبع هواه ، وذلك أنه يكون مطاوعًا ، وفعلُ المطاوَعة لا يعطَفُ إلا بالفاء ، كقولك : أعطيتُه فأخذ ، ودعوتُه فأجابَ ، ولا تقول : أعطيتُه وأخذ ؛ ولا دَعَوْتُه وأجابَ ، كما لا يقال : كسَرْتُه وانكسر ، وكذلك لو كانَ معنى (أغفلنا) فى الآية صددْنا ومنعْنا لكانَ معطوفًا عليه بالفاء ، وكان يقال : ولَا تطِعْ من أغفلْنا قلبه عن ذِكْرنا فاتّبع هواه ، فلما لم يكن كذلك ، وكان العطف عليه بالواو ، فطريقُه أنه لما قال : (أغفلنا قلبه عن ذكرنا ؛ واتبع هواه) أن

---

(١) سورة الحج : الآية ٥

(٢) لم يذكر هذا الجواب فى أصول الكتاب التى بين أيدينا ولا فيما طبع منه .

(٣) سورة الكهف : الآية ٢٨ .

يكون معناه وجدناه غافِلا ، فقد غَفَل لا مَحالةَ ، فكأنَّه قال : ولا تُطع من غفَل قلبُه عن ذكرنا واتبع هواه ، أى لاتطع من فعل كذا وكذا ، يعدِّد أفعاله التى توجبُ تركَ طاعَتِه ، فاعرف ذلك .

حروف الجر :

وأمّا حروفُ الجرِّ فإن الصَّواب يشذُّ عن وضْعِها فى مواضعها ، وقد عُلِمَ أن (فى) للوعاء ، و (على) للاستعْلاء ، كقولهم : زيدٌ فى الدار ، وعمرو على الفرس ، لكنْ إذا أُريدَ استعمالُ ذلك فى غير هذين الموضِعَين مما يشْكلُ استعماله عُدِل فيه عن الأوْلى .

فمِمّا وردَ منه قوله تعالى : قُل مَن يَرزُقُكُم مِنَ السّمٰوَاتِ وَالأرضِ قُلِ اللهُ وَإنّا أَو إيّاكُم لعَلَى هدًى أو فى ضَلَالٍ مُبين[1]) .

ألا ترى إلى بَداعة هذا المعنى المقصود لمخالفةِ حَرفى الجرِّ ها هنا ، فإنه إنما خُولف بينهما فى الدُّخُول على الحقِّ والباطل لأنّ صاحبَ الحقّ كأنه مستعلٍ على فرس جوادٍ يركضُ به حيثُ شاء ، وصاحب الباطل كأنَّه مُنْغَمِسٌ فى ظلام منخفِضٍ فيه : لا يدرى أين يتوجّه ، وهذا معنًى دقيق ، قلما يراعى مثله فى الكلام .

وكثيراً ما سمعتُ إذَا كان الرَجُل يلومُ أخاه أو يعاتبُ صديقَه على أمر من الأمور ، فيقولُ له : أنْتَ على ضلالك القديم كما أعَهَدْك ، فيأتى بعَلَى فى موضع « فى » وإن كانَ هذا جائزاً ، إلّا أنّ استعمالَ « فى » ههنا أوْلَى ، لما أشرْنا إليه .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٤

ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة يوسف : (قالُوا تاللهِ إنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ[1]) .

ومن هذا النوع قوله تعالى : (إنَّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ والْمَساكِينِ والْعَامِلِينَ عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفى الرِّقابِ والغَارِمِينَ وفى سَبِيلِ اللهِ وابْنِ السَّبِيلِ[2]) .

فإنَّه إنَّما عَدَلَ عن اللاَّم إلى [فى] فى الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخُ فى استْحقاق التصدُّق عليْهم ممن سَبَق ذِكرُه باللام ، لأنَّ [فى] للوعاء فنبَّه على أنَّهم أَحِقَّاء بأن توضَعُ فيهم الصَّدقات ، كما يوضَع الشىءُ فى الوعاء ، وأن يُجْعلوا مَظِنَّةً لها ، وذلك لما فى فكِّ الرقابِ وفى الغرْم من التخلص ، وتكرير [فى] قوله [وفى سبيل الله] دليلٌ على ترجيحِه على الرِّقاب وعلى الغارمين ، وسياقُ الكلام أن يقال : وفى الرِّقابِ والغارمين وفى سبيل الله وابن السَّبيل ، فلمَّا جىء بفى مرَّة ثانية ، وفصل بها بين الغارمينَ وبين سَبيل الله ، علم أنَّ سبيل اللهِ أوكدُ فى استحقاق النَّفقة فِيه .

وهذه لطائفُ ودقائق لاتوجد إلا فى هذا الكلامِ الشريفِ ، فاعرفها ، وقِسْ عليها .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٩٥

(٢) سورة التوبة : الآية ٦٠

النوع الحادى عشر

فى الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الإسمية والفرق بينهما

ولم أذكر هذا الموضع لأن يجرى الأمرُ فيه على ما يجرى مجراه فقط، بل لأنْ يقاسَ عليه مواضع أخرى مما تماثله وتُشابهه، ولو كان شبهاً بعيداً.

وإنَّما يُعْدَلُ عن أحدِ الخطَابين إلى الآخر لضربٍ من التأكيد والمبالغة.

فمن ذلك قولُنا: قام زيدٌ، وإنَّ زيداً قائم، فقولنا: [قام زيد] معناهُ الإخبار عن زيد بالقيام، وقولنا: [إن زيداً قائم] معناهُ الإخبارُ عن زيدٍ بالقيامِ أيضاً، إلا أنّ فى الثانى زيادةً ليستْ فى الأول، وهى توكيدُه بإنّ المشدَّدة التى من شأنها الإثباتُ لما يأتى بعدَها، وإذا زيدَ فى خبرها اللامُ، فقيل: إن زيداً لقائمٌ، كان ذلك أكثر توكيداً فى الإخبار بقيامه، وهذا مثالٌ ينْبنى عليه أمثلة كثيرةٌ من غير هذا النَّوع.

فمما جاء من ذلك قوله تعالى: (وإذَا لقُوا الذينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وإذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ)[1] فإنهم إنما خاطبوا المؤمنينَ بالجملة الفعلية، وشياطِينَهُم بالجملةِ الإسميَّة المحقّقة بإنّ المشدّدة، لأنهم فى مخاطبةِ إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسِهم من الثّبات على اعتقادِ الكُفْر، والبعْدِ من أن يَزِلُّوا عنه على صدقٍ ورغبةٍ ووُفور نشاطٍ، فكان ذلكَ مُتقَبَّلًا منهم ورائجاً عند إخوانهم.

وأمّا الذى خاطبُوا به المؤمنينَ فإنَّما قالوه تكلُّفاً وإظهاراً للإيمان

(١) سورة البقرة : الآية ١٤

خوفًا ومداجاةً ، وكانوا يعلمون أنَّهم لو قالوه بأوكد لفظٍ وأسدّه لما راجَ لهُم عند المؤمنين إلا رواجًا ظاهراً لا باطنًا ، ولأنهم ليسَ لهم فى عقائدهم باعثٌ قويٌّ على النُّطق فى خطابِ المؤمنين بمثل ما خاطَبوا به إخْوَانَهمْ من العبارة المؤكَّدة فلذلك قالوا فى خطاب المؤمِنين : [آمنا] وفى خطاب إخوانهم : [إنَّا معكم] .

وهذه نُكَتٌ تخفى على من ليسَ له قَدَمٌ راسخةٌ فى علم الفصاحةِ والبلاغة .

ومما يجرى هذا المجرى وُرُودُ لَامِ التوكيد فى الكلام ، ولا يجيءُ ذلك إلا لضربٍ من المبالغة .

وفائدتُه أنَّه إذَا عبر عن أمْرٍ يعزُّ وجُوده ، أو فعلٍ يكثر وقوعه ، جىء باللاّم ، تحقيقًا لذلك .

فممّا جاء مِنه قوله تعالى فى أوّل سورة المنافقين : (إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالوا نَشْهَدُ إِنّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إنكَ لرسولُهُ واللهُ يشْهَدُ إنّ المُنَافِقِين لَكاذبون[1]) .

فانظر إلى هذه اللامات الثّلاثةِ الواردةِ فى خَبَرِ إنّ ، والأولى وردَت فى قول المنافقين ، وإنّما وردتْ مؤكَّدة لأنّهم أظهرُوا من أنفسهم التّصديق برسالةِ النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، وتملقوا له ، وبالغوا فى التّملق ، وفى باطنهم خلافهُ ، وأمّا ما وردَ فى الثانية والثالثة فصحيحٌ لاريبَ فيه ، واللامُ فى الثانية لتصديق رسالتِه ، وفى الثّالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التّصديق الذينَ هم على خلافه .

(١) سورة المنافقون : الآية ١

وكذلك وردَ قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وإنّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ ويَلْعَبْ وإنّا لهُ لَحَافظونَ)[1] .

فإنه إنّما جىء باللّام ههُنا لزيادة التّوكيد فى إظْهار المحبّة ليوسُفَ عليه السّلام والإشفاق عليه ، ليبلغُوا الغرضَ من أبيهم فى السّماحة بإرساله معهم .

ومن هذا الباب قولُه تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُون * لوْ نَشَاءُ لَجَعلْنَاهُ حُطَامًا فظَلْتُمْ تفَكَّهون[2]) . ثم قال : أفرَأيتُمُ الْمَاء الذى تَشربُون * أأنتُمْ أنزَلْتموهُ مِنَ الْمزْنِ أمْ نَحنُ الْمنزِلون * لوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجاجًا فَلوْلَا تَشْكرُون)[3] .

ألا تَرَى كَيْفَ أُدْخِلَتِ اللاَّمُ فى آيةَ المطعُوم ، دونَ آيةِ المشْروب ؟ وإنَّما جاءتْ كذلك لأنَّ جَعْل الماء العذبِ ملحاً أسهلُ إمكاناً فى العُرف والعادة ، والموجودُ من الملح أكثر من الماءِ العذْب ، وكثيراً ما إذا جَرت المياهُ العذْبةُ على الأراضى المتغيِّرةِ التُّرْبة أحالتها إلى الملوحة . فلم يحتجْ فى جعل الماء العذب ملحًا إلى زيادة تأكيد ، فلذلكَ لم تدخُلْ عليه لامُ التأكيد المفيدة زيادة التّحقيق ، وأمّا المطعومُ فإنّ جعْلَه حطامًا من الأشياء الخارجةِ عن المعتاد ، وإذا وَقعَ فلا يكونُ إلا عن سَخَطٍ من اللهِ شديد ، فلذلك قُرِنَ بلام التأكيد زيادةً فى تحقيق أمره ، وتقرير إيجادِه .

ومِمّا يتّصل بذلك قوله تعالى : (وإنّا لَنَحْنُ نُحْيِي ونُمِيتُ ونَحْنُ

---

(١) سورة يوسف : الآيتان ١١ و١٢

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٦٣ و٦٤ و٦٥

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٦٨ و٦٩ و٧٠

الوارِثون)[1] فاللاَّمُ فى « لَنَحْن » هى اللامُ المشَارُ إليها .

وكذلك وردَ قوله تعالى : (وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا مِنْكم وعَملوا الصّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفنّهمْ فى الأرْضِ كما استَخْلَفَ الذينَ من قبْلِهمْ ولَيمكِّنَنّ لهمْ دِينَهمْ الذى ارْتَضَى لهم وليبَدِّلنّهمْ مِنْ بَعْدِ خوْفِهِمْ أمْنًا)[2] فإنّ هذه اللام فى قوله (ليستخْلِفنهم) و (ليمكنن) و (ليبدِّلنّهم) إنّما جاءت لتحقيق الأمر ، وإثباته فى نفوس المؤمنين ، وأنه كائن لا محالة .

وممّا يجرى هذا المجرى فى التوكيد لام الابتداء المحقِّقة لما يأتى بعدها ، كقوله تعالى : (إذْ قالوا لَيوسُفُ وأخوه أحَبُّ إلى أبينَا مِنّا)[3] فاللامُ فى [لَيُوسُفُ] لامُ الابتداء ، وفائدتُها تحقيق مضمونِ الجملة الواردة بعدَها أى أنَّ زيادة حبَّه إيَّاهما أمرٌ ثابتٌ لا مراءَ فيه .

ومن هذا النَّوع قولُ بعضهم :

وَالشَّيْبُ إنْ يَظْهَرْ فإنَّ وراءَهُ ... عُمْراً يَكُون خِلَالَهُ مُتَنَفَّسُ

لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّى المشِيبُ قُلَامَةً ... ولَمَا بَقِى مِنِّى أَلَبُّ وأَكْيَسُ

فقوله : [ولَمَا بقى منِّى] تقديرُه : وما بقِى منِّى ، وإنما أدخَل على [ما] هذه اللاَّم قصداً لتأكيد المعْنى لأنَّه موضعٌ يحتاج إلى التأكيد ، ألا ترَى أنَّ قوَّة العمر فى الشَّباب ؟ ولمَّا أراد هذا الشاعرُ أن يصفَ المشِيب — وليس ممَّا يوصَف ، وإنما يُذمّ — أتى باللاّم لتؤكد ماقصَده من الصِّفة .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢٣

(٢) سورة النور : الآية ٥٥

(٣) سورة يوسف : الآية ٨

وكذلكَ وردَ قول الشّاعر [1] من أبياتِ الحماسة :

إنّا لنَصْفَحُ عَنْ مَجاهِلُ قَوْمِنا ونُقيمُ سالِفَةَ العَدوِّ الأصْيَدِ [2]

ومَتى نَجِدْ يَوْماً فَسَادَ عَشِيرةٍ نُصْلِحْ وإنْ نَرَ صالحاً لانُفْسِدِ [3]

وهذا كثيرٌ سائغٌ فى الكلام ، إلا أنّه لا يتأتى لمكان العناية بما يعبَّر به عنه .

ألا تَرى إلى قول الشاعر : [إنّا لنصفَحُ عن مجاهل قومنا] فإنّه لما كان الصَّفح مما يشقُّ على النفس فعلُه ، لأنه مقابلةُ الشرِّ بالخير ، والإساءةِ بالإحسان ، أكّدَه باللاّم ، تحقيقاً له .

فإن عرى الموضعُ الذى يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار إليها وما يجْرى مجراها فإنَّ ورودَ اللام فيه لغير سببٍ اقتضاه .

وأكثرُ ماتستعملُ هذه اللام فى جوابِ القسم ، لتحقيق الأمر الْمقْسَم عليه ، وذلك فى الإيجابِ دونَ النّفى ، لأنها لا تستعملُ فى النّفى .

ألا تَرى أنّه لايقال : واللهِ للاَقُمْت ، وإنما يقال : واللهِ قُمْت ، لكنْ فى الإيجاب تُستعمل ، ويكونُ استعمالها حسناً ، كقولك : والله لأقومُ [4] فإنْ

---

(١) هو مضرس بن ربعى ، أحد بنى أسد ، شاعرجاهلى محسن ، وانظر البيتين وما بعدهما فى حماسة أبى تمام (٢ / ٣٦)

(٢) المجاهل جمع مجهلة ، وهى مايحمل على الجهل ، والسالفة صفحة العنق ، والأصيد الذى يرفع رأسه كبراً .

(٣) رواية ديوان الحماسة «ومتى نخف» موضع «ومتى نجد» .

(٤) التوكيد بالنون هنا واجب ، لأن الفعل مضارع مثبت وقع جوابا للقسم ، ولااختيار حينئذ للمتكلم ، وإن كان التأكيد يحقق الغاية التى بينها ابن الأثير ، ولكن النون شرط فى الصحة أيضاً .

أُضِيفَ إليها النُّونان الخفيفةُ والثقيلة كان ذلك أبلَغ فى التأكيد ، كقولك . [والله لأقومنَّ] .

وعلى ذلك وردت الآية المتقدِّم ذِكرُها ، وهى قوله تعالى : (وعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا مِنْكمُ وعَمِلوا الصّالحَاتِ) وإنْ لمْ يكنْ جوابًا لِقَسمٍ ؛ فالنونُ الواردةُ بعدَ اللام زيادةٌ فى التأكيد وهما تأكيدَانِ أحدُهما مُرْدَفٌ بالآخر :

وكذلك فاعلم أن النُّون الثقيلة متصلةٌ بهذا الباب ، فإذا استُعملت فى موضع فإنَّما يقصدُ بها التأكيد .

فممَّا جاء منها قول البحترى[(١)] فى معاتبةِ الفتحْ بنْ خافان[(٢)] :

هَلْ يَجْذِبَنَّ[(٣)] إلىَّ عطفك موقِفٌ ثبْتٌ لديْكَ أقولُ فيه وتَسْمَعُ

(١) ديوان البحترى ١ / ٢١ من قصيدة له مطلعها :

شوق إليك تفيض منه الأدمع وجوى عليك تضيق عنه الأضلع

(٢) الذى فى الديوان أنه قال هذه القصيدة فى مدح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وفى القصيدة ما يؤكد أنها فى مدح الخليفة المتوكل ، لاوزيره الفتح بن خاقان ومن ذلك قوله :

شرفا بنى العباس إن أباكم عم النبى وعيصه المتفرع
إن الفضيلة للذى استبق به عمر وشفع إذ غدا يستشفع
وأرى الخلافة وهى أعظم رتبة حقاً لكم ووراثة ما تنزع
أعطاكموها الله عن علم بكم والله يعطى من يشاء ويمنع
من ذا يساجلكم وحوض محمد بسقاية العباس فيكم يشفع
ملك رضاه رضا الملوك وسخطه حتف العدا ورداهم المتوقع
متكرم متورع من كل ما يتجنب المتملك المتورع
يا أيها الملك الذى سقت الورى من راحتيه غمامة ما تقلع

(٣) فى الأصل « تحملن » وهو تصحيف ، والتصويب عن الديوان .

ما زالَ لى من حُسْنِ رأيك موئلٌ آوِى إليْهِ منَ الخطُوبِ ومَفْزَع
فَعلامَ أنكَرْتَ الصَّدِيقَ وأقبَلَتْ نحوى رِكابُ (١) الكاشحين تَطَلَّعُ
وأقامَ يطمعُ فى تهضُّمِ جانبِى مَنْ لم يكُنْ من قبلُ فيه يَطْمَعُ
إلا يكُنْ ذَنبٌ فعدلُك واسِعٌ أو كانَ لى ذَنبٌ فعَفوكَ أوْسَعُ

وهذه أبيات حسنة [مليحة] فى بابها ، يمحى بها حرُّ الصُّدود ، ويُستمال بها صَعَر الخدود ، وإنما ذكرتُها بجُملتها لمكان حُسنها .

والبيتُ الأوّل هو المراد ألا ترَى أنَّه قال : [هل يجابنّ إلىَّ عطفك موقف] فالنونُ جاءتْ قصداً للتأكيد ، وهو فى هذا المقامِ مُتمَنٍّ ، فأحبَّ أنْ يؤكد هذهِ الأمنيّة .

وكلُّ مايجىء من هذا البابِ فإنه واقعٌ هذا الموقع ، وإذا استُعْمل عبثًا لغير فائدةٍ تقتضيه فإنّه لا يكونُ استعماله إلا من جاهل بالأسرار المعنَويّة .

وأمّا مايمثّل به النُّحَاةُ من قول القائل : واللهِ لأقومَنّ ، فإنه مثالٌ نحوى يُضرب للجواز ، وإلا فإذا قال القائلُ : والله لأقومَنّ ، وأكده ، كانَ ذلك لغواً ، لأنه ليس فى قيامه من الأمرِ العَزيز ، ولا من الأمر العَسير ، ما يحتاجُ معَه إلى التأكيد ، بل لو قال : والله لأقومَنَّ إليك ، مهدِّداً له ، لكان ذلك واقعًا فى موقعه .

فافهمْ هذا ، وقِسْ عليه .

---

(١) فى الأصل « جناب » موضع « ركاب » والتصويب عن الديوان .

النـــوع الثانى عشر

فى قوة اللفظ لقوة المعنى

هذا النوعُ قد ذكره أبو الفتح بنُ جنّى فى كتاب [الخصائص] إلا أنه لم يورده كما أوردتُه أنا ، ولا نبّه على ما نبّهتُ عليه من النُّكَتِ التى تضمّنته وهذا يظهرُ بالوقوفِ على كلامى وكلامه .

فأقولُ : اعلمْ أن اللفظ إذا كانَ على وزنٍ من الأوزانِ ثم نقل إلى وزنٍ آخر أكثر منه فلا بُدَّ من أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمّنه أولا ؛ لأنَّ الألفاظ أدِلةٌ على المعانى ، وأمثلة للإبانة عنها ، فإذا زيدَ فى الألفاظ أوجبتَ القسمةُ زيادة المعانى ، وهذا لا نزاعَ فيه لبيانه .

وهذا النوعُ لا يستعملُ إلا فى مقام المبالغة .

فمن ذلكَ قولُهم : خَشُن ، واخْشَوْشَنَ ، فمعنى [خشُن] دُون معنى [اخشَوْشَن] لما فيه من تكرير العيْن ، وزيادة الواو ، نحو فَعَلَ ، وافْعَوعَل .

وكذلك قولُهم : أعْشَبَ المكانُ ، فإذا رأوا كثرة العُشْب قالوا : [أعشَوْشَبَ] .

وممّا ينتظم بهذا السِّلك : قَدَرَ ، واقتَدَرَ ، فمعنى [اقتدر] أقوى من معنى [قدر] قال الله تعالى : (فأَخَذْنَاهمْ أَخْذَ عَزيزٍ مقتدرٍ)[1] فمقتدرٌ هاهنا أبلغ من قادر ، وإنّما عُدِل إليه للدّلالة على التفخيم للأمر ، وشدَّة الأخذِ الذى لا يصدُر إلا عن قوَّة الغضب ، أو للدّلالة على بَسْطةِ القُدرة ، فإنَّ المقتدرَ أبلغُ فى البسْطة من القادرِ ، وذاك أنّ [مقتدر] اسمُ فاعلٍ من [اقتدر] و [قادر] اسمُ فاعلٍ من [قَدَر] ولا شك أن [افتعل] أبلغُ من [فَعَلَ] .

(١) سورة القمر : الآية ٤٢ .

وعلى هذا وَرَدَ قولُ أبي نُواس (١) :

فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوَ مُقْتَدِرٍ حَلَّتْ لَهُ نِقَمٌ فألْغَاها

أي عفوتَ عني عفوَ قادرٍ متمكِّن القدرةِ لا يردُّه شيءٌ عن إمضاء قدرته .

وأمثالُ هذا كثيرة .

وكذلك وردقولُه تعالى في سُورة نُوحٍ عليه السَّلام : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا ربَّكم إنهُ كانَ غَفَّاراً) (٢) فإنَّ [غفارًا] أبلغُ في المغفرة من [غَافِر] ، لأنَّ [فَعَّالًا] يدلُّ على كثرة صدُور الفعل ، و [فاعِلًا] لا يدلُّ على الكثرة .

وعليه وردَ قوله تعالى : (إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابينَ ويُحِبُّ المتطَهِّرين) (٣) فالتّوابُ هو الذى تتكرّر منْه التوبة مرَّة على مرَّة ، وهو [فعَّال] ، وذلك أبلغُ من التائبِ الذى هو [فاعِل] ، فالتائبُ اسم فاعلٍ من تَاب يَتوبُ ، فهو تائب ، أى صدرتْ منه التوبةُ مرةً واحدة ، فإذا قيل [توّاب] كان صدُور التوبة منه مرارًا كثيرة .

وهذا وما يجرى مجراه إنَّما يعمد إليه لضربٍ من التوكيد ،ولا يوجَدُ ذلك إلا فيما فيه معنَى الفِعْلِيَّة ، كاسْم الفاعِل ، والمفعُول ، وكالفِعْلِ نفسه ، نحو قوله

(١) ديوان أبي نواس ١٠٩ من أبيات أربعة كتب بها إلى الفضل بن الربيع بعد إطلاقه من السجن ، و الأبيات الثلاثة التى قبل هذا البيت :

ما من يد فى الناس واحدة كيد أبو العباس أولاها
نام التقاة على مضاجعهم وسرى إلى نفسى وأحياها
قد كنت خفتك ثم أمننى من أن أخافك خوفك الله

(٢) سورة نوح : الآية ١٠

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٢

تعالى : (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هم والْغَاوون)[1] فإنَّ معنى [كُبْكِبُوا] من الكَبِّ ، وهو القَلْب ، إلا أنَّه مكرّر المعنَى ، وإنما استُعْمِل فى الآية دلالة على شدّة العقابِ؛ لأنَّه موضعٌ يقتضى ذلك .

ولربَّما نظرَ بعض الجهَّال فى هذا ، فقاسَ عليه زيادةَ التَّصغير ، وقال : إنها زيادة ؛ ولكنها زيادةُ نقصٍ ، لأنَّه يُزَاد فى اللفظ حرفٌ ، كقولهم فى الثُّلاثى فى رَجل : « رُجَيل » ، وفى الرُّباعىُ فى قنديل : [قُنَيْدِيل] فالزيادة وردَتْ ههنا فنقصتْ من معنَى هاتين اللفظتَين .

وهذا ليسَ من البابِ الذى نحنُ بصدَدِ ذِكره ، لأنَّه عارٍ عن معنى الفعليَّة ، والزيادة فى الألفاظ لا توجبُ زيادةً فى المعانى إلا إذا تضمّنتْ معنَى الفعليَّة ، لأنَّ الأسماء التى لا معنى للفعل فيها إذا زيدَتْ استحالَ معناها .

ألا ترى أنَّا لو نقلْنا لفظة [عذب] — وهى ثلاثيّةٌ — إلى الرباعىِّ ، فقلنا [عَذْيَب] على وزن [جَعفر] لاستحالَ معناها ، ولم يكنْ لها معنًى .

وكذلكَ لو نقلْنا لفظة [عَسْجَد] وهى رُباعيَّة إلى الخماسِىِّ ، فقلنا : [عَسْجَدِد] على وزن [جَحْمَرِش] لاستحالَ معناها .

وهذا بخلافِ ما فيه معنى الفعليَّة كقادر ومُقتدر ، فإنَّ [قادر] اسمُ فاعل [قدر] وهو ثلاثى ، و [مقتدر] اسم فاعل [اقتدر] وهو رباعىّ ، فلذلك كان معنى القدرة فى اقتدر أشدّ من معنى القُدرةِ فى قدَر ، وهذا لا نزاعَ فيه .

وهذا البابُ بجملتِه لا يقصَدُ به إلا المبالغَةُ فى إيرَادِ المعانى ، وقد يُسْتَعمَلُ

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٩٤

فى مقامِ المبالغة ، فينعكسُ المعنى فيه إلى ضدّه ، كما جاء لأبى كرّامٍ التَّمِيمِىِّ (١) من شعراء الحماسة ، وهو قوله :

لِلّهِ تَيْمٌ أىُّ رُمْحِ طِرَادِ لاقَى الحِمَامَ وأىُّ نَصلِ جِلَادِ (٢)

ومِحَشِّ حَرْبٍ مُقْدِمٍ مُتَعَرِّضٍ لِلْمَوْتِ غَيْرَ مُكَذِّبٍ حيَّادِ (٣)

فلفظة [حيّاد] قد وردَتْ ههنا ، وإنما أوردَها هذا الشاعرُ ، وقصد بها المبالغة فى وصفِ شجاعةِ هذا الرَّجل ؛ فانعكسَ عليه المقصدُ الذى قصدَه ، لأن [حيَّادا] من [حيَّد] فهو [حَيَّاد] أى وجد منه الحَيْدُودةَ مراراً ، كما يُقال : [قَتَّل] فهو [قتّال] أى وُجد منه القتلُ مراراً ، وإذا كان هذا الرجُل غير حيّاد كان حائداً ، أى وُجدت منه الحيدودةُ مرةً واحدةً ، وإذا وجدتْ منه مرَّة كان ذلك جُبْناً ، ولم يكنْ شجاعةً ، والأوْلى أنْ كان قال : غير مكذِّب حائدٍ .

---

(١) اسمه زاهر -- كما فى شرح التبريزى ١/٢٨٠ — وكان بارز رجلا يقال له « تيم » وكان أحد الفرسان ، فقتله زاهر ، وأخذ يفخم أمره ، لأن ثناءه عليه وإكباره له راجع إليه ، إذ صار قتيله .

(٢) رواية الحماسة للشطر الثانى

* لاقى الحمام به ونصل جلاد *

واللام فى « لله تيم » للتخصيص والتعجب ، مثل قولهم « لله درة » وقوله « أى رمح طرد » تعجب أيضاً .

(٣) فى الأصل جياد موضع « حياد » والتصويب عن الحماسة ، وقوله محش حرب معطوف على رمح ، جعله آلة للحش ، وهو إيقاد النار ، وفى الحماسة غير معرد موضع « غير مكذب » والتعريد ترك القصد وسرعة الانهزام ، والحياد المائل

وينبغى أنْ يُعْلَم أنَّه إذا وردتْ لفظةٌ من الألفاظ ويجوزُ حملُها على التَّضعيفِ الذى هو طريقُ المبالغة ، وحملُها على غيره ، أنْ يُنظرَ فيها ، فإن اقْتضى حملها على المبالغة فهو الوجه .

فمن ذلك قَوْلُ البحتريّ فى قصيدته التى مطلعها :

* مُنَى النَّفْسِ فى أسْماءَ لو تَسْتَطِيعُها[1] *

وهى قصيدةٌ مدحٌ بها الخليفة المتوكل — رحمه الله — وذكر فيها حديث الصُّلح بيْن بنى تَغلب ، فممَّا جاء فيها قولُه :

رَفَعْتَ بِضَبْعَىْ تَغْلِبِ ابنَةِ وائِلٍ   وقَدْ يئِسَتْ أنْ يستقِلَّ صريعُهَا
فكُنْتَ أمينَ اللهِ مَوْلَى حَيَاتِها   ومَوْلاكَ فتحٌ يومَ ذاك شَفِيعُها
تألَّفْتَهُم من بَعدِ ما شَرَّدَتْ بِهِم   حَفائظُ أخلَاقٍ بَطِيءٍ رُجُوعُها
فأبْصَرَ غَاوِيها المَحَجَّةَ فاهْتدَى   وأقْصَرَ غاليها ودَانَى شَسُوعُها

فقوله [تألَّفْتهم من بَعْدِ ماشردتَ بهم] يجوزُ أن تخفَّف لفظة [شَرَّدَتْ] ويجوز أن تثقل ، والتثقيلُ هو الوجْهُ ، لأنه فى مقام الإصْلاح بين قوم تنازَعُوا واختلفوا ، وتباينَت قلوبهم وآراؤهم .

وكلُّ مايجىء من الألفاظ على هذا النَّحو فيَنْبغى أن يجْرى هذا المجرى .

وهاهنا نُكتةٌ لابدَّ من التنبيه عليها ، وذلك أن قُوَّة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا فى نَقل صيغةٍ إلى صيغةٍ أكثر منها ، كنقلِ الثلاثىِّ إلى الرباعىِّ ،

---

(١) عجز هذا المطلع هو :

* بها وجدها من غادة وولوعها *

وهى أولى قصائد الديوان ١/٢ وقد قالها البحترى فى مدح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، ويذكر صلح بنى تغلب .

وإلاَّ فإذا كانتْ صيغة الرُّباعى مثلًا موضوعة لمعنى فإنَّه لايراد به ما أريد من نقل الثلاثى إلى مثْل تلك الصِّيغة .

ألا ترَى أنَّه إذا قيل فى الثُّلاثى [قتَل] ثم نقل إلى الرباعىِّ فقيل [قتَّل] بالتشديد فإنَّ الفائدة من هذا النقل هى التكثير ، أى أنَّ القتلَ وُجد منه كثيراً ، وهذه الصيغة الرُّباعيةُ بعيْنِها لو وردتْ من غير نقْل لم تكنْ دالَّة على التكثير كقوله تعالى : (وكَلَّمَ اللهُ موسَى تَكْلِيمًا)(١) فإنَّ [كلَّم] على وزن [قتَّل] ولم يُرَدْ به التكثير ، بل أُريد به أَنه خاطبه ، سواء كانَ خطابُه إياه طويلًا أو قصيراً ، قليلًا أو كثيراً ، وهذه اللفظةُ رُباعيَّة ، وليسَ لها ثلاثىٌّ نقلَتْ عنه إلى الرباعىّ ، لكن قد وردَتْ بعينها ، ولها ثلاثىٌّ ورُباعىّ ، فكان الرُّباعى أكثر وأقوى فيما دَلَّ عليه من المعنى ، وذلك أن تكون [كلّم] من الجرح : أى جرَّح ، ولها ثُلاَثِىٌّ وهو [كَلَمَ] مخففاً ، أى جرَح ، فإذا وردَتْ مخفَّفة دلّت على الجراحة مرةً واحدة ، وإذا وردَتْ مثقَّلة دلَّت على التكثير .

وكذلك ورَدَ قوله تعالى : (ورَتِّلِ الْقُرآنَ ترتيلًا)(٢) فإنَّ لفظة [رتِّل] على وزن لفظة [قتِّل] ومع هذا ليست دالَّة على كثرة القراءة ، وإنما المرادُ بها أن تكونَ القراءةُ على هيئةِ التأنى والتدبُّر ، وسببُ ذلك أنَّ هذه اللفظة لاثلاثىَّ لها ، حتى تنقل عنه إلى الرُّباعىّ ، وإنما هى رباعيّة موضوعةٌ لهذه الهيئة المخصوصَة من القراءةِ .

وعلى هذا فلا يستقيمُ معنَى الكثرة والقوَّة فى اللفظ والمعنى إلاَّ بالنقل من وزنٍ إلى وزنٍ أعلى منه ، فاعرفْ ذلك .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

(٢) سورة المزمل : الآية ٤ .

ومن هاهنا شذَّ الصواب عمَّن شذَّ عنه فى [عالم] و [عليم] فإنَّ جمهورَ علماء العربية يذهبون إلى أن [عليما] أبلغُ فى معنى العِلم من [عالم] وقد تأملتُ ذلك ، وأنعمتُ نظرِى فيه ، فحصل عندى شكٌّ فى الّذى ذهبُوا إليه ، والذى أوجبَ ذلك الشكَّ هو أنّ عالمًا وعليما على عدّةٍ واحدة ، إذ كلٌّ منهما أربعة أحرف ، وليسَ بينهما زيادة ينقل فيها الأدْنى إلى الأعْلى .

والذى يوجِبُه النظر أن يكونَ الأمرُ على عكسِ ماذكرُوه ، وذاك أنْ يكون [عالم] أبلغ من [عليم] ، وسببه أن عالمًا اسمُ فاعِل من [عَلِم] وهو مُتَعَدٍّ ، وأن عليما اسمُ فاعِل من [علُم] إلا أنَّه أشْبَه وزْن الفعل القاصِر ، نحو شرفُ فهو شريف ، وكَرُم فهو كريم ، وعظُم فهو عظيم ، فهذا الوزنُ لا يكونُ إلا فى الفعل القاصر ، فلما أشْبَهه [عليم] انحطَّ عن رتبة [عالم] الذى هو متعدٍّ ، ألا ترى أن [فَعِل] — بفتح الفاء وكسْر العيْن — يكون متعدِّيًا نحو عَلم وحَمِد ، ويكونُ قاصراً غير متعدٍّ ، نحو غضِبَ وشَبِع ، وأما [فَعُل] — بفتح الفاء وضمّ العين — فإنه لا يكون إلا قاصراً غير متعدٍّ ، ولما كان [فَعِلَ] — بفتح الفاء وكسْر العين — متردِّداً بين المتعدِّى والقاصِر ، وكان [فعُل] بفتح الفاءِ وضمِّ العين — قاصراً غير متعدٍّ صار القاصِرُ أضعفَ مما يدور بين المتعدِّى والقاصِر ، وحيثُ كان الأمر كذلكَ وأشبَه وزنُ المتعدِّى وزنَ القاصر حطَّ ذلك من دَرجته ، وجعله فى الرُّتبة دونَ المتعدِّى الذى ليسَ بقاصرٍ .

هذا هو الّذى أوجبَ لى التّشْكِيك فيمَا ذهَبَ إليـه غيرى من علَمَاء العربيَّـة ولربّما كانَ ماذهبُوا إليْه لأمر خَـفِىَ عنى ، ولم أطّلِعَ عليه .

النـــــوع الثالث عشر

فى عكس الظاهر

وهو نَفْيُ الشَّىْء بإثباته ، وهو من مُسْتَطْرَفاتِ علم البيان ، وذاك أنَّك تذكر كلامًا يدلُّ ظاهرُه أنه نفىٌ لصفةِ موصوف وهو نفىٌ للموصوف أصْلا .

فمما جاء مِنْه قولُ علىٍّ بن أبى طالبٍ — رضى الله عنه — فى وصف مجلس رسُول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُنْثَى فَلَتَاتُه » أىْ : لاتُذَاعُ سَقطاتُه .

فظاهرُ هذا اللفظ أنَّه كان ثَمَّ فلتاتٌ ، غير أنَّها لا تُذاع ، وليْسَ المرادُ ذلك ، بل أرادَ أنَّه لم يكنْ ثمَّ فلتاتٌ فتُنْثَى .

وهذا من أغْرب ما توسَّعت فيه اللُّغةُ العربيَّةُ ، وقد ورد فى الشِّعر كقول بَعْضِهم (١) :

* ولَا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِر (٢) *

فإنَّ ظاهرَ المعنَى من هذا البيتِ أنَّه كانَ هناكَ ضَبٌّ ، ولكنَّه غيرُ مُنْجَحِر ، وليس كذلك ، بل المعنى أنَّه لم يكن هناكَ ضَبٌّ أصلًا .

وهذا النوعُ من الكلامِ قليلُ الاستعمال . وسببُ ذلك أن الفهمَ يكاد يأباهُ ، ولا يقبله إلاَّ بقرينةٍ خارجةٍ عن دلالةِ لفظِه على معناه ، وما كانَ عاريا عن قرينةٍ فإنَّه لا يفْهَمُ منه ما أرادَ قائله :

وسأوضِّح ذلك فأقول : أمَّا قولنا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) وهو عمرو بن أحمر الباهلى من أبيات يصف فيها فلاة .

(٢) صدر هذا البيت قوله :

* لا تفزع الأرنب أهوالها *

[لا تَنْثَى فلتاته] فإنَّ مفهومَ هذا اللَّفظ أنَّه كانتْ هناكَ فلتَاتٍ ، إلا أنَّها تطوَى ولا تنشَر ، وتكتمُ ولا تذاع ، ولا يفْهمُ منه أنَّه لم يكنْ هناك فلَتات إلاَّ بقرينةٍ خارجةٍ عن اللّفظ ، وهي أنَّه قد ثَبَت في النُّفوس ، وتقرَّر عند العُقول أنَّ مجالسَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم مُنزَّهٌ عن فلتاتٍ تكونُ به وهو أكرمُ من ذلك وأوْقَر ، فلمَّا قيل : إنَّه [لا تنثى فَلَتاتُه] فهمْنا منه أنَّه لم يكن هناك فلتاتٌ أصلًا ، وأمّا قولُ القائل :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ *

فإنه لا قرينةَ تخصِّصُه ، حتى يُفْهم منه ما فُهِم من الأوَّل ، بل المفهومُ أنَّه كان هناكَ ضَبٌّ ، ولكنَّه غير مُنْجَحِر .

ولقدْ مكثْتُ زمانًا أطوف على أقْوالِ الشُّعراء ، قصداً للظَّفر بأمثلةٍ من الشعر جاريةٍ هذا المجرى ، فلمْ أجِدْ إلا بيتًا ، لامْرِىء القَيْس (1) ، وهو :

عَلى لاحِبٍ لا يُهتَدَى لِمنارِهِ إِذا سَافهُ العَوْدُ الدِّيافيُّ جَرْجَرَا (2)

---

(1) شعراء النصرانية ١ / ٤٧ من قصيدة قالها يصف توجهه إلى قيصر مستنجداً على بني أسد ، ومطلعها :

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا بكاء على عمرو وما كان أصبرا

(2) اللاحب الطريق ، سافه شمه ، وفي الأصل ساقه بالقاف ، وهو تصحيف والعود الجمل المسن وفيه بقية ، والديا في نسبة إلى دياف وهي قرية بالشام تنسب إليها النجائب ، جرجر ردد صوته ، وفي الأصل « العود النياطي » ، وفي شعراء النصرانية « العود النباطي » . وروى ابن قتيبة البيت هكذا :

على ظهر عادى تحاربه القطا إذا سافه العود الديافي جرجرا

وانظر الشعر والشعراء ١ / ٦٧ — وفي اللسان ١١ / ٦٦ روى صدر البيت هكذا :

* على لا حب لا يهتدى بمناره *

فقوله [لا يُهْتَدَى لمنارِه] أىْ أنّ له مناراً إلا أنَّه لا يُهْتَدَى به ، وليس المرادُ ذلك ، بل المرادُ أنَّه لا منارَ لهُ يهتدى به .

ولِىَ أنا فِى هذا بيتٌ من الشِّعر ، وهو :

أَدْنَيْنَ جِلبَابَ الْحياء فلَنْ يُرَى   لذُيُولِهِنَّ على الطَّرِيقِ غبَارُ

وظاهرُ هذا الكلام أنَّ هؤلاء النساء يَمْشِين هَوْنًا لِحَيائهنّ ، فلا يظهَر لذُيولهن غبارٌ على الطريق ، وليس المرادُ ذلك ، بل المرادُ أنَّهن لايمشين على الطريق أصلاً ، أى أنهنّ مخبَّئات ، لايخرجْن من بيوتِهنَّ ، فلا يكونُ إذاً لذيولهنَّ على الطريق غُبَارُ ، وهذا حسنٌ رائقٌ ، وهو أظهرُ بيانًا من قوله :

* ولا تَرى الضَّبَّ بها ينْجَحِرُ *

فمن استعملَ هذا النوعَ من الكلام فليستعْمله هكذا ، وإلاَّ فليَدعْ ، على أنّ الإكثارَ من استعماله عَسِر ، لأنه لا يظهرُ المعنى فيه .

النوع الرابع عشر

فى الاستدراج

وهذا البابُ أنا استخرجتُه من كتاب الله تعالى ، وهو مُخادَعَات الأقوال التى تقومُ مقامَ مخادعات الأفعال ، والكلامُ فيه وإنْ تضمَّن بلاغة ، فليس الغرض هاهنا ذكر بلاغتِهِ فقط ، بل الغرضُ ذكرُ ما تضمَّنه من النُّكت الدقيقة فى استدراج الخصْم إلى الإذعان والتَّسليم . وإذا حُقِّق النظرُ فيه عُلِم أن مدارَ البلاغةِ كلِّها عليه ، لأنَّه انتفاع بإيرادِ الألفاظِ المليحةِ الرائقة ، ولا المعانى اللَّطيفةِ الدقيقةِ ، دونَ أن تكونَ مُسْتَجْلِبةً لبلوغ غرضِ المخاطَب بها :

والكلامُ في مثل هذا ينبغي أن يكونَ قصيراً في خلابهِ ، ولا قصيراً في خِطابِه .

فإذا لم يتصرَّف الكاتبُ في استدراج الخصم إلى إلقاء يده ، وإلا فليس[1] بكاتبٍ ولا شبيه له إلا صاحبُ الجدل ، فكما أنَّ ذاك يتصرَّف في المغالطاتِ القياسيَّة ، فكذلكَ هذا يتصرَّف في المغالطاتِ الخطابية .

وقدْ ذكرتُ في هذا النوع ما يُتعلَّم منه سلوكُ هذه الطريق .

فمن ذلك قوله تعالى : (وقالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَونَ يَكْتُمُ إيمانَهُ أتقتُلونَ رَجُلاً أنْ يقولَ ربِّيَ اللهُ وقَدْ جاءَكم بِالْبَيِّناتِ مِنْ ربِّكم وإنْ يَكُ كاذِبًا فَعَلَيْهِ كذِبُه وإنْ يَكُ صادِقًا يصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكم إنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مسْرِفٌ كذّاب) [2] .

ألا ترى ما أَحسنَ مأخذَ هذا الكلام وألطفه ، فإنه أخذهُم بالاحتجاج على طريقة التَّقسيم ، فقال : لايخلو هذا الرجُل من أنْ يكونَ كاذبًا ، فكذبه يعودُ عليه ولا يتعدّاه ، أو يكونُ صادِقًا ، فيَصيبكم[3] بعضُ الذي يعِدُكم إنْ تعرّضْتُم له :

وفي هذا الكلامِ من حُسْن الأدبِ والإنصاف ما أذكرُه لكَ . فأقول : إنما قال : [يُصبْكم بَعضُ الذِي يعِدكم] وقد علم أنه نبيٌّ صادقٌ ، وأن كل ما يَعِدهم به لابدّ وأن يصيبهم ، لا بعضه ، لأنه احتاج في مُقاولة خصوم موسى عليه السلامُ أن يسلك معهم طريقَ الإنصافِ والملاطَفةِ في القول ، ويأتيهم من جهةَ المنَاصحَة ، ليكون أدْعَى إلى سُكونهم إليه ، فجاء بما علم أنه أقرب

(١) سياق المعنى يقتضي حذف كلمة « وإلا » .
(٢) سورة المؤمن : الآية ٢٨ .
(٣) في الأصل «يصبكم» .

إلى تسليمهم لقوله ، وأدخَل فى تصديقهم إيّاه ، فقال : [وإن يكُ صادقًا يُصبْكم بعض الذى يعدكم] وهو كلامُ المنصف فى مقابلةِ غير المشتطّ ، وذلك أنّه حينَ فرَضه صادقًا فقد أثبتَ أنه صادقٌ فى جميع مايعدُ به ، لكنّه أردفَ بقوله : [يصبْكم بعضُ الذى يعدُكم] ليهضمَه بعضَ حقّه فى ظاهرِ الكلام فيريهم أنه ليسَ بكلام من أعطاهُ حقَّه وافيًا ، فضلا عن أن يتعصَّب له ، وتقديم الكاذبِ على الصَّادق من هذا القبيل ، كأنه برْطَلهم[1] فى صدر الكلام بما يزعمُونه ، لئلّا ينفِرُوا منه .

وكذلك قوله فى آخر الآية : [إنَّ اللهَ لايَهْدِى مَنْ هُو مُسرِفٌ كذّابٌ] أى هو على الهُدى ، ولو كان مُسرِفًا كذّابًا لما هداه الله للنبوّةِ ، ولا عَضَده بالبيناتِ .

وفى هذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه مالا خفاء به ، وقد تضمَّن من اللطائف الدَّقيقة ما إذا تأمَّلتَه حقَّ التأمُّل أعطيتَه حقّه من الوصف .

وممّا يجْرى على هذا الأسلوب قوله تعالى : (واذْكُرْ فى الْكِتابِ إبْرَاهِيمَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إذْ قَال لأبيهِ يا أبَتِ لِمَ تَعْبُد مالا يَسمَعُ ولاَ يُبْصِرُ ولا يُغْنى عَنْكَ شَيْئًا * يا أبَتِ إنى قَدْ جاءَنى مِنَ الْعِلْمِ مالَمْ يَأتِكَ فاتَّبِعْنِى أهْدِكَ صِراطًا سَوِيًّا * يا أبَتِ لاتَعْبُدِ الشّيطانَ إنَّ الشّيطَانَ كانَ للرّحْمٰنِ عَصِيًّا * يا أبتِ إنى أخافُ أنْ يَمسّكَ عَذابٌ منَ الرّحمٰن فَتَكُونَ للشَّيطانِ وليًّا)[2] .

هذا كلامٌ يهُزُّ أعطافَ السَّامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكُره ، وهو أنه

---

(١) يقال برطل فلان فلانا رشاه ، فتبرطل فارتشى .

(٢) سورة مريم : الآيات ٤١ و٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥

لما أرادَ ابراهيمُ عليه السّلام أن ينصَحَ أباهُ ويعظَهَ ويُنْقذه ممّا كان متورّطًا فيه من الخطأ العظيمِ الذى عَصَى به أمْر العقل، رتَّب الكلامِ معه فى أحسن نظامٍ، مع استعمال المجاملة واللطفِ، والأدبِ الحميد، والخلق الحسن، مُستنصحًا فى ذلك بنصيحة ربِّه، وذاكَ أنَّه طاب منه أوّلاً العلّة فى خطيئته طَلَبَ مُنَبّهٍ على تماديه، مُوقظٍ من غفَلته، لأنّ المعبود لو كان حيًّا مميّزًا سميعًا بَصيرًا مقتدرًا على الثواب والعقاب، إلا أنَّه بعضُ الخَلق يستخفُّ عقلَ من أهَّله للعبادة، ووصَفه بالربوبيَّة ولو كانَ أشرفَ الخلائِق كالملائكة والنَّبيِّين، فكيفَ بمن جعلَ المعبودَ جمادًا لايسمعُ ولايبصر، يعْني به الصنم،

ثم ثَنَّى ذلك بدعوتِه إلى الحقِّ، مترفِّقًا به، فَلَمْ يَسِمْ أباهُ بالجهل المطاق، ولا نفسَه بالعلم الفائق، ولكنَّه قال: إنَّ معى لطائفةً من العلمِ وشيئًا مِنْه، وذلك عِلمُ الدّلالة على سُلوكِ الطّريق، فلا تستنكفْ، وهبْ أنِّى وإيّاكَ فى مَسِيرٍ وعندى معرفةٌ بهداية الطريق دونك، فاتَّبعنى أُنجِك من أن يضلَّ.

ثم ثلث ذلك بتثبيطه عمَّا كان عليه ونهْيه، فقال: إنَّ الشيطان الذى استعْصى على ربِّك، وهو عدوُّك وعدوُّ أبيك آدم، هو الذى ورَّطَك فى هذه الورطة، وألقاكَ فى هذهِ الضَّلالة، وإنّما ألْغَى إبراهيمُ عليه السَّلام ذكر معاداةِ الشَّيطان آدمَ وذُرِّيّته فى نصيحةِ أبيه لأنه لإمْعانه فى الإخلاص لم يذكرْ من جنايتى الشّيطان إلا التى تختصُّ بالله، وهى عصيانُه واستكبارُه، ولم يلتفِتْ إلى ذكرِ مُعاداته آدمَ وذرِّيته.

ثم ربَّع ذلك بتخويفه إيَّاه سوءَ العاقبة، فلم يصرِّحْ بأنَّ العقابَ لا حقٌ به ولكنه قال: «إنى أَخافُ أن يمسّك عذابٌ»، فنكّر العذاب ملاطفةً لأبيه، وصدَّر كل نصيحةٍ من هذه النصائح بقوله [يا أبتِ] توسُّلا إليه، واستعطافًا.

وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه ، فإنه قالَ : (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْرَاهِيمُ)[1] . فأقبلَ عليه بفظاظَةِ الكُفر ، وغِلَظِ العناد ، فناداه باْسمه ، ولم يقابلْ قوله « يا أبتِ » بقوله « يابنيّ » ، وقدَّم الخبر على المبتدأ فى قوله « أراغب أنت ، لأنه كانَ أهمّ عنده » وفيه ضربٌ من التَّعجُّب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته .

وفى القرآن الكريم مواضعُ كثيرةٌ من هذا الجنس لا سِيَّما فى مخاطبات الأنبياء — صلواتُ الله عليهم — للكفّار ، والرّد عليهم ، وفى هذين المثالين المذكورين هاهنا كفايةٌ ومقْنَعٌ .

وبلَغنى حديثٌ تفَاوَض فيه الُحسيْن بنُ عليٍّ — رضى الله عَنْهُما — ومعاوية بن أبى سُفيان فى أمرِ ولده يزيدَ ، وذاكَ أنَّ معاويةَ قال للحُسَين : « أمَّا أُمُّك فاطمةُ فإنها خيرٌ من أمه ، وبنتُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ من امرأةٍ من كَلْبٍ ، وأمّا حُبى يزيدَ فإنى لو أُعْطِيتُ به مثلك مِلْءَ الْغُوطَةِ[2] لما رَضِيتُ ، وأمَّا أبوك وأبوه فإنَّهما تحا كما إلى الله ، فحكم لأبيه على أبيك » .

وهذا كلامٌ من معاويةَ كلمَّا أمْرَرْتُه بِفِكْرى عجبتُ من سَداده ، فضلاً عن بلاغتِه وفصاحتِه . فإنَّ معاوية عَلِم ما لِعَليٍّ —رضى الله عنه — من السَّبق

---

(١) سورة مريم الآية ٤٦

(٢) الغوطة — بالضم ثم السكون وطاء مهملة — هى الكورة التى منها دمشق . استدارتها ثمانية عشر ميلا ، يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ، ولا سيما من شماليها ، فإن جبالها عالية جداً ، وتمتد فيها أنها تسقى بساتينها ، وهى أنزه بلاد الدنيا وأحسنها منظراً ، وتصب فضلاتها فى بحيرة هناك (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ١٠٠٦) .

إلى الإسلام والأثر فيه ، وما عنده من فضيلة العلم ، فلم يَعْرِض فى المنافرة إلى شىء من ذلك ولم يقلْ أيضًا : إن الله أعطانى الدُّنيا ونزعها منكم ، لأنَّ هذا لا فَضْل فيه ، إذ الدُّنيا ينالهُا البَرُّ والفاجِر ، وإنما صانعَ عنْ ذلك كلِّه بقوله: (إنَّ أباكَ وأباه نمَا كما إلى الله ، فحَكَمَ لأبيه على أبيك) وهذا قولٌ إيهامىٌّ يوهِمُ شبهةً من الحقِّ .

وإذا شَاءَ من شاءَ أن يُغافِرَ خَصْمه ، ويستدرجَه الى الصمت عن الجواب فليقُلْ هكذا .

الباب الخامس عشر

فى الإيجاز

وهو حذفُ زياداتِ الألفاظِ ، وهذا نوعٌ من الكلام شريفٌ ، لا يتعلقْ به إلا فُرسانُ البلاغة ، مَنْ سَبَق إلى غايتها وما صَلَّى ، وضرب فى أعلى درجاتها بالقِدْح المعلّى ، وذلك لعُلوّ مكانه ، وتعذُّر امكانِه .

والنظر فيه إنَّما هو إلى المعانى لا إلى الألفاظِ ، ولستُ أعْنِى بذلكَ أن تهملَ الألفاظ ، بحيثُ تعرَّى عن أوصافها الحسَنة ، بل أعْنِى أن مَدَار النظر فى هذا النوع إنما يختصُّ بالمعانى ، فرُبَّ لفظٍ قليلٍ يدلُّ على معنى كثير ، ورُبَّ لفظٍ كثيرٍ يدلُّ على معنًى قليلٍ .

ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسْبة الى الدراهم الكثيرة ، فمنْ ينظرْ الى طول الألفاظ يُؤْثر الدَّراهمَ لكثرتها ، ومن ينظرْ الى شرفِ المعانى يُؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستِها ، ولهذا سمَّى النبىُّ صلى الله عليه وسلم الفاتحة (أم الكتاب) وإذا نظرنا إلى مجموعها وجدْناه يسيرًا ، وليستْ من الكثرة

الى غاية تكونُ بها أمّ « البقرة » و « آل عمران » وغيرهما من السُّور الطوال فعلمِنا حينئذٍ أنَّ ذلك لأمرٍ يرجعُ الى معانيها .

معـانى القـرآن :

والـكلامُ فى هذا الموضع يخرج بنا إلى غير مانحْن بصدده ، لأنَّه يحتاجُ فيه إلى ذكرِ المرادِ بالقرآن الـكريم ، ومايشتملُ عليه سُورُهُ وآياته إلى حَصر أقسام معانيه ، لـكنّا نُشيرُ فى ذلك إشارةً خفيفةً ، فنقول :

المرادُ بالقرآن هو دعوةُ العبادِ إلى الله تعالى ، ولذلك انحصرت سُوَرُه وآياتُه فى ستة أَقسامٍ : ثلاثةٌ منها هى الأصول ، وثلاثةٌ هى الفروع .

أمّا الأصولُ :

فالأوّلُ منها : تعريفُ المَدْعُوِّ إليه ، وهو الله تعالى ، ويشتملُ هذا الأصلُ على ذكر ذاتِه وصفاتِه وأفعاله .

والأصلُ الثانى : تعريفُ الصّراطِ المسْتقيم الذى تجبُ ملازمَتُه فى السُّلوك إلى الله تعالى ، ويشـتملُ هذا الأصلُ على التَبَتُّـل بعبادة الله بأفعال القلْب وأفعَال الجوارحِ .

والأصلُ الثالثُ : تعريف الحال بعد الوُصُول إلى الله تعالى ، أعْنِى بعدَ الموتِ ، ويشتملُ هذا الأصلُ على تفصيل أحوَال الدار الآخرةِ من الجنة والنّار والصّراط والميزان والحساب ، وأشباه ذلك .

فهذه الأصول الثلاثة .

وأما الفروع :

فالأوّل منها : تعريفُ أحوال المُجِيبينَ للدّعوة . ولطائفِ صُنع الله بهم

من النصرة والإدالة ، وتعريفُ أحوال المخـالِفين للدّعوة والمحادِّين لها ، وكيفية صُنْع الله فى التّدمير عليهم ، والتنْـكيل بهم .

والفرعُ الثانى : ذِكْرُ مجادلة الخصوم ومحاجّتهم ، وحَمْلهم بالمجادلة والمحاجّة على طريقِ الحق ، وهؤلاء همُ اليهودُ والنّصَارَى ، ومن يجرِى مجراهم من أرباب الشّرائع والفلاسفة والمُلْحِدة من غير أرباب الشرائع .

والفرعُ الثالثُ : تعريفُ عِمَارةِ منازلِ الطّريق ، وكيفية أخذِ الزاد والأُهْبة للاستعداد ، وذاكَ قياسُ الشّريعة ، وتَبْيِينُ الحكمة فى أوامرِها التى تتعلقُ بأفعال أهل التّـكاليف .

فهذه الأقسامُ الستّةُ المشار إليهـا هى التى تدورُ معانى القرآن عليهـا ولا تَتَعدّاها .

وهاهنا تقسيمٌ آخر يطولُ الخطْب فيه ، ولا حاجة إلى ذكره .

وإذا نظرْنا الى سُورة الفاتحة ، وتأمّلنا مافيها من المعانى وجدْناها مشتملةً على أربعة أقسامٍ من السّتة المذكورة ، ولذلك سمّاها النبى صلى الله عليه وسلم « أمّ الـكتاب » .

كما أنه قال : « إن سورة الإخلاص تَعْدِل ثلُث القرآن » ، وإذا نظرنا فى الأقسامَ السّتة وجدنا سورة الإخلاص بمنزلة ثلث القرآن .

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : « آية الـكُرسىِّ سيدة آى القرآن » .

ويروَى أنه سأل أُبىّ بن كَعْبٍ[1] — رضى الله عنه — فقال : أىُّ آيةٍ

---

(١) هو أبى بن كعب بن قيس ، أبو المنذر الأنصارى المدنى ، سيد القراء ، وأقرأ هذه الأمة ، قرأ على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقرأ على النبى بعض القرآن للإرشاد والتعليم ، وقرأ عليه من الصحابة ابن عباس ، =

معك فى كتاب الله أعظَم ؟ فقال : (الله لا إلٰهَ إلا هُو الحىُّ القيُّوم)[1] فضرب فى صَدْره ، وقال : « لِيَهْنك الْعِلْمُ أبَا المُنذر » ، وكلُّ هذا يرجعُ إلى المعانى ، لا إلى الألفاظ ، فاعرفْ ذلك وبيّنْه لرموزه وأسْراره .

* * *

وأعلم أنَّ جماعة من مُدَّعى علم البيان ذهبُوا إلى أنَّ الـكلام ينقسمُ قسْمين :

فمنْه ما يحسنُ فيه الإيجاز ، كالأشْعَار والمـكاَتبَات .

ومنْه ما يحْسُن فيه التَّطْويلُ كالُخطبِ والتقْليدات ، وكتبِ الفتوح التى تقرأ فى ملأ من عوامِّ الناس ، فإنَّ الـكلام إذا طال فى مثل ذلك أثَّر عندهم وأفْهَمُهم ، ولو اقتْصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقعْ لأكثرهم ، حتى يقالَ فى ذكر الحرب : « التقى الجمْعان ، وتطاعن الفريقان ، واشتد القِتال ، وحَمِى النَّضال . . . » وما جرى هذا المجرى .

والمذهبُ عندى فى ذلك ما أذكره ، وهو أن فهم العامّة ليسَ شَرطاً معتبراً فى اختيار الـكلام ، لأنَّه لو كان شَرْطاً لوجَبَ على قياسه أن يُستعمل فى الكلام الألفاظ العاميّة المبتذلة عندهم ، ليكونَ ذلك أقربَ إلى فهْمِهم ، لأنَّ العلّة فى اختيار تَطويل الـكلام إذا كانتْ فَهْمَ العامَّة إيَّاه ، فـكذلك تجْعَلُ تلك العلَّةُ بعينها فى اختيار المبْتذل من الـكلام ، فإنَّه لا خلاف فى أن العامة إلى فهمه أقْربُ من فهم ما يقلُّ ابتذالهم إيَّاه ، وهذا شَىْءٌ مدفوع .

= وأبو هريرة ، ومن التابعين عبد الله بن عياش ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، توفى سنة ثلاث وثلاثين .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

وأمَّا الذى يجبُ توخِّيه واعتمادُه فهو أنْ يُسْلَكَ المذهبُ القويمُ فى تركيبِ الألفاظ على المعانى ، بحيثُ لا تزيد هذه على هذه ، مع الإيضاح والإبانة . وليس على مُستعمل ذلك أن يفهِم العامَّة كلامه ، فإنَّ نور الشَّمس إذا لم يَره الأعْمى لا يكون ذلك نقصاً فى اسْتنارته ، وإنما النَّقْص فى بصرِ الأعمى ، حيثُ لم يَسْتطِع النَّظر إليه :

عَلَىَّ نَحْتُ القَوافِى مِنْ مَعادِنِها وَمَا عَلَىَّ بِأَنْ لا تَفْهَمَ البَقَرُ

وحيثُ انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فلنرجع إلى ماهو غرضنا ومُهِمُّنا من الكلامِ على الإيجاز ، وحدِّه ، وأقسامه ، ونوضِّح ذلك إيضاحاً جليًّا ، والله الموفِّق للصَّواب ، فنقُول :

حــد الايجــاز :

هو دلالةُ اللَّفظ على المعْنى ، من غير أنْ يزيدَ عليه .

والتَّطويلُ هو ضِدُّ ذلك ، وهو أن يُدَلَّ على المعنى بلفظٍ يكفيك بَعضُه فى الدَّلالة عليه ، كقولِ العُجَيْرِ السَّلُولىِّ[1] من أبياتِ الحماسَة .

طَلُوعُ الثَّنايا بالمطَايَا وسَابِقٌ إلى غايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْها يُقَدَّمِ[2]

(١) هو ابن عبد الله بن عبيدة ، يصل نسبه إلى سلول بن مرة ، شاعر مقل إسلامى من شعراء بنى أمية ، جعله ابن سلام فى الطبقة الخامسة من شعراء الإسلام وكان كريما جواداً تصله الملوك والأمراء .

(٢) ديوان الحماسة ٢ / ٢٦٥ ثانى أربعة أبيات اختارها أبو تمام أولها :

أن ابن عمى لا ابن زيد وإنه لبلال أيدى جلة الشول بالدم

والجلة المسنة من الإبل ، والشول النوق التى يجف لبنها ، و ل أيديها يريد أنه يعرقبها إذا أراد نحرها — والمعنى أن ابن عمه يقطع بالسيف أيدى الإبل العظيمة السمينة قبل أن ينحرها للأضياف ، ليتمكن من نحرها .

فصدْرُ هذا البيتِ فيه تطويلٌ لا حاجَةَ إليه ، وعجزُه من محاسِن الـكلام المتواصَفَة ، ومَوْضِـعُ التّطويل من صدْره أنه قال « طَلوعُ الثنايا بالمطايا » وإن لفظة « المطايا » فضلةٌ لا حاجةَ إليها .

وبيانُ ذلك أنّه لا يخلوا الأمْرُ فيها مِنْ وجهين :

إمّا أن يريد أنه سابقُ الهمّة إلى معالي الأمُـور ، كما قال الحجّاج على المنبرِ عند وصُوله العراق :

* أنَا ابنُ جَلَا وطَلّاعُ الثّنَايا(١) *

أى : أنَا الرّجُلُ المشهورُ السّابق إلىِ معالى الأُمور :

فإنْ أرادَ العُجَيْر بقَوله « طَلوع الثنايا » ما أشرتُ إليه فذِكْرُ « المطايا » يفسِد ذلك المعنى ، لأنّ معالىِ الأمور لا يُرقى اليها بالمطايا .

وإنْ أرادَ الوجْه الآخر ، وهو أنّه كثيرُ الأسفْارِ ، فاختصاصُه الثنايا بالذّكر دونَ الأرض من المفاوز وغيرها لا فائدةَ فيه .

وعلىِ كِلاَ الوجْهَيْن فإنّ ذكر المطايَا فضْلةٌ لا حاجة إليه ، وهو تطويلٌ باردٌ غَثٌّ .

فقِسْ على هذا المثالِ مايجرى مجراه من التّطويلات التى إذا أُسقِطَت من الـكلام بقِيَ على حالِه لم يتغَيّرْ شىءٌ .

وكـذلك يجرى الأمرُ فى ألفاظٍ يُوصَل بها الـكلامُ ، فتارةً تجىء لفائدَةٍ ، وذلك قليل ، وتارةً تجىء لغيْر فائدةٍ ، وذلك كـثير ، وأكـثرُ ماتردُ فى الأشعار ، ليوزنَ بها الأبياتُ الشعريّة ، وذلك نحو قولهم : لعَمْرى ، ولعمرُك ،

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه .

* متى أضع العمامة تعرفونى *

ونحو : أصبح ، وظلّ ، وأضحى . وباتَ ، وأشباه ذلك ، ونحو : ياصاحبي ، وياخليلي ، وما يجرى هذا المجرى .

فممّا جاء منه قولُ أبى تمّام :

أَقَرُّوا — لعَمْرى — لُحكم السُّيوفِ
وكانَت أحَقّ بِفَصلِ القضاء[1]

فإنّ قولهُ « لعَمْرى » زيادةٌ لاحاجةَ للمعنَى إليها ، وهى حَشوٌ فى الكلامِ ، لافائدة فيه، إلا إصلاحَ الوزْنِ لاغير .

ألا ترى أنّها من باب القَسم ، وإنما يَردُ القَسمُ فى مَوضعٍ يؤكَّد به المعنى المرادُ ، إمّا لأنه مما يُشَكُّ فيه ، أو مما يعزُّ وجوده ، أو ماجَرى هذا المجرى ، وهذا البيتُ الشِّعرى لا يفتقر معناه إلى توكيدٍ قَسَمِىّ ، إذْ لاشكّ فى أن السيوفَ حاكمةٌ ، وأنّ كل أَحدٍ يقرُّ لُحكمها ، ويذعن لطاعَتها .

وكذلكَ قوله أيضًا :

إذا أنَا لمْ أَلُمْ عثَرَاتِ دَهرٍ   بُليتُ بِهِ الغدَاةَ فمنْ ألومُ[2]

فقولُه « الغدَاة » زيادةٌ لاحاجةَ بالمَعنىَ إليها، لأنّه يتمُّ بدونها ، لأنَّ عثراتِ

---

(١) ديوان أبى تمام ٣٤٨ من قصيدة يرثى بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ومطلعها :

نعاء إلى كلى حى نعاء   فتى العرب اختط ربع الفناء

ورواية الديوان «أقروا لعمرى بحكم السيوف » .

(٢) ديوان أبى تمام ٤٢٥ من قصيدة يشكو فيها الدهر بنيسابور ، ومطلعها :

صريع هوى تغاديه الهموم   بنيسابور ليس له حميم

الدهر لم تنله الغداةَ ولا العَشِيّ ، وانّما نالته ، وَنَيْلُها إيّاه لا بد وأنْ يقعَ في زمَنٍ من الأزمنةِ كائناً ما كان ، ولا حاجَة إلى تعيينه بالذِّكر .

وعلى هذا وَرَد قولُ البحتريّ :

ما أحْسَنَ الأيّامَ إلّا أنها   يَاصَاحِبيّ إذا مَضتْ لمْ ترْجِعِ (١)

فقوله « ياصاحبيَّ » « زيادةٌ » لا حاجةَ بالمعنى اليها ، إلاأنها وردتْ لتصحيح الوَزْن لاغير .

وهذهالألفاظُ التي تردُ في الأبياتِ الشعرية لتصحيح الوَزن لاعيبَ فيها ، لأنّا لو عِبْناها على الشُّعراء لتَحَجَّرْنا عليهم وضَيَّقْنا ، والوزنُ يضطرُّ في بعض الأحيانِ إلى مثل ذلك .

لكن إذا وَرَدت في الكلامِ المَنثور فإنها إن وردت حشواً ، ولم تردْ لفائدة ، كانت عيباً .

وقد تردُ في الأبياتِ الشِّعرية ويكونُ ورودُها لفائدةٍ ،وذلك هوالأحسن كقول البُحتُري :

قومٌ أهانوا الوَفْرَ حَتى أصْبَحُوا   أوْلى الأنَامِ بكل عِرضٍ وافِرِ (٢)

فقوله « أصْبحوا » بمعنى صاروا ، أيْ أنهم صَاروا أولى الناس بالأعراضِ

---

(١) ديوان البحترى ٢/٢١٥ من قصيدة له في مدح يوسف بن محمد ، مطلعها :

بين الشقيقة فاللوى فالأجرع   دمن حبسن على الرياح الأربع

ورواية الديوان «ما أحسن الأيام اولا أنها» .

(٢) ديوان البحترى ٢/١٦٧ من قصيدة له في مدح محمد بن عبد الله ابن طاهر مطلعها :

لازال محتفل الغمام الباكر   يهمي على حجرات أعلى الحاجر

الوافرَةِ ، وهذه اللفظةُ لم تردْ فى هذا البيت حشواً كما وردَت فى بيتَى أبى تمّام المقدَّم ذكرُهما .

وسأزيدُ هذا المَوضِعَ بياناً بمثالٍ أضربُه للتّطويل حتى يُستدلَّ به على أمثالِه وأشباهه ؛ والمثالُ الذى أضربه هو حِكايةٌ أُوردَتْ بمحضر منِّى ، وذاكَ أنه جلس إلىّ فى بعض الأيّام جماعةٌ من الإخوان ، وأخذوا فى مفاوضَةِ الأحاديث ، وانساقَ ذلك إلى ذكرِ غرائبِ الوقائع التى تقعُ فى العالمَ ، فذكر كلٌّ من الجماعةِ شيئاً ، فقال شخصٌ منهم : إنِّى كنتُ بالجزيرة العُمَرية فى زمن الملكِ فلانٍ ، وكنتُ إذْ ذاك صبيًّا صغيراً ، فاجتمعت أنا ونفرٌ من الصِّبْيان فى الحارةِ الفلانيّة ، وصَعِدْنا إلى سطح طاحُون لبنى فلان ، وأخذْنا نلعبُ على السطح ، فوقعَ صبى منّا إلى أرض الطَّاحُون ، فوطئه بَغْلٌ من بغال الطَّاحون ، فخفنا أن يكون آذاه ، فأسرعْنا النزولَ إليه ، فوجدناه قد وَطِئه البغْل ، فختَنَه ختانةً صحيحة حسنةً لا يَسْتطيعُ الصانعُ الحاذقُ أن يفعَل خيراً منْها . فقال له شخص من الحاضرين : والله إن هَذا عِىٌّ فاحِش ، وتطويل كثير . لا حاجة إليه ، فإنك بصدَدِ أن تذكر أنّك كنتَ صَبيًّا تلعبُ مع الصِّبيان على سطح الطَّاحُون ، فوقع صبى منكم إلى أرض الطَّاحون ، فوطئه بغلٌ من بغَال الطاحون ، فختَنه ولم يُؤْذِه ، ولا فرْق بين أن تكون هذه الواقعَةُ فى بلد نعرفُه ، أوْ فى بلد لا نعرفه ، ولو كانت بأقصى المشرقِ أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قدْحًا فى غَرابتِها ، وأمَّا أن تذكر أنّها كانت بالجزيرة العُمَرِيّة ، فى الحارة الفلانيَّة ، فى طَاحونِ بنى فلان ، وكان زمن الملك فلان ، فإنَّ مثل هذا كلِّه تطويل لاحاجةَ إليه ، والمعنى المقصودُ يفهم بدُونِه ! !

فاعلم أيُّها الناظر فى كتابى هذا أنَّ التطويل هو زياداتُ الألفَاظ فى الدلالة

على المعاني، ومهما أمكنك حذف شيء من اللفظ في الدلالة على معنًى من المعاني فإن ذلك اللفظ هو التطويل بعينه[1].

قسما الايجاز :

وأما الإيجازُ فقد عرَّفتُك أنه دلالةُ اللفظ على المعنى، من غير أن يزيد عليه.

وهو ينقسم قسمين :

أحدهما : الإيجازُ بالحذفِ، وهو ما يحذَفُ منه المفرد والجملةُ، لدلالة فَحْوى الكلام على المحذوفِ، ولا يكونُ إلّا فيما زاد معناهُ على لفظه.

والقسْمُ الآخرُ : مالا يحذفُ منه شيءٌ، وهو ضربان :

أحدهما : ماساوَى لفظه معناه ويسمَّى (التقدير).

والآخر : مازادَ معناهُ على لفظه، ويسمَّى (القِصَر).

واعلمْ أنَّ القسم الأوَّل — الذى هو الإيجازُ بالحذفِ — يُتَنَبَّهُ له من غير كبير كلفة في استخراجهِ، لمكانِ المحذوفِ منه.

---

(١) البلاغيون على أن الزيادة إن كانت لغير فائدة وكانت تلك الزيادة غير متعينة اختص هذا باسم (التطويل) كما في قوله : « وألفى قولها كذباً ومينا » فإن الكذب والمين واحد، وإن كانت تلك الزيادة متعينة لا لفائدة اختص هذا باسم (الحشو) كقول الشاعر :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى ... وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فإن لفظ «الندى» فيه حشو يفسد المعنى، لأن المعنى أنه لافضل في الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت، وهذا الحكم صحيح في الشجاعة دون الندى، لأن الشجاع لو علم أنه يخلد في الدنيا لم يخش الهلاك فلم يكن لشجاعته فضل بخلاف الباذل ماله، فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذله.

وأما القسمُ الثانى فإنَّ التَّنَبُّه له عَسِر ، لأنه يحتاجُ إلى فضلِ تأمُّلٍ ، وطول فكرة، لخفاء ما يستدلُّ عليه ، ولا يَسْتَنْبِطُ ذلك إلا مَن رَسَتْ قدمُه فى مُمَارَسة علمِ البيان ، وصار له خَليقةً وملكةً .

ولم أجدْ أحدًا علَّم هذين القسمين بعَلامة ، ولا قيَّدهُما بقيدٍ ، وقد أشرتُ إلى ذلك فيما يأتى من هذا البابِ عند تفْصيلِ أمثلتِهما ، فليُؤْخَذْ من هناك .

فإنْ قيل : إنَّ هذا التقسيم الذى قسَّمتَه فى المحذوف وغير المحذُوف ليسَ بصحيحٍ ، لأنَّ المعانى ليست أجْسامًا كالألفاظِ ، حتى يصحّ التقدير بينَهما ، ثمَّ لو سلمتَ جوازَ التقدير فى المساواةِ لم أُسَلِّم جواز الزيادة ، فليس لقائلٍ أن يقول : هذا المعنى زائدٌ على هذا اللفظ ، لأنه إن قالَ ذلك قيل : فمِنْ أيْنَ فُهِمَت تلك الزيادةُ الخارجةُ عن اللفظ ، وقد عُلِمَ أنَّ الألفاظ إنما وُضعت للدَّلالة على إفهام المعانى ؟ فإن قال إنَّها فُهِمَت من شيء خارج عن اللفظ ، قيل له : فتلكَ الزيادةُ بإزاءِ ذلك الشيء الخارجِ عن اللفظِ ، والباقى مُساوٍ لِلَّفظ ، وإن قال : إنها فُهِمت من اللفظ ، قيل : فكيف تُفْهَم منه وهى زائدةٌ عليه . فإنْ قال : إنها فهِمَت من تركيبِه ، لأنَّ التركيبَ أمرٌ زائد عَلَى اللفظ ، قيل : الألفاظُ تدلُّ بانفرادها عَلَى معنًى ، وبتركيبها عَلَى معنًى آخر ، واللفظ المركَّب يدلُّ عَلَى معنى مركَّب ، واللفظُ المفردُ يدلُّ عَلَى معنى مُفرَد ، وتلك الزِّيادةُ إنْ أُرِيدَ بها زيادةُ معنى المركَّب عَلَى المركَّب فلا يخلو : إمَّا أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالةِ اللفظ المركَّب عليها ، أوْ من دلالةِ شيءٍ خارجٍ ، فإن كانت مفهومةً من دلالته عليها لم تكنْ زائدةً عليه ، إذْ لو كانت زائدةً عليه لما دلَّ عليها ، وإن كانت مفهومةً من دلالةِ الشيء الخارجِ عنه فهى بإزاء ذلك الشيء الخارجِ ، والباقِى مساوٍ للباقى ! .

فالجوابُ عن ذلك أنْ نقُول :

هذا الذى ذكرَه كلامٌ شبيهٌ بالسَّفْسَطة ، وهو باطلٌ من وجهين :

أحدُهما : أنَّ المعانِىَ إذا كانت لا تزيدُ عَلَى الألفاظ فيلزمُ من ذلك أنَّ الألفاظَ لا تزيدُ أيضاً عَلَى المعانى ، لأنهما متلازمان عَلَى قياسِك ، ونحنُ نرى معـنًى قد دُلَّ عليه بألفاظٍ ، فإذا أُسقِطَ من تلك الألْفاظ شىءٌ لا يَنْقُص ذلك المعْنى ، بل يبقى عَلَى حاله .

والوجْهُ الآخر : أن الإيجازَ بالحذفِ أقوى دليلًا عَلَى زيادة المعانى عَلَى الألفاظ لأنّا نرى اللفظ يدلُّ عَلَى معـنًى لم يتضمَّنْه ، وفهمُ ذلك المعـنَى ضرورةٌ لا بدَّ منه ، فعلمنا حِينئذٍ أنَّ ذلك المَعنى الزائد عَلَى اللّفظ مفهومٌ من دلالته عليه .

فإنْ قيل : إنَّ المعنى الزائدَ عَلَى اللفظ المحذوفِ لا بدَّ له من تقدير لفظٍ آخر يدلُّ عليه ، وتلك الزيادةُ بإزاء ذلك اللَّفظ المقدَّر ؟

قلتُ فى الجوابِ عن ذلك :

هذا لا ينقُضُ ما ذهبْتُ إليه من زيادةِ المعْنَى على اللفظ ، لأنّ المعـنَى الزائد ظاهرٌ ، واللفظ الدالَّ عليه مُضْمر ، وإذا كان مُضمَرًا فلا يُنْطَقُ به ؛ وإذا لم ينْطقْ به فكأنه لم يكنْ ، وحينئذٍ يَبْقى المعنى موجودًا . واللفظ الدالُّ عليه غير موجُود ، وكذلِكَ كلُّ ما يُعلم من المعانى بمفهومِ الخْطابِ .

ألا ترى أنَّك إذا قلت لَمنْ دخل عليك : « أهلًا وسهلًا » عُلِم أنّ الأهلَ والسَّهل منصوبان بعاملٍ محذوفٍ ، تقديرُهُ « وجدْتَ أهلا ولقِيت سهلا » إلَّا أنَّ لفظَـتَى « وجدتَ » و « لقِيتَ » محذوفتَان ، و المعْنَى الذى دَلَّا عليـه باقٍ ، فصار المعـنَى حِينئذٍ مفهوماً مع حَذْفهما ، فهو إذاً زائدٌ لا محالةَ

وكذلك جميعُ المحذوفاتِ على اختلافها، وتشعُّبِ مقاصِدها، وهذا لا نزاع فيه لبيانِه ووُضُوحه.

وقد سَنَح لى فى زيادةَ المعْـنَى على اللفظ فى غير المحذوفاتِ دليلٌ أنا ذاكرُه، وهو أنَّا نجـدُ من الـكلامِ مايدلُّ على معنَيَيْن وثلاثةٍ، واللَّفظ واحدٌ، والمعانى التى تحتَه متعدِّدة.

فأمَّا الذى يدلُّ عَلَى مَعْنَيَيْن: فالـكنَايَاتُ جميعُها، كالذى ورد فى الحديث عن النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم وعن أصحابه — رضى الله عنهم — أنهم «كانوا إذَا خرجوا من عنـدِه إلا يتفرَّقون إلا عن ذَوَاق» وهذا يدلُّ على مَعنَيَين:

أحدهما: إطْعام الطعَام، أىْ أنهم لا يخرجُون من عندِه حتى يطعَموا.

الآخرُ: أنهم لايتفرَّقون إلا عن استفَادةِ علمٍ وأدبٍ يقومُ لأنْفسِهِمْ مقامَ الطَّعام لأجسامهم.

وأمَّا الذى يدلُّ على ثلاثةِ معَانٍ فـكقولِ أبى الطيب المتَنَـبِّى:

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا
لمنْ بَاتَ فى نَعْمَائِهِ يَتقلَّبُ(١)

---

(١) ديوان المتنبى ١/١٨٥ من قصيدة له فى مدح كافور، وقد حمل إليه ستمائة دينار، مطلعها قوله:

أغالب فيك الشوق، والشوق أغلب ... وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وقد شرح العكبرى البيت المذكور بقوله: يريد أن أشد الظلم وأقبحه حسد المنعم عليك، يريد: من بات فى نعمة رجل، ثم بات حاسدًا له فهو أظلم الظالمين، يريد: أن الحاسدين يحسدونه، وهو منقول من قول الحكيم: «أقبح الظلم حسد عبدك الذى تنعم عليه لك».

فهذا يدلُّ عَلَى ثلاثةِ معانٍ :

الأوّل : أنه يحسدُ من أنعمَ عليه .

الثانى : ضِدُّ الأوّل .

الثالثُ : أنَّه يحسُد كلَّ ربِّ نعمةٍ كائناً مَنْ كان ، أى : يحسُد من باتَ فى نَعْماءِ نفسِه يتقلَّب .

وهذا وأمثاله من أدَلِّ الدليـــل على زيادةِ المعنى على اللّفظ ، وهو شىء استخرجتُه ، ولم يكن لأحدٍ فيه قولٌ سابق !

* * *

وحيثُ فرغنا من الـكلامِ على هذا الموضع فلنُتْبِعْه بذكر أقسام الإيجاز المشارِ إليها أوّلا ، وما ينصرفُ إليه ، فنقول :

الايجــاز بالحذف :

أما الإيجازُ بالحذف فإنَّه عجيبُ الأمر ، شبيـه بالسِّحر ، وذاكَ أنَّك ترى فيــه تركَ الذِّكر أفصحَ من الذكر ، والصَّمْتَ عن الإفادةِ أزْيَدَ للأَفَادَة ، وتجدكَ أنطقَ ما تـكونُ إذا لم تَنْطِقْ ، وأتمَّ ماتـكونُ مُبيناً إذا لم تبيِّن ، وهذه جملةُ تنـْكِرُها حتى تَخْــبُرُ ، وتدفعُها حتَّى تَنْظر .

والأصلُ فى المحذوفاتِ جميعها على اختلاف ضُروبها أن يكون فى الـكلامِ مايدلُّ على المحذوفِ ، فإنْ لم يكنْ هناك دليلٌ على المحذوفِ ، فإنَّه لغوٌ من الحديث ، لا يجوزُ بوجْهٍ ولا سببٍ .

ومنْ شرْط المحذوفِ فى حُـكم البلاغةِ أنه مَتى أُظهِرِ صار الـكلامُ إلى شىء غثٍّ ، لايناسبُ ما كانَ عليْه أوّلا من الطَّلاوَة والْحسْن .

وقد يظهرُ المحذوفُ بالإعرابِ كقولِنا « أهلًا وسهلًا » فإنَّ نصب الأهْل

والسّهل يدلُّ على ناصبٍ محذوفٍ ، وليس لهذا من الُحسْن ما لِلّذى لا يظهرُ بالإعْرابِ ، وإنما يظهرُ بالنَّظر إلى تمامِ المعنى ، كقولُنا : « فلانٌ يحلُّ ويعْقِد » فإن ذلك لا يظهرُ المحذوف فيه بالإعراب ، وإنمَا يظهر بالنظر إلى تمام المعنَى ، أى أنَّه يحلُّ الأمور ويَعقِدها .

والذى يظهرُ بالإعراب يقعُ فى المفردات من المحذوفات كثيراً ، والذى لا يظهرُ بالإعْراب يقع فى الجملِ من المحذوفات كثيراً .

وسأذكرُ فى كتابى هذا ما وصلَ إلىّ عِلْمه ، وهو ينقسمُ قسمين :

أحدُهما حذفُ الجمل .

والآخرُ : حذفُ المفردات .

وقد يَردُ كلامٌ فى بعض المواضع ، ويكونُ مشتملًا على القِسْميْن معاً .

* * *

القسم الأول ـ حذف الجمل :

فأما القسم الأوّل ، وهو الذى تحذف منه الجمل ، فإنه ينقسم إلى قسْمين أيضاً :

أحدهما : حذفُ الجمل المفيدَة التى تستقِلُّ بنفسِها كلاماً . وهذا أحسنُ المحذوفات جميعها ، وأدلُّها على الاختصار ، ولا تـكاد تجدهُ إلا فى كتاب الله تعالى .

والقسم الآخَر : حذفُ الجمل غير المفِيدَة ، وقد وَرَدَا هاهُنا مختلِطين .

وجملتهما أربعةُ أضرب :

(١) الضرب الأول : حذف السؤال المقدر (ويسمى الاستئناف) :

ويأتى على وَجْهين :

الوجه الأول : اعادة الأسماء والصفات :

وهذا يجيء تارةً بإعادةِ اسم من تقدَّم الحديثُ عنه ، كقولكَ : أحسنتُ إلى زيدٍ ، زيدٌ حقيقٌ بالإحْسان .

وتارةً يجيء بإعادةِ صفته ، كقولك : أَحْسَنْتُ إلى زيدٍ ، صَديقُكَ القديمُ أهلٌ لذلك منْك .

وهو أحسنُ من الأوَّل وأبلغ ، لانطوائِه على بيان المُوجبِ للإحسان وتخصيصه .

فمَّا وردَ من ذلك قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(1) .

والاستئنافُ واقع فى هذا الكلام على « أولئك » لأنَّه لما قال : « الٓم ذلك الكتاب » إلى قوله « وبالآخرةِ هُمْ يوقنون » اتجه لسائلٍ أن يقول : مابالُ المستقلِّين بهذه الصِّفاتِ قد اختَصُّوا بالهدَى ؟ فأُجيبَ بأنَّ أولئكَ الموصُوفين غيرِ مستبعَدٍ أن يفوزُوا — دُونَ الناس — بالهُدَى عاجلًا ، وبالفلاحِ آجلًا .

الوجه الثانى : الاستئناف بغير اعادة الأسماء والصفات :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ *

---

(1) سورة البقرة : الآيات ١ و٢ و٣ و٤ و٥ .

قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قالَ يالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ ﴾[1] .

فمخرَجُ هذا القول مخرجُ الاستئنافِ، لأنَّ ذلك مِنْ مَظَانِّ المسألة عَنْ حاله عند لقاء ربِّه .

وكأنَّ قائلا قال : كيفَ حالُ هذا الرَّجُلِ عند لقاء ربِّه بعدَ ذلك التصلُّب في دينِه والتَّسَخِّي لوجهِه برُوحه؟ فقيل : « قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّة » ولم يقل : قيل له ، لانْصِبابِ الغرض إلى القولِ ، لا إلى المقولِ له ، مع كوْنِهِ مَعْلوماً .

وكذلكَ قوله تعالى : « يالَيْتَ قومِي يعلمون » مرتَّبٌ على تقدير سؤالِ سائلٍ عمَّا وجد .

ومِنْ هذا النَّحو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يا قومِ اعْمَلوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلمونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾[2] .

والفرقُ بين إثباتِ الفاء في « سَوفَ » كقوله تعالى : ﴿ قلْ ياقوْمِ اعْمَلوا عَلَى مَكانَتِكم إنِّي عَامِلٌ فسَوْفَ تعْلَمُون * مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ ﴾[3] . وبين حذْفِ الفاء هاهنا في هذه الآية أنَّ إثْباتَها وَصْلٌ ظاهرٌ بحرفٍ موضوعٍ للوَصْل ، وحَذْفها وَصْلٌ خفيٌّ تقديريٌّ بالاستئنافِ الذى هو جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ ، كأنهم قالوا : فماذا يكونُ إذا عملْنا نحن على مكانتنا ، وعملتَ أنت . فقال : سَوْفَ تعلمون ، فوصلَ تارة

(١) سورة يس : الآيات ٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧

(٢) سورة هود : الآية ٩٣ .

(٣) سورة الزمر : الآيتان ٣٩ و ٤٠

بالفاء ، وتارةً بالاستئنافِ ، للتَفَنُّنِ فى البلاغة . وأقوى الوَصْلين وأبلغُهما الاستئنافُ ، وهو قسمٌ من أقسام علمِ البيانِ تتكاثرُ محاسنُه ، فاعرفْه إن شاءَ اللهُ تعالى .

(٢) الضرب الثانى : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب :

فأمّا الاكتفاء بالسَّبب عن المسبَّب فكقوله تعالى : ﴿ ومَا كُنْتَ بجانبِ الْغَرْبِيّ إذْ قضَيْنا إلى مُوسَى الأمرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِين * ولَكِنَّا أنْشَأْنا قُرونًا فتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُر) [١] كأنَّه قال : وما كُنْتَ شاهداً لموسى وما جرى له وعليه ، ولكنَّا أوحَيْناهُ إليك ، فذكر سببَ الوحْى الَّذِى هُو إطالةُ الفترةِ ، ودلّ به على المسبَّب الذى هو الوحى ، على عادةِ اختصارات القرآن ، لأن تقديرَ الكلام . ولكنَّا أنشأنا بعد عَهْد الوحْى الى مُوسى إلى عهدك قروناً كثيرة ، فتطاوَل على آخرهم — وهو القرنُ الذى أنت فيهم — العُمُر ، أى أمَدُ انقطاع الوحْى ، فاندرسَتِ العلومُ ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلنَاكَ ، وعرّفناك العلم بقَصص الأنبياء ، وقصَّة موسى ، فالمحذوفُ إذاً جملةٌ مفيدة ، وهى جملةٌ مطوَّلةٌ ، دلّ السَّببُ فيها على المسبَّب .

وكذلك وَرَد قوله تعالى عقيبَ هذه الآية أيضاً : (ومَا كُنْتَ بِجَانبِ الطُّور إذْ نَادَينَا وَلكِنْ رَحْمةً مِنْ ربِّكَ لتنْذِرَ قوْمًا مَا أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قبْلكَ لعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون) [٢] .

فإنّ فى هذا الكلام محذوفاً لولاهُ لما فُهِم، لأنَّه قال : « وما كنتَ بجانب

---

(١) سورة القصص : الآيتان ٤٤ و٤٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٤٦ وفى الأصل « لعلهم يهتدون » وهو خطأ .

الطُّور إذ نادينا ولكن رحمةً من ربك » وهذا لابدَّ له من محذوف ، حتى يستقيمَ نظمُ الكلام ، وتقديره ولكن عرَّفناك ذلك ، وأوحينا إليك رحمة من ربك ، لتنذِرَ قومًا ما أتاهم من نذير مِنْ قبلكَ » فذكر الرَّحمة التى هى سببُ إرساله إلى الناس ، ودلَّ بها على المسبَّب الَّذى هو الإرْسال .

وأمَّا حذفُ الجملة غير المفيدةِ من هذا الضَّرب فنحوُ قوله تعالى حكايةً عن مريمَ عليها السلام : (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قالَ كذَلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاس وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا)(1) .

فقوله « ولنجعله آيةً للناس » تعليلٌ مُعَلَّلُهُ محذوفٌ ، أى : وإنما فعَلْنا ذلك لنجعله آيةً للناس ، فذكر السَّببُ الذى صدرَ الفعلُ من أجله ، وهو جعله آيةً للناس ودلَّ به على المسبَّب الذى هو الفعْل .

ومما وردَ من ذلكَ فى الأخبار النبويَّة قصَّة : الزُّبَيْر بن العوَّام — رضى الله عنه — والرَّجل الأنصاريِّ الذى خاصَمَهُ فى شِرَاجِ الحرَّة (2) الَّتى يُسْقى مِنْها النَّخل ، فلمَّا حضرَا بَيْنَ يدىْ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم قال للزُّبير «اسْق ، ثمّ أُرْسِلِ الماءَ إلى جارك» فغضبَ الأنصاريّ ، وقال : « يارسول الله : إنْ كان ابنَ عمَّتك » ؟ فتلوَّن وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « اسْقِ يازبير ، ثم احبس الماءَ حتَّى يرجعَ إلى الجدُر » وفى هذا الكلام محذوف تقديره : أنْ كان ابنَ عمَّتك حكمتَ له ؟ ، أو قضيْتَ له . أو ماجَرى هذا المجرى ، فذكر السَّبب الذى هو كوْنه ابن عمته ، ودلَّ به على المسبَّب الَّذى هو الحكم أو القضاء ، لدلالة الكلام عليه :

(1) سورة مريم : الآيتان ٢٠ و ٢١ .

(2) الشرج — بفتح فسكون — مسير الماء من الحرة إلى السهل ، وجمعها شراج ، بكسر الشين .

وأمّا الاكتفاءُ بالمسبَّب عن السَّبب فكقوله تعالى : (فإِذَا قَرَأْتَ القرْآن فَاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)[1] أىْ : إذا أردتَ قراءة القرآن ، فاكتفى بالمسبَّب الّذى هو القراءة ، عن السَّبب الذى هو الإرادة .

والدليلُ على ذلك أنَّ الاستعاذَةَ قبل القراءةِ ؛ والذى دلَّتْ عليه أنها بعدَ القراءةِ ، كقَولِ القائل : « إذا ضَرَبْتَ زيداً فاجلسْ » ، فإنّ الجلوسَ إنما يكونُ بعد الضّرب ، لا قبله .

وهذَا أوْلى من تأوُّلِ من ذهَب إلى أنّه أراد : فإذا تعوّذْتَ فاقرأ ، فإنّ [فى] ذلك قلْباً لا ضرورةَ تدعُوا إليه . وأيضاً فليسَ كلُّ مستعيذٍ أواجبَة عليه القراءة .

وعَلَى هذا ورَدَ قوله تعالى : (إذَا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)[2] .

والوضُوء إنما يكونُ قبلَ الصَّلاة ، لا عندَ القيامِ إليها ، لأنّ القيامَ إليها هو مباشَرَةٌ لأفعالها من الرُّكوع والسُّجود والقراءةِ وغير ذلك ، وهذا إنما يكون بعد الوضُوء ، وتأويلُ الآية : إذا أردتَ القيامَ إلى الصَّلاة فاغسِل ، فاكتفى بالمسبَّبِ عن السَّبب .

وكذلك وردَ قولُ النبيِّ صلّى الله عليه وسلم : (إذَا قامَ أحدكم إلى الصَّلاة فليتوضَّأْ) .

أى : إذا أرادَ القيامَ إلى الصلاة ، وإنما يعبَّر عن إرادةِ الفعل بلفظِ الفعْل ، لأنّ الفعلَ مسبَّب عن الإرادةِ ، وهو مع القصْد إليه موجودٌ ، فكانَ منه بسببٍ وملابسةٍ ظاهرة .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٨ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦ .

ومنْ ذلك قوله تعالى : (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً)[1] .

أى : فضربَ فانفجرت منه ، فا كتَفى بالمسبَّب — الذى هو الانفجارُ — عن السّبب الذّى ، هو الضَّرب .

(٣) الضرب الثالث : وهو الاضمار على شريطة التفسير :

وهو أن يُحْذَف من صدر الـكلامِ مايؤتى به فى آخرِه ، فيكونُ الآخرُ دليلًا على الأوّل .

وهو ينقسمُ إلى ثلاثة أوجه :

الأول : أنْ يأتىَ على طريقِ الاستفهامِ ، فتذكرُ الجملةُ الأولى دُونَ الثانية ، كقولِه تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّه فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئكَ فى ضَلَالٍ مُبِينٍ)[2] تقديرُ الآية : أفمن شرحَ الله صدرَه للإسلام كمن أقْسَى قلبَه . ويدلُّ على المحذوف قوله « فويلٌ للقاسيَةِ قلوبهم » .

الوجه الثانى : يردُ على حدِّ النّفى والإثبات ، كقوله تعالى : (لَايَسْتَوى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الذينَ أنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلوا)[3] تقديرُه : لا يستوى منكم من أنفقَ من قبلِ الفتح وقاتَلَ ، ومَنْ أنفقَ من بعده وقاتَل ، ويدلُّ على المحذوفِ قوله « أُولئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً من الّذين أَنفقوا من بعدُ وقاتلوا » .

(١) سورة البقرة : الآية ٦٠ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٢٢ .
(٣) سورة الحديد : الآية ١٠ .

الوجهُ الثالث : أنْ يَرد على غير هذين الوجْهَين ، فلا يكونُ استفهامًا ، ولا نفياً وإثباتًا ، وذلك كقول أبى تمَّام[1] .

يَتَجَنَّبُ الآثامَ ثمَّ يَخافُهَا فَكأنَّما حَسَنَاتُه آثامُ

وهذا البيتُ تختلفُ نسخُ ديوانِه فى إثباتِه ، فمنها ما يجىء فيه :

يَتَجَنَّبُ الأيامَ خِيفَةَ غَيِّها فكَأَنَّمَا حَسَنَاتُه آثامُ

وليس بشىء ، لأن المعنى لا يصحُّ به .

وكنتُ سُئِلْتُ عن معناه ، وقيل : كيف ينطبقُ عجزُ البيت على صَدره ، وإذا تجنَّب الآثامَ وخَافها فكيفَ تكون حسناتُه آثاماً . ففكَّرْتُ فيهِ ، وأنعمتُ نظرى ، فسنَحَ لى فى القرآن الكريم آيةٌ مثله ، وهى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقلوبهُمْ وَجِلة)[2] وفى صدر البيت إضمارٌ مفسَّر فى عجزِه ، وتقديرُه أنّه يتجنَّب الآثامَ ، فيكونُ قد أتى بحَسنة ، ثم يَخافُ تلك الحسنة ، فكأنما حَسَناته آثام ، وهو على طِباق الآية سَواء .

ومن الإضمار على شَريطة التفسير قولُ أَبى نُوَاس :

سُنَّةُ العُشَّاقِ واحِدَةٌ فإذَا أَحْبَبْتَ فاسْتَكِن

فحذفَ لفظ الاستكانة من الأول ، وذكره فى الثانى ، أى : سُنَّة العشّاق واحدةٌ ، وهى الاستكانة ، فإذَا أَحْبَبْتَ فاسْتَكِنْ ، ومن النَّاس من يقول : « فإذا أَحْبَبْتَ فاسْتَنِنْ » ، وهذا لامعنى له ، لأنَّه إذا لم يبيِّنْ سنّةَ العشّاق

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٨٠ من قصيدة له فى مدح المأمون مطلعها :

دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الإلمام

(٢) سورة (المؤمنون) : الآية ٦٠

ماهِيَ فبأيِّ شيءٍ يستَنُّ المسْتَنُّ منها . لكنّه ذكر السُّنة فى صدر البيت من غير بيانٍ ، ثم بيَّنَها فى عَجُزه .

(٤) الضرب الرابع : ما ليس بسبب ولا مسبب ، ولا اضمار على شريطة التفسير ، ولا استئناف :

فأمّا ماحُذِفَ فيه من الجمل المفيدة فكقوله تعالى فى سُورة يوسُف عليه السّلام : (قالَ تزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتمْ فذرُوهُ فى سُنْبُله إلاّ قليلا مِمّا تأكلون * ثُمَّ يَأتى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يأكُلْنَ ماقدّمْتُمْ لهنَّ إلا قليلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمّ يَأتى مِنْ بعدِ ذٰلك عَامٌ فيهِ يغَاثُ النّاسُ وفيه يَعْصِرُون * وقَالَ المَلِكُ ائتونِى بِهِ)(١) .

قد حُذفَ من هذا الكلام جملةٌ مفيدةٌ ، تقديرُها : فرجعَ الرسول إليْهم ، فأخبرهم بمقالة يوسُف ، فعَجِبُوا لها ، أو فصدّقوه عليها ، وقال الملكُ : ائتونى به .

والمحذوفُ إذا كان كذلك دلّ عليه الكلامُ دلالةً ظاهرة ، لأنَّه إذا ثبتت حاشِيتاَ الكلام ، وحُذِف وسَطه ظهر المحذوفُ لدلالة الحاشِيَتيْن عليه .

وكذلك وردَ قوله تعالى فى هذه السورةِ أيضاً : (فلمَّا أنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلقاهُ على وَجْهِهِ فارْتدَّ بصِيراً قالَ ألم أَقلْ لَكُمْ إنِّى أَعْلمُ مِنَ اللهِ مالا تعلمون* قالوا يَا أَبانَا اسْتَغفِرْ لنا ذُنوبنَا إنَّا كنّا خاطِئين * قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لكم رَبِّى إنّه هُوَ الغفورُ الرَّحِيم * فلمّا دَخلوا عَلى يوسُفَ آوَى إليْهِ أَبوَيْهِ وَقال ادْخلوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ)(٢) .

---

(١) سورة يوسف : الآيات ٤٧ و٤٨ و٤٩ و٥٠ .

(٢) سورة يوسف : الآيات ٩٦ و٩٧ و٩٨ و٩٩ .

قد حذف أيضاً من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرُها : ثم إنهم تجهَّزُوا وساروا إلى مصر ، فلمَّا دخلوا على يوسُفَ آوَى إليْه أبَويْه .

وقد ورد هذا الضَّرْب فى القرآن الكريم كثيراً ، كقولهِ تعالى فى سُورة القصص : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْه المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلونهُ لكُمْ وهُم لهُ نَاصِحُون * فرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّه كَىْ تقرَّ عَيْنُها)[1] .

فى هذا محذوف ، وهو جوابُ الاستفهام ، لأنَّها لما قالت : « هل أدُلكم على أهل بيْتٍ يكفلونه لكم » ؟ احتاج إلى جواب ، لينتظم بما بَعْدَه من ردِّه إلى أمِّه ، والجواب : فقالوا : نعم ، فدلَّتهم على امرأةٍ ، فجِىءَ بها ، وهى أمُّه ، ولم يَعلمُوا بمكانها فأرضعتْه ، وهذه الجملة الثَّانية — أعنى قوله تعالى : « فرددناه إلى أمه » — تدلُّ على المحذوف ، لأنَّ ردَّه إلى أمِّه لم يكنْ إلا بعد رَدِّ الجواب على أخته ، ودلالتها إيَّاهم على امْرَأةٍ تُرْضِعُه .

ويكفى هذا الموضعُ وحده لمن يتبصَّرَ فى مواقع المحذوفات وكيفيَّتها .

ومما يجرى عَلَى هذا المنهج قوله تعالى فى قصَّة سليمان — عليه السلام — وقصة الهدهُد فى إرساله بالكتاب إلى بلقيس : (قالَ سَنَنْظُرُ أصَدَقْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ . اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذا فأَلْقِهْ إليْهِمْ ثُمَّ توَلَّ عَنْهُمْ فانْظُرْ ماذَا يَرْجِعُون . قالَتْ يأَيُّها المَلَأُ إنِّى أُلْقِىَ إلىَّ كِتابٌ كَرِيم)[2] .

وفى هذا محذوف ، تقديرُه : فأخذ الكتابَ ، وذهب به ، فلما ألقاهُ إلى المَرْأة وقرأتْه قالت : يا أيُّها الملأ .

---

(١) القصص : الآيتان ١٢ و١٣ .

(٢) سورة النمل : الآيات ٢٧ و٢٨ و٢٩ .

ومن حذف الجمل المفيدة ما يَعْسُرُ تقدير المحذوف منه بخلاف ماتقدّم .

ألا ترى أنّ الآياتِ المذكورة كلّها إذا تأمّلها المتأمِّلُ وجدمعانيها متّصلةً من غير تقدير للمحذوفاتِ التى حُذفتْ منها ؛ ثم إذا قدَّرَ تلك المحذوفاتِ سَهُل تقديرُها ببديهةِ النَّظر .

والّذى أذكرُه الآنَ ليسَ كذلك ، بل إذا تأمَّله المتأمِّلُ وجدهُ غير مُتَّصل المعنى ، وإذا أراد أن يقدِّر المحذوفَ عَسُرَ عليه .

فمّا جاءَ منه قوله تعالى : (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إلّا صَيْحَةً واحِدةً مالَها مِنْ فَوَاق . وقالُوا ربّنا عَجِّلْ لنَا قِطَّنَا قبْل يوْمِ الحِساب . اصْبِرْ عَلَى مايَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا دَاوُدَ ذَا الأيْدِ إنّهُ أوّابٌ)[1] فهذا الكلامُ إذا أمَّله المتأمِّل لم يجده متَّصل المعنَى ، ولم يَتبيَّن له مجىء ذكرُ داودَ عليه السلام رَادِفًا لقوله تعالى (اصْبرْ عَلَى ما يقولونَ) ، وإذا أراد أنْ يقدِّر هاهُنا محذوفًا يوصَل به المعنى عُسر عليه ، وتقديرُه يحتملُ وَجْهين .

أحدهما : أنّه قال : « اصْبر عَلَى مايقولون » وخوّفهم أمرَ معصية الله ، وعظّمها فى عُيونهم بذكر قصّة داود الذى كان نبيًّا من الأنبياء . وقد آتاهُ الله ما آتاهُ من النبوّة والملكُ العظيم ، ثمّ لما زلّ زلّة قُوبِلَ بكذا وكذا ، فما الظنُّ بكم أنتم مع كفركم .

الوجهُ الآخر : أنّه قال : « اصبر عَلَى مايقولون » واحفظْ نفسَكَ أن تزلّ فى شىء مما كلّفته من مُصابرتهم ، واحتمالِ أذاهم ، واذكر أخاكَ داود وكرامتَه عَلَى الله كيف زلّ تلك الزّلّة ، فلقِى من توبيخ الله مالقِى؟ !! .

---

(٢) سورة ص : الآيات ١٥ و١٦ و١٧ .

فهذا الكلامُ كما تراهُ يحتاجُ الى تقديرٍ ، حتى يتّصل بعضه ببعضٍ ، وهو من أغمضِ مايأتي من المحذوفاتِ ، وبه يُتَنَبَّه على مواضع أخرى غامضة .

* * *

وأما ماورد من هذا الضرب فى حذفِ الجمل التى ليسَتْ بمفيدةٍ فنحو قوله تعالى : (يَازَكَرِيّا إنّا نبشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيي لم نجْعَلْ لهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . قالَ ربِّ أنّى يَكُونُ لى غُلَامٌ وكانَتِ امْرَأَتِى عاقِراً وَقدْ بَلَغتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قالَ كذٰلِكَ قالَ ربُّكَ هُوَ عَلَيّ هيِّنٌ وَقدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قبلُ وَلَمْ تَكُ شيئًا . قالَ ربِّ اجْعَل لى آيَةً قالَ آيتُكَ ألّا تُكلِّمَ النّاسَ ثَلَاثَ لَيالٍ سَوِيًّا . فَخَرجَ عَلَى قَوْمهِ مِنَ الْمِحْرابِ فأَوْحٰى إليْهِم أنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَا يَحْيىٰ خُذ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وآتَيْناهُ الْحُكمَ صَبِيًّا)[1] .

هذا الكلامُ قد حذفَ منه جملةٌ دلّ عليها صدرُه ، وهو البُشْرى بالغلام ، وتقديرُها : ولما جاءه الغلام ونَشأَ وترعْرَع قلنا له : يايحيى خُذ الكتابَ بقوّة ، فالجملةُ المحذوفة ليست من الجمل المفيدة .

وعَلَى هذا النَّهْج وردَ قوله تعالى : (وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقوْم إنَّما فتِنْتُمْ بهِ وَإنّ ربّكُمُ الرّحْمٰنُ فاتّبِعونى وَأطِيعُوا أمْرِى * قالوا لنْ نبْرَحَ عَلَيْه عاكِفِينَ حَتى يرْجِعَ إليْنا مُوسى * قالَ ياهَارُونُ مامَنَعَكَ إذ رأيْتَهُمْ ضلُّوا * أَلّا تَتّبِعَنى أفعَصَيْتَ أمْرِى * قالَ يا ابنَ أُمَّ لاتأخُذ بِلحْيَتِى ولا برأْسى إنِّى خَشِيتُ أنْ تقولَ فرّقْت بيْنَ بَنى إسْرائيلَ ولم ترْقُب قوْلى)[2] .

---

(١) سورة مريم : الآيات ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ .
(٢) سورة طه : الآيات ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ .

وقد حُذف من هذا الكلام جملة إلا أنَّها غيرُ مُفيدة ، وتقديرُها . فلما رجع مُوسى ، ورآهم عَلَى تلك الحال من عبادة العجْل قال لأخيه هارُون : مامَنَعَك إذ رأيتهم ضلّوا ألّا تتبعَنى ؟ .

وكذلك وَرَدَ قوله تعالى فى قصَّة سُليمانُ — عليه السلامُ — من سُورة النمل (قالَ يَأَيُّها الملأُ (١) أيُّكمُ يَأتِينِي بعرشِها قبْل أنْ يأتونى مُسْلِمِينَ . قالَ عِفْرِيتٌ منَ الجنِّ أنَا آتيكَ به قبْل أنْ تقُوم مِنْ مقامِكَ وَإنِّى عليْه لَقوىٌّ أمِين . قالَ الذى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتاب أنَا آتِيك به قبْلَ أنْ يرْتَدَّ اليْك طَرْفُك فلمّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عنده قال هَذا مِنْ فضْلِ ربى ليَبْلونى أأشْكُرُ أمْ أكفُرُ وَمَنْ شَكَر فإنَّما يَشْكُرُ لنفْسِه وَمَنْ كَفَر فإنَّ ربِّى غَنِىٌّ كرِيم . قالَ نَكِّرُوا لهَا عَرْشَها نَنْظُر أتَهْتدِى أمْ تَكُونُ مِنَ الذين لا يَهْتَدُون)(٢) .

وفى هذا محذوف تقديرُه : فلمَّا جاء به قال : نكِّرُوا لها عرشها ، لأنَّ تنكيرَهُ لم يكن إلا بعد أنْ جِيء به إليه ، وقد أغْنى عن المحذوف صدرُ الكلام وآخرُه ، وكان ذلك دليلًا عليه .

ومما ورد على ذلك شِعراً قولُ أبى الطَّيِّب المتنبِّى (٣) :

---

(١) سقطت عبارة «يأيها الملأ» من الأصول ومن المطبوع .

(٢) سورة النمل : الآيات ٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١ .

(٣) ديوان المتنبي ٤/١٥٦ من قصيدة له يذكر فيها مسيره من مصر ، ويرثى فاتكا ، ومطلعها :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم ... وما سراه على خف ولا قدم

لا أُبغِضُ الْعِيَسَ لـكِنِّى وَقيْتُ بِهَا
قلْبِى مِنَ الْهمِّ أَوْ جِسْمِى مِنَ السَّقَمِ (١)

وهذا البيتُ فيه محذوفٌ ، تقديرُه : لا أُبغضُ العيس لإنضائى إيَّاها فى الأسفار ، ولـكنى وقيْتُ بها كذا وكذا ، فالثَّانى دليلٌ على حذف الأول .

وهـذا موضعٌ يحتاجُ فى استخراجه واستخراجِ أمثاله إلى فـكرةٍ وتدقيقِ نظر .

* * *

ومما يتصلُ بهذا الضرب حذفُ ما يجىء بعد « أفْعَل » كقولنـا : « الله أكبر » فإنَّ هذا يحتاجُ إلى تمام ، أى : أكبرُ من كلِّ كبير ، أو أكبر من كلِّ شىء يُتَوَهَّم كبيراً ، أوْ مَاجرَى هذا المجرى .

ومثلُه يَردُ قولهم : زيدٌ أحسنُ وجْهاً ، وأكْرَمُ خُلقاً ، تقديرُه : أحسنُ وجهاً من غيره ، وأكرمُ خُلقاً من غيره ، أو ما يسُدُّ هذا المسدَّ من الـكلام .

وعليه ورَدَ قولُ البُحْترىُّ (٢) :

اللهُ أعْطاكَ المحَبَّةَ فى الْوَرَى وَحَبَاكَ بالفضْلِ الَّذِى لا يُنْـكَرُ

---

(١) يريد أن إتعابها فى السفر لم يكن بغضا لها منى ، ولكن أسافر عليها لأقى قلبى وأحفظه من الحزن ، وجسمى من السقم ، إذا غير الهواء والماء وسافرصح جسمه ، وكذلك المحزون يتنسم بروح الهواء ، أويصير إلى مكان يسر بالإكرام فيه .

(٢) ديوان البحترى ١ / ١١ من قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله ، ويذكر خروجه يوم الفطر ، ومطلعها :

أخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر وألام فى كمد عليك وأعذر

وَلأَنْتَ أَمْلَأُ فى الْعُيُونِ لدَيْهِمُ   وَأَجَلُّ قَدْراً فى الصُّدُورِ وَأَكْبَرُ

أى : أنتَ أَمْلأُ فى العيونِ مِن غيرِكَ .

* * *

القسم الثانى ـ حذف المفردات :

وأما القسم الثانى المشتملُ عَلَى حذف المفردات فإنه يتصرَّف عَلَى أربعة عشر ضَرْباً :

(١) الضرب الأول : حذف الفاعل والاكتفاء فى الدلالة عليه بذكر الفعل :

كقول العَرب : « أرْسَلَتْ » وهم يُريدون : جاءَ المطر ، ولا يذكرونَ السَّماء .

ومنهُ قولُ حاتِم(١) .

أَمَا ويَّ ، ما يُغْنِى الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى
إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وضَاقَ بها الصَّدرُ

يُريد : النَّفس ، ولم يجرِ لها ذكر .

وعَلَى هذا ورَدَ قوله تعالى : (كلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ. وَقِيلَ مَنْ رَاق)(٢) والضمير فى « بَلَغَتْ » للنفْس ، ولم يجر لها ذكر .

وقد نصَّ عثمانُ بنُ جِنِّى ــ رحمه الله تعالى ــ على عدم الجواز فى حذف

(١) ديوان حاتم الطائى ١١٨ ـ من مجموع يشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب : للنابغة ، وعروة بن الورد ، وحاتم طى ، وعلقمة الفحل ، والفرزدق (المطبعة الوهبية ـ القاهرة ١٢٩٣ هـ) ـ والبيت من قصيدة رواها ابن الكلبى لحاتم ، ومطلعها :

أماوى قد طال التجنب والهجر   وقد عذرتنى من طلابكم العذر

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٢٦ و٢٧ .

الفاعِل ، وهذه الآية وهذا البيتُ الشعريُّ وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف ما ذهب إليه[1] .

إلا أنَّ حذف الفاعل لا يجوز على الإطلاق ، بل يجوزُ فيما هذا سبيله ، وذاك أنَّه لا يكون إلا فيما دلَّ الكلامُ عليه .

ألَا ترَى أنَّ التى تبلغُ التراقِيَ إنما هى النَّفس ، وذلكَ عند الموتِ ، فَعُلِمَ حينئذٍ أن النفسَ هى المرادةُ ، وإنْ كان الكلامُ خالياً عن ذكرها ، وكذلك قولُ حاتمٍ « حَشْرَجَتْ » فإنّ الحشرجَة إنما تكونُ عند الموت .

وأما قولُ العرب « أَرْسَلَت » — وهم يريدون أرسَلت السماء — فإن هذا يقولونه نظراً إلى الحالِ ، وقد شاعَ فيما بينَهم أن هذه كلمةٌ تقالُ عند مجىء المطرِ ، ولم تردْ فى شىء من أشعَارهم ، ولا فى كلاَمهم المنثُور ، وإنّما يقولُها بعضُهم لبعضٍ إذا جاء المطر

فالفرقُ بينها وبين « حَشْرَجَت » وبين « بلَغَتِ التَّراقى » ظاهر ، وذاك أنّ « حَشْرَجَت » « وَبلغَتْ التراقِيَ » يُفْهَمُ منها أن النفس التى حشرجَتْ ، وأنَّها هى الَّتى بلغتِ التَّراقى .

وأمّا « أرْسَلَتْ » فلولا شاهدُ الحالِ ، وإلّا لمْ يَجُزْ أن تكون دالّةً على مجىء المطر ، ولو قيلَ فى معرض الاسْتِسْقَاء : « إنا خرجْنَا نسألُ الله ، فلم نزَلْ حتى أرْسَلَتْ » ، لفُهِم من ذلك أنَّ التى أرسلَت هى السّماء ، ولا بدَّ فى الكلام من دليلٍ على المحذَوفِ ، وإلا كان لغواً لا يُلْتَفَتُ إليه .

---

(١) هذا ليس من باب حذف الفاعل إلا عند الكوفيين ، والضمير فى الآية عائد إلى النفس ، وكذلك فى بيت حاتم ، وفى قوله تعالى « حتى توارت بالحجاب » فإن الضمير فى « توارت » عائد إلى الشمس ، ولم يتقدم لها ذكر ، وذلك إذا كان الاسم الظاهر مفهوما من سياق الكلام .

(٢) الضرب الثانى : حذف الفعل وجوابه :

اعلم أن حذفَ الفعل ينقسمُ قسمين :

أحدها : يظهرُ بدلالةِ المفعول عليه ، كقولهم فى المثل : « أَهْلَكَ واللَّيْلَ » فنصْبُ « أهلَكَ » و « الليلَ » يدلُّ عَلَى محذوفٍ ناصبٍ ، تقديره « الْحَقْ أَهْلَكَ وَبادِرِ اللّيلَ » وهذا مثلٌ يُضْرَبُ فى التّحذير .

وعليه وَرَدَ قوله تعالى (فقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وسُقْيَاهَا)(١) .

ومما ورد منه فى الأخبار النّبويّة أن جابراً تزوّج ، فقال لهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ما تزوّجْتَ ؟ قال : ثيّباً ، فقال : « فهلّا جاريةً تلاعِبُها وتلَاعِبُك » : يريدُ : فهلَّا تزوجتَ جاريةً : فحذفَ الفعل ، لدلالةِ الـكلام عليه .

وممَّا وردَ منهُ شِعراً قولُ أبى الطَّيِّب المتنبِّى فى قصيدتِه الـكافيَّة الَّتى يمتدحُ بها عَضُدَ الدِّولةِ أبا شُجاع بنَ بُوَيْه ، ومطلعُها(٢) :

* فِدًى لكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا *(٣)

وسأذكرُ الموضِعَ الّذى حُذفَ منهُ الفعلُ وجوابُه ، لتعلُّقِ الأبيات بعضِها ببعضٍ ، وهى من محاسنِ ما يؤْتى به فى معنَى الوداع ، ولم يأْتِ لغيرِه مثلُها ، وهى :

---

(١) سورة الشمس : الآية ١٣ .

(٢) ديوان المتنبى ٢ / ٣٨٥ .

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه :

* فلا ملك إذن إلا فداكا *

إذَا التَّوديعُ أعرضَ قالَ قلْبي   عليكَ الصَّمْتَ لا صاحَبْتَ فا كاَ(١)
وَلوْلَا أنَّ أكثرَ ماتمـــنَّى   مُعاوَدَةٌ لقلتُ وَلَا مُنَاكَاَ(٢)
قد استَشْفَيْتُ من داءٍ بداءٍ   وأقْتَلُ ما أَعلَّكَ مَاشفاكاَ
فأكتُمُ منك نجوانَا وأُخْفِي   هُمومًا قد أطلتُ لها العِراكاَ(٣)
إذا عاصَيْتُها كانتْ شِــداداً   وَإنْ طَاوَعْتُها كانت رِكاكاَ(٤)
وَكَمْ دُون الثَّويةِ من حزينٍ   يقولُ له قُدُومِي : ذَا بِذاكاَ(٥)
وَمِنْ عَذْبِ الرُّضابِ إذا أنَخْنا   يقبِّلُ رَحْلَ « تُرْوَكَ» وَالْوِرَاكاَ(٦)

---

(١) إذا ظهر التوديع قال لى قلبى : اسكت ، ولا تتكلم بالوداع ، قال الواحدى ، ويجوز أن يكون المعنى : لا تمدح غيره ، ومعنى « لا صاحبت فاك » أى : لانطقت : دعاء عليه .

(٢) معناه : لولا أن قلبى أكثر ما يتمنى ويطلب معاودة خدمة الممدوح ، لقلت له : لا بلغت مناك : وقال الواحدى : لابلغت مناك فى الارتحال ، حتى لا أفارقه ، ولكنه يتمنى الارتحال للعود إليه .

(٣) رواية الديوان «فأسترمنك» موضع «فأكتم منك» .

(٤) الركاك : الضعاف ، وهوجمع ركيك كضعيف .

(٥) الثوية مكان بالكوفة على بعد ثلاثة أميال منها . ومعنى البيت : كم دونها من إنسان حزين لفراقى ، فإذا قدمت فرح لقدومى ، فيقوله القدوم . هذا السرور بالغم الذى كنت لقيته بالبعد ، وهذا كقول أبى تمام :

وليست فرحة الأوبات إلا   لموقوف على ترح الوداع

وقول ابن الرومى يخاطب أمه وقد أراد سفراً :

فقلت لها إن اكتئاباً بشاخص   سيتبعه الله ابتهاجاً بقادم

(٦) الرضاب ماء الأسنان ، وتروك اسم ناقة أعطاها له عضد الدولة ، والوراك جلد يتخذه الراكب تحت وركه ، يقول : كم هناك من شخص عذب الرضاب ، إذا أنخت إليه ناقتى قبل رحلها ووراكها إعجاباً بها ، يفديها بنفسه إكراما لها إذا أدنتنى إليه .

يُحَرِّمُ أن يمسَّ الطِّيبَ بعدِى وَقدْ عَبِقَ العبيرُ به وصَاكَا[1]

يحدِّثُ مقلتَيْه النومُ عنِّى فليت النَّومَ حَدَّثَ عن نَدَاكَا

وَمَا أرْضَى لُمقْلتِه بِحُلْمٍ إذَا انتبَهت توهَّمَهُ ابْتِشَاكَا[2]

وَلا إلّا بأن يُصْغِى وَأحكى فلَيْتَكَ لَا يتيِّمهُ هوَاكَا

فقولُه « ولا منا كا » . فيه محذوفٌ ، تقديرُه : ولا صاحبْتَ منا كا . وكذلك قوله . « ولاَ إلّا بأن يُصْغِى وَأحْكِى » فإنَّ فيه محذوفًا ، تقديرُه : ولا أرضى إلا بأن يُصغى وأحكى .

* * *

وأما القسمُ الآخرُ : فإنه لا يظهرُ فيه قسْمُ الفعل ، لأنَّه لا يكون هناكَ منصوبٌ يدلُّ عليهِ . وإنَّما يظهرُ بالنظر إلى مُلاءمة الكَلَامِ .

فمَّا جاء منه قوله تعالى : (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لقَدْ جِئْتُمُونا كما خَلقْنَاكُمْ أوّلَ مرَّةٍ)[3] .

فقوله : « لقد جئتمونا » يحتاجُ إلى إضْمار فعلٍ . أى : فقيل لهم : لقد جئتُمونا ، أو فقُلنا لهمْ .

وقد استُعْمِل هذا فى القرآن الكريم فى غير موضعٍ ، كقوله تعالى :

---

(١) فى الأصل «عاق» موضع «عبق» ، والتصويب عن الديوان ، وصاك الشىء بالشىء لصق به .

(٢) التبشك والابتشاك الكذب ، وأبشك القول ، وحرفه ، واختلقه ، بمعنى .

(٣) سورة الكهف : الآية ٤٨ .

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذينَ كفَرُوا عَلَى النّارِ أَذْهَبْتُمْ طيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا)[1] .

فقوله : « أَذْهَبْتُمْ طيباتِكم فِي حَيَاتِكم الدُّنيا » يحتاجُ إلى تقدير الفعل المضمر .

وكذلك وردَ قوله تعالى : (وَوَصّيْنَا الإِنْسَانَ بِوالدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)[2] . فقوله : « وإِنْ جاهداكَ » . لابدَّ لهُ من إضمار القول ، أيْ : وقلْنا له : إن جاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ماليسَ لكَ به علمٌ فلا تطِعْهُما .

* * *

ومن هذا الضّرب : (إيقاعُ الفعْل على شيئين ، وهو لأحدِهما ، كقوله تعالى : (فأَجْمِعُوا أمرَكمْ وَشُرَكاءَكمْ)[3] .

وهو[4] لأمركم وحدَه ، وإنَّما المرادُ أجْمِعُوا أمركم ، وادْعُوا شركاءَكمْ ؛ لأنَّ معنى « أجْمِعُوا » من « أجْمَعَ الأمر » ، إذا نواهُ ، وعزمَ عليه .

وقد قرأَ أُبيٌّ — رضى الله عنه — « فأَجْمِعُوا أمرَكم وادْعُوا شركاءَكم » وهذا دليلُ عَلَى ما أشرْتُ إليه ، وكذلك هو مُثْبَتٌ فى مصحفِ عبد الله بن مسعود رضى الله عنه[5] .

* * *

(١) سورة الأحقاف : الآية ٢٠.

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٨ .

(٣) سورة يونس : الآية ٧١ .   (٤) وهو أى الفعل

(٥) هو عبد الله بن مسعود بن الحارث ، أبو عبد الرحمن الهذلى المكى ، أحد السابقين والبدريين والعلماء الكبار من الصحابة ، أسلم قبل عمر . وعرض القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أول من أفشى القرآن من فى رسول الله ، توفى سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع ، وله بضع وستون سنة .

ومن حَذْفِ الفعل، بابٌ يسمَّى (باب إقامةِ المصدر مَقامَ الفعْل).

وإنّما يُفْعَلُ ذلك لضرْبٍ من المبالغةِ والتوكيد، كقوله تعالى: (فإذَا لقِيتُمُ الَّذينَ كفَرُوا فضَرْبَ الرِّقابِ)(١) قوله: «فضرْبَ الرِّقاب» أصله: فاضرِبوا الرِّقابَ ضَرْباً، حُذفَ الفعلُ، وأُقيمَ المصدرُ مقامَه. وفى ذلك اختصارٌ، مع إعطاء معنَى التَّوكيد المصْدرىّ.

***

وأما (حذفُ جوابِ الفعل) فإنَّه لا يكون فى الأمر المحتومِ كقوله تعالى: (فذرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا)(٢) فجزَمَ «يخوضوا» و«يلعبوا» لأنّهما جوابُ أمر «فذرهم».

وحذفُ الجوابِ فى هـذا لا يدخلُ فى باب الإيجاز، لأنَّا إذا قلنا ذرْهمْ أى: اترُكهمْ، لايحتاجُ ذلك إلى جوابٍ. وكذلك مايجرى مجراه.

وإنما يكونُ الجوابُ بالفاء فى ماضٍ، كقولنا: «قلتُ له: اذهَبْ فذهَبَ» وحينئذٍ يظهرُ الجوابُ المحذوفُ كقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الْكِتابَ وَجَعْلَنا مَعَهُ أخَاهُ هارُونَ وزيراً * فقَلْنا اذهَبَا إلى الْقَوْمِ الذِينَ كذَّبوا بآيَاتِنا فدَمَّرْنَاهمْ تدْمِيراً)(٣).

ألا تَرَى كيف حُذفَ جوابُ الأمر فى هذه الآية؟ فإنّ تقديرَه: فقلنا اذهبا إلى القوم الَّذينَ كذَّبوا بآياتنا، فذهبَا إليهم، فكذّبوهما، فدمّرناهم

(١) سورة محمد: الآية ٤.
(٢) سورة الزخرف: الآية ٨٣.
(٣) سورة الفرقان: الآيتان ٣٥ و٣٦.

تدميراً، فذكرَ حاشيَتي القِصّة أوّلها وآخرها، لأنهما المقصودُ من القصة بطولها، أعْنى إلزامَ الحجّةِ ببعْثةِ الرُّسل، واستحقاق التّدمير بتكذيبهم.

ومن هذا الضرْبِ أيضاً قوله تعالى: (قَالُوا يَاأَبَانَا مَالَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وإنَّا لَهُ لنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً نَرْتَعْ ونلْعَبْ وإنّا لهُ لحافِظون. قالَ إنِّى ليَحْزُنُنِي أنْ تذهبُوا بهِ وَأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذِّئْبُ وَأنتُمْ عَنْهُ غافلونَ: قالوا لَئِنْ أكلهُ الذِّئبُ وَنَحْنُ عُصبَةٌ إنَّا إذاً لخاسِرُون. فلمَّا ذَهبوا به وَأجْمَعُوا أنْ يجعَلوهُ فى غيَابَةِ الُجبِّ)(١).

فجوابُ الأمْرِ من هذا الكلام محذوفٌ، تقديره: فأرْسَلَهُ معهم، ويدلُّنا على ذلك ماجاء بعده من قوله: « فلما ذهبوا به ».

كما حُذف أيضاً فى قوله عزّ وجلّ: (وَقَالَ الّذى نَجَا مِنْهُما وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أنا أُنبِّئكُمْ بتأويلِهِ فأَرْسِلون. يُوسُفُ أيُّها الصِّدِّيقُ أفتِنَا فى سَبْعِ بقراتٍ سِمانٍ)(٢) الآية.

فجوابُ الأمر من هذا الموضع محذوفٌ، وتقديره: فأرسلوه إلى يوسف، فأتاهُ فقال له: يوسفُ أيُّها الصِّدِّيق.

وكذلك قوله تعالى: (وَقَال الْمَلِكُ ائْتونى به فلمَّا جَاءَهُ الرّسولُ قالَ ارْجعْ إلى رَبِّك فاسْأَلْهُ مَابالُ النِّسْوَةِ اللاتى قطَّعْنَ أيْدِيَهنّ إنّ ربِّى

---

(١) سورة يوسف: الآيات ١١ و١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥. و« نرتع ونلعب» بالنون فيهمامكى وشامى وأبوعمرو — وكذلك هو فى الأصل، وبالياء فيهما مدنى وكوفى، وبكسر العين حجازى من ارتعى يرتعى افتعال من الرعى.

(٢) سورة يوسف: الآيتان ٤٥ و٤٦.

بكيدِهِنَّ عَلِيمٌ . قالَ ما خَطْبُكُنَّ إذْ راوَدْتُنَّ يوسُفَ عَنْ نفْسِهِ)(١) الآية .

ففى هذا الكلام حَذف واختصارٌ ، استُغْنِى عَنهُ بدلالة الحال عليهِ ، وتقديرُه : فرَجعَ الرسول الى الملك برسَالة يوسفَ ، فدعا الملك بالنِّسوة ، وقال لهنَّ : ما خطبُكُنَّ . . ؟

وهكذا ورَدَ قوله تعالى (ائتُونى به أستَخْلِصهُ لنفْسى فلمَّا كلّمهُ قال إنَّكَ اليومَ لدَيْنَا مَكينٌ أمينٌ)(٢) .

وقد حُذفَ جوابُ الأمر هاهنا ؛ وتقديره . فأتَوْهُ به فلمَّا كلّمه . . .

وفى سورة يوسفَ — عليه السلامُ — محذوفاتٌ كثيرةٌ من أوّلها إلى آخرها .

فانظرْ أيُّها المتأمّلُ إلى هذه المحذوفات المذكورة هاهنا الّتى كأنّها لم تحذف منْ هذا الكلام لظهور معنَاها وبيانه ؟ ودلالة الحال عليه .

وعلى نحوٍ من ذلك ينبَغى أَن تكون محذوفاتُ الكلام .

(٣) الضرب الثالث : حذف المفعول به :

وذلك ممّا نحنُ بصدَده أَخصُّ ، فإنّ اللطائفَ فيه أَكثرُ وأَعجبُ ، كقولنا : فلانٌ يحلُّ ويعقدُ ، ويبْرم وينقض ، ويضرُّ وينفعَ ، والأصلُ فى ذلك على إثبات المعنى المقصود فى نفْسك للشىء عَلَى الإطلاق .

وعَلَى هذا جاء قوله تعالى : (وَأَنّهُ هوَ أَضْحَك وأَبْكى . وأنّه هوَ أماتَ وأَحْيَا)(٣) .

---

(١) سورة يوسف : الآيتان ٥٠ و٥١ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٥٤ .

(٣) سورة النجم : الآيتان ٤٣ و٤٤ .

ومن بديعِ ذلك قوله عزّ وجلّ: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[1].

فإنّ في هاتين الآيتين قد حُذِفَ المفعولُ به في أربعةِ أماكن، إذ المعنى: وجد أُمّة[2] مِنَ النَّاسِ يسقون مواشِيَهُمْ، وامرأتين تذُودَان مواشيَهما، وقالتا: لانسْقِي مواشيَنَا، فسَقى لهما مَوَاشِيَهمَا. لأنَّ الغرَض أن يعلم أنه كان من الناس سَقْيٌ: ومن الامْرأَتين ذوْدٌ، وأنّهمَا قالتَا: لا يكونُ منا سقْيٌ حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ[3] وأنّه كان من موسى عليه السّلامُ بعد ذلك سَقْيٌ. فأمّا كوْنُ المسقيّ غنماً أو إبلاً أَوْ غيرَ ذلك نخارجٌ عن الغرض.

وقد وَرَدَ في الشِّعْر من هذا النّوع قولُ البَعيثِ بن حُرَيْثٍ[4] منْ أَبيات الحماسة:[5]

---

(١) سورة القصص: الآيتان ٢٣ و ٢٤.

(٢) الأمة الجماعة الكبيرة.

(٣) يصدر أي يرجع، والرعاء جمع راع، كقيام جمع قائم.

(٤) شاعر محسن، هوابن حريث بن جابر، ولهم شاعران آخران يقال لها «البعيث» أحدهما: المجاشعي، واسمه خداش، شاعرمشهور، وله نقائض بين جريروالفرزدق، والآخر: البعيث التغلبي، وهو بعيث بن رزام، وكان يهاجي زرعة بن عبد الرحمن. حكاه الآمدي في «المؤتلف والمختلف».

(٥) ديوان الحماسة ١/ ١٤٩ من جملة أبيات أولها:

خيال لأم السلسبيل ودونها   مسيرة شهر للبريد المذبذب

دَعانى يزيدُ بعدَ مَاسَاءَ ظَنُّه وَعبْسٌ وقدْ كانَا عَلَى حدِّ مَنكبِ[1]
وَقدْ عَلما أَنَّ العشيرَةَ كلَّها سوَى مَحْضرِى منْ حاضرِين وَغُيَّبِ[2]

فالمفعولُ الثانى من « عَلمَا » محذوف ، لأنّ قوله : « أَنَّ العشيرة » فى موضع مفعول « عَلما » الأوّل ، وتقديرُ الكلام : قد عَلمَا أَنَّ العشيرَةَ سوى محْضرى من حاضرين وغُيَّب لاغناءَ عندهم ، أو سواءٌ حضورُهمْ وغيبَتهمْ ، أَوْ ماجرَى هذا المجرى .

وَمنْ هذا الضّرب أيضًا : حذفُ المفعولِ الوارد بَعد المشيئةِ والإرادة . كقوله تعالى : (وَلوْ شَاءَ اللهُ لذهبَ بسَمْعِهمْ وَأَبْصَارهم)[3] .

فمفعولُ « شاءَ » هاهنا محذوف ، وتقديرُه : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهبَ بها .

وعلى نحوٍ منْ ذلك جَاءَ قوله تعالى : (وَلوْ شَاءَ اللهُ لجَمَعَهُمْ على الْهدى)[4] .

---

(١) فى الأصل جد موضع « حد » والتصويب عن الحماسة ، والحد الطرف والمنكب النكبة وهى النائبة — والمعنى دعانى يزيد وعبس لنصرتهما ، وقد كانا أشرفا على الهلاك ، وذلك تفسير « ساء ظنه » .

(٢) فى الحماسة « خاذلين » موضع « حاضرين » ، والغيب جمع غائب — يقول : استغاثا بى متيقنين أن كل عشيرتهما — إذا لم أحضر — بين شاهد لا ينصر ، وغائب لا يحضر ، ودل بهذا الكلام على الضرورة الداعية إلى الاستغاثة به .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠

(٤) سورة الأنعام : الآية ٣٥ .

وَممّا جاءَ عَلى مِثالِ ذلك شِعراً قولُ البُحْتُرِى[1] .

لَوْ شِئْت لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حاتِمٍ كَرَمًا وَلَمْ تَهْدِمْ مآثِرَ خَالِدِ

الأصلُ فى ذلك . لو شِئْتَ أن لاتفسِدَ سَماحةَ حاتمٍ لم تُفْسِدها ، فحذفَ ذلكَ من الأوَّل ، استغناء بدلالتِه عليه فى الثَّانى .

وقد تقدَّم أنَّ من الواجبِ فى حُكْمِ البلاغةِ ألَّا تَنْطِقَ بالمحْذوفِ ، ولا تظهِرَهُ إلى اللَّفظِ ، ولو أظهرْتَ لصِرْتَ إلى كلامٍ غَثٍّ .

ومجىء المشيئةِ بعد « لو » وبعد حُروفِ الجزاء هكذا موقوفةً غيرَ مُعَدَّاةٍ إلى شىء كثيرٌ شائعٌ بين البُلغاءِ .

ولقد تكاثرَ هذا الحذفُ فى « شاءَ » و «أرادَ » حتى إنَّهُمْ لا يَكادُونَ يُبْرِزُون المفعولَ إلَّا فى الشىء المستغرَب ، كقوله تعالى : (لوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ)[2] .

وعلى هذا الأسلوبِ جاءَ قولُ الشَّاعر[3] :

---

(١) ديوان البحترى ٢/ ٤٢ من قصيدة له فى مدح يوسف بن محمد ، ومطلعها :

عجباً لطيف خيالك المتعاهد ولوصلك المتقارب المتباعد

(٢) سورة الزمر : الآية ٤ .

(٣) هو الخريمى ، واسمه إسحاق بن حسان ، ويكنى أبا يعقوب ، وهو من العجم ، وكان مولى ابن خريم ، الذى يقال لأبيه « خريم الناعم » وكان أبويعقوب متصلا بمحمد بن منصور بن زياد ، كاتب البرامكة ، وله فيه مدائح جياد ، ثم رثاه بعد موته ، فقال له أحمد بن يوسف الكاتب : يا أبا يعقوب ، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود ! فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما بون بعيد !

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِى دَمًا لَبَكَيْتُهُ   عليْهِ ولـكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ[1]

فلو كان على حدِّ قوله تعالى : « ولو شَاءَ اللهُ لجمَعَهُمْ عَلَى الهدى » لوجَبَ أن يقول : ولوْ شئتُ لبكيتُ دماً ، ولكنَّه تركَ تلكَ الطَّريقة ؛ وعدلَ إلى هذه ؛ لأنه أليق فى هذا الموضع . وسببُ ذلكَ أنّه كانَ بدعاً عجيباً أن يشاءَ الإنسانُ أن يبكىَ دماً ، فلمّا كان مفعولُ المشيئةِ ممَّا يُستَعظَم ويُستَغرَبُ كان الأحسنُ أن يذكَر ولا يُضمَر .

(٤) الضرب الرابع : وهو حذف المضاف والمضاف اليه ، واقامة كل واحد منهما مقام الآخر :

وذلك بابٌ عريضُ طويلٌ شائعٌ فى كلامِ العربِ ، وإن كان أبو الحسن الأخفَش[2] — رحمهُ الله — لايرى القِياسَ عليْه .

---

(١) أنظر ديوان المعانى (٢/ ١٧٥) قال أبوهلال العسكرى : وأخبرنا أبو أحمد قال : سمعت بن يزيد يقول : لو سئلت عن أحسن أبيات تعرف فى المراثى لم أختر على أبيات الخريمى :

ألم ترنى أبنى على الليث بنيـة   وأحثى عليه الترب لا أتخشع
وأعددته ذخرا لـكل ملمة   وسهم المنايا بالذخائر مولع
وإنى وإن أظهرت منى جلادة   وصانعت أعدائى عليه لموجع
ولو شئت أن أبكى دما لبكيته   عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

(٢) هو سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط ، وهو أحد الأخافش الثلاثة المشهورين ، كان مولى بنى مجاشع بن دارم ، من أهل بلخ ، سكن البصرة ، وقرأ النحو على سيبويه ، وكان أسن منه ، ولم يأخذ عن الخليل ، وكان معتزلياً ، دخل بغداد ، وأقام بها مدة ، وروى وصنف بها ، قال المبرد : أحفظ من أخذ عن سيبويه الأخفش ثم الناشىء ، ثم قطرب ، قال : وكان الأخفش أعلم الناس بالكلام ، وأحذقهم بالجدل ، صنف الأوساط فى النحو ، ومعانى القرآن ، والمقاييس =

وأمّا حذفُ المضافِ فكقوله تعالى : (حَتى إذَا فُتِحَتْ يَأجُوجُ وَمَأجُوجُ وَهُمْ مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)(١) حُذِفَ المضافُ إلى يأجُوج ومأجوج (٢) ، وهو سدُّهما ، كما حُذِف المضافُ إلى القريةِ فى قوله تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)(٣) أى : أهْلَ القريةِ(٤) .

ومِنْ ذلك أيضاً قوله عزّ وجلّ (ولَكِنَّ البرّ مَن اتقَى)(٥) أى : خَصْلَةُ من اتّقَى ، وإنْ شِئْتَ كان تقديرُه . ولكِنَّ ذَا البرِّ مَن اتّقى ، والأولى أوْلى لأن حذفَ المضافِ ضَرْبٌ من الاتِّسَاعِ ، والخبر أوْلى بذلك من المبتدأ ، لأنّ الاتِّسَاعَ بحذفِ الأعجاز أوْلى منهُ بحذفِ الصُّدُور .

= فى النحو و الاشتقاق ، والمسائل : الكبير والصغير ؛ والعروض والقوا فى والأصوات ؛ وغير ذلك . ومات سنة ٢١٠ وقيل ٢١٥ وقيل ٢٢١ هـ - وانظر بغية الوعاة ٢٥٨ .

(١) سورة الأنبياء : الآية ٩٦ .

(٢) هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، وهمز هما عاصم فقط ، وهما من ولد يافث بن نوح ، أو يأجوج من الترك ، ومأجوج من الجبل والديلم . قال النسفى فى تفسير قوله تعالى « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » قيل : كانوا يأكلون الناس ، وقيل : كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه .. كلهم قد حمل السلاح ، وقيل : هم على صنفين طوال مفرطو الطول ، وقصار مفرطو القصر) ٣ / ٢٠) .

(٣) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

(٤) عقب النسفى على هذا الآية بمثل ما عقب به ابن الأثير ، قال النسفى (٣ / ٦٩) : أى فتح سدهما ، فحذف المضاف ، كما حذف المضاف إلى قرية ، وقال فى هذا الموضع : ان يأجوج ومأجوج قبيلتان من جنس الإنس ، يقال : الناس عشرة أجزاء ، تسعة منها يأجوج ومأجوج .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٨٩ .

وقدْ حُذِفَ المضافُ مكرّراً في قوله تعالى : (فقبَضْتُ قبْضَةً مِنْ أثَرِ الرّسُولِ)(١) أيْ : من أثرِ حافرِ فرس الرّسول .

وهذَا الضربُ أكثر اتِّساعاً من غيره .

وممّا جاء منهُ شِعْراً قول بعضِهم(٢) من شُعراء الحماسَة :

إذَا لَاقَيْتِ قوْمِي فاسْأَلِيهِمْ ... كَفَى قوْماً بصَاحِبِهِمْ خَبِيرَا(٣)

هَل اعْفُو عَنْ أُصول الحقِّ فيهِمْ ... إذَا عَسُرَتْ وأَقْتَطِعُ الصُّدورا(٤)

أرادَ : أنَّه يقتطعُ مافي الصُّدور من الضَّغائن والأوْغام(٥) ؛ أي : يزيلُ ذلك بإحسانه من عفوٍ وغَيْرِه ، فحذف المضاف ، وأقامَ المضاف إليه مُقامَه .

وأما حذفُ المضافِ إليه . فإنه قليلُ الاستعمالِ .

---

(١) سورة طه : الآية ٩٦

(٢) لم ينسبهما أبوتمام في ديوان الحماسة ٢ /٢٧٣ ، ونقل التبريزى عن أبي هلال ، أن البيتين لجثامة بن قيس أخى بلعاء بن قيس أحد بنى أبي بكر بن كلاب ، ومن شعرائهم ، وكان رئيساً على قبيلته يوم الفجار الثانى ، لما قتل أخوه بلعاء بن قيس .

(٣) رواية ديوان الحماسة « كفى قومى » موضع « كفى قوما » ، وقوله «بصاحبهم » يعنى به نفسه .

(٤) أراد بقوله « أصول الحق » أى ، أصل حقى ، وبقوله « اقتطع الصدور » أى : آخذ ما سهل مأخذه ، والمعنى : إن سألت عن حقيقتى فاسألى قومى ، فإنهم أخبر بصاحبهم ، ولو سألتهم عن حسن معاماتى لهم ورأفتى بهم لأخبروك بأنى أتسامح بما يجب لى عليهم من الحقوق ، وآخذ اليسير منها ، ولا أستقصى في تقاضيها .

(٥) الأوغام جمع وغم ، ومن معانيه المناسبة هنا ، الحرب ، والترة ، والحقد الثابت فى الصدر .

فممّا جاء منه قوله تعالى : (لِلهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ)[1] أى : من قبلِ ذلك ومِنْ بعْدِه .

وربّما أُدْخِل فى هذا الموضع ما ليسَ مِنْه كقوله تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النّاسَ بما كَسَبوا ماترَكَ عَلَى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ)[2] قيل : أرادَ ظهرَ الأرض ، فحُذِفَ المضافُ إليه ، وليسَ كذلكَ ، فإنّ الهاء والألف قائمةٌ مقام الأرض ألا ترى أنّ قوله « ظهرها » يريد به الأرض ، لأنّه ضميرٌ راجعٌ إليها .

وكذلكَ وَرَدَ قَوْل جرير[3] :

إذا أَخذَتْ قيسٌ عليك وَخِنْدِفٌ   بأقطَارها لم تدْرِ مِنْ أيْنَ تَسْرَحُ[4]

وهذا لايسمَّى إيجازاً ، وإنما هو تعويضٌ[5] بالضمير عن الضمير .

(٥) الضرب الخامس : وهو حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام الآخر :

ولا يكون اطِّرادُه فى كلِّ موضعٍ ، وأكثرُه يجىءُ فى الشِّعر ، وإنما كانت كثرته فى الشِّعر دون الكلام المنْثور لامْتناع القياس فى اطِّراده .

---

(١) سورة الروم : الآية ٤

(٢) سورة فاطر : الآية ٤٥

(٣) ديوان جرير (١١١) من قصيدة له مطلعها :

أجد رواح القوم أم لاتروح   نعم كل من يعنى بجمل مترح

(٤) قيس وخندف قبيلتان . يقول : إذا أخذتا عليك الطرق لم يكن لك رواح ولا مسرح ، بل تنجحر فلا تظهر . وهذه القصيدة إحدى نقائضه فى هجاء الأخطل . وفى الأصل «بأنظارها» موضع «بأقطارها» وهوتحريف ، والتصويب عن الديوان .

(٥) فى الأصل « تعريض » ــ بالراء موضع الواو ــ وهوتحريف .

فممّا جاء منه فى الشِّعر قولُ البحترىِّ من أبياتٍ فى صفة إيوان كِسْرى ، فقال فى ذكر التّصاوير التى فى الإيوان — وذلك أنّ الفُرسَ كانت تحارب الروم فصوّرُوا صورةَ مدينة «أنْطَا كِيَة»[1] فى الإيوان وحربَ الرُّوم والفرْس عليها — فممّا ذكرَهُ فى ذلك قوله[2] :

وَإِذا ما رأيْتَ صورةَ أنْطا كِيَةَ ارْتَعْت بيْنَ رُومٍ وفُرْسِ[3]
والْمَنَـــايا مواثلٌ وَأنوشِرْ وَانُ يزجى الصُّفُوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ[4]
فى اخضِرَارٍ من اللِّبَاسِ عَلَى أصـــفرَ يختـــال فى صبيغَة وَرْسِ

فقوله « عَلَى أصْفر » أى : عَلَى فرسٍ أصفَر ، وهذا مفهومٌ من قرينةِ الحال ، لأنّه لما قال . « عَلَى أصفر » عُلِمَ بذلكَ أنّه أراد فرسًا أصْفر .

والصفةُ تأتى فى الكلام عَلَى ضَرْبين :

(١) إمّا للتأكيد والتّخصيص .

(٢) وإمّا للمدح والذمّ .

---

(١) أنطاكية — بالفتح ثم السكون والياء مخففة — مدينة هى قصبة العواصم من الثغور الشامية ، من أعيان البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنزاهة والطيب والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه ، وسعة الخير ، بينها وبين حلب يوم وليلة .

(٢) ديوان البحترى ١٠٨/١ من قصيدته السينية المشهورة التى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس

(٣) فى الديوان « فإذا » موضع « وإذا » .

(٤) فى الأصل « يرمى » موضع « يزجى » و« الدرس » موضع الدرفس ، وهو تحريف ، ومعنى يزجى يسوق ، والدرفس هو العلم الكبير . ومواثل قائمات تنتظر العمل وقت الحرب ، وأنوشروان أحد الأكاسرة .

وكلاهما من مقامَاتِ الإسهابِ والتَّطويل، لا من مَقامات الإيجاز والاختصار

وإذَا كانَ الأمرُ كذلك لم يلْقِ الحذفُ به، هذا مع ما ينضافُ إليه من الالتباس وضِدِّ البيان.

ألا تَرى أنَّك إذا قلتَ: مررْتُ بطويلٍ، لم يَبِنْ من هذا اللفظِ المرُورُ به، إنسانٌ هوَ أمْ رُمح، أمْ ثوْب، أمْ غيرُ ذلك.

وإذا كان الأمرُ عَلَى هذا فحذف الموصوف إنما هُو شيء قام الدليلُ عليه، أوْ شهِدتْ به الحالُ؛ وإذا اسْتَبْهَمَ كان حذفه غيرَ لائقٍ.

ومما يؤكِّد عندكَ ضعفَ حذفِهِ أنَّك تجدُ من الصفاتِ مالا يمكنُ حذفُ موصوفِهِ، وذاكَ أنْ تكون الصِّفةُ جملةً نحو: مررتُ برجلٍ قامَ أبوهُ؛ ولقيتُ غلاماً وجههُ حسنٌ. ألا تَرَاكَ لو قُلْتَ: مررْتُ بقامَ أبوه، ولقيتُ وجههُ حَسَن، لم يجُزْ؟

وقدْ ورَدَ حَذفُ الموصوفِ وإقامةُ الصِّفة مقامَهُ في غير موضعٍ من القرآن الكريم، كقوله تعالى: (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)[1] فإنّه لم يُردْ أنَّ الناقة كانتْ مبصرةً، ولم تكنْ عمْيَاءَ. وإنما يريد آيةً مُبْصِرةً: فحذفَ الموصوفَ، وأقامَ الصفةَ مقامَهُ.

ولقدْ تأمَّلتُ حَذفَ الموصوفِ في مواضِعَ كثيرةٍ، فوجدْتُ أكثرَ وُقوعِهِ في النِّداء، وفي المصْدَر.

أمّا النداءُ فكقولهم: يأيُّها الظَّريف، تقديرُه: يأيُّها الرَّجل الظريف.

(١) سورة الإسراء. الآية ٥٩.

وعليهِ وردَ قوله تعالى: (يأَيُّها السَّاحِر)(١) تقديرُه : يأيُّها الرَّجُل السَّاحِر .

وكذلك قوله تعالى : (يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا)(٢) تقديرُه : يأَيُّها القومُ الذينَ آمَنوا .

وأمّا المصدرُ فكقوله تعالى : (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صُالِحًا فإِنّهُ يَتُوبُ إلى اللهِ مَتَاباً)(٣) ، تقديرُه : وَمَنْ تابَ وعملَ عملًا صَالحًا .

وقد أُقِيمَت الصِّفةُ الشَّبِيهَةُ بالجملة مقامَ الموصُوف المبتدأ فى قوله تعالى : (وَأَنّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنّا دُونَ ذٰلِكَ)(٤) أىْ : قَوْمٌ دُونَ ذٰلك .

وأمَّا حذفُ الصفةِ وإقامةُ الموصوفِ مَقامها : فإِنّه أَقلُّ وجوداً من حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مَقامَه ، ولا يكادُ يقعُ فى الكلامِ إلَّا نادراً ، لمكان استْبهامِه .

فمِنْ ذَلك ما حكاه سِيبَويهْ(٥) ـ رحمه الله ـ منْ قولهمْ : « سِيَرَ عَلَيْهِ

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٤٩ ، وتتمة الآية : (وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) .

(٢) تردد هذا النداء فى آيات كثيرة من سور القرآن الكريم .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٧١

(٤) سورة الجن : الآية ١١

(٥) هو أبو بشر ، ويقال أبو الحسن ، عمرو بن عثمان بن قنبر امام البصريين ، أصله من البيضاء من أرض فارس ، ونشأ بالبصرة ، وأخذ عن الخليل ويونس وأبى الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر ، قال أبو عبيدة : قيل ليونس بعد موت سيبويه : ان سيبويه صنف كتاباً فى ألف ورقة من علم الخليل ، فقال ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ جيئونى بكتابه ، فلما رآه قال : يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عنى . وقال بعضهم : كنت عند الخليل فأقبل سيبويه ؛ فقال : مرحباً بزائر لا يمل ؛ قال : وما سمعت الخليل يقولها لغيره واختلف فى وفاته بين ١٨٠ و ١٦١ =

ليلٌ » وهم يُريدون : ليلٌ طويل ، وإنما حُذفَت الصِّفة فى هذا الموضع لما دلَّ من الحال عليه ، وذاكَ أنَّه يحسُنُ فى كلام القائل لذلكَ من التَّطريح والتّطويح والتَّفخيم والتَّعظيم ما يقومُ مقامَ قوله : طويل ، وأنتَ تحسُّ هذا منْ نفسِك إذَا تأمَّلتهُ ، وهوَ أنْ يكونَ فى مَدْح إنسانٍ والثَّناء عليه ، فتقولُ : « كان واللهِ رجلا » أىْ : رجُلاً فاضّلا ، أوْ شجاعاً ، أوْ كريماً ، أو ما جَرى هذا المجرَى من الصِّفاتِ . وكذلكَ تقولُ : « سألناهُ فوجدناه إنساناً » أىْ . إنساناً سمْحاً ، أو جواداً ، أوما أشبَهه . فعلى هذَا ونحوه تُحْذفُ الصِّفةُ ، فأمَّا إن عَرِيَتْ عن الدلالة عَليها من اللّفظ أو الحال فإنَّ حذفها لا يجوزُ .

وقد تأمَّلتُ حَذفها فوجَدتهُ لا يسُوغ إلّا فى صفةٍ تقدَّمها ما يدلُّ عليها ، أوْ تأخَّر عنْها ، أو فُهِمَ ذلك منْ شىءٍ خارجٍ عنها .

أمَّا الصفةُ الَّتى تقدَّمها ما يدلُّ عليها ، فقوله تعالى : (أَمَّا السَّفِينة فكَانَتْ لِمسَاكِينَ يَعْملُونَ فى الْبَحْرِ فأَرَدْتُ أَنْ أعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً)[1] فحَذَفَ الصفَة ، أىْ : كان يأخذُ كلَّ سفينةٍ صحيحة غَصباً ، ويدلُّ على المحذوفِ قولُه : « فأَرَدْتُ أنْ أَعِيبَهَا » . فإنَّ عَيْبَه إيَّاهَا لم يُخرِجْها عن كونِهَا سُفِينَةً ، وإنَّما المأخوذ هوَ الصَّحيح دُونَ المعِيب، فحذفَت الصِّفة هاهُنا لأنَّه تقدَّمها مايدلُّ عليها .

= و١٨٨ و١٩٤ : بالبيضاء أو بشيراز ، أو بالذرب ، أو بالبصرة . وقال ابن الجوزى : مات بساوة . ومن أعجب العجب هذا الاختلاف الكثير فى وفاة هذا العلم الإمام ! .

(١) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

وأمَّا الَّتى تأخر عنها ما يدلُّ عليها فقولُ بعض شعراء الحماسة[1] :

كلُّ امرىءٍ سَتَئيمُ منـ ـهُ العِرْسُ أو منها يَئيمُ[2]

فإنّـه أرادَ كلَّ امرىءٍ متزوِّج ، إذْ دلَّ عليه مابعده من قوله : « ستئيمُ منه » ، « أو منها يَئيم » إذْ لا تئيمُ هىَ إلّا من زوْجٍ ، ولا يئيمُ هوَ إلّا من زوْجة . فجاءَ بعدَ الموصوفِ ما دلَّ عليه ، ولولا ذلكَ لمَا صحَّ معنى البيت ، إذْ ليسَ كلُّ امرىءٍ يئيمُ من عِرْسٍ ولاتئيم منه عِرسٌ إلّا إذا كانَ مُتزَوِّجًا .

وأمّا ما يفهَمُ حذفُ الصفةِ فيه من شىءٍ خارج عن الكلام فقولُ النبى صلّى الله عليه وسلّم : « لا صلاةَ لجار المسجِدِ إلّا فى المسجِدِ » فإنّـه قد عُلِمَ جوازُ صلاةِ جارِ المسجدِ فى غير هذا المسجد من غير هذا الحديثِ ، فعُلِمَ حينئذٍ أنّ المرادَ به الفضيلةُ والكمال ، وهذا شىءٌ لم يُعلْم من نفس اللّفظ ، وإنما عُلِم مِن شىءٍ خارجٍ عنهُ .

(١) هو يزيد بن الحكم الثقفى ، شاعر إسلامى عاصر الفرزدق وجريراً ، ومر عليه الفرزدق ذات يوم وهوينشد فى المجالس شعرا ، فقال : من هذا الذى ينشد شعرا كأنه من أشعارنا ؟ فقالوا : يزيد بن الحكم ، فقال : نعم ، أشهد الله أن عمّى ولدته ، وكان شاعر ثقيف فى الإسلام ، والبيت من قصيدة له يعظ فيها ابنه بدرا ، أولها .

يابدر والامثال بضـ ـربها الذى اللب الحكيم

وهى فى ديوان الحماسة (٢ / ٤١) .

(٢) فى الأصل «ستنيم» وهو تحريف ، والتصويب عن ديوان الحماسة (٢ / ٤٤) والأيم من لا زوج له ، والعرس الزوج ، وتئيم منه تصبح المرأة أيما بموت الزوج وعكسه يئيم منها ، والمعنى أن الموت لابد منه لكل حى ، وأن نظام الأسرة لابد أن يفرط عقده .

(٦) الضرب السادس : وهو حذف الشرط وجوابه :

فأمّا حذفُ الشّرطِ فنحو قوله تعالى : (يَاعِبَادِيَ الّذينَ آمَنُوا إنّ أرْضِي وَاسِعة فإيّايَ فاعْبُدُونِ)[(١)] .

فالفاء فى قوله تعالى : « فاعْبدُون » جوابُ شرطٍ محذوفٍ ، لأنّ المعنى : إنّ أرضى واسعةٌ ، فإنْ لم تُخْلصوا لِي العبادَة فى أرْضٍ فأخْلصوها فى غيرها ، ثم حُذفَ الشرطُ ، وَعُوِّضَ مِنْ حذفه تقديم المفعول مع إفادةِ تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

ومِنْ هذا الضّرب قوله تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أوْ بِهِ أذًى مِنْ رَأْسِهِ ففِدْيَةٌ)[(٢)] : أىْ فَحَلَقَ فعليْه فِدْية .

وكذلك قولهم : « النّاسُ مجزِيُّون بِأَعمالِهمْ ، إنْ خَيْراً فخَيْرٌ ، وَإنْ شرًّا فشَرٌّ » أى : إنْ فَعَلَ المرء خيراً جُزِيَ خيرًا ، وإن فعل شرًّا جُزِى شَرًّا .

وعلى نحو مِنْ ذلك جاء قوله تعالى « فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أوْ على سَفَرٍ فعِدّةٌ مِنْ أيّامٍ أُخَرَ)[(٣)] تقديرُ ذلك : فأفطرَ فعدَّةٌ منْ أيامٍ أخَر .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٥٦

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٦

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٤ وفى الأصل « ومن كان منكم . . » بالواوبدل الفاء ، وليس كذلك فى هذه الآية ، وإنما وردت بالواو فى الآية التالية (١٨٥) فى قوله تعالى : « ومن كان مريضا . . »

ولهذا ذهبَ داودُ الظاهريُّ[1] إلى الأخذِ بظاهرِ الآية ، ولم ينظرْ إلى حذفِ الشرطِ فأوجبَ القضاء على المريض والمسافرِ ، سواء أفطر أم لم يفطِر .

ومن حذفِ الشَّرط قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ * وقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ والإيمَانَ لَقَدْ لبِثْتُم فى كتابِ اللهِ إلى يَوْمِ الْبَعْثِ فهذا يومُ البعثِ ولكِنّكُم كنتُمْ لا تَعْلَمُون)[2] .

اعلمْ أنّ هذهِ الفاء التى فى قول الشَّاعِر :

* فقدْ جِئنَا خُرَاسَانَا *[3]

وَحقيقتُها أنّها فى جوابِ شرطٍ محذوفٍ يدلُّ عليه الكلامُ كأنه قال : إنْ صحَّ ما قُلتمْ إنَّ خُراسان أقصى مايُرَاد بنا ، فقد جئنا خُراسَان ، وَآنَ لنا أنْ نخلُص .

وكذلك هذه الآيةُ ، يقول : إنْ كُنُتمْ مُنْكرين للبعثِ ، فهذا يومُ البعث ، أىْ : قدْ تبيّنَ بُطلانُ قولكمْ .

---

(١) هو أبو سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى ، المعروف بالظاهرى ، كان زاهداً كثير الورع ، وكان من أكثر الناس تعصبا للامام الشافعى رضى الله عنه ، وصنف فى فضائله والثناء عليه كتابين ، وكان صاحب مذهب مستقل ، وتبعه جمع كثير يعرفون بالظاهرية ، وانتهت إليه رياسة العلم ببغداد ، وكان مولده بالكوفة سنة اثنين ومائتين ، ونشأ ببغداد ؛ وتوفى بها سنة سبعين ومائتين فى ذى القعدة .

(٢) سورة الروم : الآيتان ٥٥ و٥٦ .

(٣) جزء من بيت ، وهو بتمامه :

قالوا : خراسان أقصى مايراد بنا   ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا

وأمّا حذفُ جواب الشرط ، فكقوله تعالى . (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[1] فإنَّ جوابَ الشرطِ هاهُنا محذوفٌ ، تقديره : إنْ كانَ القرآنُ من عند اللهِ وكفرتم به أَلَسْتُمْ ظالمين ؟ ويدلُّ عَلَى المحذوفِ قوله تعالى : « إنّ اللهَ لايَهْدِي القومَ الظّالمين » .

(٧) الضرب السابع : وهو حذف القسم وجوابه :

فأمّا حذفُ القسَمِ فنحوُ قولك : «لأفعلنَّ» أيْ : واللهِ لأفعلنّ ، أو غير ذلك من الأقسامِ المحلوف بها .

وأمّا حذفُ جوابه فكقوله تعالى : (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * والشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلادِ)[2] .

فجوابُ القسَم هاهنا محذوف ، تقديرُه : ليُعَذبُنّ ، أو نحوهُ ، ويدلُّ عَلَى ذلك مابعده من قوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ » إلى قوله : « سَوْطَ عذابٍ » .

ومّما ينتظِمُ في هذا السِّلْكِ قوله تعالى : (قٓ . والقرآنِ المجيدِ . بَلْ عَجِبوا أَنْ جاءَهمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فقَالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيب)[3] فإنّ معناه :

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ١٠

(٢) سورة الفجر : الآيات ١–٨

(٣) سورة (ق) : الآيتان ١ و٢ .

قَ ، والقرآن المجيدِ ، لتُبعَثنَّ ! والشَّاهدُ على ذلك ما بعده من ذكر البَعثِ في قوله : أئِذَا مِتنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بعيدٍ)[1] .

وقد وَرَدَ هذا الضّرب في القرآن كثيراً ، كقوله تعالى في سورَة النّازعات: (والنّازعَاتِ غَرْقاً . والنّاشِطاتِ نَشْطاً . والسّابِحاتِ سَبْحاً . فالسّابِقَاتِ سَبْقاً . فالمُدَبِّرَاتِ أمْراً . يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجفةُ . تَتْبَعُها الرّادِفَةُ)[2] .

فجوابُ القسم هاهُنا محذوفٌ تقديرُه : لَتُبعَثُنّ ، أو لتُحْشَرُنّ . ويدلُّ على ذلك ما أتى مِنْ بعده من ذكر القيامةِ في قوله : « يومَ ترجفُ الرّاجفةُ . تتبَعُها الرّادفة » وكذلك إلى آخر السورة .

(٨) الضرب الثامن : وهو حذف (لو) وجوابها :

وذاك من ألطفِ ضُروب الإيجاز وأحْسنِها .

فأمّا حذف « لو » فكقوله تعالى : (مَا اتّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ معهُ منْ إلٰهٍ إذاً لذَهبَ كلُّ إلٰهٍ بمَا خَلَق ولَعلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بعْضٍ)[3] .

تقديرُ ذلك : إذْ لو كان معه آلهةٌ لذهبَ كلُّ إلٰهٍ بما خلقَ .

وكذلك وردَ قوله تعالى : (وَمَا كُنتَ تَتلو منْ قبْلهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيَمِينِكَ إذاً لارتَابَ الْمُبْطِلون)[4] .

تقديره . إذْ لوْ فعلتَ ذلك لارْتَاب الْمبطلون .

وهذا من أحسَن المحذُوفات .

---

(١) سورة (ق) : الآية ٣

(٢) سورة النازعات : الآيات ١ – ٧ .

(٣) سورة (المؤمنون) : ٩١

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

وممَّا جاءَ من ذلك شِعراً قولُ بعضهم[1] فى صدر الحماسَة :

لوْ كـنْتُ مِنْ مازنٍ لمْ تسْتَبِـحْ إبلى
بَنو اللّقيطةِ مِنْ ذُهْل بن شيْبَانَا[2]
إذاً لقَامَ بنصْرى مَعشرٌ خُشُنٌ
عِنْدَ الحفيظةِ إنْ ذُو لوثةٍ لانَا[3]

فَ « لوْ » فى البيت الثّانى محذوفةٌ ، لأنها فى البيت الأوّل قد استوفتْ جوابَها بقوله « لَمْ تَسْتبحْ إبلى » ثم حذفها فى الثّانى ، وتقديرُ حذفها : إذْ لوْ كنتُ منهم لقامَ بنصْرى معشرٌ خُشُنٌ ، أو : إذْ لوْ كانوا قومى لقامَ بنصْرِى معشر خُشُنٌ .

وأمّا حذفُ جوابِ « لوْ » فإنهُ كثيرٌ شائعٌ . وذلك كقولك : لوْ

(١) هو قريط بن أنيف أحد بنى العنبر ، وهو شاعر إسلامى ، قال البغدادى تتبعت كتب الشعراء والتراجم ، فلم أظفر له بترجمة . وانظر ديوان الحماسة (١ / ١٣) .

(٢) قوله « بنو اللقيطة» هكذا فى شراح الحماسة والشواهد ، وقال أبو محمد الأعرابى : والصواب ما أنشده أبو الندى :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا

قال : والشقيقة هى بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان ، وأما اللقيطة فهى أم حصن بن حذيفة من بنى فزارة ، ولا اتصال لها بذهل بن شيبان ،

(٣) اللوثة اللين مع الضعف ، يقول : لو كنت من هذه القبيلة لما أغار بنو ذهل على إبلى ، ولو كان ذلك لقام بنصرى قوم صعاب أشداء ، يدفعون عنى ، ويأخذون بحقى ممن اعتدى على إذا لان ذو الضعف ولم يدفع ضيما ، ولم يحم حقيقة .

زُرْتَنا ، لو أَلْمَمْتَ بنا ، معناهُ . لأحسنّا إليك ، أو لأكرَمْناك ، أَوْ ماجرَى هذا المجرَى .

وممَّا وَرَدَ منه فى القرآن الكريم قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فلا فَوْتَ وأُخِذوا مِنْ مَكانٍ قرِيبٍ »[1] .

فإنَّ جواب « لَوْ » هاهنا محذوف تقديرُه : لرأيْتَ أمراً عظيم ، وحالًا هائلةً ، أو غير ذلك ، ممَّا جرى مجراه .

وممَّا جاء على نحو من هذا قوله عزَّ وجلَّ : « وَيَقُولُونَ مَتى هَذا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صادِقِينَ * لَوْ يَعلَمُ الّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عنْ وُجوهِهِمُ النّارَ ولا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَهمْ يُنْصَرُون »[2] .

تقديرُه : لوْ يعلمونَ الوقْتَ الَّذى يستعجلونَه ، وهو وقتٌ صعبٌ شديدٌ تحيطُ بهم فيهِ النّارُ منْ وراءَ وقُدّام ، ولا يَقْدِرُون على دفْعِها عن أنفسهمْ ، ولا يجدون ناصراً ينصُرهم ، لَمَا كانوا بتلكَ الصِّفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكنّ جهلهم به هوَ الّذِى هوّنهُ عليهم .

وممّا يجرِى على هذا النّهج قوله تعالى : (لَوْ أنَّ لِي بِكمْ قوَّةً أوْ آوِي إلى رُكنٍ شَدِيد[3]) .

فجوابُ « لو » فى هذا الموضع محذوفٌ كما حُذِفَ فى قوله تعالى : (وَلَو أنَّ قرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ[4]) .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٥١ .

(٢) سورة الأنبياء : الآيتان ٣٨ و ٣٩ .

(٣) سورة هود : الآية ٨٠

(٤) سورة الرعد : الآية ٣١

أى: لو أنَّ لى بكم قوَّةً لدفعتكم، أو منعتُكم، أوْ ما أشبهَهُ، وكذلك قوله: «ولو أن قرآناً سيِّرت به الجبال» لكانَ هذا القرآن.

وهذا الضَّرْبُ من المحذوفاتِ أظهرَ الضُّروبِ المذكورة، وأوضحها، لِعِلْمِ المخاطَب به، لأنَّ قولَه تعالى - حكايةً عن لوط عليه السَّلام -: «لو أنَّ لى بكم قوَّةً أوْ آوى إلى رُكن شديد»، يتسارَعُ الفهمُ فيه إلى أنْ الكلامَ يحتاجُ إلى جوابٍ.

ومما جاءَ منه شِعْراً قولُ أبى تمَّامٍ فى قصيدة البائية[1]، التى يمدَحُ بها المعتصِمِ عند فتحهِ مدينةَ عَمُّورِيَّة[2]:

لوْ يَعْلَمُ الكفرُ كمْ مِنْ أعْصُر كَمَنَتْ ... لهُ الْمرَاقِبُ بَيْنَ السُّمرِ وَالْقضُبِ[3]

فإنَّ هذا محذوف الجوابِ؛ تقديرُه: لو يعلمُ الكفْر ذلكَ لأخذَ أُهْبَةَ الْحِذار، أو غير ذلك.

واعلم أنَّ حذفَ هذا الجوابِ لايسُوغُ فى أىِّ موضعٍ كانَ من الكلام، وإنما يحذفُ ما دلَّ عليهِ مكانُ المحذوف.

ألا ترى أنه قد وَردَ فى القرآن الكريم غير محذوفٍ، كقوله تعالى:

---

(١) من قصيدته التى أولها:
السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

(٢) عمورية - بفتح أوله وتشديد ثانيه - بلد ببلاد الروم، غزاه المعتصم ففتحه، وكان من أعظم فتوح الإسلام.

(٣) رواية الديوان «كمنت له المنية» وفى بعض الروايات «لم يعلم» مكان «لو يعلم»، و«خبأت» موضع «كمنت» والسمر الرماح، والقضب السيوف.

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ[1]) .

وهذا ليسَ كالّذى تقدّم من الآيات ، لأنَّ تلكَ عُلِم مكانُ المحذوف منها ، وهذه الآيةُ لوْ حُذِفَ الجوابُ فيها لم يُعلم مكانه ، لأنه يحتملُ وجُوهًا ، منها أنْ يُقال : لمَا آمَنوا ، أوْ لطلبوا ما وراء ذلك . وقد تقدَّم القولُ فى أوَّل باب الإيجاز أنَّه لابدَّ من دلالةِ الكلام على المحذوفِ .

(٩) الضرب التاسع : وهو حذف جواب (لولا) :

فمنْ ذلك قوله تعالى : (وَالّذينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنّه لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنّه لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه وَأَنَّ اللهَ تَوّابٌ حَكِيمٌ[2]) .

فجوابُ « لولا » هاهُنَا محذوف ، تقديرُه : لمَا أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التّلاعُن ، وستر عليكم هذهِ الفاحشة بسببه .

وكذلك ورد قوله تعالى : (إِنَّ الّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فى

---

(١) سورة الحجر : الآيتان ١٤ و١٥

(٢) سورة النور : الآيات ٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ .

الّذينَ آمَنُوا لهمْ عَذَابٌ أَليمٌ فى الدّنيا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمون * ولوْلاَ فضْلُ اللهِ عَليكُمْ وَرحْمَتهُ وَأَنّ اللهَ رَءوفٌ رَحيمٌ) [1] .

تقديرُه : ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمته لعجّل لكُمْ العذاب ، أو فعلَ بكم كذا وكذا .

(١٠) الضرب العاشر : وهو حذف جواب (لما) وجواب (أما) :

فأما حذفُ جواب « لما » فكقوله تعالى : (فلما أسْلَما وَتَلّهُ للْجَبِين * وَنادَيْناهُ أنْ يا إبرَاهِيمُ * قَدْ صَدّقتَ الرّؤْيا إنّا كذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنينَ [2]) .

فإنّ جوابَ « لمّا » هاهُنا محذوفٌ ، وتقديرُه : فلما أسْلما وَتَلّهُ لِلجَبِين وَنادَيْناهُ أَنْ يا إبراهيمُ قَد صدّقتَ الرّؤيا كانَ ما كانَ مما ينطقُ به الحال ، ولا يحيطُ به الوصفُ من استِبْشَارِها واغتباطِهما ، وشكرهما عَلَى ما أنعمَ به عليهما من دفْع البلاء العظيم بعد حُلوله ، وما أشبهه ذلك ممّا اكتسباهُ بهذه المِحْنة من عظَائِم الوَصْفِ دُنيا وآخرة ، وقوله : « إنّا كذلكَ نَجْزى الْمُحْسِنين » تعليلٌ لتخْويل ماخوّلهما من الفرح والسّرور بعد تلك الشدّة العظيمة .

وأمّا حذفُ جواب (أمّا) فنحو قوله تعالى : (فأَمّا الّذِينَ اسْوَدّتْ وُجُوهُهُمْ أَكفرْتم بعد إيمانِكمْ) [3] .

(١١) الضرب الحادى عشر : وهو حذف جواب (اذا) :

فمّا جاء منهُ قوله تعالى : (وإذا قيلَ لهمُ اتقّوا مَا بَيْن أيْدِيكمْ وَمَا خَلْفَكمْ

---

(١) سورة النور : الآيتان ١٩ و ٢٠ .
(٢) سورة الصافات : الآيات : ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٦ .

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون * وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْهَا مُعْرِضِين)[1] .

ألا ترى كيف حُذف الجوابُ عنْ « إذا » فى هذا الكلام وهو مَدْلولٌ عليه بقوله : « إلّا كانوا عنْها مُعرضين » كأنه قال : وَإذَا قيلَ لهمُ اتَّقوا مابين أيديكم وما خلفكمْ أعرَضُوا ، ثُمَّ قال : وَدأْبَهم الإعراضُ عن كلِّ آيةٍ وموعظةٍ .

(١٢) الضرب الثانى عشر : حذف المبتدأ والخبر :

أمَّا حذف المبتدأ فلا يكونُ إلا مُفرداً ، والأحسنُ هو حذف الخبر ، لأنَّ منهُ ما يأتى جملةً ، كقوله تعالى : (وَاللاَّئِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُم إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتهن ثلاثةُ أشْهرٍ واللاَّئِى لمْ يحِضْنَ وَأُولَاتُ الأَحْمال أجَلُهُنَّ أنْ يَضعْنَ حَمْلَهنَّ)[2] .

وهاهُنا قد حذِف خبرُ المبتدإ ، وهو جملةٌ من مبتدإٍ وخبر ، وتقديرُها : واللاَّئى لم يحضْنَ فعدّتهنّ ثلاثة أشهر .

ومما ورد منه شِعراً قولُ أبى عُبادة البُحترىِّ[3] :

كلُّ عُذْرٍ من كلِّ ذنْب ولكِنْ ‏ ‏ ‏ أعْوَز الْعذرُ من بَياض العِذارِ

---

(١) سورة يس : الآيتان ٤٥ و ٤٦ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ٤ .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ٢٩ من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد ، ويستوهبه غلاما ، ومطلعها :

أبكاء فى الدار بعد الدار ‏ ‏ ‏ وسلوا بزينب عن نوار

وهذا قد حُذف منه خبر المبتدأ ، إلّا أنهُ مفردٌ غيرُ جُملةٍ ، وتقديرُه : كلُّ عُذرٍ من كلِّ ذنبٍ مقبولٌ أو مَسموع ، أو ماجرى هذا المجرى .

(١٣) الضرب الثالث عشر : وهو حذف (لا) من الكلام وهي مرادة :

وذلك كقوله تعـالى : (قالوا تَاللهِ تَفْتَأُ تذكرُ يوسُف)(١) يريدُ به : لاتفتأُ ، أيْ : لا تزالُ ، فحذفَتْ « لا » من الـكلام ؛ وهي مرادَة .

وعلى هذا جاءَ قولُ امرىء القيس (٢) :

فقُلْتُ يمينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً وَلوْ قطعوا رَأْسِي لديْكِ وأَوْصالِي

أيْ : لا أَبْرَح قاعداً ، فحذفتْ « لا » في هذا الموضع ، وهي مرادَة .

وممَّا جاء منه قولُ أبي محجَنٍ الثَّقفي(٣) لمَّا نهاهُ سعـدُ بن

(١) سورة يوسف : الآية ٨٥ .

(٢) من قصيدته التي أولها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان في العصر الخالى

(٣) ذكره ابن دريد في الاشتقاق (٣٠٤) فقال : كان شاعراً فارسا شجاعا ، شهد يوم القادسية ، وكان له فيها بلاء عظيم ، وقد شهده يومئذ عمرو بن معد يكرب وغيره من فرسان العرب ، فلم يبل أحد بلاءه . وذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء (١ / ٣٨٧) قال : هو من ثقيف ، وكان مولعا بالشراب ، مشتهراً به . وذكر ابن سلام أنه أبو محجن بن حبيب ابن عمرو بن عمير الثقفي ، قال : وأبو محجن رجل شاعر شريف ، وكان قد غلب عليه الشراب ؛ فضرب فيه مراراً ، ثم حبسه سعد بالقادسية في القصر معه ، والناس يقتتلون ، فجال المسلمون جولة ، وهو ينظر . وكان مقيدا يومئذ عند زبد ، أم ولد سعد بن أبي وقاص ، فقال لها : أطلقيني ؛ فلك الله ، لئن فتح الله على المسلمين وسلمت لأرجعن حتى أضع رجلي في القيد ، فأطلقته وحملته على فرس لسعد ، فأخذ الرمح ، فخرج فقاتل ، فحطم المشركين ، وكان سبب الهزيمة (طبقات الشعراء ٢٢٦) .

أبي وقّاص [1] — رضى اللهُ عنه — عن شربِ الخمر ، وهو إذ ذاك في قتال الفرس بالقادسيّة [2] :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها مناقبُ تُهلكُ الرّجل الحليما
فلا واللهِ أشربها حياتي ولا أُسقى بها أبداً نديمَا

يريد : لا أشربها ، فحذف « لا » من الكلام ، وهي مفهومةٌ منه .

(١٤) الضرب الرابع عشر : وهو حذف الواو من الكلام واثباتها :

وأحسن حُذوفها من المعطوف والمعطوف عليه ، وإذا لم يُذكر الحرفُ المعطوف به كان ذلك بلاغةً وإيجازاً كقول أنس بن مالِك [3] — رضى اللهُ عنه « كان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ينامُون ثمَّ يصلُّون ولا يتوضَّئون » أو قالَ : ثمَّ يصلُّون لا يتوضّئون » .

---

(١) اسم أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري ، ويكنى سعد أبا إسحاق ، كان سابع سبعة في إسلامه ، أسلم بعد ستة . شهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد وهو أحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى وأخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وهو عنهم راض . وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة . وبقية أخباره في « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » ٦٠٦ وما بعدها .

(٢) قرية قرب الكوفة من جهة البر ، بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا ، وبينها وبين العذيب أربعة أميال عندها كانت الوقعة العظمى بين المسلمين وفارس قتل فيها أهل فارس وفتحت بلادهم على المسلمين .

(٣) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكنى أبا حمزة ، سمى باسم عمه أنس بن النضر ، روى عن أنس قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا ابن عشر سنين ، وتوفى وأنا ابن عشرين سنة ، ومات أنس في الطف على فرسخين من البصرة سنة إحدى وتسعين .

فقوله : «لايتوضئون» بحذف الواو أبلغُ فى تحقيق عدم الوضوء من قوله : « ولا يتوضَّئون » بإثباتها . كأنّه جعل ذلك حالةً لهم لازمة : أى أنّها داخلةٌ فى الجملة ، وليست جملةً خارجةً عن الأولى . لأنّ واو العطف تُؤذَنُ بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه . وإذا حُذفتْ فى مثل هذا الموضع صارَ المعطوف والمعطوفُ عليه جملةً واحدةً .

وقد جاءَ مثلُ ذلك فى القرآن الكريم ، وذلك أنَّه يُذكرُ جُملٌ من القول كلٌّ واحدة منها مُستقلةٌ بنفسها ، ثمّ تُسْرَد سرْداً بغير عاطف . كقوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا وَدُّوا ماعَنِتُّمْ ، قدْ بَدَتِ الْبغضَاءُ منْ أفْواهِهم ، ومَا تَخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَر) [1] .

تقديرُ هذا الكلام : لايألونَكمْ خَبالًا ، وَدوا ماعَنِتُّم ، وقد بَدَتِ البغضاء من أفواههم ، فلما حُذفت الواوُ جاءَ الكلامُ أوْجَزَ وأحسنَ طلاوةً ، وأبلغَ تأليفاً ونظماً .

وأمثاله فى القرآن الكريم كثيرٌ .

* * *

واعلمْ أنَّه قد حُذفت الواوُ وأثبتتْ فى مواضع :

فأمَّا إثباتُها فنحوُ قوله تعالى : (ومَا أهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إلّا وَلهَا كِتَابٌ مَعْلومٌ) [2] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٨

(٢) سورة الحجر : الآية ٤ .

وأمَّا حذفها فنحو قوله تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنا منْ قَرْيَةٍ إلّا لها مُنْذِرُون)[1] .

وعلى هذا فلا يجوزُ حذفُ الواو وإثباتَها في كلِّ موضعٍ، وإنما يجوزُ ذلك فيما هذا سبيله من هاتيْن الآيتيْن .

ولنبيِّنَ لك في ذلك رَسماً تتّبعه فنَقول :

اعلمْ أنَّ كلَّ اسمٍ نكرةٍ جاءَ خبرُه بعدَ إلاَّ يجوزُ إثباتُ الواو في خبَرِه وحذفها، كقولك : مارأيتُ رجلًا إلا وعليه ثيابٌ، وإن شئتَ قلتَ إلاَّ عليه ثيابٌ، بغير واوٍ، فإن كان الذي يقعُ على النكرة ناقصاً فلا يكونُ إلا بحذف الواو، نحوُ قولك : ما أظنُّ درهماً إلاَّ هوَ كافيك، ولا يجوز « إلا وهو كافيك » بالواو لأنَّ الظنّ يحتاجُ إلى شيئيْن، فلا يُعترَضُ فيه بالواو، لأنَّه يصيرُ كالمكتفي من الأفعال باسمٍ واحدٍ .

وكذلك جوابُ ظننْتُ، وكانَ، وإنّ، وأشباهِها، نخطأُ أن تقول : إنّ رجُلًا وهو قائمٌ، ونحو ذلك .

ويجوزُ هذا في « ليسَ » خاصَّة، تقولَ : ليسَ أحدٌ إلا وهوَ قائمٌ . لأنّ الكلامَ يُتوهَّمُ تمامُهُ بليْسَ وبحرفٍ ونكِرَة، ألا ترى أنك تقولُ : ليْسَ أحدٌ، وما من أحدٍ، فجازَ فيها إثباتُ الواو، ولمْ يجُزْ في « أظنّ » لأنك لاتقولُ : مَا أظنُّ أحداً، فأمّا « أصبح » و « أمْسَى » و « رأى » فإنَّ الواوَ فيهنَّ أسهلُ؛ لأنهنَّ توأمٌ في حالٍ، و « كان » و « أظنُّ » ونحوُهما بُنِينَ عَلَى النَّقص، إلاَّ إذا كانت [كان] تامّة .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٢٠٨ .

وكذلكَ « لا » فى التَّنْزِيه وغيرها ، نحو لا رَجُلَ ، وما مِنْ رجُلٍ ، فيجوز إثباتُ الواو فيها وحذفُها .

واعلمْ أنّ العربَ قد حَذفتْ من أصْلِ الألفاظ شيئاً لا يجوزُ القياسُ عليه ، كقول بعضهم [1] .

كأنّ إبْرِيقهُمْ ظبيٌ عَلَى شرفٍ   مُقدَّمٌ بسبَا الـكتَّانِ ملثومُ [2]

فقوله . « بسبَا الـكتان » يريد : بسبَائب الـكتّان [3] .

---

(١) هو علقمة بن عبدة ، علقمة الفحل ، من قصيدته التى أولها :

هى ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

والقصيدة فى شعراء النصرانية ٤٩٨ .

(٢) فى الأصل «مقدم» وهى رواية شعراء النصرانية (٥٠١) بالقاف موضع « مفدم » والمفدم الذى جعل الفدام على فيه ، وهو خرقة تجعل فى فم الإبريق ، والشرف المكان العالى المشرف .

(٣) هذا عيب من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن عند قدامة بن جعفر سماه (التثليم) قال : وهو أن يأتى الشاعر بألفاظ يقصرعنها العروض ، فيضطر إلى ثلمها والنقص منها مثال قول أمية بن أبى الصلت :

ما أرى من يعيننى فى حياتى   غير نفسى إلا بنى إسرال

وقول علقمة بن عبدة :

كأن إبريقهم ظبى على شرف   مفدم بسبا الكتان ملثوم

أراد « بسبائب الكتان » فحذف للعروض .

وقال لبيد بن ربيعة :   * درس المنا بمتالع فأبأن *

أراد بالمنا « المنازل » وانظر «نقد الشعر» لقدامة ١٣٦ طبعة ليدن ، والطبعة الثانية ٢٩٩ من كتاب « قدامة بن جعفر والنقد الأدبى » للدكتور بدوى طبانه . والسبائب جمع سبيبة ، وهى الشقة من النسيج ، أو البيضاء خاصة .

وكذلك قول الآخر .

يُذرِين جندَل حائرٍ ، لِجُنوبها   فكأنما تُذْكى سَنابكُها الْحُبا[1]

فهذا وأمثاله ممَّا يقبُحُ ولا يحْسُن ، وإن كانتِ العربُ قد استعملته فإنَّه لا يجوزُ لنا أن نستعمِله .

* * *

أما القسم الثانى من الايجاز فهو ما لا يحذف منه الشىء :

وذلك ضَرْبان :

أحدُهما : ما ساوَى لفظه معناهُ [2] ، ويسمَّى (التقدير) .

والآخرُ : مازاد معناهُ على لفظِه ، ويسمَّى (الإيجاز بالقِصَر) .

فأمَّا (الإيجاز بالتَّقدير) فإنه الذى يمكنُ التعبيرُ عن معناهُ بمثل ألفاظِه وفى عدتِّها .

وأمَّا الإيجازُ بالقِصَر . فإنَّه ينقسِمُ قسمين :

أحدُهما : مادلّ لفظُهُ على محتملاتٍ متعدِّدة ، وهذا يمكنُ التعبيرُ عنه بمثل ألفاظه وفى عدّتها ، والآخرُ : مايدلّ لفظُه على محتملاتٍ متعدِّدة ، ولا يمكنُ التعبيرُ عنه بمثل ألفاظِه وفى عدتها ؛ لَا ، بلْ يستحيلُ ذلك .

---

(١) فى الأصل « بدر بن جندل حائر » وهو تحريف والتصويب عن لسان العرب فى مادة — ح ب ح ب والضمير فى « يذرين » للخيل ، والجندل الصخر . والحبا أراد به الحباحب ، وهو رجل من بنى محارب بن خصفة : ضرب بناره المثل لأنه كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان فقلوا « نارالحباحب » .

(٢) ليس هذا من الإيجاز عند جمهور البلاغيين ، وإنما هو قسم برأسه ، يسمونه « المساواة » .

الضرب الأول : الايجاز بالتقدير :

ولْنورِد الآن الضربَ الأوّل الّذى هو (الإيجازُ بالتّقدير) :

فممّا جاء منه قوله تعالى : (قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أكْفَرَهُ * مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطفةٍ خَلَقَهُ فقدَّرَهُ * ثمّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ * ثمّ أمَاتَهُ فأَقبرَهُ * ثمّ إذا شَاءَ أنْشَرَهُ * كلاَّ لمَّا يَقضِ مَا أمَرَهُ)[1] .

فقوله : « قتِلَ الإنسانُ » دُعاءٌ عليه ، وقوله : « ما أكفَرَه » تعجُّب من إفراطه فى كفران نعمة الله عليه .

ولا نرى أُسْلوباً أغلظ من هذا الدُّعاءِ والتعجُّب ، ولا أخشنَ مسًّا ، ولا أدَلَّ على سُخْطٍ ، مع تقارُب طرفَيْة ، ولا أجمعَ للّائمةِ على قِصَر متْنِه !

ثمّ إنّه أخذ فى صفة حاله من ابتداء حُـدوثه إلى مُنتهى زمانه ، فقال : « مِنْ أيِّ شيءٍ خلقه » ؟ .

ثمّ بـيَّن الشيء الذى خُلق منه بقوله : « من نطفة خلقه فقدَّره » أى : هيَّأه لمـا يصـلحُ له .

« ثمَّ السبيلَ يسَّره » أى : سهَّل سبيله ، وهو مخرَجُه مِنْ بطن أُمِّه ، أو السبيل الذى يختارُ سلوكه مِنْ طريق الخير والشَّر ، والأولُ أَوْلى ، لأنه تالٍ لخلقته وتقديره ، ثمّ بعد ذلك يكونُ تيسـيرُ سبيله لمـا يختارُهُ من طريقى الخـير والشَّر .

« ثمَّ أماتهُ فأقبره » أىْ : جعله ذا قَـبْرٍ يوارَى فيه .

« ثمَّ إذا شـاءَ أنْشره » أى : أَحْيَاه .

---

(١) سورة عبس : الآيات ١٧ ــ ٢٣ .

« كلاّ » . ردْع للإنسان عمّا هو عليه .

« لمّا يقض ما أمره » أيْ لم يَقض مع تطاوُل زمانه ما أمرهُ الله به ، يعنى أنّ إنساناً لم يَخلُ من تقصير قطُّ .

ألا ترى إلى هذا الكلام الذى لو أردتَ أن تحذفَ منهُ كلمةً واحدةً لما قدرْتَ على ذلك ، لأنك كنتَ تذهبُ بجزْء من معناه ؟ .

والإيجاز هو ألاّ يمكنَك أن تسقطَ شيئاً من ألفاظه[1] .

والآياتُ الواردةُ من هذا الضَّرب كثيرةٌ ، كقوله تعالى : (فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّه فانْتَهَى فلهُ مَا سَلَفَ)[2] .

فقوله : « فلهُ ما سلفَ » من جوامع الكَلِم ، ومعناهُ أنّ خطاياهُ الماضية قد غفرَتْ لهُ وتابَ اللهُ عليه فيها ، إلّا أنّ قوله : (فلهُ ما سلفَ) أبلغُ ، أىْ أنّ السّالفَ من ذنوبه لا يكونُ عليه إنما هو لهُ .

وكذلكَ وردَ قوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيهِ كفرُهُ)[3] .

فـ (عليهِ كفره) كلمةٌ جامعةٌ ، تُغْنى عن ذكر ضروبٍ من العذابِ ، لأن مَنْ أحاطَ به كفره فقد أحاطتْ به كلُّ خطيئة .

وعَلَى نحو من هذا جاء قولُه تعالى : (إنَّ اللهَ يأْمُرْ بالعدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذى القُرْبِى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمنْكرِ وَالبغْى يَعظكمْ لَعلّكمْ تذَكّرونَ)[4] .

---

(١) أى من ألفاظ هذا الكلام

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٣٩ .

(٤) سورة النحل : الآية ٩٠

فهذه الآيةُ من جَوامع الآياتِ الواردةِ فى القرآن الكريم .

وَرُوىَ أنّ النبى صلّى اللهُ عليه وسلّم قرأها على الْوليدِ بن المغيرة ، فقال لهُ : يا ابنَ أخِى ، أعِدْهُ ، فأعادَ النَّبىُّ صلى اللهُ عليه وسلّم قراءتها عليه ، فقال له : إنّ لهُ لحلاوة ، وإنْ عليه لطلاوَة ، وإنّ أعلاه لمثمِر ، وَإنّ أسفله لمغْدِق ، وما هو بقول البَشر .

ومن هذا النّحو قوله تعالى : (وَلَقَدْ خلقْنَا الإنْسَانَ وَنعلَمُ ماتوَسْوِسُ بِهِ نفسُهُ وَنَحْنُ أقْرَبُ إليْهِ منْ حَبلِ الوَريدِ * إذْ يتَلقى المتَلقِّيانِ عَن الْيَمِينِ وعنْ الشِّمال قعيد * ما يلْفِظُ مِنْ قولٍ إلا لديْه رَقيبٌ عَتِيدٌ * وَجاءَت سَكرَةُ المْوْتِ بالحقِّ ذَلكَ ما كُنْتَ مِنه تَحِيد * وَنُفِخَ فى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيد * وَجاءَت كلُّ نَفسٍ مَعها سَائقٌ وَشَهيد * لقَدْ كُنتَ فى غفْلةٍ مِنْ هذ فكَشَفنا عَنكَ غِطاءَكَ فبَصَرُكَ الْيَوم حَدِيد)[1] .

وهذه الآياتُ منْ قوارعِ القرآن العجيبة التى دلّت على تخويفٍ وإرهَابٍ ، ترقّ له القلوبُ ، وتقشعرّ منْه الجلود ، وهى مُشتملةٌ على قِصرِها على حالِ الإنسان مُنذ خلقهِ إلى حين حَشْره وحشرِ غيره منَ النّاس ، وتصوير ذلك الأمر الفظيع فى أسهل لفظٍ وأقربه ، وَما مررتُ عليها إلا جددّتْ لى موعظةً ، وأحدثَت عندِى إيقاظًا .

ومن هذا الضّربِ ، وَرَدَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم فى دعائه لأبى سَلمة[2]

(١) سورة (ق) : الآيات ١٦ — ٢٢ .

(٢) هو أبو سلمة بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى . اسمه عبد الله بن عبد الأسد . وأمه برة بنت عبد المطلب بن هاشم ، كان ممن هاجر بامرأته أم سلمة بنت أبى أمية إلى أرض الحبشة ثم شهد بدرا بعد أن هاجر الهجرتين . وجرح يوم أحد جرحا اندمل ثم انتقض فمات منه . وذلك لثلاث مضين لجمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأته .

عند موته ، فقال : « اللهمَّ ارفعْ درجته فى المهتدين ، واخلفْه فى عَقِبه فى الغابرينَ لنا وله يارَبَّ العالمين » .

وهذا دعاء جامعٌ بين الإيجاز وبين مناسبةِ الحال التى وقع فيها ، فأوّلُه مفتتحٌ بالمهمِّ الذى يفتقر إليه المدعوُّ له فى تلك الحالِ ، وهو رفع درجتِه فى الآخرة ، وثانيه مُرْدفٌ بالمهمِّ الذى يؤثره المدعوُّ له من صلاح حال عَقِبِه من بعدِه فى الدُّنيا ، وثالثه مُختتمٌ بالجمع بين الدَّاعى والمدعوّ له .

وهذا من الإيجاز البليغ الّذى هو طِباقُ ما قصِد له .

وكلامُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كلُّه هكذا ، كما قال : « أُوتيتُ جوامعَ الكلم » .

وكذلك ورَدَ قوله صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ ، فإنه قال : « هذا يومٌ لهُ ما بَعده » وهو شبيهٌ بقوله تعالى : (فلهُ ماسلفَ) .

ولمَّا جُرح عمرُ بنُ الخطاب — رضى الله عنه — الجراحَةَ التى مات بها اجتمع إليه الناسُ ، فجاءهُ شابٌّ من الأنصار ، وقال : أبشرْ يا أميرَ المؤمنين ببشرى الله ، لك من صُحبة رسول الله وقدَمٍ فى الإسلام ماعلمتْ ، ووُلِّيتَ فعدلْتَ ، ثمَّ شهادة » .

وهذا كلامٌ سديدٌ ، قد حوى المعنى المقصودَ ، وأتى به فى أوجَز لفظٍ وأحْسنه ، ومع مافيه من الإيجاز فإنَّه مُستغرب ، وسببُ استغرابه أنّه جعل المساءة بُشرى ، وأخرجها مَخرجَ المسرَّة ، وتلطّف فى ذاك فأبلغ ، ولو أراد الكاتبُ البليغُ والخطيبُ المِصْقع أن يأتى بذلك على هذا الوجْه لأعْوزه .

ومن هذا النمطِ ما كتبه طاهر بن الحُسين[١] إلى المأمون[٢] عند لقائه [علىّ بنَ] عيسى بنِ ماهانَ[٣] وهزْمِه إيّاه ، وقتلِه، فكتبَ إليه : « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ورأْس [علىِّ بن] عيسَى بن ماهانَ[٣] بن يدَىَّ ، وخاتمُه فى يدِى ، وعسكرُهُ مصرَّفٌ تحتَ أمرِى ، والسّلام »[٤] .

وهذا من الكتُبِ المختصرَةِ التى حوَت الغرضَ المطوّل ، وما يكتَبُ فى هذا المقام مثلُه .

---

(١) كان جده رزيق بن هامان ، مولى طلحة الطلحات الخزاعى المشهور بالكرم والجود المفرط ، وكان طاهر من أكبر أعوان المأمون ، وسيره من مرو كرسى خراسان لما كان المأمون ، بها إلى محاربة أخيه الأمين ببغداد لما خلع الأمير بيعته ، وسير الأمين أبا يحيي على بن عيسى بن ماهان لدفع طاهر عنه ، فتواقعا ، وقتل على فى المعركة ومولد طاهر سنة تسع وخمسين ومائة وتوفى يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين بمدينة مرو .

(٢) ويروى أنه كتب بهذا الكتاب إلى الفضل بن سهل أول وزراء المأمون .

(٣) فى الأصل « عيسى بن ماهان » والصحيح ماذكرناه .

(٤) ويروى أن نص الكتاب إلى الفضل بن سهل « أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك وجعل من يشنأك فداءك ، كتبت إليك ورأس على ابن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى ، والحمد لله رب العالمين » فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض ، فسلم على المأمون بأمير المؤمنين ، وأمدّ طاهرا بالرجال والقواد وسماه « ذا اليمينين وصاحب حبل الدين »

ولما ارسل المهلَّبُ بنُ أبى صُفرة[1] أبا الحسن المدائنى[2] إلى الحجّاج بن يوسُف يخبره أخبارَ الأزارقة كلّه كلاما موجَزاً كالذى نحنُ بصدد ذكره هاهنا. وذاكَ أنّ الحجّاجَ سألهُ، فقال: كيفَ تركتَ المهلّب؟ فقال: أدْرَكَ ماأمَّلَ، وأمِنَ ممَّا خاف.

فقال: كيف هو لجُنْدِه؟. قال: والدٌ رءوفٌ.

قال: كيفَ جُندُهُ له؟ قال: أولادٌ بَرَرَةٌ.

قال: كيفَ رِضاهم عنه؟.. قال: وَسِعَهُمْ بفضله، وأغناهُم بعدْله[3].

قال. كيفَ تصنعُونَ إذا لقِيتم العدوَّ؟[4] قال: نلقاهُم بجدِّنا [فنطمعُ

---

(١) عمل المهلب لبنى أمية، وحارب عنهم الأزارقة، وآخر ماتولى من الأعمال بلاد خراسان، تولاها من جهة الحجاج يوم كان له العراقان وما زال عليهما حتى توفى سنة ٨٣ هـ، وهو من كبار رجال الإسلام فى تلك الدولة، وقد اشتهر هو وآله بالكرم والشجاعة.

(٢) اختلط الأمر على ابن الأثير، فإن المهلب لم يرسل أبا الحسن المدائنى، وإنما أرسل مالك بن بشير، وأبو الحسن المدائنى إنما هو راوية هذا الخبر فقط، والصحيح ما ذكره صاحب العقد (١/١٢٢) أن أبا الحسن المدائنى قال: لمـــا هزم المهلب بن أبى صفرة قطرى بن الفجامة صاحب الأزارقة بعث إلى مالك بن بشير، فقال له: إنى موفدك إلى الحجاج — فلما دخل على الحجاج قال له: ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير، قال: ملك وبشارة! كيف تركت المهلب؟..»

(٣) رواية العقد الفريد (١/١٢٢): «وسعهم، بالفضل وأقنعهم بالعدل».

(٤) وفى العقد: «إذا لقيتم عدوكم».

فيهم][1] ويلقوننا بجدّهم [فيطمعون فينا][1] قال : كذلك الجدُّ إذا لقيَ الجدَّ .

[قال : فما حالُ قطَرِيّ ؟ قال : كادنا ببعض ما كدناه .

قال : فما منعكم من اتّباعه ، قال : رأينا المُقامَ من ورائه خيراً من اتّباعه][1] .

قال : فأخبِرْني عن بني[2] المهلّب ، قالَ . هم أحْلاس[3] القتال بالليل ، حُماةُ السَّرْح[4] بالنّهار .

قال : أيُّهُمْ أفضل[5] [قالَ . ذلك إلى أبيهم .

قال : لتقولنّ][1] .

قال : همْ كحلقةٍ مضروبةٍ لا يُعْرَفُ طرفاها[6] .

فقال الحجَّاجُ لجلسائه : هذا واللهِ هُو الكلامُ الفصْلُ الذى ليس بمصنوعٍ[7] .

* * *

---

(١) زيادة عن العقد الفريد

(٢) فى العقد « ولد المهلب » موضع « بنى المهلب » .

(٣) فى العقد « أعداء القتال » موضع « أحلاس القتال » .

(٤) فى الأصل « السرج » بالجيم المعجمة ، وهو تصحيف ، والسرح هو المال السائم من الأنعام ، ويروى : كانوا حماة السرح نهارا فإذا أليلوا ففرسان البيات » .

(٥) وفى رواية : فأيهم كان أنجد » ؟

(٦) ويروى : « كانوا كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها »

(٧) رواية العقد : « فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع » .

وقد ورَدَ فى الأخبار النبويّة من هذا الضّرب شيء كثيرٌ ، وسأوردُ منه أمثلةً يسيرةً .

فمن ذلكَ قولُ النبى صلى الله عليه وسلم : « الحلالُ بيِّنٌ ، والحرامُ بين ، وبينَهما أُمورٌ متشابهاتٌ » :

وهذا الحديثُ من أجْمعِ الأحاديثِ للمعانى الكثيرةِ ، وذاكَ أنّه يشتملُ على جُلِّ الأحكامِ الشّرعيَّة ، فإنّ الحلالَ والحرامَ إما أن يكونَ الحكمُ فيهما بيِّناً لا خلَاف فيه بينَ العُلماء ؛ وإمّا أن يكون خافياً يتجاذبَهُ وُجُوهُ التأويلات ، فكلٌّ منهم يذهبُ فيهِ مذهَباً

وكذلك جاء قوله صلّى اللهُ عليه وسلّم : « الأعمالُ بالنِّيَّاتِ ، وإنّما لِكلِّ امْرِىءٍ ما نوى » .

فإنّ هذا الحديثَ أيضاً من جوامع الأحاديث للأحكام الشّرْعيَّة .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم . « الُمضْعِفُ أميرُ الرَّكْب » . وقد وردَ آخرُ هذا الحديث بلفظٍ آخر . فقال صلى الله عليه وسلم : « سيروا بِسيْر أضعفكم » إلاّ أن الأول أحسنُ ، لأنّه أبلغُ معنًى ، فإن الأميرَ واجبُ الحكمِ ، فهو يُتَّبَعُ . وإذا كان المضْعِفُ أميرَ الرّكْبِ كانوا مُؤْتمرين له فى سَيرهم ونزُولهم ، وهذا المعنى لايُوجَد فى قوله « سِيرُوا بسيرِ أضعفِكمْ » ،

وأحسنُ من هذا كلِّه ماورَدَ عنه صلى الله عليه وسلم فى حديثٍ مطوّلٍ يتضمَّن سؤالَ جبريلَ عليه السلام ، فقالَ من جملتِهِ : « ما الإِحسانُ » . قال : « أن تعبدَ اللهَ كأنكَ تراهُ ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنّه يرَاكَ » .

فقوله « تعبد الله كأنك تراهُ » من جوامع الكلِمِ ، لأنّه ينوبُ منابَ كلامٍ كثيرٍ ، كأنّه قالَ : تعبد الله مخلصاً فى نيّتك ، واقفاً عندَ أدب الطاعة

من الخضُوع والخشُوع ، آخذاً أُهْبَةَ الحذر ، وأشباه ذلك ، لأنَّ العبد إذا خدَمَ مولاهُ ناظراً إليه استَقْصى فى آداب الخدمة بكلِّ مايجدُ إليه السبيل ، وما ينتَهى إليه الطوْقُ .

ومما أطرَبَنى من ذلك حديثُ الحديْبيَة ، وهو أنَّه جاء بُدَيْلُ بنُ وَرْقاء[1] إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ له : إنى تركتُ كعْبَ بنَ لُؤىٍّ بن عامِر بن لؤَىٍّ معَهُمْ العُوذُ[2] المطافِيلُ[3] ، وهم مقاتِلوكَ وصادُّوكَ عن البيت » فقالَ له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ قريشاً قد نهكَتْهُمُ الحربُ ، فإن شاءوا مادَدْناهم مُدَّةً ، ويدَعُوا بينى وبيْنَ الناس ، فإن أظهَر عليهم وأَحَبُّوا أن يدخُلوا فيما دخلَ فيه الناسُ ، وإلاَّ كانوا قد جَمُّوا ، وإن أَبَوْا فوَالذِى نفسى بيدِهِ لأُقاتِلَنَّهُمْ على أمرى هذا ، حتى تنفرِدَ سَالفتِى هذه ، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمرَه » .

وهذا الحديثُ من جوَامع الـكلِم ، وهو من الفصاحةِ والبلاغةِ على غايةٍ لاينتهى إليها وصفُ الواصِف .

* * *

(١) هو بديل بن ورقاء بن عبد العزى الخزاعى ، أسلم يوم فتح مكة هو وابنه عبد الله بن بديل وحكيم بن حزام بمر الظهران ، وقيل أسلم قبل الفتح ، وذكر ابن إسحاق أن قريشا يوم فتح مكة لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولاه رافع » وشهد بديل وابنه عبد الله حنينا والطائف وتبوك .

(٢) العوذ الحديثات النتاج من الظباء وكل أنثى .

(٣) المطافيل جمع مطفل يقال طفلنا إبلنا تطفيلا إذا كان معها أولادها ، فرفقنا بهـــا فى السير ، هذا هو الأصل ؛ والمطفل ذات الطفل .

وأمَّا ماوَرَد من ذلك شعراً فقولُ النَّابِغة[1] :

وَإنَّكَ [2] كاللَّيْلِ الذِى هُوَ مُدْرِكِى
وَإنْ خِلْتُ أَنَّ الْمنتْأى عَنْكَ وَاسِعُ

وتخصيصُهُ الليلَ دونَ النهار مما يُسْأَلُ عنه ! .

وكذلكَ قوله [3] :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلمُّهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَىُّ الرِّجالُ المهذَّبُ

وعلى هذا الأسلوب وردَ قولُ الأعْشى فى اعْتذاره إلى أوْس بن لامٍ عن هِجَائِهِ إيَّاهُ :

وإنى عَلَى ما كان منِّى لنَادمٌ وَإنِّى إلى أوْس بن لامٍ لتَائبُ
وإنِّى إلى أوْسٍ ليَقْبَلَ عِذْرَتِى وَيَصْفحَ عنِّى ماحَيِيتُ لرَاغِبُ
فهَبْ لِى حَيَاتى ، فالحياةُ لِقَائمٍ بِشكْرِكَ فيها خيرُ ما أنْتَ وَاهِبُ
سَأمْحُو بمدْحٍ فِيكَ إذْ أناصادِقٌ كتابَ هِجَاءٍ سَارَ إذْ أنَا كَاذبُ

---

(١) ديوان النابغة — من مجموع مشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب — ٥٥ من قصيدة له فى مدح النعمان بن المنذر ، والاعتذار إليه ، وهجاء مرة بن ربيعة لما قذف عليه عند النعمان ، ومطلعها :

عفا ذو حساً من فرتنى فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

(٢) رواية الديوان « فإنك » بالفاء .

(٣) المصدر السابق ١٤ من قصيدة له أولها :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب

وهـذا منَ المعـانى الشّريفة فى الألفاظ الخفيفة ، وهُوَ منْ طناناتِ الأعشى المشهورة .

وعلى نحوٍ منه جاء قولُ الفَرَزْدق[1] :

صَبَحْنَاهُمُ الشُّعْثَ الجيادَ كأنَّها ... قطاً هيَّجَتْهُ يومَ ريحٍ أجادله[2]

إلى كلِّ حَيٍّ قد خطبْنَا بنَاتِهِمْ ... بأرْعَنَ جرّارٍ كثيرٍ صوَاهِله[3]

إذا ماالْتقيْنَا نَكَحْتَنَا رماحُنا ... منَ القومِ أبكاراً كرَامًا عقائِله[4]

وَإنَّا لمنّاعون تحتَ لوائنَا ... حِمانَا إذا ماعاذَ بالسَّيْفِ حامِلهْ

وهذا من محاسن مايجىءُ فى هذا الباب .

وممَّا يجْرِى هذا المجرى قولُ جَرير[5] :

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢ / ٧٣٦ والنقائض ٦٢٩ الطبعة أوربا » من قصيدة فى هجاء جرير وأولها :

سمونا لنجران اليمانى وأهله ... ونجران أرض لم تديث مقاوله

وهى إحدى نقائضه وقد نقضها عليه جرير بقوله :

ألم تر أن الجهل أقصر باطله ... وأمسى عماء قد تجلت مخايله

(٢) رواية الديوان والنقائض :

صبحناهم الجرد والجياد كأنها ... قطا أفزعته يوم طل أجادله

والأجادل جمع الأجدل وهو الصقر .

(٣) رواية الديوان للشطر الثانى :

* بأرعن مثل الطود جم صواهله *

(٤) رواية الديوان « من الحى » موضع « من القوم »

(٥) ديوان جرير ٤٦٢ والنقائض ١ / ١٤٤ « طبع مصر » وهى من قصيدة له فى هجاء البعث والفرزدق ، مطلعها :

عوجى علينا واربعى ربة البغل ... ولا تقتلينى لايحل لكم قتلى

وهى نقيضة لقصيدة البعيث التى أولها :

أهاج عليك الشوق أطلال دمنة ... بناصفة الجوين أوجانب الهجل

تَمَنَّى رجالٌ من تَميمٍ مَنِيَّتِي ۞ وَما ذادَ عن أحْسَابِهِمْ زائدٌ مِثْلى[1]

فلوْ شاءَ قوْمى كانَ حِلْمِيَ فيهمُ ۞ وكان على جُهَّال أعْدائهم جَهْلى[2]

وكذلك ورد قولهُ مُتَغَزِّلًا ، وهو من محاسِن أقواله[3] .

سَرَتِ الهُمومُ فبِتْنَ غيرَ نِيَامِ ۞ وَأخُو الهُمومِ يرومُ كلَّ مَرامِ

ذُمَّ المنازلَ بعد مَنزلةِ اللِّوى ۞ وَالعيشَ بعد أُولئكَ الأقوامِ

ولقدْ أراكِ وأنتِ جامعةُ الهوى ۞ أُثْـنِي[4] بعَهدِكِ خَيْرَ دار مقامِ

طرقَتْكَ صائدَةُ القلوبِ فليس ذَا ۞ حِينَ الزِّيارةِ[5] فارْجِعى بسلامِ

تُجْرِى السِّوَاكَ على أغرَّ كأنّه ۞ بَرَدٌ تحدَّرَ من متونِ غَمامِ

لوْ كان عهدُكِ كالّذِى حدَّثتِنا ۞ لوَصَلْتِ ذاكِ فكان خَيْرَ زِمامِ[6]

وَلقَدْ أرَانى والجديدُ إلى بِلًى ۞ فى مَوْكِبٍ[7] طَرُفِ الحديث كِرامِ

---

(١) رواية الديوان « لى الردى » موضع « منيتى » .

(٢) فى الأصل « مثلى » موضع « جهلى » والتصويب عن الديوان والنقائض

(٣) ديوان جرير ٥٥١ والنقائض ١ / ٢٥٦ وهى نقيضة قصيدة الفرزدق التى أولها :

عفى المنازل آخر الأيام ۞ قطر ومور واختلاف نعام

(٤) رواية الديوان « نبنى » بالنون .

(٥) رواية الديوان « وليس ذا وقت الزيارة » .

(٦) فى الأصل « خير زمام » وفى الديوان « غير رمام » ، وإذا كان لنا أن نفضل آثرنا رواية ابن الأثير ، لاتصال معنى الكلام ، ولذلك أبقيناها ، ورواية الموشح (١٦٧) توافق رواية الديوان .

(٧) رواية الديوان « فى فتية » ويروى الشطر الثانى أيضاً :

* فى فتية طرفى لحديث كرام *

لوْلا مُرَاقبـةُ العُيـونِ أَرَيْنَنا حَدَقَ المهَا (١) وَسوالفَ الآرامِ
وَإِذَا صَرَفْنَ عُيـونهنَّ بنظـرَةٍ نَفَذَتْ نوافذُها بغيرِ سِهامِ
هَلْ تَنفعنَّكَ إن قتَلْنَ مُرقّشاً (٢) أَوْ ما فَعَلْنَ بِعروَةَ بن حِزَامِ (٣)

وَحلاوَةُ هذا الكلامِ أحسنُ مِنْ إيجازه ، ولقد أعوَزَ غيرَه أن يأتى بمثله ، حتى أقرَّ بإعْوازه .

---

(١) رواية الديوان « أريننا مقل المها » وهى أجود ، لمناسبة ما بعدها فى الإخبار عن جماعة الإناث .

(٢) المرقش الأكبر ، هو عوف ، وقيل عمرو بن سعد من مالك ابن بكر بن وائل ، وهو عم ربيعة بن سفيان المعروف بالمرقش الأصغر والمرقش لقب غلب عليه لقوله :

الدار قفر والرسوم كمـا رقش فى ظهر الأديم قلم

وكان للمرقشين جميعا موقع فى بكر بن وائل وفى حروبها مع بنى تغلب ، وبأس وشجاعة ونجدة ، وللمرقش الأكبر شعر حسن ، وهو يعد من أهل الطبقة الأولى فى الشعر ، وكان بنو بكر يدعون التقدم له ولعمرو بن قميئة ، إلا أن شعره قليل ، تولت عليه يد الضياع ، مات نحو سنة ٥٥٢ م ، ودفن فى أرض مراد . وسائر أخباره فى « شعراء النصرانية » ٢٨٢ .

(٣) يروى « ابن حذام » و « ابن حمام » و « ابن خذام » . روى محمد بن سلام الجمحى (طبقـات فحول الشعراء ٣٣) قول امرىء القيس :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

قال ابن سلام : « وهو رجل من طيىء ، لم يسمع شعره الذى بكى فيه ، ولا شعر ذكر فيـه ، غير هـذا البيت الذى ذكره امرؤ القيس » .

ومنَ باب الإيجاز الذى يسمَّى « التقدير » قولُ علىٍّ بن جبَلة .

وَما لامْرِىءٍ حاوَلْتَهُ عنكَ مَهْرَبٌ ولو حَمَلتْهُ فى السَّماء المطالعُ
بَلى هاربٌ ما يهتَدى لمكانهِ ظلامٌ ولاضوءٌ منْ الصُّبح ساطعُ

فهذا هو الكلامُ الذى ألفاظه وفاقُ معانيه ، فإنه قد اشتمل عَلَى مدح رجُلٍ بشمول مُلكه وعُموم سُلطانه ، وأنَّه لا مَهْرَبَ عنه لمن يحاوله ، وإن صعِد السَّماء ، ثمَّ ذكر جميع المهارِب فى المشارق والمغاربِ ، وأشار إلى أنَّه يبلغُ الظلام والضياء . وذلك مما تزدْ عبارته على المعنى المندرج تحته ، ولاقصرت عنه .

ومن هذا الضربِ قولُ أبو نواسٍ [1] ، وهو منْ نادر ما يأتى فى هذا الموضع :

وَدارِ ندامى عطَّلوها وَأدْلجوا بها أثرٌ منهُمْ جديدٌ وَدارسُ
مساحبُ مَنْ جرِّ الزِّقاق عَلَى الثّرى وَأضغاثُ ريْحانٍ [2] جنىٌّ وَيابِسُ
حبَسْتُ بها صحبى فجدَّدْتُ عهدهُمْ وَإنِّى عَلَى أمثال تلك لحابِسُ
تُدارُ [3] علينا الرَّاحُ فى عَسْجَدِيّةٍ حَبَتْها بأنواعِ التَّصاوير فارسُ

(١) ديوان أبى نواس ٢٩٥ وهى إحدى خمرياته .

(٢) الزقاق جمع زق ، وهو وعاء من جلد يحمل فيه الماء ونحوه ، والأضغاث جمع ضغث ، وهو القبضة من الحشيش ، وجنى جنى لساعته .

(٣) فى الديوان « تدور » وقبل هذا البيت بيتان أغفلهما ابن الأثير ، وهما :

ولم أدر منهم غير ماشهدت به بشرقى ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوماً ويومين بعده ويوما له يوم الترحل خامس

والبسابس — جمع بسبس بالفتح — وهو القفر .

قرارَتُها[1] كِسْرَى وَفى جنباتِها مهاً تَدَّرِيها[2] بالقِسِيِّ الفوارسُ

فللرَّاح[3] مازُرَّتْ عليه جُيُوبُها[4] والماء ما دارَت عليهِ القلانِسُ

وممَّا انتهى إلىَّ منَ أخبار ابن المزرَّع[5] قال : سمعتُ الجاحِظ يقول : لا أعرفُ شعراً يَفْضُل هذه الأبيات التى لأبى نُواس ، ولقد أنشدْتها أبا شُعَيْبِ القلاَّل،فقال : واللهِ يا أبا عثمان، إنَّ هذا لهوَ الشعرُ، ولو نقِرَ لطنَّ ، فقلتُ له: وَيْحَكَ ! ما تفارقُ عملَ الجِرارِ والخزَف ! .

ولَعمْرى إنّ الجاحظ عرفَ فوصَف ، وخبرَ فشكر ، والذى ذكرهُ هو الحقّ .

---

(١) فى الأصل « قرار بها » وهو تحريف ، والصواب عن الديوان .

(٢) أدرى الصيد ختله ، وادرى غفلته بمعنى تحينها .

(٣) رواية الديوان : « فللخمر » .

(٤) رواية الديوان : « جيوبهم » ، والضمير عائد على الفوارس فى البيت قبله ، والمراد صورهم المرسومة على جنبات الكئوس .

(٥) هو يموت بن المزرع بن موسى بن سيار العبدى ، من عبد قيس البصرى ابن أخت أبى عثمان الجاحظ . نحوى أديب راوية ، ذكره الزبيدى فى نحاة فى مصر ، أخذ عن أبى عثمان المازنى وأبى حاتم السجستانى وعبد الرحمن بن أخى الاصمعى ونصر بن على الجهضمى وكان من مشايخ العلم والشعر ، أخبارياً حسن الآداب ، دخل بغداد ، ومات بطبرية ، وقيل بدمشق سنة ثلاث أو أربع وثلثمائة ، وكان له ولد يقال : له مهلهل بن يموت .

وعلى هذا الأسلوب جاء قولُ أبى تمّام[1] :

إنّ القوافِيَ وَالمساعِيَ لم تزَلْ ... مثل النِّظام[2] إذا أصابَ فريدَا
هىَ جوهرٌ نثرٌ فإنْ ألّفتَهُ ... بالشِّعر صار قلائداً وَعُقودَا
فى كلِّ مُعْتَرَكٍ وَكلِّ مقامَة ... يأْخُـذْن منْهُ ذمَّةً وعُهودَا
فإذا القصائدُ لم تكنْ خُفراءَها ... لم تَرْضَ مَنها مَشهداً مشهودَا
من أجل ذلك كانتِ العربُ الأولى ... يدْعُون هذا سُودداً محدُودَا
وَتنِدُّ عندهُم العُـلا إلّا عُلاً ... جُعِلَت لها مِررَ القريض[3] قيودَا

الضرب الثاني : الايجاز بالقصر :

وأما الضربُ الثانى : وهو الإيجاز بالقِصَرْ : فإنَّ القرآن الكريمَ ملآنُ منه وقد تقدمَ القولُ أنّهُ قسمان[4] :

أحدهما : ما يدل على محتملات متعددة :

فمن ذلكَ قوله تعالى (وَلَقدْ أوْحَيْنا إِلى مُوسَى أنْ أسْرِ بِعبَادِى فاضْرِبْ لهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى * فأتْبعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ * وأضلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ومَا هَدَى[5]) .

---

(١) ديوان أبى تمام ٩٠ من قصيدة له فى مدح خالد بن يزيد الشيبانى ، مطلعها :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا ... وكفى على رزئى بذلك شهيدا

(٢) رواية الديوان « الجمان » .

(٣) رواية الديوان « مرر القصيد » والمرر الحبال المحكمة .

(٤) أنظر صفحة ٣٣٣ من هذا القسم .

(٥) سورة طه : الآيات ٧٧ و٧٨ و ٧٩ .

فقوله : « فَغَشِيَهم من اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ » من جوامع الكلم التي يستدلُّ على قِلَّتِها بالمعانِي الكثيرة ، أي : غشِيَهم من الأمور الهائلةِ والخطوبِ الفادحةِ مالا يعلمُ كُنْهَهَ إلا الله ، وَلا يحيط به غيرُه .

ومن هذا الضَّربِ قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عن الجاهِلينَ)[1] .

فجمع في الآيةِ جميعَ مكارِمِ الأخْلاق ، لأنَّ في الأمرِ بالمعروف صلةَ الرّحِمِ ومنع اللِّسان عن الغِيبة ، وعن الكذب ، وغَضَّ الطَّرف عن المحرّمات ، وغير ذلك . وفي الإعراض عن الجاهلين الصَّبر ، والحِلْم ، وغيرهما ،

وقال بعضُ الأعراب في دُعائه : « اللَّهمّ هبْ لي حقّك ، وأرْض عنِّي خلْقك » ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : : « هذا هو البَلاغة » .

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ : (أُولئكَ لهمُ الأمْنُ) [2] .

فإنّه دخل تحت الأمن جميعُ المحبوباتِ ، وذلك أنّه نفي به أنْ يخافوا شيئاً من الفقرِ ، والموتِ ، وَزوال النّعمة ، ونزول النِّقمة ، وغير ذلك من أصناف المكاره .

وأشباهُ هذا في القرآن الكريم كثيرةٌ ، فهو يكثرُ في بعض الصُّور ويقلُّ في بعض قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شاءَ يرتع في الرياض الأنائِق فعليْه بآل حمَ » .

ومن ذلك قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « الخْرَاجُ بالضَّمان » وذاكَ أنَّ رجلا اشترى عبداً ، فأقامَ عندهُ مُدَّة ، ثمَّ وجد به عيْباً ، فخاصمَ البائعَ إلى

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٩ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .

النبى صلى الله عليه وسلم ، فردّه عليه ، فقال : يا رسول الله ، إنّه اسْتَغَلَّ غُلامى ، فقال : « الخراجُ بالضَّمان » . ومعنى قَوْلِه « الخراجُ بالضمان » أنَّ الرجل إذا اشترى عبداً فاستغلّه ، ثم وجد به عيباً دلَّسَه عليه البائع فلهُ أن يردّه ، ويسترجعَ الثّمن جميعَه ، ولو مات العبـدُ أو أبَقَ أو سرقَهُ سارقٌ ، كان فى مال المشترى ، وضمانه عليه ، وإذا كان ضمانه عليه فَخَراجهُ لهُ ، أىْ لهُ ما تحصَّل من أُجرة عمله .

وأما ماوَردَ شعراً ؛ فقولُ السَّمَوْءَلِ بن عاديا الغسَّانى[1] من جملة أبياته اللاميَّة المشهورة[2] ، وذلك قوله منها :

وَإنْ هو لمْ يحمِلْ على النَّفس ضيمَهَا   فليْسَ إلى حُسْن الثناءِ سـبيلُ

فإنَّ هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعِها من سماحةٍ ، وشجاعةٍ ، وعفَّة ، وتواضُع ، وحلم ، وصبر ، وغير ذلك ، فإن هذه الأخلاق كلّها من ضيْم النفس ، لأنها تجد بحملها ضيْماً ، أى مشقةً وعناءً .

وقد تقدَّم القول أن الإيجازَ بالقِصَر يكون فيما تضمَّن لفظهُ محتملاتٍ كثيرةً . وهذا البيتُ من ذلك القبيل ، ولا أعلمُ أن شاعراً قديماً ولاحديثاً أتى بمثله ، وقد أخذهُ أبو تمَّام ، فأحسنَ فى أخْذِه ، وهو :

وَظلمْتَ نفسَكَ طالباً إنْصافها   فعجِبْتُ من مظلومةٍ لمْ تُظلَمِ

---

(١) هو السموءل بن غريض بن عادياء ، والناس يدرجون غريضاً فى النسب ، وينسبونه إلى عادياء جده ، وهو صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيماء . والسموءل يضرب به المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ، ولم يخن أمانته فى أدراع أودعها عنده امرؤ القيس .

(٢) ديوان الحماسة ١ / ٣٦ وأولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

ففازَ فى بيته هذا بالمقابلة بين الضدّين فى الظُّلم والإنصاف ، ثمّ قال : « فعجبتُ من مظلومةٍ لم تظلم » . وهذا أحسن من الأوّل .

ومعنى قوله « ظلمتَ نفسك طالباً إنصافها » أى : أنك أكرهتها على مشاقِّ الأمور ، وإذا فعلت ذلك فقد ظلمتها ، ثمّ إنك مع ظلمكَ إيّاها قد أنصفْتَها ، لأنّك جلبت إليها أشياءَ حسنةً تُكسِبها ذكراً جميلا ، ومجداً مُؤثّلا ، فأنتَ مُنْصِفٌ لها فى صورة ظالم .

وكذلك قوله :

* فعجِبْتُ من مظلومةٍ لم تُظلَم »

أىْ أنّك ظلَمْتَها ، وما ظلمْتَها ، لأنّ ظلمَكَ إيّاها أدّى إلى ماهو جميلٌ حسنٌ .

وهذا القدر فى الأمثلةِ كافٍ فى هذا البابِ .

* * *

القسم الآخر من الضرب الثانى ، فى الايجاز بالقصر :

وهو الذى لا يمكنُ التعبيرُ عن ألفاظهِ بألفاظٍ أخرى مثلِها ، وفى عدّتها ، وهو أعلى طبقاتِ الإيجاز مكاناً ، وأعوزُها إمكاناً ، وإذا وُجد فى كلامِ بعض البُلغاء فإنّما يوجد شاذًّا نادراً .

فمنْ ذلك ماوَردَ فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (ولكُمْ فى القِصاصِ حَياةٌ)(١) .

فإن قوله تعالى : « القصاص حياة » لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظٍ

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٩ .

كثيرة ، لأنّ معناه أنه إذا قُتِلَ القاتِلُ امتنع غيره عن القتْل ، فأوجَبَ ذلك حياةً للنّاس .

ولا يلتَفتُ إلى ماورَدَ عن العربِ من قولهم : « القتْلُ أنفى للقتْل » . فإنّ من لا يعلم يظنّ أنّ هذا على وزْن الآية ، وليس كذلك ، بل بَينَهما فرْقٌ من ثلاثةِ أوْجُه :

الوجه الأول : أنّ « القِصاص حياة » لفظتَان ، و « القتل أنْفى للقتل » ثلاثة ألفاظ .

الوجه الثانى : أنّ فى قولهِمْ « القتل أنفى للقتل » تكريراً ليس فى الآية .

الوجه الثالث : أنّه ليس كلٌ قتْل نافِياً للقتل ، إلّا إذا كان على حكم القِصاص[1] .

---

(١) قال أبو هلال العسكرى : والإيجاز : القصر والحذف ، فالقصر تقليل الألفاظ وتكثير المعانى ، وهو قول الله عز وجل : « ولكم فى القصاص حياة » ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب فى معناه ، وهو قولهم « القتل أنفى للقتل » فصار لفظ القرآن فوق هذا القول ، لزيادته عليه فى الفائدة ، وهو إبانة العدل لذكر القصاص ، وذكر العوض المرغوب فيه لذكر الحياة ، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ، ولإيجازه فى العبارة ، فإن الذى هو نظير قولهم « القتل أنفى للقتل » إنما هو « القصاص حياة » وهذا أقل حروفاً من ذلك ، ولبعده من الكلفة بالتكرير ، وهو قولهم « القتل أنفى للقتل ، ولفظ القرآن برىء من ذلك . وبحسن التأليف ، وشدة التلاؤم المدرك بالحس ، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة (وانظر الصناعتين ١٧٥) .

وقد صاغ أبو تمَّامٍ هذا المعنَى الواردَ عن العرب فى بعض بيتٍ من شعره ، فقال[1] :

وَأَخَافَكُمْ كى تُغْمِدُوا أسيافكُمْ   إِنَّ الدَّمَ المُعْتَرَّ[2] يحرُسُهُ الدَّمُ

فقوله : « إنَّ الدم المعترَّ[2] يحرسه الدم » . أحسنُ ممَّا وردَ عن العرب من قولهم : « القتل أنفى للقتل » ،

ويروَى عنْ مَعْن بن زائدة[3] أنه سأله أبو جعفرٍ المنصور ، فقال له : أيُّما أحبُّ إليك : دوْلتُنا أو دَولة بنى أُمَيَّة ، فقال : ذاكَ إليك ! .

فقوله « ذاكَ إليك » من الإيجاز بالقِصَر الذى لا يمكنُ التَّعْبير عنه إلا بألفاظٍ كثيرة ، لأنَّ معنَى قولِه « ذاكَ إليكَ » ، وهو لفظتانِ ، أنَّه إن زادَ إحسانكَ على إحسان بنى أُمَيَّة ، فأنتمْ أحبُّ إلىّ ، وهذه عشرَةُ ألفاظٍ .

فإن قيل : كيْف لايمكنُ التعبير عن ألفاظٍ بألفاظٍ أُخرى مِثْلِها وفى

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٧٤ من قصيدة له فى مدح مالك بن طوق ، مطلعها :

أرض مصردة وأخرى تثجم   تلك التى رزقت وأخرى تحرم

والمصردة التى لا تنال من السقى إلا قليلا ، وتثجم تمطر على الدوام .

(٢) فى الأصل « المغبر » والتصويب عن الديوان ، ومعنى المعتر المضطرب .

(٣) هو معن بن زائدة الشيبانى ، أحد أجواد العرب وفرسانهم ، وكان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بنى العباس ، وجرى بين أبى جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر ماجرى من محاصرة واسط أبلى معن مع يزيد بلاء حسناً ، فلما قتل يزيد هرب معن خوفا من المنصور . ثم دخل معن فى شيعة المنصور ، وصار من خواصه ، وقتل معن بسجستان إذ كان والياً عليها سنة ١٥٢ هـ .

عدَّتها ، وفى المترادفِ من الألفاظ ماهو دليلٌ على خلافِ ذلك ، فإنه إذا قيل : « راحٌ » ثمّ قيل : « مُدَامَة ».أو « سُلافة » . كان ذلك سواء ، وقامت هذه اللفظة مقام هذه اللَّفظةِ .

قلتّ فى الجواب : ليس كلُّ الألفاظِ المترادفةِ يقوم بعضُها مقامَ بعض . ألا ترى أنّ لفظة « القِصاص » لا يمكن التعبير عنها بما يقوم مقامَها ، ولما عُبِّر عنها بالقتل فى قول العرب « القتلُ أنفى للقتل » ظهرَ الفرق بين ذلك وبين الآيةِ فى قوله تعالى : « ولكم فى القِصاص حَياة » ، فالذى أردْتُه أنا إنّما هو الكلام الذى لايمكن التعبير عن ألفاظهِ بألفاظٍ أُخرى مثلها ، وفى عدتها ، فإنْ كان كذلك ، وإلاَّ كان داخلًا فى هذا القسم المشار إليه .

النوع السادس عشر

فى الإطناب

هذا النوع من الكلام أنعمتُ النَّظر فيه ، وفى التكرير ، وفى التطويل ، فملكتْنى حيْرةالشبَهِ بينها طويلًا ، وكنتُ فى ذلك كعمرَ بن الخْطاب — رضى الله عنه — فى الْكلالة ، حيث قال : قد أَعْيَانى أَمْر الكلالة[1] ، وكنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كثيراً ؛ حتّى ضرب فى صدرى ، وقال : « ألا يكفِيكَ آية الصَّيْف » ؟ .

---

(١) الكلالة من لا ولد له ولا والد ، ومالم يكن من النسب لحا ، أو من تكلل نسبه بنسبك كابن العم وشبهه ، أو هى الأخوة للأم ، أوبنو العم الأباعد ، أوما خلا الوالد والولد ، أوهى من العصبة من ورث معه الأخوة للأم ، ولهم أحكام يرجع إليها فى قواعد الميراث .

وبعد أنْ أنعمتُ نظرى فى هذا النّوع الذى هو (الإطناب) وجدته[1] ضرباً من ضُروب التأكيد التى يُؤْتَى بها فى الكلام قصداً للمبالغة . ألا ترى أنه ضربٌ مفردٌ من بينِها برأسِه لا يشاركه فيه غيرُه ؟ لأنّ من التأكيد مايتعلّق بالتقديم والتأخير ، كتقديم المفعول ، وبالاعتراض ، كالاعتراض بين القَسم وجوابه ، وبين المعطوف والمعطوفِ عليه ، وأشباه ذلك ، وسيأتى الكلام عليه فى بابه .

وهذا الضرب الذى هو الإطناب ليسَ كذلك .

اختلاف علماء البيان فى الاطناب :

ورأيت علماءَ البيان قد اختلفوا فيه : فمنهم مَن ألْحقه بالتّطويل الذى هو ضدُّ الإيجاز[2] ، وهو عنده قِسْمٌ غيره ، فأخطأ من حيثُ لا يدرى ، كأبى هِلال العسكرىّ والغانمى ، حتى إنّه قال : إنّ كتبَ الفتوح وما جرى مجراها مما يُقرأ على عوامِّ النّاس ينبغى أن تكون مطوّلة مطنباً فيها[3] .

وهذا القول فاسدٌ ، لأنه إن عَنَى بذلك أنها تكون ذاتَ معانٍ متعددةٍ

(١) فى الأصل « وجدت » من غير الضمير ، والسياق يقتضيه .

(٢) يفرق أبو هلال بين الإطناب والتطويل ، فالإطناب عنده بلاغة ، والتطويل عى ، لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلا بما يقرب ، والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوى على زيادة فائدة (وانظر الصناعتين ١٩١) .

(٣) عبارة أبى هلال فى الصناعتين ١٩٠ : « ولاشك فى أن الكتب الصادرة عن السلاطين فى الأمور الجسيمة ، والفتوح الجليلة ، وتفخيم النعم الحادثة ، والترغيب فى الطاعة ، والنهى عن المعصية ، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة ، تملأ الصدور ، وتأخذ بمجامع القلوب » ولا نرى تناقضاً بين تفريقه بين الإطناب والتطويل ، ورأيه فى إشباع هذه الكتب واستقصائها بما يدل على الإطناب .

قد استُقْصِىَ فيها شرحُ تلك الحادثة من فتح أو غيره فذلك مسلَّم ، وإن عنَى بذلك أنها تكون مكررة المعانى ، مطوّلة الألفاظ ، قصداً لإفهام العامّةِ ؛ فهذا غيرُ مسلّم ، وهو ممّا لايذهبُ إليه من عِنده أدنى معرفةٍ بعلم الفصاحة والبلاغة .

ويكفى فى بطلانه كتاب الله تعالى ، فإنه لم يُجْعَلْ لخواصِّ الناس فقط ، وإنما جُعل لعوامهم وخواصِّهم ؛ وأكثره ، لابل جميعُه مفهوم الألفاظ للعوامِّ ، إلا كلماتٍ معدودةً ، وهى التى تسمَّى « غريب القرآن » . وقد تقدّم الكلام على ذلك فى المقالة الأولى المختصّة بالألفاظ(١) .

وعلى هذا فينبغى أن تكون الكتبُ جميعها مما يقرأُ على عوامِّ النَّاس وخواصِّهم ذاتَ ألفاظٍ سهلةٍ مفهومةٍ ، وكذلك الأشعار والخطبُ ، ومن ذهب إلى غير ذلك فإنه بنجوةٍ عن هذا الفنِّ .

وعلى هذا فإنَّ الإطناب لايختصُّ به عوامُّ الناس ، وإنما هو للخواصِّ ، كما هو للعوامِّ .

وسأُبيِّن حقيقته فى كتابى هذا ، وأُحقِّق القولَ فيه ، بحيث تزُول الشُّبهة التى خبط أربابُ علم البيان من أجلها ، وقالوا أقوالًا لا تعربُ عن فائدة .

حقيقة معنى الاطناب :

والَّذى عندى فيه أنَّه إذا رجعنا إلى الأسماء واشْتقاقها وجدنا هذا الاسمَ مناسباً لمسماهُ ، وهو فى أصل اللغة مأخوذٌ من أطنَبَ فى الشىء ، إذا بالغ فيه ، ويقال : أطْنَبت الرِّيح ، إذا اشتدَّتْ فى هُبوبها ، وأطنب فى السَّير ، إذا اشْتدَّ فيه .

---

(١) انظر تفصيل رأى ابن الأثير فى هذا فى صفحة٢٢٧ ومابعدها من القسم الأول من هذا الكتاب .

وعلى هذا فإنْ حملناه على مقتضى مُسَمَّاه كان معناه المبالغة فى إيراد المعانى، وهذا لا يختصُّ بنوعٍ واحدٍ مِنْ أنواعِ علم البَيَان، وإنما يوجد فيها جميعها، إذْ ما مِنْ نوعٍ منها إلّا ويمكنُ المبَالغة فيه.

وإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن يُفرَد هذا النوع من بَيْنهَا، ولا يتحقّق إفراده إلّا بذكر حدِّه الدالِّ على حقيقته.

حـــد الاطناب :

والذى يُحدُّ به أن يقال: هو زيادةُ اللفظ على المعنَى لفائدةٍ.

فهذا حدُّه الذى يميزُه عن (التطويل). إذ التطويلُ هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة (١).

---

(١) وعند البلاغيين أن (التطويل) هو أن يزيد اللفظ على أصل المراد لا لفائدة، ولا يكون اللفظ الزائد متعينا كقول عدى بن زيد العبادى:

فقددت الأديم لراهشيه وألفى قولها كذبا ومينا

فإن الزائد هو «كذباً» أو «مينا» ولا يتعين أحدهما للزيادة ولا يترجح. فإن كانت الزيادة متعينة اختص ذلك باسم (الحشو) وهو زيادة معينة لا لفائدة كقول أبى الطيب:

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فإن لفظ «الندى» فيه حشو يفسد المعنى، لأن المعنى أنه لا فضل فى الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت، وهذا الحكم صحيح فى الشجاعة دون الندى، لأن الشجاع لو علم أنه يخلد فى الدنيا لم يخش الهلاك فى الإقدام فلم يكن لشجاعته فضل، بخلاف الباذل ماله، فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذله. وقد يكون الحشو غير مفسد للمعنى كقول الشاعر:

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب

فإن لفظ الرأس حشو لا فائدة فيه، لأن الصداع لا يستعمل إلا فى الرأس وليس بمفسد للمعنى، وفى هذا وغيره أقوال يرجع إليها فى موسوعات البلاغة.

وأُما (التكْريرُ) فإنَّه دلالة للفظ على المعنى مردَّداً ، كقولك لمنْ تستدعِيه : أسِرعْ أسرعْ ، فإنَّ المعنى مردَّد ، واللفظ واحد .

وسيردُ بيان ذلكَ مفصَّلا فى بابه بعد باب الإطناب ، لأنِّى ذكرتُ الإيجاز، ثمَّ الإطنابَ ، ثمّ التكريرَ ، وهِىَ أبوابٌ يتبعُ بعضُها بعضاً .

وإذا كان (التكْريرُ) هو إيرادُ المعنى مردّدا فمنه ما يأتى لفائدةٍ ، ومنه ما يأتى لغير فائدة .

فأما الذى يأْتى لفائدةٍ فإنه جزءٌ مِنْ الإطناب . وهو أخصُّ منه ، فيقال حينئذٍ : إنّ كلّ تكرير يأتى لفائدةٍ فهو إطنابٌ ، وليس كلُّ إطنابٍ تكريرًا يأتى لفائدة ، وأما الذى يأْتى منْ التكرير لغير فائدةٍ فإنّه جُزءٌ من التطويل ، وهو أخصُّ منه ، فيقالُ حينئذٍ : إنّ كلّ تكرير يأتى لغير فائدةٍ تطويلٌ ، وليس كلُّ تطويلٍ تكريرًا يأتى لغير فائدةٍ .

وكنتُ قدّمتُ القول فى بابِ الإيجاز بأَنّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غيْرِ زيادةٍ عليه .

وإذا تقررَتْ هذه الحدودُ الثلاثة المشارُ إليها فإنّ مثالَ الإيجاز والإطناب والتطويل مثالُ مَقصِدٍ يُسلك إليه فى ثلاثةَ طرُقٍ : فالإيجازُ هو أقربُ الطرقُ الثلاثة إليْهِ ، والإطنابُ والتطويلُ هى الطريقان المتساويان فى البعدِ إليه ، إلّا أنّ طريقَ الإطناب تشتملُ على منزَهٍ مِن المنازهِ لا يوجدُ فى طريقِ التطويل[1] ، وسيأتى بيَان ذلك بضرْب الأمثلةِ التى تُسهِّل مِنْ معرفته .

---

(١) هذا هو تمثيل أبى هلال ، وقد سبقت الإشارة إلى شىء من كلامه فى الهامش (٢) من صفحة (٣٥٥) .

والإطنابُ يوجد تارةً فى الجملة الواحدة من الكلام ، ويوجد تارةً فى الجمل المتعدِّدة .

والذى يوجد فى الجمل المتعدِّدة أبلغ ، لاتِّساع المجال فى إيراده .

وعلى هذا فإنّه بجملته ينقسم قسمين :

(١) القسم الأول : الذى يوجد فى الجملة الواحدة من الكلام :

وهو يرد حقيقةً ومجازاً .

أمَّا الحقيقةُ فمثل قولهم : رأيته بعينى ، وقبضته بيدى ، ووطئته بقدَمى ، وذقْته بفمى ، وكلُّ هذا يظنُّ الظانُّ أنَّه زيادةٌ لاحاجة إليها ، ويقول إنَّ الرُّؤيةَ لا تكون إلابالعين ، والقبض لا يكون إلَّا باليد ، والوطء لا يكون إلَّا بالقدم ، والذَّوق لا يكون إلا بالفمْ ، وليس الأمر كذلك ، بل هذا يُقالُ فى كلِّ شىء يعظم مَناله ، ويعزُّ الوصول إليه ، فيؤكَّد الأمر فيه على هذا الوجهُ ، دلالةً على نيْلِه والحصول عليه ، كقول أبى عبادة البحترى (١) :

تأَمَّلْ مِنْ خِلالِ السَّجْفِ وانظرْ ... بِعَيْنِكَ ما شَرِبتُ ومنْ سَقَانى (٢)

تجِدْ شَمْسُ الضُّحَا تَدْنُوا بِشَمْسٍ ... إلىَّ مِنَ الرَّحِيقِ الْخُسْرُوَانِى

ولمـَّا كانَ الحضورُ فى هذا المجلسِ مما يعزُّ وجودُه ، وكان السَّاقى فيه عَلَى هذهِ الصفة من الحسْن ، قال : انظرْ بعَيْنِك .

---

(١) ديوان البحترى ١ / ٩٢ من قصيدة له فى مدح المعتز بالله ، ومطلعها :

رويدك إن شانك غير شانى ... وقصرك لست طاعة من نهانى

(٢) السجف — بفتح السين وكسرها — الستر ، والسجف الستران المقرونان بينهما فرجة ، أو كل باب ستر بسترين مقرونين فكل شق سجف — وفى الديوان :

* تأمل من خلال الشك فانظر *

وعلى هذا وردَ قولُه تعالى: (ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ [1]).

فإنَّ هذا القول لمَّا كان فيه افتراءٌ عظَّم اللهُ تعالى على قائله:

ألا ترى إلى قوله تعالى في قصة الإفك: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ [2]).

فصرَّح في هذه الآية بما أشرتُ إليه من تعظيم الأمر المقُول.

وفي مساقِ الآية المشار إليها جاء قوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ [3]).

ألا ترى أنَّ مَسَاق الكلام أن الإنسانَ يقولُ لزَوْجته: « أَنتِ عليَّ كظهر أُمِّي » ويقولُ لمملوكه: « يا بُنيَّ » فضرَبَ اللهُ لذلك مثَالاً، فقَالَ: كيفَ تكون الزوجة أُمًّا؟ وكيف يكونُ المملوكُ ابنًا؟ والجمعُ بين الزَّوْجيَّة والأمومة وبينَ العُبوديّة وَالبُنوَّةِ في حالةٍ واحدةٍ كالجمع بين القلبين في الجوف؛ وهذا تَعْظِيمٌ لما قالوه، وإنكارٌ لهُ، ولما كان الكلامُ في حال الإنكار والتَّعظيمِ أتى بذكر الجوف، وَإلّا فقد عُلِمَ أن القلب لا يكونُ إلا في الجوْف، والتّمثيلُ يصحُّ بقوله: « ما جعل الله لرجلٍ من قلبين » وهو تامٌّ،

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤ .

(٢) سورة النور: الآية ١٥ .

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤

لكن فى ذكر الجوفِ فائدة ، وهى ما أشرتُ إليها ، وفيها أيضاً زيادةُ تصوير المعنى المقصودُ ، لأنه إذا سمعه المخاطِب به صورّ لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين ، فكَان ذلك أسرعَ إلى إنكَاره .

وعليه وَرَدَ قوله تعالى : (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)[1] .

فكما أنَّ القلبَ لا يكونُ إلا فى الجوف فكذلك السَّقْفُ لا يكونُ إلا من فوق ، وهذا مقامُ ترهيبٍ وتخويفٍ ، كما أنَّ ذاك مقام إنكَارٍ وَتعْظِيم .

ألاَ ترى إلى هذه الآية بكمالها ، وهى قوله تعالى : (قَدْ مَكرَ الَّذينَ مِنْ قَبلِهِمْ فأَتَى اللهُ بُنْيَانَهم مِنَ الْقواعدِ فَخَرَّ عليهم السَّقْفُ من فَوْقِهِمْ وَأتاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)[1] ، وَلذكر لفظِهِ « فَوْقِهِمْ » ، فائدةٌ لا توجد مع إسْقاطِها من هذا الكلام ، وأنت تُحِسّ هذا من نفسك ، فإنَّك إذا تلَوْتَ هذه الآية يُخَيَّلَ إليك أن سقفاً خرَّ على أُولئكَ من فوقهم ، وحصلَ فى نفسِك من الرُّعب مالا يحصل مع إسْقاطِ تلك اللَّفظة .

وفى القرآنِ الكريمِ من هذا النوع كثيرٌ كقوله تعالى : (فإذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَة وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتَ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَة)[2] .

وقوله : (أفرأيتمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأخْرَى)[3] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٢٦ .
(٢) سورة الحاقة : الآيتان ١٣ و ١٤ .
(٣) سورة النجم : الآيتان ١٩ و ٢٠ .

وكلُّ هذه الآياتِ إنما أُطنِبَ فيها بالتأكيد لمعانٍ اقتضتْها ، فإنَّ النفخَ في الصُّور الذي تقومُ به الأمواتُ من القبور مَهولٌ عظيمٌ ، دَلٌّ على القدرة الباهرة ، وكذلك حملُ الأرضِ والجبال .

فلما كانا بهذه الصفة قيلَ فيهما : « نَفخَة واحدة » وَ « دكَّة واحدة » . أى أنَّ هذا الأمر المهول العظيمَ سهلٌ يسيرٌ عَلَى الله تعالى، يفعلُ ويمضى الأمرَ فيه بنفخَة واحدةٍ ، ودكَّة واحدةٍ ، ولا يحتاجُ فيه إلى طول مدَّة، وَلا كلفة مَشقَّةٍ .

فجيء بذكْر الواحدةِ لتأكيد الأعلام بأَنَّ ذلك هيِّنٌ سهلٌ على عِظَمِه .

وهذه المواضعُ وأمثالها تَرِدُ فى القرآنِ الكريمِ ، وَيتوهَّمُ بعضُ الناس أنها ترد لغير فائدةٍ اقتضتْها . وليس الأمرُ كذلك، فإنَّ هذه الأسرارَ البلاغية لا يتنبه لها إلا العارفون بها ، وهكذا يَرِدُ ما يَرِدُ منها فى كلام العرب .

وهاهُنا نكتةٌ لابدَّ من الإشارة إليها : وَذاكَ أَنِّى نَظَرتُ فى قوله تعالى : « نفخة واحدة » وَ « دكَّة واحِدة » وفى قوله تعالى : « وَمَناةَ الثَّالثة الأخرى » فوجدْتُ ذلك غيرَ مقيس على ماتقدَّم ، وسأبيِّنه ببيانٍ شافٍ ، فأقول :

إنَّ قوله تعالى : « وَمَنَاةَ الثَّالثةَ الأخرى » إنما جىء به لتوازُنِ الفقرِ التى نُظمت السُّورة كلها عليها وهى : « وَالنَّجْمُ إذا هَوَى » ولو قيل : « أفرَأيتمُ اللّاتَ والعُزَّى وَمَنَاةَ » ولم يقل « الثالثة الأخرى » لكانَ الكلامُ عارياً عن الطلاوَةِ والحُسْن . وكذلك لو قيل : ومناة الأخرى من غير أن يقال « الثالثة » لأنَّه نقصٌ فى الفقرة الثانيةِ عن الأولى ، وذاكَ قبيحٌ ، وقد تقدَّم الكلامُ عليه فى باب السَّجع (١) ، لكنَّ التأكيدَ فى هذه الآيةِ جاء ضِمنْاً لِتَوَازُنِ الفِقَرِ وتبعاً .

---

(١) انظر صفحة (٣٣٣) وما بعدها من القسم الأول من هذا الكتاب ، لترى تقسيم المؤلف للسجع ، وما يستحسن من أقسامه .

وأما « نفخةٌ وَاحدة » وَ « دكّة واحدة » فإنما جيء بلفظ الواحدة فيهما ـ وقد عُلم أن النفخة هي واحدة والدكة هي واحدة ـ لمكان نظم الكلامَ ، لأنّ السُّورةَ التي هي « الحاقّة » جارية على هذا المنهاج في توازُنها السّجعيّ ، ولو قيل : « نفخة » ـ من غير واحدة ـ و « دكّة » ـ من غير واحدة ـ ثم قيلَ بعدَهما : « فيومئذٍ وقعتِ الواقعة » لكانَ الكلامُ مَنْثوراً (١) محتاجًا إلى تمامٍ . لكنّ التأكيدَ جاء فيهما ضِمْنًا وَتَبَعًا .

وإذا تبين ذلك واتّضح فاعلم أنّ الفرقَ بين هذه الآياتِ وبينَ قوله تعالى : « ما جَعلَ اللهُ لرجلٍ منْ قلبينِ في جَوْفهِ » ظاهرٌ ، وذاك أنّ « نفخة » هي واحدة ، وَ « مناة » هي الثّالثة .

وأما ما جاء منه على سبيل المجاز ، فقوله تعالى : « فإنهَا لا تَعمى الأبصَارُ وَلكِنْ تَعْمى القلوبُ التي في الصُّدُور » (٢) .

ففائدةُ ذكر « الصدُور » هاهُنا أنه قد تُعورف وعُلمَ أن العمى على الحقيقةُ مكانهُ البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمسُ نُورها ، واستعماله في القلبِ تشبيه ومثل ، فلما أريد إثباتُ ما هو خلاف المتعارَف من نسبة العَمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاَج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريفٍ ، ليتقرّر أن مكانَ العَمَى إنما هو القلوبُ ، لا الأبصار .

وهذا موضعٌ من علم البيان كثيرةٌ محاسنُه ، وافرةٌ لطائفه ، والمجازُ فيه أحسن من الحقيقة ، لمكان زيادةِ التصوير في إثباتِ وصف الحقيقيّ للمجازيّ ونفيه عن الحقيقيّ .

---

(١) أي من غير مراعاة للتوازن ، ومعنى « محتاجاً إلى تمام » أي : إلى تمام يكمل به التوازن .

(٢) سورة الحج : الآية ٤٦ .

(٢) وأما القسم الثانى المختص بالجمل ، فانه يشتمل على ضروب أربعة :

(١) الأول منها : أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة ، الا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر :

وذلك كقول أبى تمام (١) :

قَطعَتْ إلىَّ الزَّابِـيَيْنِ هِـبـاتُهُ ... والتَاثَ مامُولُ السَّحابِ المُسْبِلِ (٢)

مِنْ مِنَّـةٍ مَشْهورَةٍ وصَـنِيعَةٍ ... بَكْرٍ وإحْسَانٍ أغرَّ مُحجَّلِ

فقوله « مِنّةٍ مشهورَةٍ ، وصنيعةٍ بكْر ، وإحسانٍ أغرّ محـجَّل » تداخَلتْ معانيه ، إذِ المـنَّة ، والصنيعةُ ، والإحسانُ ، متقاربٌ بعضهُ مَنْ بعض ، وليسَ ذلك بتـكريرٍ ، لأنه لو اقتصَر على قوله : مِـنة ، وصنيعة ، وإحسان ، لجاز أن يكون تـكريرًا ، ولـكنه وصف كلَّ واحدةٍ من هذه الثلاثِ بصفةٍ أخْرَجَتها عن حُكم التـكرير ، فقالَ : « مـنّة مشهورة » ، فوصفها بالاشتهارِ لعظم شأنها ، و« صنيعة بِكْرٍ » ، فوصفها بالبكَارة ، أى : أنها لم يُؤتَ بمثلها من قبل ، و « إحسان أغرّ محجَّل » ، فوصفه بالغرّة والتحْجيل ، أى هو ذُو محاسن متعدِّدة ، فلما وصف هذه المعانى المتداخلة التى تدلُّ على شىء واحدٍ بأوصافٍ متباينة صارَ ذلك إطناباً ، ولم يكن تـكريرًا .

ولم أجدُ فى ضُروب الإطنابِ أحسنَ من هذا الموضع ، ولا ألطف ،

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٣٣ من قصيدة له فى مدح الحسن بن وهب ، مطلعها :

ليس الوقوف يكف شوقك فانزل ... تبلل غليلا بالدموع فيبلل

(٢) فى الأصل « الرابيين » موضع «الزابيين» وهما نهران ، وفيه «التاث» من غير واو العطف ، و « مآمور »موضع «مأمول» . والتصويب عن الديوان ، ومعنى التاث أبطأ . والمسبل الممطر.

وقد استعمله أبو تمامٍ فى شعرِه كثيراً ، بخلاف غيره من الشعراء ، كقوله[1] :

زكىٌّ سجاياهُ[2] تضيفُ ضيوفُه ... ويُرجى مُرجّيه ويُسألُ سائلُه

فإنَّ غرضَه من هذا القولِ إنما هو ذكرُ الممدوحِ بالكرم وكثرةِ العطاء إلا أنّه وصفه بصفاتٍ متعدِّدَة ، فجعلَ ضيوفَه تضيفُ ، وراجيه يُرَجّى ، وسائلهُ يُسأَل ، وليس هذا تكريراً ، لأنه لا يلزمُ من كون ضيوفِه تُضيفُ أن يكونَ راجيهِ مَرْجُوًّا ، ولا أن يكُون سائلهُ مسئولا ، لأنَّ ضيفهُ يستصحبُ ضيفًا ، طمعاً فى كرمِ مُضيفه ، وسائله يُسأَلُ ، أى : يُعطى السَّائلَ عطاءً كثيراً يصيرُ به مُعطِياً ، وراجيه يُرجَّى ، أى أنَّه اذا تعلق به رجاءُ راجٍ فقد أيقن بالفلاحِ والنجاحِ ، فهو حقيقٌ بأن يرجّى ، لمكَان رَجائه إيَّاه ، وهذا أبلغُ الأوصافِ الثلاثةُ .

(٢) الضرب الثانى : يسمى النفى والاثبات :

وهو أنْ يذكر الشيءُ على سبيل النَّفى ، ثمّ يذكرُ على سبيلِ الإثباتِ أو بالعكس ، ولا بدّ أن يكون فى أحدهما زيادةٌ ليست فى الآخر ، وإلا كَان تكريراً . والغرضُ به تأكيدُ ذلك المعنى المقصود .

فممّا جاء منه قوله تعالى : « لا يَسْتأذِنُكَ الذينَ يؤمنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ أنْ يُجاهدُوا بأمْوَالهمْ وأنْفُسِهمْ ، واللهُ عليمٌ بالمتّقِينَ *

---

(١) ديوان أبى تمام ٣٧٨ من قصيدة له فى رثاء القاسم بن طوق ، مطلعها :

جوى ساور الأحشاء والقلب واغله ... ودمع يضيم العين والجفن هامله

(٢) رواية الديوان :

* وكن سجاياه يضيف ضيوفه *

إنما يَسْتأذنُكَ الذينَ لا يؤمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ ، وارْتابَتْ قلوبُهُمْ ، فَهُمْ فى رَيْبِهِمْ يتردّدُون »(١) .

واعلم أنّ لهذا الضّرْب من الإطناب فائدةً كبيرةً ، وهو من أوكدِ وجُوهِه ، ألا ترى أنه قال : « لا يَسْتأذِنُكَ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدُوا بأموالهم وأنفُسِهِمْ » ، ثم قال : « إنمـا يستأذنك الذين لا يؤْمنونَ بالله واليوْم الآخر » ، والمعْنى فى ذلك سَواء ، إلا أنه زادَ فى الثانية قوله : « وَارْتابَتْ قلوبُهم فَهُمْ فى رَيْبِهمْ يَتردّدون » ولولا هذه الزّيادةُ لكَان حكم هاتيْن الآيتين حُكم التكرير .

وهذا الموضعُ ينبغى أن يُتأمّل ، ويُنعَم النظرُ فيه .

وعليه وَردَ قوله تعالى : « آلم * غُلبَتِ الرُّومُ فى أدْنى الأرْض وَهُم منْ بَعْد غَلبِهِمْ سَيَغلِبون * فى بضع سنينَ لله الأمر مِنْ قبلُ وَمنْ بَعدُ وَيوْمئذٍ يفرحُ الْمؤمنُونُ * بنَصْر الله يَنصُرُ مَنْ يشَاء وهُو العزيزُ الرّحِيم * وَعْدَ اللهِ لا يخلفُ اللهُ وَعْدَهُ ، وَلـكنّ أكثر النـاس لا يعـْلَمُون * يعْلَمُون ظاهراً من الحَيـاة الدُّنيـا ، وَهم عن الآخرة هم غافلونَ »(٢) .

فقولُه : « يعلمون » بعد قوله : « لايعلمون » من البابِ الذى نحنُ بصدد ذكرِه ، ألا ترى أنّه نفَى العلمَ عن النّـاس بمـا خَفِىَ عنهم من تحقيق وَعده ، ثمَّ أثبت لهم العلم بظاهِر الحياةِ الدُّنيا ؟ فكأنهم علموا وما علموا ، إذ العلمُ بظاهر الأمور ليس بعلم ، وإنما العلم هو ما كان بالباطن من الأمور .

---

(١) سورة التوبة : الآيتان ٤٤ و٤٥ .

(٢) سورة الروم : الآيات ١ ـ ٧ .

(٣) الضرب الثالث : وهو أن يذكر المعنى الواحد تاما لا يحتاج الى زيادة ثم يضرب له مثال من التشبيه :

كقول أبي عبادة البُحتريّ [(١)] :

ذاتُ حُسْنٍ لو استزَادتْ من الحُـــسْنِ إليه لمــا أصَابت مَزيدا

فهْيَ كَالشمس بهجةً، والقضيب اللَّـــدْنِ قدًّا، وَالرِّيم طرْفاً وَجيدا [(٢)]

ألا ترى أَن الأول كافٍ في بلوغ الغاية في الحُسْـن، لأنه لمَّـا قال: « لوْ استزَادتْ لمـا أصابتْ مَزِيدا » دخَـل تحته كلُّ شيء من الأشياء الحسنةِ، إلا أنْ للتشبيه مزيَّة أُخرى تفيدُ السامعَ تصويرًا وتخييلاً، لا يحصُل له من الأوَّل .

وَهذا الضرْب من أحسن ما يجيء في بابِ الإطناب .

وَكذلكَ وَرد قوله [(٣)] :

تَردَّد [(٤)] في خُلقيْ سُودَدٍ سمـاحاً مُرَجًّى وبأسًا مَهيبًا

فـكالسَّيف إن جئتهُ صارخًا وَكالـبَحْـر إن جئته مُسْتثيبًا

---

(١) ديوان البحترى ٢/ ٣٤ من قصيدة له فى الفخر ، مطلعها :

إنما الغى أن يكون رشيدا فانقصا من ملامه أو فزيدا

(٢) روى هذا البيت فى الديوان هكذا :

فهى الشمس بهجة، والقضيب الـــغض ليناً ، والرئم طرفاً وجيداً

(٣) ديوان البحترى ١ / ٥٨ من قصيدة له فى مدح الفتح بن خاقان وعتابه ، ومطلعها :

لوت بالسلام بنانا خضيباً ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا

(٤) رواية الديوان « تنقل » موضع « تردد » .

فالبيتُ الثانى يدلُّ على معنى الأول، لأنّ البحر والسيف للبأس المهيب، إلا أنّ فى الثانى زيادة التشبيه التى تفيدُ تخيُّلا وتصويراً .

(٤) الضرب الرابع : أن يستوفى معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة :

وهذا أصعبُ الضُّروب الأربعةِ طريقًا، وأضيقُها بابًا، لأنه يتفرّعُ إلى أساليب كثيرةٍ من المعانى، وأربابُ النظم والنّثر يتفاوتون فيه، وليسَ الخَاطرُ الذى يقذفُ بالدُّرر فى مثله إلا معدومَ الوُجود، ومثالُه ومثالُ الإيجاز مثال مُجْمَل ومُفصّـلٍ . وقد تقدّم القولُ أن الإيجازَ والإطنابَ والتطويل بمنزلةِ مقصدٍ يُسلكُ إليه ثلاثة طُرق .

وقد أوردْتُ هاهُنا أمثلة لهذه الأساليبِ الثلاثة، وجَعلتَها على هَيئةِ المقصد الذى تُسلك إليه الطرقُ الثّلاثةُ .

فمن ذلكَ ماذكرْته فى وَصف بُستانٍ ذى فواكه متعدِّدةٍ .

فإذا أُريدَ وصفهُ على حكم (الإيجاز) قيل : « فيهِ من كلِّ فاكهةٍ زوْجان » وهذا [من] كلام الله تعالى [١] ؛ وقد جمع جميعَ أنواع الفاكهةِ بأحسن لفظٍ وأخصره .

وإذا أريد وصفُ ذلك البُستان على حكم (الإطناب) قيل فيه ما أذكرُه وهو فصْلٌ من كتابٍ أنشأته، وهو :

« جنةٌ علَتْ أرضُها أن تمسك ماء، وغنيت بينبُوعها أن تستجدى سماء، وهى ذاتُ ثمارٍ مختلفة الغرابة، وَترْبةٍ مُنجبةٍ، وما كلُّ ترْبةٍ توصف بالنّجابة .

---

(١) كما جاء فى سورة الرحمن (آية ٥٢) قوله تعالى : « فيهما من كل فاكهة زوجان » .

« ففيها المشمش الذى يسبقُ غيره بقدُومه ، ويقذفُ أيدىَ الجـانينَ بنجومه ؛ فهوْ يسمو بطيب الفرْع والنِّجار (١) ؛ ولو نظِم فى جيد الحسناء لاشتَبَه بقلادَةٍ من نُضار (٢) وله زمَنُ الرّبيع الذى هو أعدلُ الأزمان ، وقد شُبِّـه بسنِّ الصِّـبا فى الأسنان .

« وفيها التُّـفاحُ الذى رقّ جلدهُ ؛ وعُظمَ قدُّه ، وتورّد خدُّه ؛ وطابت أنفاسُه ؛ فلا بانُ الوادى ولا رنْدُه (٣) ؛ وإذا نُظرَ إليه وُجدَ منه حظُّ الشمِّ والنظر ؛ ونسبته من مُرر الغِزْلان أوْلى من نسبته الى منابِت الشجر .

« وَفيها العِنَبُ الذى هو أكرمُ الثمـار طِينةً ، وأكثرُها ألوان زينة ، وَأوّل غرْسٍ اغترسَه نوحٌ — عليه السلام — عندَ خروجه مِنْ السفينة ، فقِـطفُه يميلُ بكف قاطِفِه ، وَيغرى بالوصفِ لسان وَاصِفه .

« وَفيها الرُّمّانُ الذى هو طعامٌ وَشرابٌ ، وبه شبِّهت نُهودُ الـكعاب ، ومن فضله أنه لا نَوى له فيرمى نواه ، ولا يخرُج اللـؤلؤ والمرجان من فاكهة سِواه .

« وفيهـا التِّين الذى أقسم اللهُ به تنويهاً بذكره ، واستَتر آدم — عليه السّلامُ — بورقه إذ كشفَت المعصيةُ مِنْ ستره ، وخُصّ بطول الأعناق ، فما يُرى بها مِن مَيل فهو نشوة من سكْره ، وقد وُصف بأنه راقَ طعمًا ، ونعم جسمًا ، وقيل : هـذا كنيفٌ مُلىء شهداً ، لا كنيفٌ مُلىء علما .

---

(١) نجار الشىء — بكسر النون وضمها — والنجر أيضا — بفتح النون — الأصل .

(٢) النضار الذهب أو الفضة ، والمعنى الأول هو ما يناسب هذا الاستعمال .

(٣) الرند شجر طيب الرائحة ، والعود ، والآس .

« وَفيهـا من ثمراتِ النّخيل ما يُزهى بلونه وشـكله ، ويَشغلُ بلذّة منظره عن لذّة أكله ، وَهو الذى فضلَ ذوات الأفنان بعُرجُونه ، ولا تمـاثل بَينهُ وبين الحـلواء : « هَذَا خلْقُ الله فأرُونى مَاذا خلقَ الذين منْ دُونه »[1].

« وفيها غيرُ ذلك من أشـكال الفاكهة وَأصنافِها ، وَكلها معدود من أوْساطها لا منْ أطرافها .

« وَلقدْ دخلتها فاستهْوَتنى حَسَداً ، وَلم ألمْ صاحبها على قوله : « لنْ تبيدَ هذه أبداً »[2].

فهذا الوصفُ على هذه الصورة يسمَّى (إطناباً) لأنه لم يعرَ عن فائدة .

وَذاك الأوّل هو (الإيجـازُ) لأنه اشـتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهـة .

وأما (التّطويل) : فهو أن تعدّ الأصناف المذكورة تعداداً من غير وصف لطيفٍ ، ولا نعت رائقٍ ، فيقَالُ : مِشمش ، وتفاح ، وَعنب ، وَرمان ، ونخل ، وكذا ، وكذا .

وانظر أيُّها المتأمل إلى ما أشرتُ إليه من هذه الأقسام الثلاثة فى الإيجاز والإطناب والتّطويل ، وقسْ عليها ما يأتى منها .

وسأَزيدُ ذلك بيانًا بمثالٍ آخر ، فأَقول :

---

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

(٢) مأخوذ من قوله تعالى : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً » سورة الكهف : الآية ٣٥ .

قد وردَ في باب (الإيجاز) كتابٌ كتبه طاهرُ بنُ الحُسين إلى المأمون — رحمه اللهُ تعالى — يخبره بهزيمة [عليّ بن] [1] عيسى ابن ماهانَ وقتْله إيّاه ، وهو : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ورأسُ [علي ابن] [1] عيسى بن ماهَان بينَ يديّ ، وخاتمهُ في يدي ، وعسكرُهُ مُصرَّفٌ تحت أمْري ، والسلام » .

وهذا كتاب جامعٌ للمعنى ، شديدُ الاختصار .

وإذ كتبَ ما هُو في معناه على وجه (الإطناب) قيل فيه ما أذكرُه ، وهو ما أنشأتُه مثالاً في هذا الموضع ، ليعْلم به الفرقُ بينَ الإيجاز والإطناب ، وَهو :

« أصدرَ كتابه هذا ؛ وقد نُصر بالفِئة القليلة على الفِئة الكثيرة ؛ وانقلب باليد الملأى والعين القريرَة ؛ وكَان انتصارُه بجدِّأمير المؤمنينَ لا بحدّ نصله ؛ والجَدَّ أغنى من الجيش وإن كثُرتْ أمدادُ خَيْله ورَجله ؛ وجيء برأس [عليْ بن] [1] عيسى بن ماهَان وهو على جَسَدٍ غير جَسَده ؛ وَليس

---

(١) زيادة ليست في الأصل ، وكان على بن عيسى بن ماهان هو والفضل بن الربيع من رجال الأمين ، وكان على بن عيسى صاحب أمره كله ، وعقد له في سنة ١٩٥ على كور الجبل كلها : نهاوند وهمذان وقم وأصفهان ، حربها وخراجها ، وقد شخص في هذه السنة إلى حرب المأمون ، حتى بلغ الري ، فلقيه طاهر بن الحسين ، واستمر القتال بينهما إلى أن قتل على سنة ١٩٥ . وقد سبق إيراد هذا الكتاب قبل ذلك في هذا القسم الثاني .

لهُ قدمٌ فيقال : إنه يسعى بقدمه ، وَلا يد ؛ فيقال : إنّه يبطشُ بيَده ، وَلقد طالَ وَطوله مُـؤذنٌ بقِصرشـانه ، وحَسدَت الضياعُ الطير على مكانها منه وهُو غيرُ محســـود على مكانه ؛ وأُحْضِرَ خاتمه وهو الخاتمُ الذى كان الأمرُ يجرى على نَقش أسْـطَره ؛ وكان يرجُو أن يصدُر كتابُ الفتح بختمه فحالَ وُرُودُ المنيةِ دونَ مصْـدَره ، وَكذلك البغىُ مرْتعُه وَبيل ، وَمصرعُه جليل ، وسـيفهُ وإن مَضى فإنه عند الضربِ كليل ، وقد نطق الفـأْلُ بأَنَّ الخـاتمَ والرَّأسُ مشـيران بالحصُول على خاتم المُلكِ ورأسِه ، وهذا الفتحُ أساسٌ لما يُسْتَقبلُ بناؤه ولا يستقرّ البناء إلا على أساسـه ، والعساكر التى كانت على أمير المؤمنينَ حرباً صارتْ له سَـلما ، وأعطته البَيعةَ علماً بفضـله وليسَ مِنْ تابع تقليداً كمن هو تابعٌ علما ، وهم الآنـ مُصرَّفون تحت الأوامر ، مُمْتحنونَ بكشـفِ السَّرائر ، مطيفون باللواء الذى خصّه اللهُ باستفتاح المقالدِ ، واسْـتيطَاءَ المنابر ، وكما سَرتْ خطوات القلم فى أثناء هذا القرطاس ، فـكذلك سرَتْ طلائعُ الرُّعب قبل الطـَّلائع فى قلوب الناس ، وليس فى البلادِ ما يغلقُ بمشيئة الله باباً ، ولا يحجُر نقاباً ، وعلى الله إتمـامُ النِّـعم التى افتـَتحها ، وإجابةُ أمير المؤمنين إلى مُقترحاته التى اقـترحها ، والسَّـلام » .

وهذا الـكتابُ يشتملُ على ما اشتملَ عليه كتابُ طاهر بن الحُسَـيْن منْ المعنى ، إلاَّ أنه فصَّل ذلك الإجمال .

ولو كتبتُ على وجْـه (التَّـطْويل) الذى لا فائدَة فيه لقيل : « أصدر كـتابهُ فى يوم كذا من شهر كـذا ، والتقى عسكرُ أمير المؤمنينَ وعسكرُ عدوِّه الباغى .

وتطاعَـن الفريقَانِ ، وَتزاحفَ الجمعان ؛ وحمى القتال ، واشتَـد النِّزال ،

وترادفت الكتائبُ وتلاحقتْ المقانِب[1] وقتل [على بنُ] عيسى بن ماهان واحتُزّ رأسُه وقُطع ، ونُزع الخاتمُ من يده وخُلع ، وترك جسدُه طعامًا للطيور والسِّباع ، والذئابِ والضباع ، وانجلت الوقعةُ عن غلب أمير المؤمنين ونصْره ، وخذْلان عدِّوه وقهره ، والسلام » .

فهذا الكتابُ يشتملُ على تطويلٍ لا فائدة فيه ، لأنه كرر فيه مَعانى يتمُّ الغرضُ بدونها ، وذكَرَ مالا حاجة إليه فى الإعْلام بالواقِعة .

فانظر إلى هذه الكتب الثلاثة ، وتأملها كما تأمّلْت الذى تقدّمها .

وبعدَ ذلك إنى أوردُ لك كتاباً وتقليداً يُوضّحان لك فائدة الإطناب ، أما الكتابُ فإنه كتابٌ كتبته عن الملك النّاصر صلاح الدين يوسُف ابن أيوب — رحمه الله — إلى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتْح البيت المقدّس، واستنقاذَه من أيدى الكفار ، وذلك فى معَارضة كتابٍ كتبه عبدُ الرّحيم ابنُ علىٍّ البيْسانى[2] عنه ، وكان الفَتْحُ فى السّابع والعشرين من شهر رجب من سنةٍ ثلاث وثمانين وخمسمائةٍ .

« خلّد اللهُ سلطانَ الدّيوان العزيز النّبوى ، وجعل أيام دولتَهُ أترابًا ، ومناقب مجدها هِضاباً ، وزادها على مرُور الأيام شباباً ، وأوْسعها توْشيةً

---

(١) المقانب جمع مقنب — على زنة منبر — جماعة الخيل مابين الثلاثين إلى الأربعين . أو زهاء ثلثمائة .

(٢) هو القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى اللخمى ، ولد بعسقلان ، ونشأ ببلاد فلسطين ، حيث ألم بالعربية والأدب ، ثم كتب فى الإسكندرية فى دواوينها حتى ظهر فضله ، فنقل إلى القاهرة زمن العاضد ، ولما استولى صلاح الدين على مصر كان بمنزلة وزير له ، ووزر بعده لابنه العزيز ، وتوفى سنة ٥٩٦ ه .

وإذهاباً ، إذا أوسع غيرها تلاشياً وذهاباً ، ومنحها فى الدنيا والآخرة عطاء وفاقاً لا عطاء حساباً ، ومثل جدودها فى عيون الأعداء شيئاً عجاباً ، وأراهم منها وراءهم فى اليقظة إرهاباً وإرعاباً ، وفى المنام إبلاً صعاباً تقود خيلًا عراباً ، لو جمعت المصورُ فى صعيد واحد لكان هذا العصرُ عليها فاخراً ، وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخراً ، وليس ذلك إلا لحظوته بالدولة الناصرية التى كستهُ خبراً ، وقلدته دُرراً ، ودوّنت له من المحامد سيراً ، وجعلت فى كلِّ ناحيةٍ من وجهه شمساً وقمراً .

« وقيّض الله لها من الخادم وليًّا يوصلُ يومَهُ فى طاعتها بأمسه ؛ ولا يُرى إلا ومن نفسه فى خدمتها رقيبٌ على نفسه ، وطالما سعى بين يديها بمساع تغصّ بأخبارها محافل القوم ؛ ويقال له فيها : ماضرّك ماصنعتَ بعد اليوم ، وقد سلفتْ منها آيات تمايلُ فى أشباهها وأضرابها ، واستؤنفَ لها الآن واحدةٌ تُدعى بأمِّ كتابها . وهى فتحُ البيتِ المقدّس الذى تفتّحت له أبوابُ السماء وكُثِّرت بأحاديثِ مجده كواكبُ الظلماء . واستردّ حقّ الإسلام . وطالما سَعَتِ الهممُ فى طلبه بالزّاد والماء . ومنْ أحسن ما أتى به أنه آنس قبلته الثانية بقبلته الأولى . وأطال منه كل ماقصّرته يدُ الكفر وكانت هى الطّولى . وبه صحّ لهذا البيتِ معنى اسمه . وانتقل إلى الطّهارةِ ونزاهتها عن الرجْس ووضمِه . ولم يَجُزْهُ الخادمُ حتى طوى ما حوله من البلاد المنجدةِ والغائرة . وكان مركزاً لدائرتها . فغادرهُ وهو طرفٌ من أطراف الدّائرة . ولما شارفَه نظر منه إلى ظُلّةٍ من الظُّلل . ورأى بلداً قد استقرّ على مَتن الجبل مثلَ الجبل . ويطيفُ به وادٍ يستهزىء عِصْمته بنوب الدّهر . وقد انعطف على جوانبه انعطافَ الحبْوَة على الظهرْ (١) . والمسالكُ إليه مع ذلك ذاتُ تعاريج ومعارجَ

(١) يقال : احتبى بالثوب اشتمل ، أو جمع ظهره وساقيه بعمامة ونحوها والاسم الحبوة بفتح الحاء وكسرها .

وهى ضيِّقةٌ مُسْتَوْعِرةٌ يطلَقُ عليها اسمُ الطُّرُق ولا يطلقُ عليها اسمُ المناهِج . فلما رآهُ قال : هذا أُمْنِيَةٌ لمن يرَى . وعِلِمَ حينئذٍ أن كلّ الصيد فى جَوْفِ الفَرَا [1] إلاَّ أن لسانَ حاله خاطبه وهو أفصحُ الخِطاب . وقال : امدُدْ يدكَ فليسَ دُونها من حِجاب .

«وكان قد برز من السِّلاح فى لباسٍ رائعٍ من المنعَة . وَأَخْرَجَ من السوادِ الأعظمِ ما خَدعَ العيونَ . والحربُ خُدْعَة . وما يمنعُ رقابَ البلادِ بكثرة السّواد . وَلا يحمى بعوالى الأسْوار بل بعوالى الصِّعاد . وَفى يوم كذا وَكذا خيّم المسلمونَ فى عُقْر داره . ونزلوا منه نزول الجار إلى جانب جاره . ثم ارتادوا موقفاً للقتال . وإن لم يكنْ هناكَ موقف يقرُب مناله . وَلا يتّسِـعُ مجاله . وَاتَّفقَ الرَّأْىُ على لسَان المنْجَنِيق فى خطبةٍ عقيليّةٍ . أبلغ خطاباً . وأدنى من المطلوبِ طِلَاباً . وَأنه إذا ضرَبَ بعصاه الحجرَ انبجَسَتْ عيونُ أهله دِماءً . كما انبجَسَتْ عيون الحجر ماءً .

« هذا وَالعزائمُ تنظرُ إلى هذا الرَّأْىِ نظر المسْتَجْهِل . وَتصدُّ عنه صدودَ المسْتَعْجِل . وتقولُ : ما بارْتِيادِ السهل تُمْلَكُ الصِّعاب . وَمن ابْتَغى السيفَ صَرْحاً لم ينْأَ عنه بلوغُ الأسبابِ . وَالحديدُ لا يُفْلَحُ إلّا بالحديد . والرُكْنُ الشديدُ لا يُصْدَمُ إلا برُكنٍ شديد . فعندها صَمَّمَ الخادمُ أن يلقى البلدَ مواثباً

---

(١) قال ابن السكيت : الفرا الحمار الوحشى ، وجمعه فراء ، قالوا : وأصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين ، فاصطاد أحدهم أرنبا . والآخر ظبيا ، والثالث حماراً . فاستبشر صاحب الظبى بما نالا ، وتطاولا عليه ، فقال الثالث : «كل الصيد فى جوف الفرا» أى : هذا الذى رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما ، وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشى ، ولاستعمال المثل بقية — انظر أمثال الميدانى ٢ / ٨٢ .

لا مواربًا . وأن يجعل للزّحف جانبًا وللمَنْجَنيق جانبًا . ونَوَى أن يبْدِىَ صفحة وجهه أمامَ الناس . وتأسّى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاتّقاء به إذا اشتدّ البأس ، وَلا شك أن قلوبَ الجيوشِ بمنزلة قلوبها . وأن النَّفاذ لأسنَّة الرِّماح لا لكعوبها . وَلا يشتفى من الوَغى إلا مَنْ كان طِرْفُه أمام طَرْفه . ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه .

« ولما وقع الزَّحفُ صُورِعَ البلد صراعًا ، بعد أن قُورِعَ قِراعًا ؛ ثمّ هزَّ هزَّةً طوته بيمينها . ونشرَته بشمالها . وأذاقته العذابَ الأدنى دون العذابِ الأكبر من نَكالها . وبدون ذلك يكونُ عَرْكُ أديمِهِ . وعطفُ شكيمِهِ . ولم يكن قتاله بالسِّهام التى غايتها أن تصفّ أجنحتها للمطار . وَتنال بكلومها من فوق الأسوار . بل بالسُّيوف الّتى إذا جالدتْ بلداً أخذتْ بكظمِهِ وتوغَّلت فى هَجْمه . وأغنَتْ بسُرْعة خطواتها إليه عن المنجنيق وإبطاء هَدْمِه . والسيفُ ليسَ بمُرتوٍ من النفس التى تظلُّ طائشة عند لقائها . جائشةً عند استيفائها . فالقلوبُ توصَفُ بأنها تجيش إذا كانتْ أعْداداً . وَالنفوس لا تجيش إلا إذا كانت ثماداً . وَما يستوى وجوه الأقران فى إقدامها وَإحْجامها . فمنْها المظلم إذا رابها الرّوْع بإشراقها . ومنها المشرقُ إذا شابها الرّوْعُ بإظلامها . وَكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحْظَى بلباس الإشراق . وَأتمّ أبدُراً . وَالبدورُ لا يكونُ تمامُها فى المحاق . فما منهم إلا مَنْ عرض نفسهُ ليوم العرض . وَمشى إلى جنةٍ عرضُها السموات وَالأرضُ . حتى اتّسع المكرُّ . وضاقَ بأعداء الله المقرُّ ، وحرقَتْ أوعارُ الخنادِق ، وصار الرّجاء لمنطقة السُّور كالمناطق ، ولم يستشهد منهم إلا عددٌ يسيرٌ ، لا تدخله لامُ التعريف ، وكانتْ أجنحةُ الملائكةِ مطيفةً بهم ، فأكرِمْ بالمطافِ به وبالمُطيف .

« وقد أسعد اللهُ أولئك بالشهادةِ التى هى الفوزُ الأكبر ، وقرنَها بإدناء

مضاجعهم من الأرض المقدّسة التى هى أرض المحشر ، فما يسرّهُم أن يعودُوا إلى الدّنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهادِ . وأيسرُ ذلك أن أروَاحَهُمْ فى حواصِل طيرٍ خُضْرٍ تعلَّق من ثمار الجنة إلى يوم المعَاد .

« ولما رأى الكفارَ أن صليبَهم قد صار خواراً ، وأن زئيرَهم قد انقلبَ خَواراً ، أذعنَت أيديهم باستِسْلامها ، وصانعتْ بالمال عن الرِّقاب واسْتِرْقاقِها ، وبالبلدِ عن النفوس وحِمامِها ، فأَبَى السيفُ أن يترك رقاباً تغـذَّى بأ كالها . ويحلّ من عشقها على مُدَاومة وَصْلها .

« وذكر الخادمُ أن سلَفَ هؤلاء انتزَعَ هذا البلدَ قَسْراً ، وفتك بمن كان به من المسلمين غَدْراً ، وذلك ثأرٌ ذخَرهُ الله لك حتى تحظى فى الآخرةِ بثوابه ، وتتجمَّل فى الدّنيا بزينة أثوابه ، والمسْلِمُ أَخُو المُسْلِم يأخذُ بدمه ، وإن تطاولَتْ أمدادُ السِّنين على قدمِه ، فيابُعْدَ عهدِ هذا الثأر من ثائره ، ويا طِيب خبره عند سامعِهِ ، وَحُسْن أثره عند ناظره .

« ولما تحقق العزْمُ عَلَى ذلك أشار ذَوُو الرَّأْى بقبول الفِدْية المبذولة ، وَألاَّ يحمل العـدوّ عَلَى ماليسَتْ نفسه عليه بمحمُولة ، فإن النقَد[1] إذا أُخْرِجَ صار ذا أنيابٍ وأظفار ، وَاستضْرَى حتَّى يلتحقَ بالسِّباع الضوار . وهؤلاء إذا رأَوْا عينَ القتل تجرّدُوا للقتالِ ، وركبوا الأهوالَ للنّجَاةِ من الأهوالِ . وَمَنْ يُدْعَ إلى خِطَّةِ رُشد فليقبلْها . ومَن أنشط له عقل الأمور فلا يعقِلْها . وَعلى كل حالٍ فإن الفدية للمسْلمينَ أرغب . وأموالٌ يُتَقَوّى بها على العدوِّ خيرٌ من دماء تذهب .

« هذا وبالبلدِ من أُسارَى المسلمينَ مَنْ حياةُ أحدهم بحياةِ كل نفْس ،

---

(١) النقد بالتحريك جنس من الغنم .

ومن حُرْمتُه عند اللهِ خيرٌ مما طلعَتْ عليه الشَّمس ، ولا يوازى فتحه عنوةً أن يتعدَّى إليهم أضْرَارُه ، ولا شك أنهمْ يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطارُه .

« فرأى الخادمُ عند ذلك أن الرأىَ مشتركٌ ، وَأنَّ له مُعتركاً كما أنَّ السَّيف له مُعترك ، وتقرَّر تَسْليمُ البلدِ وَدموعُ أهله قد خضبتْ أحداقَها ، وأقرَحَتْ آماقها (١) ولم تطبْ أنفسُهم بفراق قمامه حتىّ كادت الهامُ تفارق أعناقَها ، فعلى حبِّ ذلك التُّراب تقوم قيامتُهم ، وتشيلُ نعامَتُهم ، وَلطالما ابتهلوا عنده أيام الحِصار ، واستنصرُوه فلم يحْظوْا منه بمعونةِ الانتصار ، وَكيف يرجّى النصرُ من معبود تُقرُّ شيعته بقتله ؟ أمْ كيفَ يدفع عن غَيره من كان هو مبتلى بمثله ! . وَهذه عقولٌ سخيفةٌ نَفذَ فيهاَ كيدُ شيطانها ، وَأخفى عنها محجّةَ الحقِّ على وضوح بيانها .

« ولقد كانَ يومُ التسْليم عريضَ الفخَار ، زائد العمر على عُمْر أبويْهِ من الليل وَالنّهار ، واشتقّ من اسمهِ معنَى السلامة للمسلمين والهلاكِ للكُفّار ، وزاده فخراً إلى فخره أنه وَافق اليومَ المسفر عن ليلة المعراج النبوىِّ الذى كان فى تلك الأرض موعدُه ، ومن صَخْرتها مَصعدُه ، وذلك هو الإسراء الذى ركب إليه ظهرُ البراق (٢) وَاستفتح له أبواب السَّبع الطباق ؛ وَلقى فيه الأنبياءَ على إختلاف درجاتهم ؛ فظفرَ خيرُ ملقىٍّ بخير لاقٍ . وبركةُ ذلك اليوم سَرَتْ إلى هذا فأطالت من شُهرته ؛ وضمِنَتْه نصرةُ الدِّين الحنيفِ الذى

---

(١) جمع مأق ومؤق طرف العين مما يلى الأنف ، وهومجرى الدمع من العين ، أو مقدمها أو مؤخرها .

(٢) البراق دابة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، قال صاحب القاموس (٣ / ٢١٢) وكانت دون البغل وفوق الحمار .

لله عناية بنصرته ؛ وجعلته تاريخاً يؤرَّخُ بفتحه كما أرِّخ للنبي صلى الله عليه وسلم بدار هجْرته ؛ وإذا أنصف واصفه قال إنه لليوم البدْرىّ فى اقتراب النسب ؛ وإنه العجيبة التى لم تحفلْ عنها الأيامُ فى صفر وإنما أجفلتْ عنها رجب. فما أكثرَ الفائز فيه والمغبون ؛ والمسرُور والمحزون ؛ فمن جد راكبٍ ؛ ومنّ جدٍّ راجل ؛ ومن عزِّ قادم وذلّ راحل.

« ولطالما جدّ الخادمُ فى السعى له وأبصارُ العِدا تزلقه ، وألسنتهم تسلقه . وما منهم إلا مَنْ أكثر الشّناعة بأن ذلك السعى للاستكثار مِن البلاد ، والله يعلم أنه لم يكن إلا للاستكثار من موارد الجهاد . لاجرمَ أن صدقَ النِّية كان له عُقْبى الدار ، وتلك الأقوال الكاذبة كان لها عُقْبى البوار . وَيوم هذا الفتح يفتقرُ قبله الى أيامٍ تجلو بياضه عن سوادها ، ويلقحُ لها بطون المساعى حتى يكون هو نتيجة ميلادها ، ولما ظَفرَ به الخادم لم يكنْ لأهل النجامة [(1)] ، فيه قولٌ يردُّ كذابُه ، وَلا يقبلُ صوابه ، والشهبُ الطالعة عَلَى ذوات السروج أصدقُ نبأً من الشهب الطالعةِ من ذواتِ البروج ؛ على أنهمَا وإن اتفّقا رَجماً فإنهما يختلفان علماً ، فعلمُ هذه يُسألْ عنه ثغر الأعناقِ ؛ وعلم هذه يُسأل عنه بطونُ الأوراق .

« ولما دخل البلدَ وجد به أُمَّما لولا أن ضُربت عليهمُ الذلّة لدافعوا المنايا مكاثَرَة ؛ وغالبوا السيوف مصابرة ، وهم طوائفُ مختلفوا الألسنةِ والألوان ؛ وإن قيل إنهم أناسىّ فإن صورَهم صورُ الجانّ ؛ ومنهم طائفةٌ استشعرتْ حبسَ نفوسها ؛ وخصت الشّعر عن أوساط رُءوسها ؛ وتوحّشت بالرّهبانية حتى ارتاعت العيونُ من أشكالها ولبوسها .

---

(1) النجامة عمل المنجم والمتنجم والنجام من ينظر فى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها .

« ولما رأوا طلعة الإسلام داخلةً عليهم أعانوا بالجؤار[1] ، واصطرخوا جميعًا كما يصطرخون غداً فى النار ؛ وزادهم غيظًا إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمةً وقد صارَ الناقوسُ أذانًا ؛ وكلمةَ الكفر إيمانًا ؛ وأُقيمت الجُمعة ، وهى أوّلُ جمعة حَظِيَ الأقصى بمشهدها ؛ وحضرتها الأمةُ الإسلاميةُ بأحمرها وأسودها ، فمن باكٍ بدمعةِ سرُوره الباردةِ ، ومن مجيلٍ نظرَه فى نعمة الله الواردة ، ومن شاكر للزّمن الذى أبقاهُ إلى يومه هذا الذى كلُّ الأيام له حاسدَة ، منْ كان مولدُه تقدّم قبله أو بعده فكأنه لم يولد ، وكانت هذه الجمعةُ فى رابع شعبان ، وهو الشهرُ الذى جعله اللهُ طليعةً لشهر الصيّام ؛ وليلةُ نصفه هى الليلةُ المعروفةُ بإحياء قيامها إلى حين وفاة شخص الظلام . والتى يُغْفَرُ فيها لأكثر من شعر غنم كلبٍ من ذوى الذنوبِ والآثام .

« وَجِىءَ باللّواءِ الأسْود ، فرُكزَ من المِنْبر فى أعلاه . ونطقَ لسانُ حاله . فقال : من كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مولاهُ فأنا مولاه . ولم يكن لسانُ الخطيبِ بأفصحَ بيانًا من لسانه . غير أنّ هذا يُزْهَى ببلاغ موعظته وهذا يزهى بعزّة سُلطانه . ولما ذُكِرتْ سماتُ الخلافةِ المعظمة أتبعَها الناسُ بالدعاء الذى ملأ المسجد بعجيجه . وسبقَ الكرامُ الكاتبون بزَميله إلى السماء ووشيجه . وكان اليومُ فصلاً . والموقف حفلاً . وذلك الدعاء فرضًا لا نفْلاً .

« ولاينتهى الوصفُ إلا ما شوهِدَ بالبلدِ من الآثارِ العجيبة التى تستلبثُ العجْلان . وتستحلبُ الأذهان . وتستنطقُ الألسنة بالتسبيح لله الذى فطر الإنسان ومن جملة ذلكَ ما تُبُوهى فى حُسنه من البيع والصوّامع. ذواتِ الأبنية الرّوائع . التى رُوِّضَتْ بالزّخارف ترويض الأزهار . ورُفعت معاقدُها حتّى

(١) الجؤار رفع الصوت بالدعاء ، والتضرع ، والاستغاثة .

كادتْ النجومُ تُوحِي إليها بالأسرار ، وما منها إلا ما يقال إنه إرَمُ ذاتً العماد . التى لم يُخلَقْ مثلُها فى البلاد . ولقد ألانَ اللهُ لهُم الحجارة حتّى تخيروا فى توسيعها بضرُوب الاختيار . وجعلوها أعاجيب للأسماع والأبصار . وقبل فيها هذه روْضاتُ جنان لا أفنِيَة ديار .

هذا إلى غيره مما وُجدَ من معبودات القوم الموصوفة بأنها آلهةُ الصُّابِ . اللاتى من ذوات النصْب . وأ كثرُ ذلك وُجد فى المسجد موضوعاً . وعلى قبَّتِه مرفوعًا . فأنزِلَتْ على قرونها . واستنَّ بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طعن عيونها واستوطن المؤمنُ مكان الـكَفور . وبدِّلت الظلماتُ بالنور . وقالت الصخرة : الآن جُمِـعَ بينى وبينَ الحجر الأسودِ لخاطبِ الإسلام . والجمع بيْنَ الأختَين فى هذا الأمر من الحلال لا من الحرام : وقال الأقصَى : سبحان الَّذى أسْرَى إلىّ بجنده . كما أسْرَى بعبده . وأعاد لى عهود الفتح الأوّل بهذا الفتح الذى أتى من بعده . وعوْد الذاهبِ أرْجى لِدَوامِ أحقابه . وخلودُ الإنسانِ لا يكونُ إلا فى مآبه . وهذا هو الخطبُ الذى جدَّد للإسلام عُهودَ ابن خطّابه(١) — رضى الله عنه — إلا أن مُسْتَنقذَ الطّريدة أوْلى بها منْ صاحِبها . ولئن غصبتْها يدٌ غالبةٌ فقد جاءَ الله باليد التى غصبتْها من غاصِبها .

« هذا ولم يستنقِذها الخادمَ إلا بإنضاء سلاح أنفته الوقعة الأولى التى استأصلَتْ حُماة البلاد . واستباحَتْ أغْيالها بقتل الأسادِ . فـكانت لهذا الفتح عنواناً . ولتقرير أُصوله بنيانًا . ولمْ ينجّ بها من طواغيتِ الـكفر إلا طاغية ترابلس . فإنَّ السيوفَ أسْأَرَتْهُ وبفؤاده فاقٌ من أوْجالها . وفى عينيه دهَشٌ من أهْوالها . وقد قرن الله هذا الفتحَ ببشرى مَوْته . وكفى المسلمين مَئُونة الاهتمام لفوْتِهِ . ففرَّ من الوقعة . ولم ينجُ بذلك الفِرار . واعتصمَ بذات

(١) يشير إلى فتوح المسلمين فى خلافة عمر الخطاب رضى الله عنه .

جداره . فقتلهُ الخوفُ من وراء الجِدار . ولا فرق بين قتيل خوف السّفار وبينَ قتيل الشِّفار . ولقد فرّ من المكروه إلى مثله . ولكنه انتقل من ميتةِ عِزّه إلى مِيتَة ذلِّه .

« وكذلك آثارُ الخادم فى أعداء الله . فهُم هَلْكى بسيفه فى مواقف الطِّراد . فإن فرُّوا فبخوفهِ على جنوب الوِسَادِ . وبعد هذه فهل يمترون فى أن دِماءهم قد استجابت لمراده وأنَّ سواءٌ لديه مَنْ أمكنَ منها فى دُنوّه وَمن امتنع مِنْها فى بعادِه . وكلُّ ذلك مستمدٌّ من الاستنصار بعناية الدِّيوان العزيز التى من شأنها أن تجعل الرؤيا حقًا ، وأحاديث الآمالِ صِدْقًا ، وتقرِّبُ بعيداتِ الأمور حتَّى تجعل الشرقَ غرباوالغرب شَرْقًا ،فهذاالفتح منسوبٌ إليها،وإن كانَ الخَادِمُ هو السّاعى فى تسهيله ، والمجاهد بنفسه وماله فى سبيله ، فعلى عطف دولتها ترقمُ أعلامُه ، وفى أيَّامهَا تؤرّخُ أيامُه .

« وَلو أبيح للقلم الخُيَلاءُ فى مقام المقَال ، كما أبيح لصاحبه فى مقام القتال ، لاختالتْ مِشْيَتُه فى هذا الكتاب ؛ وَلقال ، وأسْهب ، فليس الإِكثارُ هاهنا من الإِسْهاب ، لكنّه منعهُ من ذلك أن يكون ممن فخَرَ بعمله فأبطله ، وأرسل خِطابَه إلى الدِّيوانِ العزيز ؛ فلم يقبضْه بالأدبِ حين أرْسَله ؛ وقد ارتادَ من يبلِّغ عنه مشاريحَ هذه الوقائع التى اخْتَصَرها ، ويمثِّل صورها لمن غاب عنها كما تمثّلتْ لمن حضرَها ؛ ويكون مكانُه من النّباهة كريمًا كمكانها ؛ وهىَ عَرائسُ المساعِى ؛ فأحْسنُ الناس بيانًا مُؤَهّلٌ لإِبداعِ حِسَانها ؛ والسائر بها فلانٌ وهو راوى أخبار نصْرهَا التى صحبها فى تجريح الرِّجال ، وَعوالى إسْنادها مأخوذة من طرق العوال ، وَالأيام وَالليالى رُوَاة ؛ فمَا الظنُّ برواية الأيام واللّيالى ؟ .

وسَتتلو هذه الأخبارَ الصّادقة بمشيئة الله أخبارٌ مثلُها صادقة ، وما

دامت السّيوف ناطقةً فى يد الخَادِم فالأَلسنةُ عنها ناطقة ، وللآراء العالية مزيدُ العلوّ إن شاء اللهُ تعالى .

***

وأما التقليد ، فانه تقليد أنشأته لمنصب الحسبة ، وهو :

« أما بعد ، فقد جعَل الله جزاء التمكين فى أرْضه أنْ يقامَ بحدود فرضه ، ونحن نسأله التوفيقَ لهذا الأمر الذى ثَقَل حمله ؛ وعُدِمَ أهله ، فقد جىء بنا فى زمن أصبحَ الناسُ فيه سُدًى ، وعادَ الإسلامُ فيه غريبًا كما بدا . وهو الزمنُ الذى كثرتْ فيه أشراط[1] اليوم الأخير ؛ وغُرْبِلَتْ فيه الأمَّة حتّى لم يبق إلا حُثالة[2] كحُثالةِ التمْر والشعير .

« ومن أهمِّ ما نقرِّر بناءه ؛ ونقدِّم عناءه ؛ ونصلح به الزمنَ وأبناءه ، أن نُمْضى أحكامَ الشريعةِ المطهّرة عَلَى ما قرّرْته فى تعريف ما عرّفْته ، وتنكير ما نكّرَته ومدارُ ذلك على النظر فى أمرِ الحِسبة التى تتنزَّلُ منه بمنزلة السِّلك من العِقد ، والكَفِّ من الزّند . وقد أخلصْنا النيَّة فى ارتياد مَنْ يقومُ فيها ويكفيها ؛ وَيُصطفَى لها ولا يصطفيها ؛ وهو أنت أيها الشيخ الأجلّ « فلان » ، أحسنَ الله لك الأثر ؛ وصدّق فيك النظر ، فتوَلها غير موكولٍ إليها ؛ بل مُعانًا عليها .

« واعلم أن الناس قد أماتوا سُننًا وأحيَوْا بدعا ، وتفرّقوا فيما أحْدَثوه من المحدثات شِيعًا ؛ وأظلمُ منهم مَنْ أقرّهم على أمرهم ؛ وَلم يأخذْهم بقوارع زَجْرِهم ؛ فإنّ السُّكوتَ عن البدْعة رضًا بمكانها ؛ وترْك النهى عنها

---

(١) الاشراط العلامات .

(٢) الحثالة مالا خير فيه ، والردىء من كل شىء .

كالأمر بإتيانها . ولم يأتِ بنا الله تعالى الا ليُعيدَ الدين قائمًا على أصوله صادعًا بحكم الله فيه وحُكم رسوله .

« ونحنُ نأمرُك أن تتصفَّح أحوالَ الناس فى أمر دينهم الذى هو عِصمةُ مالهمْ . وأمر معاشهم الذى يتميز به حرامُهم من حلالهِم . فابدأْ أوّلاً بالنظر فى العقائد ، وَاهد فيهـا الى سبيل الفرقةِ الناجية (١) الذى هو سبيلٌ واحدٌ ، وتلك الفِرْقةُ هى السَّلفُ الصالح الذين لزموا مواطنَ الحقّ فأقاموا ، وقالوا : ربُّنا الله ثمّ استقامُوا . ومَن عداهم شُعبٌ دانوا أديانًا . وعبدُوا من الأهواء أوثانًا ، واتّبعوا مالمْ يُنزِّلْ به الله سلطانًا (وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لحنِ الْقَوْلِ واللهُ يَعْلَمُ أعْمَالَكُمْ) (٢) فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفةٍ فاقتُله ولا تسمعْ له قولًا ، ولا تقبلْ منه صَرْفًا ولا عدلًا ، وليكُنْ قتله على رءوس الأشهاد ، مابينَ حاضرٍ وباد ، فما تكدَّرت الشّرائعُ بمثل مقالته ، ولا تدنّست علومها بمثل أثر جَهالته والمنتمِى إليها يعرَفُ بِنُكرِه ، ويُستدلُّ عليه بظلمةِ كفره ، وتلك ظلمةٌ تدركُ بالقلوب لا بالأبصار ، وتظهرُ زيادتها ونقصها بحسب ماعندَ رائيها من الأنوار ، وما تجدُه من كتبها التى هى سمومٌ ناقعة ، لا علومٌ نافعة ؛ وأفاعٍ مُلففة ، لاأقوالٌ مُؤلّفة ، فاستأصِلْ شأفتها (٣)

---

(١) يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليأتين على أمتى مـا أتى على بنى إسرائيل ، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، تزيد عليهم ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يارسول الله من الملة الواحدة ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى . وفى هذا الحديث روايات ، والملة الواحدة هى الفرقة الناجية .

(٢) سورة محمد : الآية ٣٠ .

(٣) الشأفة الأصل ، واستأصل الله شأفته أذهبه ، وأزاله من أصله.

بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ، ولا يقنِعْك ذلك حتى تجتهدَ فى تتبُّع آثارها ، والكشفِ عن مكامن أسرارها . فمَنْ وُجدتْ فى بيته فليُؤخذ جهاراً ، وليُنَكَّلْ به إشهاراً ، وليقل هذا جزاء من استكبر استكباراً ، ولمْ يرجُ لِله وقاراً .

« وأما من تحدَّثَ فى القدَر ، وقال فيه بمخالفة نصِّ الخبر ، فليس فى شىء من ربقَةِ الإسلام ، وإن تنسَّكَ بمُداومة الصلاة والصِّيام ، قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « القدريَّةُ مجوسُ هذه الأمَّة » . والمرادُ بذلك أنهم ماثلوا بين الله والعبد ، والضياء والظُّلمة .فعلاجُ هذه الطائفة أن تُجْزى بأن تُخْزى ، فليقابلْ جمعُها بالتكسير ، واسمها بالتَّصغير ، ولتنُقْل إلى ثقل الحدود عن خفة التَّعزِيز ومَن كان منها ذا مكانةٍ نابهةٍ فليهبط ، أو شهادةٍ عادلةٍ فليسقط :

« وكذلك يجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتَّجسيم ، أو قال بحدوثِ القرآن القديم ، ومن مُلحدى القرآن فرقةٌ فرّقت بين المعنى والخط ، وفرقةٌ قالت فيه بالشكل والنقط ، وكلُّ هؤلاء قومٌ خَبُثَتْ سرائرُهم ، وعمِيَتْ بصائرُهم ، وعظمت عند الله جرائمهم ، تُخذهم بالتوبة التى تطهِّر أهلها ، وتجبُّ ما قبلها ، وليست التوبة عبارةً عن ذكرى اللِّسان ، والقلبُ لاهٍ فى قبضة النِّسيان ، بل هى عبارةٌ عن الندم على مافات ، واستئناف الإخلاص فيما هو آتٍ ، وقد جعل الله التائبَ من أحبابه ، وَوَصَفه فى مواضع كثيرةٍ من كتابه ، ومن فضله أنَّ الملائكة يستغفرون لذنبه ، ويشفعون له إلى ربِّه ، فإن أبت هذه الطوائفُ إلا أصراراً ، ولمْ يزدهم دعاؤك إلَّا فِراراً ، فاعلم أن الله قد طبعَ على قلوبهم طبعاً ، وألحقهم بالذين كانت أعينهُم فى غِطاء عن ذكره وكانوا لا يستطيعون سمعاً ، تخذْهم عند ذلك بحدِّ الجلد ، فإن لم ينجع فبحدِّ ذوات

الحدِّ ، فإن هذه أمراضُ عمًى لا تُرجى لها الإفاقة ، ولا تُبرىء منها إلَّا الدِّماء المراقة .

« وأما الفرقةُ المدعوّةُ بالرافضةالتي هي لما رَفَعَهُ الله خافضة ، فإنهم أناسٌ ليسَ لهم من الدين إلا اسمه ، ولا من الإسلام إلا رسمه ، وإذا نقِّب عن مذهبهم وُجدَ على العصبية موضوعاً ، ولغير ما شرعه الله وَرسوله مشروعاً ، ذبُّوا عن عليٍّ — رضى الله عنه — فأسلمُوه ، وأخَّروه إذ قدَّموه ، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها ، وَأوَّلوها على ما أوّلوها ، فتبع الآخر منهم الأول على غمَّة ، وقالوا : إنّا وَجَدْنا آباءنا عَلَى أُمَّة .

« وههُنا فيرُ ما ذكرناه من عقائد محلولة ، ومذاهبَ غير منقولةٍ ولا مقبولة ، وبالهدى يتَبين طريقُ الضَّلال ، وبالصحة يظهر أثر الاعتلال ، ولاعقيدةَ إلا عقيدةُ السنة والكتاب ، ولا دين إلا دينُ العجائز والماء والمحراب .

« وإذا فرغنا من الوصية بالأصول التي هي للدِّين ملَاك ، فلْنُتْبِعْها بالفروع التي هي لهُ مِسَاك :

« وأوَّلُ ذلك الصلاة ، وهي في مَبَاني الإسلام الخمس أوكدُ خَمْسِه ، وآخرُ ماوصّى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عند مفارقة نفسِه . ومِن فضلِها أنها العمل الذي ينهى عن الفحشَاء والمنكر ، ولا عذر في تركها لأحدٍ من النَّاس ، فيقال : إنه يُعذَر ، فاجْمع الناس إليها ، واحمِـلْهم عليها ، ومُرْهم بالاجتماع لها في المساجد ، ونادِ فيهم بفضيلةِ صلاة الجماعة عَلَى صلاةِ الواحد ، وَراقبْهم عند أوقات الأذان في الأسواق التي هي معركة الشيطان ، فمن شُـغل بتثمير مكسبه ، ولهـا عنها بالإقبال عَلَى لهوه ولِعبه ، فخذهُ بالآلة العمَرِيَّة التي تضع من قدره ، وتذيقه وبالَ أمره ، وَلا يمنعنْك عن ذي هيبة هيبته ، ولا عن ذي شيبةٍ

شيبته ، فإنما أهلك الّذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ،

« ومن مهمات الصلاة يوم الجمعة الذى هو فى الأيام بمنزلة الأعياد فى الأعوام ، وفيه الساعة المخصوصة بالدّعاء المجاب ، التى ما صادفها عبدٌ إلا ظفرَ بالطّلاّب ، فمرْ الناسَ بابتدَاره فى البواكر ، وَالفوز فيه بقربان البَدَنات [1] الأخاير ، فإنّه اليوم الذى لم تطلع الشمس عَلَى مثله ، وبه فضّل هذا الدّين على أهل الكتابِ من قبله — فهو واسطة عِقد الأيّام السبعة ، ولاشتماله على مجموع فضلها سمِّىَ يومَ الجمعة ، وفى الأعوام مواسم لصلواتٍ مخصوصة كالتّراويح فى شهر رمضان ، والرغائب فى أول جمعة من رجب ، وليلة النصْفِ من شعبان ، فلتملأ المساجد فى هذه المواسم التى تكثر فيها شهاداتُ الأقلام فى كتب الطاعات ، ومحو الآثام ، ومن حَضَرها وليس همّه إلا أن يمرّ بها طُروقا ويواعد إليها أخدانه رفثاً أو فسوقاً ، فهؤلاء هم الخلف الذين أضاعوا الصلاةَ واتّبعوا الشهوات . فابعثْ عليهمْ قوماً يسلبونهم سلباً ؛ ويوجعونهم ضرْباً ، ويملئون عيونهم مَهَابةَ وقلوبهم رُعْباً ، فبيوتُ الله مطهَّرةٌ من هذه الأدناس ؛ ولم تعمر لشياطين الإنس ، وإنما عمرتْ للنّاس ، فلا يحضرها إلاّ راكعٌ وساجد أو ذاكر وحامد .

وهاهنا عظيمةٌ عضيهة [2] ؛ وفاحشةٌ ينقّه لها من ليست نفسُه بفقيهَة ؛ وهى الرِّبا ؛ فإنه قد كثر أكله ؛ وتظاهر به فاعله ؛ وقال فسّاقُ الفقهاء بتأويله ؛ وتوصّلوا إلى شبهةٍ تحليله ، ولا يتسارعُ إلى ذلك إلاّ مَن أعمى الله قلبه ؛ ومحق كسبه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود ؛

(١) البدنات الاضاحى .

(٢) العضيهة الإفك والبهتان .

حُرِّمت عليهم الشُّحوم فجملوها؛ وباعوها وأكلوا أثمانها » . ونحنُ نأمركَ أن تشمِّر فى هذا الأمر تشميراً يرهبه الناس، ولا تدعْ رباً حتى تضعه وأوّل رباً تضعه ربا العباس[1]؛ فتأديبُ الكبير قاضٍ بتهذيبِ الصغير. والأسوة بالرفيع خلافُ الأسوة بالنظير؛ وَجلَّ مُعاملة الرِّبا تجرى فى سوق الصَّرْف الذى تختلفُ به النقود؛ وتفترض فيه العقود؛ ويخاضُ فى نار نِيرِه إلى النَّار ذاتِ الوقود، وبه قومٌ أوسَعوا عيون الموازين غمزاً، وألْسنتَها همزاً ولمزاً؛ وأصبح الدِّرهم والدِّينارُ عندهم بمنزلة الصنمَيْن: اللاَّتَ والعزَّى؛ ولا يُرى منهم إلا مَن الحرصُ مُفاضٌ على ثيابه. وقد جمعَ بين المعرفة بالحرام والهجوم على ارتكابه. فعدِّل ميل هؤلاء تعديلاً وتحوَّلهم على مرور الأيام تحويلاً، واعلم أنك قد وُلِّيت منْ الكيل والميزان أمرين هلكتْ فيهما الأمم السالفة. فباشرهما بيدك مباشرَة الاختيار وَالاختبار. ولا تقِلْ أهلهما عَثرة فإنَّ الأقلة لا تنتهى عن العِثار. وكلٌّ هؤلاء من سَواد الناس ممن لم يَزكُ غرْسُهُ. ولا فقِهتْ نفسُه وليس همُّهُ إلا فزْجَهُ أو ضِرسَة. فخذهم بآلة التعزير التى هى نزَّاعةٌ للشوى، تدعو مَنْ أدبر وتولى، ومن آثارها أنها ترجُّ أرضَ الرَّأس رَجًّا. وتفرجُ سماءه فرجاً. ويسلك بصاحبه هدْيا ونهجاً. وقد كثُر فى الأسواقِ الخلابةُ والنّجشُ[2]. وَتلقِّى الرُّكبان. وبيعُ الحاضرِ للبادى

---

(١) من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع قوله : « وإن ربا الجاهلية موضوع — أى ساقط لاحساب عليه — وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب » .

(٢) النجش أن تواطىء رجلا إذا أراد بيعا أن تمدحه ، أو أن يزيد الإنسان أن يبيع بياعة فتساومه فيها بثمن كثير . لينظر إليك ناظر فيقع فيها ، أو أن ينفر الناس عن الشىء إلى غيره .

وتنفيق السّلعة باليمين الكذّابة وكلّ هذه من المحظورات التى وردت الأخبارُ النبويَّة ببيانها، والنهى عن تورُّد مكانها. فمَنْ قارف شيئاً منها جاهلًا بتحريمه فقوِّمْه بالتعليم، واهدهِ إلى الصِّراط المستقيم، ومن عرف ما اقترف فأذقْه حرَّ التّأديب، قبل أن يُذاقَ غداً حرّ التّعذيب، وأعْلِمْه أنّ الأرزاق بيدِ الله تعالى لا ينقصُها عجزُ القاعد، ولا يزيدُها حِرصُ الكادح، وقد ينقلبُ الجاهد فيها بصفقةِ الخاسر، والوادعُ بصفقةِ الرابح، ومن سُنة الله تعالى أن يُنَمِّيَ الحلالَ وإن كان يسيراً، ويمحقَ الحرامَ وإن كان كثيراً.

« ومن الناس مَنْ آتاه الله مالا فبثّ فى الأسواق جنودَ ذهَبه ووَرِقه، واحتكر ماحمله الميزانُ من ذوات رِطْله، ووَسِعَه الكيل من ذوات وَسْقِه، فأصبحَ فقراء بلده فى ضيقٍ من عدم الرِّفق ومدد الرِّزْق، فليمنعْ هؤلاء أن يجعلوا رزق الله محتكراً، ومعاشَ عباده محتجراً، وليؤْمَروا بأنْ يتراحموا، ولا يتزاحموا، وأن يأخذ الغنى منهم بقدرِ الكَفاف، ويتركَ للفقير مايُعينه على الإسعاف، قال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : « لاحكرةَ فى سوقِنا، لا يَعْمدْ رجالٌ بأيديهم فضولٌ من أذهابٍ إلى رزقٍ من أرزاقِ الله تعالى ينزلُ بساحتنا، فيحتكرونه علينا؛ ولكن أيُّما جالبٍ جلب على عمود كبده فذلك ضيفُ عمر، فليَبِعْ كيفَ شاء الله، وليمسكْ كيف شاء الله ».

« وأما التسعيرُ فإنه وإن آثره القاطنون، وحكم به القاسطون، وقيل: إن فى ذلك للفقير تيسيرَ العسير؛ فليس لأحدٍ أن يكون يد الله فى حفظ ما رَفع، وبذلِ مامنع، فقف أنت حيث أوْقفك حكم الحق، ودعْ مايعنُّ لك من مصلحة الخلْق، ولا تكن ممَّن اتبع الرأىَ والنظر، وترك الآية والخبر،

فحكمة الله مطويّة فيما يأمر به على ألسنة رسله ، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ؛ ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ﴿ ولو كانَ مِنْ عِندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) .

« ومما نأمرك به أن تمحوَ الصغيرة كما تمحو الكبيرة ، فإنّ لَمم الذنوب كالقطر يصير مجتمعُه سيلا متدفقاً ؛ وكان أوّله قطراً متفرّقاً .

« وقد استمرّ فى الناس عوائد تهاونوا باستمرارها ، ولم ينظروا إلى ثقلِ أوزارها ، فمن ذلك لبسُ الذّهب والحرير الّذى لم يلبسْه إلاَّ مَنْ عدم عند الله خلاَقاً ؛ وإن قيل إنه شعارٌ للغنى فلم يزد صاحبُه من الحسنات إلا إملاقاً ، وللُبْسُ عباءة مع التّقوى أحسنُ فى العيون شِعاراً ، وأعظم فى الصدور وقاراً .

« ويلتحق بهذه المعصية صوغُ الذهب والفضة آنيةً يمنع منها حق الصدقات ، وهو حقٌّ يقاتَل مانعهُ ، ويُعصى فى استعمالها أمر الله وهو حدٌّ من حدوده يعاقب عاصيه ، ويثابُ طائعه .

« وكذلك يجرى الحكم فى الصور المرقومةِ فى البيوت والثِّياب ، وعلى الستور المعلقة على الأبواب ، وإخراجها فى ضُروبِ أشكال الحيوان ، للاعبة الصِّبيان ، وذلك مماثلةٌ لخاق الله فى التقدير ، ولهذا يُؤمَرُ صانعه بنفخ الروح فيما صوّره من التصوير .

« ومما يُغاظ نكيرُه إطالةُ الذيول للاجترار ، والمباهاة لما فيها من عنجهيّة التّيه والاستكبار ، ولن يخرِقَ صاحبُها الأرضَ بإعجابه ، ولا يبلغ طول

(١) سورة النساء : الآية ٨٢ .

الجبال بإطالة ثيابه[1] . قال النبي صلى الله عليـه وسلم : « إن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من جرّ ثوبه خُيَلاَء » .

« ومما هو أشد نكيرًا أمرُ الحمامات ، فإن الناس قد أصَرّوا بها على الاجهار وتركِ الاسْتِتار ، والتهاوُن بأمر العوْرَات التى لصاحبها اللعْنَةُ وله سُوء الدار .

« والنساء فى هذا المقام أشدُّ تهالـكاً من الرّجال ، وقد ابتذلن أنفسَهنّ حتى أفرطْن فى فاحشةِ الابتذال ، ولهنّ محدثاتٌ من المنكر أحدثها كثرة الإرفاهِ والإترْاف ، وأهمِل إنـكارُها حتى سَرَتْ فى الأوساط والأطراف ، وقد أحدثنَ الآن من الملابس مالم يخطر للشيطان فى حسابٍ . وتلك من لباس الشهرةِ الذى لا يَسترُ مِنهُ إسبالُ مِرْطٍ[2] ولا إدْناء جِلبابٍ .

« ومن جملتها أنهنّ يعْتَصِبن عصائب كأمثال الأسنمة ، ويخرُجْنَ من جَهارة أشكالها فى الصور المعلمة ، وقد أخبرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فيما ورَد عنه من الأخبار ، وجعل صاحبها معدوداً من زُمرة أصحابِ النار .

« ومما حِيدَ فيه عن السنن قراءة القرآن بضروب الألحان ، وتلك قراءةٌ تخرج حروفها من غير مَخْرَج ، وتبدُوا معوَجّةً وهو قرآنٌ عربىٌّ غيرُ ذى عوج ، وقد أمرَ الله بترتيله ، وإيراده على هيئة تنزيله ، فمَنْ قرأهُ بالتّرجيع والترديد ، وزلزلَ حروفه بالتّمطيط والتّمديد ، فقد ألحقه بدرجات الأغانى ، وذهب بما فيه من طلاوة الألفاظ والمعانى .

---

(1) مأخوذ من قول الله تعالى : ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » سورة الإسراء : الآية ٣٧ .

(2) المرط : بالكسر كساء من صوف أو خز وجمعه مروط .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسقِ ولحون أهل الكتابيْن وسيجيءُ بعدى قومٌ يرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوْح لايجاوزُ حناجرَهم مفتونةٌ قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » .

« ويلتحقُ بذلك اقتناء القينَاتِ المغَنِّيات اللاتى يلعبْنَ بالعقول لعبهنَّ بالأسماع ويُغْنِينَ الشيطانَ بغنائهنَّ عن بثِّ الجنود والأشياع ، وفُتيا النفس الأمارةِ فى ذلك أن تقول : هؤلاء إماءٌ يحلُّ نغمةُ سماعِهنَّ كما يحلُّ ما تحتَ قناعهنَّ ، وقد علم أنّ لكلّ شىء تماماً ، وقد ينقلبُ الحلالُ فيصيرُ حراماً . ومَن حامَ حول الحمى يوشِكُ أن يقع فيه ، قال النبى صلى الله عليه وسَلم : « لا تبيعوا القينَاتِ المغَنِّياتِ ، ولا تشتروهُنَّ ، ولا تعلِّموهنَّ ، ولا خير فى تجارةٍ فيهنّ ، وثمنهنّ حرامٌ » . وفى مثل هذا أُنزِلتْ : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يشْتَرِى لهوَ الْحَدِيثِ)[1] .

وكذلك يجرى الحكم فى المواشط اللاتى يجملن الحسن موفوراً ، والقبحَ مستوراً ، ويخدعن نظر الناظر حتّى يجعلْنهُ مسحوراً ، فهنّ يبدين صِدقاً من كذبٍ وجداً من لعب ، وَفعلهُنّ هذا من الغِشِّ الذى نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال ، إنّه ليس منه[2] ، وقد لعن الواصلة والمستوصلة ، والواشمة والمستوشمة ، والواشرة والمسْتَوْشرة[3] .

---

(١) سورة لقمان : الآية ٦

(٢) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم « من غشنا فليس منا » أو من غش أمتى فليس منى » .

(٣) الواصلة التى تصل شعرها بشعر غيرها ، والواشرة التى تحدد أسنانها ، والواشمة التى تشم يدها أو غير ذلك من أعضائها ، والمستفعل من كل هذه الأشياء من يطلبها .

« ومن غشِّ المنكرات أيضاً خضابُ الشيب الذى يخالفُ فيه الظاهر الباطن ، ويتخلّق صاحبه بخلقِ الكاذب الخائن ؛ وهَبْ أنه أخفى لون شعره وهل يخفى أخلاق لباسِه . وإذا استسنّ ملائمُ المرء . فلا يغنيه سواد عارضه ، ولا سوادُ رَاسه ، وقد جعل الله الشيب من نعمِه المبشِّرَة بطول الأعمار ، وسمّاه نوراً للوْنه وهدايته ولا تستوى الظلمات والأنوار ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : [« قَوْمٌ يخضبونَ بالسّواد كحواصل الحمام ، لا يريحونَ رائحة الجنة » . والأولى بصاحب [1]] الشيب أن يشتغل بتغيير صِيغة الكتاب [2] ويدْأبَ فى محو سواد العقاب ببياض الثواب ، فى بقيَّة عمره مندوحةٌ لادخار ما يحمدُ ذُخْرُه ، وتبديل ماتقدّم سطرُه .

« ومما خولِفت فيه السُّنة عقدُ مجالس التعازى لحضور الناس ، وإظهار شعار الأَسوَدِ والأَزرق من اللِّباس ، والتشبّه [3] بالجاهلية فى النَّوْح والندب ، ومجاوزةُ دمع العين وخشوع القلب إلى الإعلان بإسخاطِ الرّب ، وَقدْ تواطأ النساء عِلى ضرْب الخيام على القبور ، وجعل الأعياد مواسمَ لاجتماع الزائر والمزور ، فصارت المآتم بينهم ولائم والمنادبُ عندهم مآدِب ، وربّما نشأ من ذلك ما يغضُّ طرْفا ، ويجدعُ أنفاً ، ويوجب حدًّا وقذفاً ، وهكذا أهمل أمر الأسلام فى تشبُّه أهل الذِّمّة بأهْله ، وَما كانوا ليُشابِهُوهُ فى زىِّ غرّته ويخالفوه

---

(١) سقط هذا الحديث من أصول الكتاب وجميع طبعاته . وقد أكملنا الحديث الشريف ، ونقلنا الكلمتين الواردتين بعده من رسائل ابن الأثير (١٤٧) التى حررها وحققها الأستاذ أنيس المقدسى – بيروت ١٩٥٩ م .

(٢) أى محو ما كتب عليه من ذنوب بالتوبة والعمل الصالح .

(٣) فى الأصل « التشبيه » وهو تحريف ، والصواب عن رسائل ابن الأثير .

فى سلوك سُبله ، ولا بدّ من الغيار بأن يشدّ النصرانىُّ عقدةَ زنّاره ، وَيُصَفِّر اليهودى أعلى إزَاره .

« وليمنَعوا من التظاهر[1] بطغيان النِّعْمة وعلوِّ الهمة ، ويؤمَروا بالوقوفِ عند ماحكم عليهم من الأحكامِ ، وأُخذوا فيه بالاختفاء والاكتتام ، فخمورهمْ تُستَرْ ، وشعائر دينهم لا تظهر ، وموتاهم تقبر بالخمول قبل أن تقبر ، فلا يوقد خلفَ ميِّتهم مصباح ، ولا يتبعَ بندبٍ ولا صِياح .

« ومما عرف الناس مُنكرَه إثارَة التّحريش بين الحيوانات ، وهى ذوات أكبادٍ رطبة ، وأخلاقٍ صعبة ، وما منها إلا مايحلّ أكله ، ولا يحلُّ قتله ، كالكبش ، والحجلة ، والديك ، والسُّمانى ، وما أشبهها ، وقد أكثر الناس من اقتنائها ، والمواظبة عَلَى إضرام شحْنائها ، وربّما نشأ من ذلك فتنةَ تئول إلى ضِراب ، وشقِّ ثياب ، وإحداث شجاج ، وإثارَة عَجاج ، وتحزُّب إلى أحزابٍ كثيرةٍ وأفواج .

« ويتصل بهذه المنكرات المذكورة أشياء أخرى تجرى مجراها فى التقديم ، وتتنزّل منزلتها فى التحريم : فاحكم فيها بحكمك ، وامض فى شبهاتها بدليل علمك ، ونبْ عنا فى التذكير والتحذير والتعريف والتنكير ، حتى يتقوم الأود ، ويتضح الرشد ، ويمكث فى الأرض ماينفعُ ويذهب الزّبَد ، وليكنْ عملك لله الذى يسمعُ ويرَى ، وله مافى السّموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

« واعلم أن الأمر بالمعروف عبادة يتعدّى نفع صاحبها إلى غيره ، وتستضيف خير المأمور بها إلى خيره ، وهى الجهاد الأكبر الذى تقاتل فيه عواصى النفوس ،

---

(١) فى الأصل « الظاهر » وهو تحريف .

وتضربُ فيه رُءوس الشَّهوات التى هى أمنع من معاقد الرءوس ، فقتيله يحيا ، بقتله ، وجريحه يؤْسَى بجراحة نصله . وبمثل هذا الجهاد تُسْتنزل أمداد النِّعم مضعفة ، كما تستنزل أمداد النصر مردفة ، فأقدم عليه ذا عزمٍ باتر ، وطرفٍ ساهر ، وقدمٍ ثابتٍ صابر ، حتى تظلَّ لمعاقل الشيطان فاتحاً ، وتكونَ فيمن دعا إلى الله وعمل صالحاً .

« واعلم أنك فى صَبيحةِ كلِّ يوم يبتدرُكَ الملَكَ والشيطان ، وكلٌّ منهما يقول : يأيها الإنسان ، فإن أجَبْت نداء الملك كتبك فى زُمرةِ من مهّد لجنبه ، وخاف مقام ربه ، وعُرِّج بعَملك[1] إلى الله طيّباً نشْره ، مضاعفاً أجره ، وإن أجبت نداء الشيطان كتبك فى زمرة مَن أغواه ، وقرنك بمن أغفل الله قلبه واتَّبع هواه ، ثمّ نزل به إلى الأرض خبيثاً مخبثًا ، وأقبل به على إخوانه من الشياطين محدثاً .

« وهذا آخر ماعهِدْناه إليك من العهد الذى طوِّقْتَ اليوم بكتابه ، وستناقش غَداً على حسابِه ، وكما جعلناه لك فى الدنيا ذكراً فاجْعَلْه لك فى الآخرة ذخراً ، إن شاء الله تعالى ، والسّلام » .

* * *

وهذا الذى ذكرته فى هذيْن من الكتاب والتقليد يتضمَّن إطناباً ، مستوفىَ الأقسامِ ، ولولا خوف الإطالة التى لاحاجةَ إليها لأَوْرَدتُ قصائدَ من الشِّعر أيضًا ، حتى لا يخلو الموضع من ضَرْبِ أمثلةٍ من المنظومِ والمنثور ، ولكن فى الذى ذكرته كفاية لمن يحمله على أشْباهه ونظائره .

---

(١) فى الأصل « وعرج بك » ورواية رسائل ابن الأثير (١٤٨) أنسب ، ولذلك آثرناها .

فإن قيل : إنّ الأطناب فى الـكلام قد وضعتموه إسماً على غير مسّمى ، فإنّ الـكلاَمَ لايخلو من حالين : إما أن لا يزيدَ لفظه على معناه ، وهو (الإيجاز) أو يزيد لفظه على معناهُ ، وهو (التطويل) ، وليس هاهُنا قسمٌ ثالث ، فما الإطنابُ إذاً . . ؟

قلت فى الجواب : إعلم أنَّ (الإيجاز) هو ضِد (التطويل) ، كما أنّ السَّواد ضد البياض ، غير أن بين الضِّدين مراتب ومنازلَ ليست أضداداً ، فالإطنابُ لا إيجازٌ هو ولا تطويلٌ ، كما أن الحمرَةَ أو الخضرَةَ ليست بياضاً ولا سَوَاداً .

وَقد قدّمنا القولَ أنَّ الإطنابَ يأتى فى الكلام مؤكداً كالذى يأتى بزيادةِ التصوير للمعنى المقصود ، إما حقيقةً وإما مجازاً ، والتطويل ليسَ كذلك فإنه التعبير عن المعنى بلفظ زائدٍ عليه ، يفهم ذلك المعنى بدونِه . فإذا حُذفَتْ تلك الزيادَة بقى المعنى المعبّر عنه على حاله ، لم يتغيَّرْ منه شىء .

وهذا بخلاف الإطناب ، فإنه إذَا حُذفَتْ منه تلك الزيادَة المؤكدة للمعنى تغيَّر ذلك المعنى ، وزال ذلك التأكيد عنه ، وذهبَتْ فائدةُ التصوير والتخييل التى تفيدُ السَّامع مالم يكن إلّا بها .

ألا ترى إلى قوله تعالى (فإنّهَا لا تَعْمَى الأَبصَارُ وَلـكِنْ تَعْمَى القلُوبُ الّتِي فى الصُّدُور) وهذا لايسمَّى إيجازاً ، لأنه أتى فيه بزيادةِ لفظٍ ، وهو ذكر الصدور ، وقد علِمَ أنَّ القلوبَ لا تـكون إلافى الصدور ، ولا يسمى تطويلاً ، لأنّ التطويلَ لافائدةَ فيه أصلا ، وهذا فيه فائدةً ،وهى ما أشرنا إليه وَكذلكَ باقى أقسَام الإطناب التى نبّهنا عليها ، وَهذا لانزاع فيه .

محتويات القسم الثانى من كتاب
المثل السائر
في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير

المقالة الثانية

في الصناعة المعنوية توطئة في معانى الخطابة
والشعر والكتابة (٣ — ٦٩)

صفحة

صفحة

صفحة

النـــوع الثانى

فى التشبيه (١١٥ — ١٥٨)

صفحة

النـــــوع الثالث

في التجريد (١٥٩ ــ ١٦٧)

النـــــوع الرابع

في الالتفات (١٦٧ ــ ١٨٦)

النوع الخامس

في توكيد الضميرين (١٨٦ ــ ١٩٣)

صفحة

صفحة

النــــوع الثالث عشر

في عكس الظاهر (٢٤٨ ــ ٢٥٠)

النــوع الرابع عشر

في الاستدراج (٢٥٠ ــ ٢٥٥)

النــوع الخامس عشر

في الإيجاز (٢٥٥ ــ ٣٤١)

صفحة

صفحة

النـــوع السادس عشر

فى الإطناب (٣٤١ — ٣٨٣)

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٦٤٩